المسيح الموعود عليه السلام

من طور الغيبة إلى طور الظهور

الشيخ حسن العالي

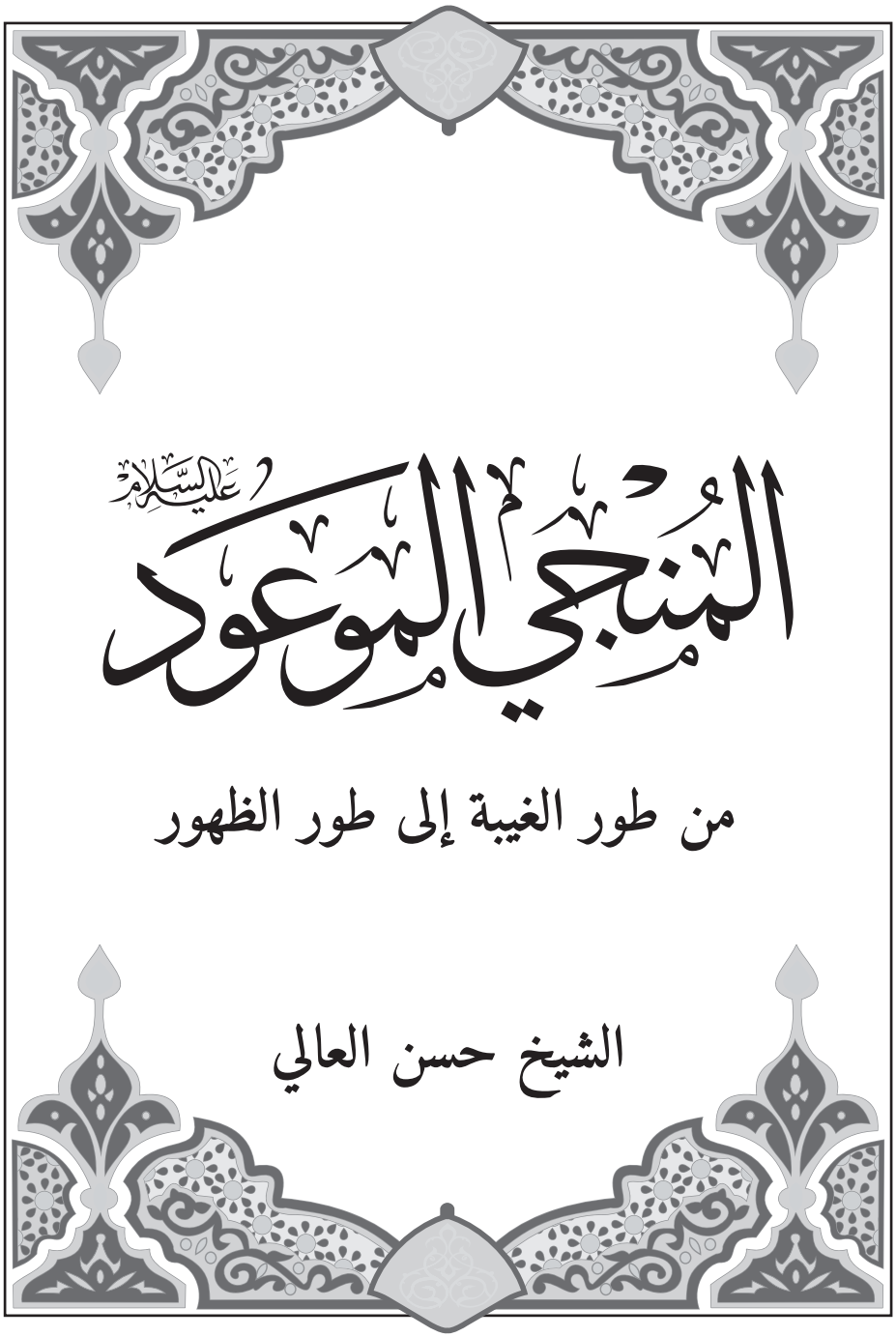

المُنجي الموعود عليه السلام

من طور الغيبة إلى طور الظهور

الشيخ حسن العالي

المُنجي الموعود عليه السلام

من طور الغيبة إلى طور الظهور

كل الحقوق محفوظة

هوية الكتاب:

اسم الكتاب: المنجي الموعود من طور الغيبة إلى طور الظهور.

المؤلف: الشيخ حسن العالي.

الطبعة: الأولى ١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م.

الاخراج الفني: مؤسسة بحرين غدير المعارف للنشر والتوزيع.

مؤسسة بحرين غدير المعارف للنشر والتوزيع

bahrainghadeeralmaarif@gmail.com +973 33 63 63 01

مملكة البحرين – مدينة سلماباد +973 33 63 63 01

من دعاء الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين..

عدد ما في علمك صلاة دائمة بدوام ملك..

اللّهُمَّ.. وَصَلِّ عَلى وَلِيِّ أَمْرِكِ القائِمِ المُؤَمَّلِ وَالعَدْلِ المُنْتَظَرِ وَحُفَّهُ بِمَلائِكَتِكَ المُقَرَّبِينَ وَأَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ يا رَبَّ العالَمِينَ..

اللّهُمَّ.. اجْعَلْهُ الدَّاعِيَ إِلى كِتابِكَ وَالقائِمَ بِدِينِكَ اسْتَخْلِفْهُ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ مَكِّنْ لَهُ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لَهُ أَبْدِلْهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِ أَمْنا يَعْبُدُكَ لا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئاً..

اللّهُمَّ.. أَعِزَّهُ وَأَعْزِزْ بِهِ وَانْصُرْهُ وَانْتَصِرْ بِهِ وَانْصُرْهُ نَصْراً عَزِيزاً وَافْتَحْ لَهُ فَتْحاً يَسِيراً وَاجْعَلْ لَهُ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً..

اللّهُمَّ.. أَظْهِرْ بِهِ دِينَكَ وَسُنَّةَ نَبِيِّكَ حَتَّى لا يَسْتَخْفِي بِشَيْ مِنَ الحَقِّ مَخافَةَ أَحَدٍ مِنَ الخَلْقِ..

اللّهُمَّ.. إِنا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ تُعِزُّ بِها الإِسْلامَ وَأَهْلَهُ وَتُذِلُّ بِها النِّفاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنا فِيها مِنَ الدُّعاةِ إِلى طاعَتِكَ وَالقادَةِ إِلى سَبِيلِكَ وَتَرْزُقُنا بِها كَرامَةَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ.

اللّهُمَّ.. ما عَرَّفْتَنا مِنَ الحَقِّ فَحَمِّلْناهُ وَما قَصُرْنا عَنْهُ فَبَلِّغْناهُ..

اللّهُمَّ.. أَلُمَّ بِهِ شَعْثَنا وَأَشْعَبْ بِهِ صَدْعَنا وَأَرْتِقْ بِهِ فَتْقَنا وَكَثِّرْ بِهِ قِلَّتَنا وَأَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنا وَأَغْنِ بِهِ عائِلَنا وَأَقْضِ بِهِ عَنْ مُغْرَمِنا وَاجْبُرْ بِهِ فَقْرَنا وَسُدَّ بِهِ خَلَّتَنا وَيَسِّرْ بِهِ عُسْرَنا وَبَيِّضْ بِهِ وُجوهَنا وَفُكَّ بِهِ أَسْرَنا وَانْجِحْ بِهِ طَلَبَتِنَا وَأَنْجِزْ بِهِ مَواعِيدَنا وَاسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنا وَاعْطِنا بِهِ سُؤْلَنا وَبَلِّغْنا بِهِ مِنَ الدُّنْيا وَالآخرةِ آمالَنا وَاعْطِنا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنا.

يا خَيْرَ المَسْؤُولِينَ وَأَوْسَعَ المُعْطِينَ اشْفِ بِهِ صُدُورَنا وَأَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلُوبِنا وَاهْدِنا بِهِ لِما اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَانْصُرْنا بِهِ عَلى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنا إِلهَ الحَقِّ آمِينَ.

اللّهُمَّ.. إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنا صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَغَيْبَةَ وَلِيِّنا وَكَثْرَةَ عَدُوِّنا وَقِلَّةَ عَدَدِنا وَشِدَّةَ الفِتَنِ بِنا وَتَظاهُرَ الزَّمانِ عَلَيْنا، فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَأَعِنّا عَلى ذلِكَ بِفَتْحٍ مِنْكَ تُعَجِّلُهُ وَبِضُرٍ تَكْشِفُهُ وَنَصْرٍ تُعِزُّهُ وَسُلْطانِ حَقٍّ تُظْهِرُهُ وَرَحْمَةٍ مِنْكَ تُجَلِّلُناها وَعافِيَةٍ مِنْكَ تُلْبِسُناها بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ..

مقدمة المؤلف

يضم هذا الكتاب مجموعة من المباحث الكلامية المهمة في مسائل الإمامة والغيبة، محاولةً منّا توضيح جهات معرفية وحلحلة شبهات عصرية تتعلق بدولة الموعود عليه السلام من زمن الغيبة وإلى أوان الظهور وما بعد الظهور.

ومن طبيعة هذه البحوث، أنه كلما تخيل الباحث إحاطته بمسائلها واستيعابه لفروعها استبان واستيقن أنه لا يزال على شواطئ بحور البحث وفي أول خطواته.

ولو أردنا أن نعطي تصوّرًا عن هوية المباحث المهدوية ومسائل الدولة الموعودة بعد ما تعرفنا على نزر يسير من معارفها لأمكننا القول:

١- تشتمل بحوث المهدوية على موضوعات ومسائل شيّقة ورشيقة، فيها طراوة وعليها حلاوة قلما يتذوق الباحث نظيرًا لها في غيرها من البحوث والمسائل.

٢- إن الموضوعات المهدوية محيط أعظم وبحر خضم لا ساحل له، وكلما انفتح منها باب تفرعت منه أبواب معرفية وشؤون كلامية لا تحصى كثرةً.

ومن طبيعتها الخلّاقة أنها توظف الشبهات والمغالطات المثارة لفتح آفاق من الدلالات والمعاني والإشراقات للباحثين بجدّ وموضوعية.

٣- تبيّن من هذه المباحث أنه لا أمن ولا أمان من الناحية العقدية لمذهب أو لدين يعزف عن مدارسة مشروع المنجي عليه السلام، ولا يدرج عقيدة الدولة المهدوية ضمن سلسلة اعتقاداته ومتبنياته.

٤- إن المعايشة الحقيقية للإمام الموعود عليه السلام تكون بكثرة المدارسة للمسائل المرتبطة بدولته وعلى أوسع نطاق بحثي وإلى أعمق مدى، وهذه من أهم النتائج التي أفرزتها هذه المباحث.

٥- سيتبين للقارئ الكريم بمطالعاته النقدية والفاحصة في هذه المباحث أن الاختلاف في المهدي عليه السلام والمهدوية ليس مقتصرًا على دائرة المذاهب والأديان المتعددة، بل للمهدوية صور ولوحات مختلفة وضوحًا وقتامةً وسطحية وعمقًا حتى لدى أبناء المذهب الواحد.

ويفرض تلك اللوحات المتعددة مدى سعة الاشتغال بالمسائل المهدوية.

فمن ينفق عمره وجهده في أبحاثها تتجلى له صور ولوحات معرفية لا يمكن أن يعايشها من يلاحظ هذه المباحث بصورة مقتضبة ومرتجلة.

كما أن درجات الارتباط بالمهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف تتفاوت تبعًا لنحو المطالعة والمدارسة لمسائل المهدوية.

وبكلمة مختصرة؛

إن نتائج هذه البحوث وإشراقاتها على الواقع رهن الاشتغال بها بلا هوادة وملاحقتها بلا فتور.

وأملي أن يجد القارئ الكريم لذة معرفية طافحة وهو يقرأ سطور هذا الكتاب.

كما أسأل الله تعالى أن يساهم هذا الجهد في تشويق الموالين وعموم الباحثين للاستزادة من غمار بحور معارف الدولة المهدوية الموعودة.

ملاحظة:

يهدي ثواب الانتفاع بهذا الكتاب لروحي المرحومين الوجيه السيد موسى السيد جعفر العلوي وحرمه الحاجة حياة عبدالرضا العصفور رحمهما الله ونفعهما بثواب هذه المعارف يوم لا ينفع مال ولا بنون..

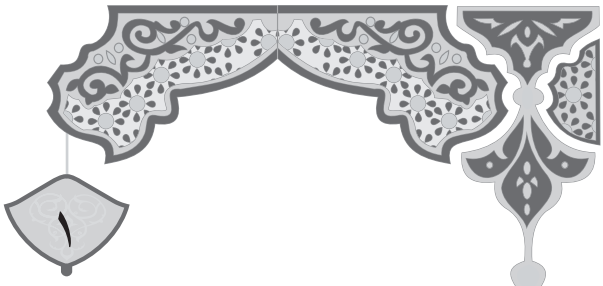

١

الفصل الأول

مباحث تمهيدية

- التمهيد الأول: سنة الاستبدال في المواقع المعنوية
- التمهيد الثاني: الأمن العقائدي في عصر الغيبة
- التمهيد الثالث: القيام الفعلي للحجة عليه السلام
- التمهيد الرابع: تساؤلات حول الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف

تمهيد (١)

سنة الاستبدال في المواقع المعنوية

سنة الاستبدال في المواقع المعنوية

قال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يكونوا أمثالكم**﴾[1].

وقال الإمام السجاد عليه السلام في دعاء عرفة: (ولَا تَجْعَلْنِي عِظَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، ولَا نَكَالًا لِمَنِ اعْتَبَرَ، ولَا فِتْنَةً لِمَنْ نَظَرَ، ولَا تَمْكُرْ بِي فِيمَنْ تَمْكُرُ بِه، ولَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي)[2].

يدور البحث حول سنة الاستبدال في المواقع الروحية، وأثر التغريب الفكري في الاستبدال المعنوي.

*** مقدمة**

بعد تعاظم حملات ترويج الشبهات الباطلة والمغالطات الماكرة، كثر بين المسلمين فئات تتبنى الاعتقادات الفاسدة والآراء الفكرية الكاسدة في كثير من مسائل الدين.

وتحت ستار شعار الحرية الفكرية أباح كثير -من المتنورين والمتأثرين بهم- لأنفسهم ابداء الآراء والاعتقادات الشخصية اتجاه مختلف قضايا الدين.

ومن أبرز الأمثلة تصدي فئات من الشباب لتدبر القرآن وتفسيره مع خلوهم عن أدوات التفسير ولوازمه.

١- محمد/ ٢٣.

٢- الصحيفة السجادية (دعاء عرفة).

ومن حقنا هنا أن نتساءل عن رأي أهل الاختصاص ورواد العلوم في حدود وضوابط إبداء الآراء في قضايا الفكر والعقيدة وسائر الفنون.

فهل باب تبني الآراء مفتوح لكل أحد بلا موازين؟

نمهد في البدء بذكر ثلاث كلمات صدرت من ثلاثة من رواد العلوم، وفيها كفاية لصد المتجرئين على العلوم والذين لا حريجة لهم في تبني العقائد الخاصة مع عدم وضوح قواعد ومسائل الدين لديهم.

فثمة كلمات قيمة صدرت عن عظماء العلوم، وكانت تلك الكلمات حصائل تجاربهم العلمية وتبحرهم في العلوم التي اختصوا بها.

*الكلمة الأولى

قول النظام: (العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، فاذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه لك البعض على خطر)[1].

فإذا كان من يعطي العلم كله جدًا واجتهادًا وغوصًا وتبحرًا على خطر فيما يستنتجه ويفهمه، فأي خطر سيحدق بالمتطفلين على العلوم وأدعياء الثقافة، والحال أنهم لم يعطوا العلم كلهم ولا بعضهم، بل اكتفوا بالرتوش والقشور وسطوح ظاهر تلك العلوم!

وإذا كان المسخر حياته للعلم على خطر، فما ظنك بمن يرسم خارطة عقائده بنصب نفسه إماما على نفسه على قاعدة الجهل والتطفل العلمي!

إن هذه النماذج قد تجاوزت حدود الخطر إلى الوقوع في داهية عظيمة وانتكاسة سحيقة.

١- تاريخ بغداد ٦، الخطيب البغدادي ٦٢٣.

*الكلمة الثانية

نُقل عن بعض رواد العلم أنه قال: (إن دراسة نصف مراحل العلم في العلوم العقلية والفلسفية يُفضي إلى الانحراف وتبني الآراء الشاذة، إذ تتوقف الحصائل الصحيحة من تلك العلوم على الإحاطة الكلية بمسائلها وقواعدها).

فإذا كان نصف العلم في العلوم العقلية والفلسفية مظنة المتاهة والغواية، فما هو نتيجة الارتكاز على ألف باء العلم! وهو حال بعض المثقفين الذين يبيحون لأنفسهم تبني الأحكام العلمية وحق إسقاط فكرة وإثبات أخرى!!

*الكلمة الثالثة

قال السيد الميلاني: (قاعدة كلية: من أراد البحث في الأمور الدينية وخاصة المطالب التي تتصف بالغيبية يجب أن يتوافر فيه وصفان: العلم والتقوى..

فليست المسائل الاعتقادية خاضعة لآراء الأشخاص.. بل لا بد من النظر في أدلة المسائل الاعتقادية لغرض الوصول إلى نتيجة صحيحة)[1].

وحذّر من أخذ الاستنتاجات العقائدية من عالم متجرد عن التقوى والاحتياط العلمي، لأن مآل ذلك إلى الضلال والإضلال في العقائد الكبرى.

هذه بعض كلمات رواد العلوم، وهي ترسم الحدود وتشترط الموازين، وبالتالي تغلق الباب في وجه المتطفلين على العلوم، وتحرم عليهم إبداء الآراء وتبني الأفكار بلا مؤهلات ولا ضوابط.

وقد زاد بعضهم على تلك الضوابط وبالغ كثيرًا.

١- مع الأئمة الأطهار في شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، السيد علي الحسيني الميلاني٣/ ٢٦٠و٢٦١.

فقال أحدهم: (لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته).

وهذا كله وإن كان فيه مبالغة، إلا أن المقصود به ضرورة تفرّغ القلب والفكر بشكل كامل في طلب العلم.

ومما نُقل عن الشافعي أنه قال: (لو كلفت شراء بصلة لما فهمت مسألة)[1].

* نتائج مهمة

والآن نتساءل؛ ما هي النتائج العلمية التي ستُجنى من تصدي المثقف القاصر عن الإحاطة الفكرية والخاوي عن التقوى العلمية، إذا ما أبدى نظره في التفسير والعقائد والأخلاق والفقه؟

لا شك أن تصدي الجاهل سيؤدي إلى توسع الضلال في مختلف الحقول، وهو ما حصل بوضوح في السنوات الأخيرة.

فلو سألت؛ لم انتشر الإلحاد في بعض الأوساط؟

وما هو سبب إنكار بعض أبنائنا لعصمة الأنبياء والأئمة عليهم السلام؟

ولم يتشنج البعض اتجاه العقائد الغيبية، كعقيدتي الرجعة والتوسل؟

إن المنحرفين في تلك المسائل لم يعطوا العلم والمعرفة حقهما من التفرغ، ولم يأخذوها من أهلها، ولم يتوفروا على شرط التقوى (الاحتياط في العلم) والمعرفة.

لذا أجاد بعض الكتاب الغربيين المعاصرين وهو (ادوارد سي فيزر)، الذي تحول من الإلحاد إلى الإيمان، ومن هيمنة فلسفة مادية إلى الاعتقاد بالفلسفة

١- منية المريد، الشهيد الثاني/ ٢٢٨.

الكونية الإلهية، حيث ألف كتاباً تحت عنوان: (**الخرافة الأخيرة**) وكشف أن رموز الإلحاد الجديد قاموا باصطناع ملة خرافية.

ومبرره في حدة كلامه ضد رموز الإلحاد مدى التضليل الذي مارسه أصحاب تلك الخرافة للفكر البشري.

والعجيب أن يتهم الانهزاميون من المحاضرين أهل الدين - من الحوزويين والمنبريين – بأنهم من أسباب الإلحاد، لترويجهم الخرافة!

وكأن الإلحاد علم فرّ إليه بعض الشباب هرباً من الخرافة والجهل!!

والحال أن اللغة الهجومية للكتاب الغربيين –الذين اكتشفوا الحقيقة– تصف الإلحاد الجديد بأنه آخر خرافة وأكذوبة.

وإذا أردنا أن نتثبت من أثر عدم الإحاطة بالعلم في تولد الضلال وتوسع الانحراف، فلنقرأ واحدة من غرر كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وهي قوله:

(إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالا على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان)[1].

فيشير عليه السلام إلى أن المولد للفتن العقائدية اتباع أهواء الفكر.

ويعبر عنها في اللغة المعاصرة بالقراءة الشخصية للدين بعقل خالٍ من البراهين والمعلومات اللازمة، وبذلك يكون الحكم حكم الهوى لا حكم العقل المستنير بالعلوم.

١- نهج البلاغة ت الحسون، السيد الشريف الرضي١/ ١١٠.

*أثر الأفكار الخاطئة في الاستبدال

إن الخطاب التوعوي الذي ينبغي أن يوجه لأصحاب الأفكار والمباني الضالة لأجل تنبيههم على خطورة المتبنيات والآراء على أنحاء مختلفة:

١ - فمرة نكتفي بالتحذير من الشذوذ الفكري عن حدود الدين وأطر المذهب.

٢ - ومرة نصعد درجة فنقول: إن اقتناء الأفكار المنحرفة ليس مجرد خزن لفكرة ما في العقل، وإنما يمثل نقلة نوعية من منهج إلى منهج ومن موقع ديني عال إلى موقع معنوي هابط تكوينيًا، وإن كان المتحولون من موقع إلى موقع غير ملتفتين ولا شاعرين بذلك.

إذ لا يشك أحد أن الخطأ في معلومة رياضية ما يولد الخطأ في فهم كل المسألة، وأن الخطأ الجراحي العميق على صعيد طبابة الأبدان يكلف الحياة.

كما أن الخطأ على صعيد التكنولوجيا والتصنيع الحربي قد يسبب انفجاراً هائلاً ودماراً شاملاً.

لكن كثيرا من الناس يجهل أن الخطأ العقائدي يولد قلب الموازين وتحويل موقع الذات من حال إلى حال في المعنى والحقيقة، وهو الذي نسميه بالاستبدال.

*إطلالة على مصطلحي الأبدال والاستبدال

لإيضاح مصطلح (الاستبدال) نأخذ إطلالة معرفية على مصطلح (الأبدال) الذي كثر تناوله في الكتب الدينية ووصف به الكثير من رجالات التاريخ في معرض المدح.

فقال بعض: إن هذا المصطلح أموي وأن حديث (الأبدال في الشام) موضوع لتأييد تلك الخلافة التاريخية.

غير أن هذا المصطلح ورد في الأحاديث والأدعية، وتفسيره بمعناه الصحيح ورد في كتاب الاحتجاج عن الإمام الرضا عليه السلام.

فعن الخالد بن الهيثم الفارسي قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إن الناس يزعمون أن في الأرض أبدالا، فمن هؤلاء الأبدال؟

قال: (صدقوا، الأبدال الأوصياء، جعلهم الله عز وجل في الأرض بدل الأنبياء، إذ رفع الأنبياء وختم بمحمد صلى الله عليه وآله)[١].

قال صاحب البحار بيان:

ظاهر الدعاء المروي من أم داود عن الصادق عليه السلام في النصف من رجب حيث قال: (اللهم صل على محمد وآل محمد، وارحم محمدا وآل محمد، وبارك على محمد وآل محمد، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم صل على الأوصياء والسعداء والشهداء وأئمة الهدى، اللهم صل على الأبدال والأوتاد والسياح والعباد والمخلصين والزهاد وأهل الجد والاجتهاد)[٢].

يدل على مغايرة الأبدال للأئمة عليهم السلام، لكن ليس بصريح فيها، فيمكن حمله على التأكيد.

ويحتمل أن يكون المراد به في الدعاء خواص أصحاب الأئمة عليهم السلام، والظاهر من الخبر نفي ما تفتريه الصوفية من العامة، كما لا يخفى على المتتبع العارف بمقاصدهم عليهم السلام)[٣].

١- الاحتجاج٢، الطبرسي / ٢٣١.
٢- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٨٠٩.
٣- بحار الأنوار٢٧، المجلسي/ ٤٨.

وقد سمي الأبدال بالأبدال لأنهم يُستبدلون بالموت، فكلما قضى الموت على شخص منهم وفق الله تعالى آخر ليحل محله في عمارة الأرض وتثبيت دعائمها.

وإذا عرفت معنى (الأبدال) يتضح الفرق بينه وبين (الإبدال).

والإبدال والاستبدال عملية نوعية تجري حال الحياة، أي مع وجود الشخص وعدم قضاء الموت عليه يُستبدل بآخر في الموقع والمقام.

وهذا ما سميناه بالاستبدال، وهو أن يرغب بعض في العمى والانحراف عن الهدى والهداية فيُستبدل به غيره.

فالمستبدل في الحياة هو الراجع من الفضائل إلى الرذائل ومن القيم والمبادئ إلى التحلل والانحراف، ومن العقائد الحقة إلى العقائد الفاسدة.

قال تعالى: ﴿**إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾[١].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يكونوا أمثالكم**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٤].

١- التوبة/ ٣٩.
٢- محمد/ ٣٨.
٣- المائدة/ ٥٤.
٤- فصلت/ ١٧.

*التدليس في تصوير اعتراض إبليس

والغريب قول بعض المحاضرين:

(عارض إبليس فعل الله فقال: ﴿**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[١]، والمعنى أنت جعلت مشروعك الإلهي في هذا الإنسان وأنا سأقوم بتخريب ذلك المشروع.

وهذه معارضة رسمية لله، والله لم يعاقبه بالسجن ولم يبده ولم يعدمه، وبيد الله تعالى حياة وموت إبليس ولم يحكم عليه بالموت.

ولذلك فإقصاء أهل الأفكار ابتعاد عن منطق القرآن.

والمعارضة مقبولة في الحكمة الإلهية، وكان الله يقول لإبليس وماذا تريد؟

قال: ﴿**أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[٢]، فقال: ﴿**إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ**﴾[٣]). انتهى كلامه بنصه.

أقول: إن الخطأ يلف كلام ذلك المحاضر برمته، فإن مجرد السؤال حول فعل المعصوم فضلا عن فعل الله هبوط في المنزلة، وأما المعارضة كمعارضة إبليس فقد ولدت الطرد عن الرحمة والهبوط عن المقام المعنوي بالمرة.

والطرد عن الملكوت أعظم سجن وأقسى عقوبة.

فقد كانت معارضته في الملكوت، وكان عقابها الشديد نزع المكانة والخصيصة الملكوتية وهي أكبر عقوبة.

١- الاعراف/ ١٢.
٢- الاعراف/ ١٤.
٣- الاعراف/ ١٥.

فلو رجعنا إلى منطوق القرآن الذي أخفاه المتكلم وحجبه في كلامه لألفينا قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾[1].

فبدل السجن نفي عن الملكوت، ورجم بالكواكب حتى لا يقترب منه، ولعن باللعن الإلهي الأبدي.

فالاعتراض على الله أو المعصوم معصية ثقيلة وبالغة وليست حرية رأي، فلا محل للاعتبارات كما صوره المتكلم، بل عقابه الاستبدال في المواقع.

*بلعم بن باعورا مثالا

وبلعم بن باعورا أحد مصاديق المستبدلين من الموقع المعنوي العلوي إلى الموقع الدوني، بعد أن انسلخ عن آيات الله، وأخلد إلى الأرض، واتبع الشهوات والنزعات.

فقال تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[2].

وكل من ينسلخ عن آيات الله – الأفكار والعقائد والتعاليم السماوية – يكون مصداقًا من مصاديق المستبدلين الذين استحبوا الغواية بعد الهداية والبصيرة.

فليحذر أهل التشكيك المنفعلون بالأفكار الفاسدة من الإقامة عليها، ولا يحسبوا أن عملية اصطناع الفكرة والعقيدة ورفض الأحاديث وما نُقل عن

١- الاعراف/ ١٥.

٢- الأعراف/ ١٧٥.

المعصومين عليهم السلام هو مجرد تحرر وتألق في الأفكار، بل هو من حالات الرغبة عن الدين واستحباب الغواية.

وسمعت من أحد أعلام العلماء وهو يصف زمان أهل الأفكار الدخيلة بأنه عصر الاستبدال وعصر انهيار المواقع المعنوية.

وقد رُكّز في الروايات على وصف آخر الزمان لتبدل الأفكار والعقائد حيث يخرج فئات عن أمر أهل البيت عليهم السلام، ويدخل فيه من لم يكن فيه.

فعن أبي جعفر عليه السلام قال: (لتمحصن يا معشر الشيعة ... فيُصبح أحدكم وهو يُرى أنه على شريعة من أمرنا فيمسي وقد خرج منها، ويمسي وهو على شريعة من أمرنا فيصبح وقد خرج منها)[1].

وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام: (يوم الأبدال - يخرج أناس كانوا مع السفياني من شيعة آل محمد، ويخرج ناس كانوا مع آل محمد إلى السفياني، فهم من شيعته حتى يلحقوا بهم، ويخرج كل أناس إلى رايتهم، وهو يوم الأبدال)[2].

وما عليه الآن بعض الشباب من الجرأة في الإشكال على العقائد الأصيلة وإحياء الشعائر الحسينية هو تحقق لملاحم تلك الروايات الناصة على وقوع الاستبدال في الشرائع والمناهج والأفكار، فهم مصداق قوله تعالى: ﴿**قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾[3].

فلقد وصل بعضهم في مستوى الحيرة والارتباك الفكري إلى تسمية استحباب الغواية بالتنوير، وعنونة التراجع عن الموروث الروائي - الذي لم يُفهم على حقيقته - بالتحقيق، ووصف التيه العلمي بالتحرر.

١- الغيبة، الطوسي/ ٣٤٠.
٢- العياشي١/ ٦٦.
٣- البقرة/ ٦١.

*تصنيف القرآن للبشر

ويمكن أن نصنف الناس بحسب منطق القرآن إلى:

١ - فئة تتصاعد للكمال بلا توقف، فهم مصداق قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾[١].

وبعض من هذه الفئة إذا ما ابتلى بالهبوط لوقوع بعض المخالفات استأنف مسار الصعود والتكامل، فكان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**﴾[٢].

٢ - وفئة استحبوا العمى على الهدى، فهم مصداق قوله تعالى: ﴿**فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٣].

٣- فئة أخلدت إلى الأرض، وإليها أشير في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾[٤].

وكثير من الناس قد استحب العمى وأخلد إلى الشهوات وانتقل من كونه حاملاً للآيات والأفكار الحقة والعقائد المبرهنة إلى مروج تائه للأفكار الضلالية.

وتؤكد الآيات على أن تردي وهبوط فئة من الناس عن الكمال والموقع المعنوي ليس حاصلًا من الوقوع اللا إرادي، بل بفعل السير نحو الانحدار وتغيير العقائد بفعل الميل الإرادي والهبوط الاختياري.

١- محمد/ ١٧.
٢- التحريم/ ٨.
٣- فصلت/ ١٧.
٤- الاعراف/ ١٧٦

وهذا ينطبق على من غير هويته الثقافية وصار في موقع المهاجم لما هو ديني أو ما هو حسيني، إذ إن المتلبس بهوية فكرية فاسدة والمنظر لها هو ممن استحب العمى على الهدى.

وهنا يصدح القرآن وروايات الأئمة عليهم السلام بسنة إلهية مفادها ثبات مسار الدين والحق كمنظومة عن الانهيار، وتحقق الانهيار والاستبدال في حملة الدين، ويشهد له قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا**﴾[1].

فبحكم تلك السنة القرآنية لن يتراجع مسار الإحياء والبكاء في المآتم الحسينية، ولن تخبو مسيرة العزاء بتأثر البعض بأفكار وتسويلات شيطانية، وإنما سيُستبدلون بغيرهم من أهل الولاء والإيمان.

فالفرد هو الذي يتراجع، أو يتقهقر، أو ينحرف، أو يخبو، أو يهبط، ولكن مسيرة الإيمان ونور العقيدة وحياة الولاية باقية، وبتراجع الفرد وانحرافه وانتقاله يقيض الله غيره ليحمل الراية ويرفع الشعار.

* سنة الاستبدال في أدعية المعصومين عليهم السلام

تتولد فتنة الضلالة من منشأين:

الأول: الأفكار المنحرفة (فتنة العقول).

الثاني: الذنوب والخطايا (فتنة النفوس).

وقد استهدف الائمة عليهم السلام في نصوصهم وأدعيتهم -كالصحيفة السجادية- اقتلاع أسباب الفتن وموجبات الاستبدال من وجود الأمة.

١- آل عمران/ ١٧٦.

فالتأكيد على العقائد الحق في تلك الأدعية، والتنفير فيها من ظاهرة الذنب والعصيان هو إنهاض للعقيدة والقيم في الأمة حتى لا تُستبدل من موقع الكمال إلى موقع الهبوط.

من هنا كثر التركيز في تلك الصحيفة العظيمة على الدعاء بعدم الاستبدال.

قال الإمام السجاد عليه السلام في دعاء عرفة: (ولَا تَجْعَلْنِي عِظَةً لِمَنِ اتَّعَظَ، ولَا نَكَالًا لِمَنِ اعْتَبَرَ، ولَا فِتْنَةً لِمَنْ نَظَرَ، ولَا تَمْكُرْ بِي فِيمَنْ تَمْكُرُ بِه، ولَا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي)[1].

وقال عليه السلام في دعاء له: (ولا تستبدل بنا غيرنا، فإن استبدالك بنا غيرنا عليك يسير وعلينا عسير)[2].

وفي الكافي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: (قل اللهم أوسع علي في رزقي وامدد لي في عمري واغفر لي ذنبي واجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري)[3].

وفيه عن أبي عبدالله عليه السلام في الدعاء في شهر رمضان في كل ليلة تقول: (اللهم إني أسألك فيما تقضي وتقدر من الأمر المحتوم في الأمر الحكيم من القضاء الذي لا يرد ولا يبدل أن تكتبني من حجاج بيتك الحرام المبرور حجهم، المكفر عنهم سيئاتهم المغفور ذنوبهم المشكور سعيهم وأن تجعل فيما تقضي وتقدر من الأمر المحتوم في الأمر الحكيم في ليلة القدر من القضاء الذي لا يرد ولا يبدل أن تطيل

١- الصحيفة السجادية (ابطحي) الامام زين العابدين/ ٣٣٠.
٢- الصحيفة السجادية (ابطحي) الامام زين العابدين/ ٢٤٨.
٣- الكافي٢، الكليني/ ٥٨٩.

عمري وأن توسع علي في رزقي وأن تجعلني ممن تنتصر به لدينك ولا تستبدل بي غيري)[١].

قال المازندراني:

(ولا تستبدل بي غيري) أي لا تمح اسمي في المنتصرين ولا تثبت غيري بدلا منّي والغرض منه طلب التوفيق للثبات على الامتثال وعدم التولّي عنه لئلاّ يكون مصداقاً لقوله: (وإن تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لا يكونوا أمثالكم)[٢].

ولقد صدرت تلك الصحيفة السجادية العظيمة بعد ابتلاء كثير من أفراد الأمة بظاهرة الاستبدال، لأنها الأمة التي صنعت مأساة كربلاء بكل تفاصيلها الشنيعة وجرائمها الفظيعة، فكانت أدعيتها توجيهًا للأمة بعد الهبوط السحيق والانتكاسة العميقة.

فلنجعل دعاء (ولا تستبدل بي غيري) شعارًا في حياتنا ماثلًا أمام أعيننا حتى لا نفقد مواقعنا المعنوية وتستدرجنا الأفكار والشهوات إلى مسار الهبوط والانحدار.

وقد تسأل؛ ما هو أكبر الضمانات لعدم الاستبدال والهبوط من المواقع العالية إلى الحضيض الأدنى معنويًا وعقائديًا؟

إن أكبر ضمانة بينت في توجيهات أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: (شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة)[٣].

١- الكافي٤، الكليني/ ١٦١.

٢- شرح أصول الكافي١٠، المازندراني / ٤٨٨.

٣- نهج البلاغة، خطب الإمام علي (تحقيق صالح)/ ٥٢.

فثمة أمواج متلاطمة لفتن الأفكار والشهوات، وسفن محصنة يتأتى بالركوب فيها النجاح والنجاة.

وقد شخصها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله في قوله: (مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح في قوم نوح من ركب فيها نجا ومن تخلف عنها هلك)[١].

وقوله صلى الله عليه وآله: (إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة)[٢].

وبهذا تتفطن لسر التركيز على التبعية الفكرية والعملية لأهل البيت عليهم السلام، وسر تأكيد الأئمة عليهم السلام وبالأخص السجاد عليه السلام في كل حياته على الحسين عليه السلام ومأساة كربلاء.

إذ لا أعظم في الوسيلة من الإبحار بالأمة بسفينة النجاة ومصباح الهدى في أمواج الفتن وبحار الضلال.

والمحصلة: إن محذور الاستبدال وإن كان هاجسا ملازما للأمة في كل المراحل والمحطات إلا أنه يزداد في عصر الفترة والغيبة حيث الإمامة الغائبة وتكاتف مشاريع التغريب والضلال على الأمة.

فالأمة الآن أكثر حاجة لطرق هذا الموضوع ودق ناقوس الخطر باستمرار.

ومنه تنشأ الحاجة الملحة لمراجعة المسائل المهدوية، ودفع الشبهات والإشكاليات عنها، وفتح آفاق البصيرة فيها.

١- الغيبة، ابن أبي زينب النعماني/ ٥١.
٢- عيون أخبار الرضا٢، الصدوق/ ٦٢.

تمهيد (٢)

الأمن العقائدي في عصر الغيبة

الأمن العقائدي في عصر الغيبة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[1].

***تمهيد**

تشير الآية إلى مقومين عظيمين من مقومات وجود الحياة وهما الأمانة والعدل.

وأشار أحد كبار المفسرين إلى أن الآية ناظرة إلى أهم عناصر بناء الحضارة والمدينة الفاضلة.

فلو ارتفع أحد هذين المقومين لانقطع طريق المسير إلى بناء الحضارة.

وظاهر منطوق الآية متناسب جدا مع الروايات العقدية المفسرة للآية، فقد ورد في روايات كثيرة أن هذه الآية نازلة بالخصوص في الإمامة والعدالة التي ترسى بشرطية وجود الإمام.

فالأمانة هي الإمامة ويجب أن تنتقل من إمام إلى آخر، فلا يخلو عصر ولا زمان منها، والعدالة هي أداة الإمام وسمته في الملك والحكم.

ومن لطائف إشارات الآية الكريمة أن الإمام والإمامة شرط تفعيل وفاعلية العدالة في البشر، وذلك لأنه تعالى اختار للإمامة عنوان الأمانة، أي ما يتحقق

١- سورة النساء/ ٥٨.

به الأمن والسكون الاجتماعي ويرتفع به الوحشة والخوف عن محيط العلاقات الاجتماعية.

فتسمية الإمامة بالأمانة التي تعني السكون والاطمئنان إشارة لطيفة إلى أن تحقيق العدالة التي بها يكون السكون منوطًا بوجود الإمامة.

وبحسب الرواية التي أخرجها النعماني في الغيبة استدل الإمام عليه السلام لزرارة من الآية على انطباق الأمانة على الإمامة انطباقا أوليا.

فعن زرارة أنه قال سألت أبا جعفر عليه السلام: عن قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾.

قال: أمر الله الإمام منا أن يؤدي الإمامة إلى الإمام بعده، ليس له أن يزويها عنه، ألا تسمع إلى قوله: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ**﴾؟ إنهم الحكام، أو لا ترى أنه خاطب بها الحكام ؟﴾[1].

فكأن الإمام عليه السلام يجيب عن سؤال مقدر يراود ذهن الراوي وهو:

لم فسرت الأمانة بالإمامة التي ينبغي أن تنقل إلى مواردها المستحقة في كل مرحلة؟

فيجيب الإمام عليه السلام أن ذيل الآية يشير إلى معنى متصل بالجانب الحكومي لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُمْ**﴾ وما وجه الله به الحكام في الأرض وما شرطه عليهم وهو العدل، والأئمة هم الحكام الشرعيون والالهيون.

١- الغيبة، ابن أبي زينب النعماني/ ٦٢.

وبعبارة أخرى:

إن الآية لا تتحدث عن موضوعين منفصلين، وهما رد أمانات الناس والحكم بينهم بالعدل!! بل تتحدث عن موضوع واحد متصل وهو ضرورة الإمامة وما يترتب عليها من شمول العدالة.

ومن هنا نفهم أن لب ولباب الآية مسألة من مسائل الاعتقاد، وليس معناها الأولي مسألة من مسائل الأخلاق، فما في التطبيقات المتداولة من ذكر هذه الآية في التوجيهات الأخلاقية فحسب يخالف النصوص الروائية التي توجه العقول إلى المعنى العقائدي كمعنى أساس ولب.

وقد ألفت بعض كبار المفسرين المعاصرين إلى حقيقة غير متبلورة لدى أغلب من تصدى لتفسير القرآن، وهي ضرورة مراجعة الروايات في تحديد المعنى الأولي لألفاظ الآيات قبل البناء على ما يتبادر لغويا وعرفيا منها، والنكتة في ذلك هي تركيز المعنى الأساسي للآية دون المعنى اللغوي الهامشي.

إذ ببركة الروايات نتفطن إلى التوصيف الأولي للآية من كونها آية عقائدية أو أخلاقية أو فقهية، فلو طبقت بعد ذلك في مجالات أخرى تكون تطبيقات استطرادية ولا يغيب التطبيق الأول والمعنى الأساس عن العقول والأذهان بمجرد تلاوة الآية.

ولأن آية البحث فسرت على أساس غير روائي من البداية كان الموضوع المتبادر منها موضوعا أخلاقيا، بينما هي في الوصف الأولي آية عقائدية بامتياز.

والروايات التي طبعتها بهذه البصمة كثيرة ومثبتة في الكتب المعتبرة، كتفسير علي بن إبراهيم والكافي والغيبة ومختصر بصائر الدرجات.

ولا ينبغي أن يفهم من كلامنا أنه ليس للآيات العقائدية توجيه على صعيد الأخلاق أو الفقه، بل نريد من المراجعة للروايات تحديد الأجواء الأولية التي تدور في فلكها الآية ولا يمتنع بعد ذلك فهم معاني أخرى بالتتابع والتسلسل.

وعلى ضوء ذلك أفرد صاحب الكافي بابا تحت عنوان:

(إن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ فيهم عليهم السلام نزلت﴾ [1].

وفي معاني الأخبار عقد الصدوق بابا عنونه بقوله: (معنى الأمانات التي أمر الله عز وجل عباده بأدائها إلى أهلها).

وصدره بما عن يونس بن عبدالرحمن، قال:

سألت موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾ فقال عليه السلام:

(هذه مخاطبة لنا خاصة أمر الله تبارك وتعالى كل إمام منا أن يؤدي إلى الإمام الذي بعده ويوصي إليه ثم هي جارية في سائر الأمانات)[2].

وقوله عليه السلام: (ثم هي جارية في سائر الأمانات) إشارة إلى الجري دون تساوي التطبيقات.

فالجو الأول والمعنى الأساس للآية هو الإمامة ومخاطبة الأئمة عليهم السلام لا أن هذا المعنى تطبيق كسائر التطبيقات، بل هو الثقل الأكبر الذي نزلت الآية لمعالجته، والمعالجات الأخرى من باب الجري والجريان والاستطراد.

١- الكافي، الكليني١ / ٢٧٦.

٢- معاني الأخبار، الصدوق ١٠٧.

*ترسيخ الإمامة الغائبة

نزلت آيات ووردت روايات لا تحصى كثرة في أمر الإمام الغائب عليه السلام، وركز أساطين الطائفة في كل المراحل على إحياء أمر المهدوية ورهنوا حياة العقيدة بها.

فلم كل هذا التركيز والترسيخ لأمر المهدوية؟

ما ذكرناه في البحث التفسيري السابق جواب دامغ صارخ على ضرورة التأكيد باستمرار على أمر الإمامة الغائبة، لكونها الأمانة العليا التي رهنت العدالة المطلقة بها، وبالتالي هي الدعامة الأساسية لبناء الحضارة البشرية.

ولا يخفى تشابه مضمون الآية مع مفاد الرواية المتفق على روايتها بين الفريقين من أن المهدي عليه السلام: (يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا)[1] في ارتباط وإناطة العدالة بمشروع الإمامة.

ونزيد الأمر بيانا وإيضاحا بذكر وصفين أساسيين للإمامة وموقعين عظيمين لها في الدين:

*الأول: الإمامة موقع سيادي

يستنكر أهل المذاهب علينا شدة الحصر على أمر الإمامة العامة والإمامة الخاصة وبالأخص إمامة الغائب في هذه الأزمان!!

وما ذلك الاستنكار إلا وليد الجهل بالترجمة العصرية للإمامة، إذ لم يفتأ البشر يوما عن تدارس أمر الإمامة، وإن كان في قوالب أخرى كعنوان القيادة وانتخاب الحكام والرؤساء.

١- الرسائل العشر، الطوسي/ ٩٨. مسند أحمد٣، احمد بن حنبل/ ١٧.

والذي يتميز به الشيعة عن غيرهم هو أن أمر الإمامة الآخذة بالمجتمع للكمال والسعادة لم تعد أملا ذهنيا أو مجرد أمنية في الوجدان، بل هي واقع مشخص في الصفات والأدوار والأشخاص وقد قامت عليها الأدلة والبراهين على كافة المستويات.

فالشيعة توافق سائر البشر في القول بضرورة القيادة العادلة، وتجاوزتهم إلى الظفر بالأدلة التي عينت شخص القيادة وعنوانها وممثلها وأوصافه العظيمة، لذا تعلقت بهذه القضية تعلقا ملموسا.

ولا تذهب الشيعة بعيدا عن تصورات البشر إذا أعطت الإمامة موقعا سياديا في المنظومة الدينية.

ولبيان معنى الموقع السيادي أضرب مثالين:

■ **المثال الأول: أقسام الوزارات**

يسود في عرف الدول تقسيم الوزارات إلى سيادية وغير سيادية (خدمية).

والوزارات السيادية هي تلك الإدارات التي عليها عماد الدولة واستقرار أمنها ونظامها.

وقد اختلف في عددها، فهناك من حصرها في ثلاث وزارات: الخارجية والداخلية والدفاع.

بينما أدخل آخرون في الحساب حقيبتين وزاريتين وهما الإعلام والمالية.

فيصل بذلك عدد الوزارات السيادية إلى خمس وزارات.

وعلى هذا الأساس ففي نظام الدول المعاصرة لا ينظر للوزارات نظرة واحدة ولا تعطى ثقلا متساويا ولا توزن بميزان واحد.

فلو فرطت دولة ما في أمر الوزارات السيادية فخصصت الميزانيات الضخمة لوزارة الصحة او التعليم مثلا، وأولتهما اهتماما كبيرا فإنها ستحصد تعليما رفيع المستوى وتخرج أجيالا متقدمة في المعرفة، كما أنها ستكون في مصاف الدول المتميزة في الجانب الصحي ودائرة التعلم، لكنها لن تكون آمنة على السيادة.

بل ستظل عرضة للاجتياح والغزو او الانقلاب في أي لحظة، لفقدانها السياج الأمني الحصين المانع عن التمرد الداخلي أو الغزو الخارجي.

■ **المثال الثاني: التخصصات**

إن للعلوم فروعا وتخصصات، منها تخصصات خدمية ترفع حاجات ملحة في المجتمع وتوفر مستلزمات معيشية أو صحية، ومنها تخصصات سيادية، أي عملها وشغلها التخطيط ورسم الاستراتيجيات وبناء المستقبل.

ففرق بين عمل المحاسب والطبيب وبين من بيده نظم المعلومات ورسم سياسات البلد على المدى البعيد.

وفرق بين موظف البنك ومن يرسم خريطة حركة المال.

ومن هاذين المثالين نعرف أن الموقع السيادي يوفر الأمن والأمان للدولة ويضرب سياجا واقيا عن الانهيار والتداعي.

وذات الكلام يقال في معارف الأديان التي يتوسل بها لفهم الدين وحفظ مسيرته.

فهناك معارف سيادية تحفظ ثبات القدم على الدين وهي مدار يمنع التزلزل عن المسيرة الإيمانية، وفي مقابلها علوم فضلة وهامشية وهي على أهميتها ليست مدارا في الدين ولا محورا في الثبات.

وهذا التقسيم للعلوم والمعارف ورد في توجيهات سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله كما في قوله: (إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل)[1].

فالعلوم السيادية في الدين ثلاثة وما سواها هامش وفضلة، وقد جعل صلى الله عليه وآله العقائد على رأس قائمة العلوم السيادية.

ولا شك أن الإمامة ذات موقع عظيم في أصول العقائد، بل لها موقع متقدم حتى في أصول الدين السيادية.

وإذا كان الاعتراض على تعيين ميزانية ضخمة للعسكر لا يصدر إلا من جاهل بموقعية قوة العسكر وما تعنيه للدولة، كذلك من الجهل بمكان الاعتراض على بذل الجهود العلمية والبحثية وتركيز النظر في الإمامة وشؤون الإمام، ولو علم المعترض أنها سيادية في الدين وأنها تحمي المنظومة عن التخريب والتغيير لم يستنكر الاهتمام الكبير بها تأصيلا وتمسكا.

فإن للإمامة ركنية وقوامية ولو أغفلت لضاع الدين.

وعلى هذا الأساس كان التعرف على الإمامة والإمام في زمن الغيبة من أوجب الواجبات لأن الجهل به يفرغ الدين من محتواه ويهدد بالتزلزل في أي لحظة.

١- الكافي، الكليني ١/ ٣٢.

ففي المحاسن عن الباقر عليه السلام أنه قال: (ولا يعذر الناس حتى يعرفوا إمامهم، ومن مات وهو عارف لإمامه لا يضره تقدم هذا الأمر أو تأخر، ومن مات عارفا لإمامه كان كمن هو مع القائم في فسطاطه)[1].

إن هذا التشديد على معرفة الإمامة الغائبة إنما هو لتعدد بركاتها، والتي أهمها بركة الإبقاء على الدين الصحيح والتوحيد الواقعي بلا زيغ ولا انهيار.

*الثاني: المهدوية والأمن العقائدي

مما يشغل الدول الحضارية اليوم استتباب الأمن في كل المواقع والدوائر، لأن الحياة المستقرة مرهونة بالأمن، ولا يمكن للشعوب أن تبني الحياة وتتطور إلا في ظل الأمن.

ويطرح الباحثون أنواعا من الأمن لابد من توفرها وهي:

الأمن العسكري، والأمن القومي، والأمن السياسي، والأمن الغذائي الاقتصادي، والأمن الاجتماعي، والأمن البيئي، والأمن الأخلاقي، وأمن المعلومات..

وبهذه المجموعة تقوم الدولة المستقرة وينعم البشر في ظل حياة كريمة.

وقد أمعن القرآن في موضوع الأمن كثيرا وأولاه عناية فائقة، فكثير من الآيات نازلة في موضوع التأمين والحذر الأمني، غير أن المراجعين للقرآن لا يلتفتون لدلالتها لغفلتهم عن موضع الأمن وضرورته.

فقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾[2].

١- المحاسن، البرقي١/ ١٥٦.

٢- النساء/ ٧١.

وقوله تعالى: ﴿**وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً**﴾[1].

آيات ترتبط بموضوع الأمن وأخذ السياج المؤمن عن الاختراق.

وأعظم نحو من أنحاء الأمن هو الأمن العقائدي لارتقائه عن الارتباط بالمعيشة والحياة الدنيوية وارتباطه بالحياة الدينية.

ومن المؤسف أن يبحث الباحثون عن كل أنواع الأمن الدخيلة في استقرار المعيشة ويغفلون عن الأمن العقائدي وهو السياج الذي تستقر به العقيدة والحياة الدينية.

فبالأمن العقائدي يستقر المنهج، ويندفع الغزو الفكري، ويتأمن مسير الأرواح والأفكار، لذا لا يقاس أمن الأبدان ورفاه المعيشة بأمن الأديان.

وقد أشار بعض المفسرين تحت قوله تعالى: ﴿**وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ**﴾.

إلى أن أحد تطبيقات الآية المهمة هو تمني أهل الباطل أن يغفل المؤمنون عن السياج العقائدي الآمن والسلاح المعرفي الذي يحرس عقيدتهم فيميلون عليهم ثقافيا وعقائديا وينهون ظاهرة التجمع العقائدي والحزب الإيماني ويذوب المؤمنون في المشاريع التغريبية.

والروايات في الدعوة لأخذ أسباب الأمن العقائدي كثيرة جدا.

منها ما عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (المؤمن كيس فطن حذر)[2].

وماعن أمير المؤمنين عليه السلام: (المؤمن غر كريم، مأمون على نفسه، حذر محزون).

١- النساء/ ١٠٢.

٢- بحار الأنوار، المجلسي ٦٤/ ٣٠٧.

وليكن في علمك أن اتخاذ موجبات وأسباب الأمن العقائدي من الفرائض المستمرة وليست فريضة مؤقتة.

وكلما تقدم أهل الباطل في وسائل الخديعة وآليات الزيغ وجب على المؤمن تقوية سياج العقيدة.

كما أن الأفكار المنحرفة تباغت المؤمنين وتأتيهم من حيث لا يحتسبون.

لذا أرشد أكثر من عالم بصير من أهل النظر إلى ضرورة تأمين العقائد في خطين متوازيين:

١- رد الشبهات والمغالطات.

٢- التأصيل والتأسيس وتقوية سياج الإيمان بطرح العقائد والمعارف بلغة تدريسية وبصورة دائمة.

ومن أقوى أسباب الأمن العقائدي التأكيد على المهدوية وفكر الإمامة، بل يرتبط الأمن العقائدي بهذه المسألة ارتباطا صميميا، فالزيغ عن المهدوية ونسيان العلاقة بالمنتظر الموعود عليه السلام موجب لنسيان الدين والتماهي مع المادة والمعيشة الهابطة.

ولن نستقيم في العقائد المهدوية ما لم نؤمن مسائل تلك العقيدة بالمسارين السابقين:

١- مسار رد شبهات المنكرين حول فلسفة الغيبة والانتظار.

٢- ومسار تأصيل العقيدة المهدوية بأدلة القرآن والروايات والأطروحات العقلية التي تلامس فكر الإنسان المعاصر.

وإذا أردنا أمن العقيدة المهدوية ومن ورائها الأمن العقائدي ككل فذلك يتوقف على إحياء مشروعه وحضوره في يوميات حياتنا وعلى كافة المستويات.

وأن نتحسس رقابته وهيمنته وإشرافه، فهو عليه السلام ليس ذكرى نتغنى بها ونترنم يوم الميلاد ثم نصد عنها طوال العام، بل لابد أن نتعايش معها كتعايشنا مع أسرنا وأولادنا.

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1].

فلأنه سبيل الله ووجه وخليفته فلابد ألا يغيب عن أفكارنا وممارساتنا لنأمن عقديا وروحيا وعباديا من عوارض الزيغ وطوارئ الشبهات.

*أسباب انهيار بعض المؤمنين

روى الصدوق عن الكاظم عليه السلام أنه قال: (.. له غيبة يطول أمدها خوفا على نفسه، يرتد فيها أقوام ويثبت فيها آخرون، ثم قال: طوبى لشيعتنا، المتمسكين بحبلنا في غيبة قائمنا...) [2].

وقد ورد الحديث عن هذه الملحمة المستقبلية الحاكية عن الانقلابات والانهيارات والتحولات التي تصيب مجموعة كثيرة من المؤمنين في كثير من الروايات، والواقع والوجدان يصدقها.

فقد تتالت الانقلابات في صفوف بعض طلاب العلوم فضلا عن عموم المنخرطين في سلك المؤمنين، والسبب كما تشرحه رواية الكاظم عليه السلام هو عدم التمسك بحبل أهل البيت عليهم السلام في الغيبة والفترة.

١- البقرة/ ٢٠٠.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٦١.

ونحن نعبر عن ذلك بمصطلح غياب الأمن العقائدي، إذ إن مرجع سقوط بعض المعممين في وحل الأفكار التغريبية هو ضعف سياج العقائد وقلة البصيرة في المعارف.

بل وصل ضعف الأمن العقائدي بالبعض إلى:

١ – التحول عن جماعة المؤمنين.

٢ – التخندق في دائرة دعاة الإلحاد والكفر.

٣ – الانتقال من بدعة إلى أخرى، والانفعال بخديعة بعد خديعة.

وهذا يحتم علينا الأخذ بأسباب الأمن العقائدي لأنه قلعة حصينة ضد الأفكار التغريبية، وهو تحصين روحي في وجه الشهوات والنزعات.

*التشرفات والأمن العقائدي

يوجه سؤال مفاده:

ذكرتم أن الأمن العقائدي مرهون بالمهدوية وحضورها المستمر في وعي وحياة المؤمنين، وقد أكد العارفون على مجموعة من الممارسات والطقوس، كالدعاء الخاص للحجة عليه السلام بالحفظ والظهور، والدعاء برؤية الطلعة البهية، وكثرة الصدقة عنه وكثرة اللهج باسمه.

والسؤال: ألا يتسبب ذلك في انبثاق دعاوى البابية والسفارة؟

بل تسبب ذلك بالفعل في انتقال مجموعات عبر التاريخ من مجرد الشوق والرغبة في الموعود عليه السلام إلى ادعاء البابية ودعوى السفارة.

وانحدر آخرون بسبب ظروف القهر والحرمان والسجن إلى ذلك المطب، فكان تعلقهم الشديد بالمنجي عليه السلام على أنه أمل المستضعفين من دواعي سقوطهم في دعوى السفارة والارتباط المباشر بالإمام عليه السلام.

وقد كثرت الانحرافات العقائدية في هذا المجال عبر التاريخ وتحول الشوق والعشق واللهج إلى أزمة دين ومعتقد.

فما هو الحل؟ وما هو طريق الجادة الوسطى؟

إن أنحاء الاتصال بالموعود عليه السلام، كالاتصال الروحي أو المعرفي أو التشرفي، هي من السبل المهمة للأمن العقائدي.

لذا ذكر أهل التحقيق أنه قد تواتر النقل على رؤيته عليه السلام، وكان الذين رأوه من الأعيان والثقاة والعدول.

وكانت المشاهدة والتشرف متواصلة في الحلقات الثلاث:

الأولى: خلال حياة أبيه العسكري عليه السلام.

الثانية: في الغيبة الصغرى .

الثالثة: أثناء الغيبة الكبرى.

١- فأما في حياة أبيه فقد عرضه الإمام العسكري عليه السلام على العشرات من الشيعة، لذا روى الصدوق في كمال الدين:

حدث جماعة منهم مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ الْعَمْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالُوا: (عرض علينا أبو محمد الحسن بن علي عليه السلام ونحن في منزله وكنا أربعين رجلا فقال: هذا إمامكم من بعدي، وخليفتي عليكم..، أما إنكم لا ترونه بعد يومكم هذا)[1].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق٤٣٥.

والأحاديث في ذلك كثيرة، ومفادها تعمد الإمام العسكري عليه السلام عرض ولده الحجة عليه السلام على مجاميع من رجال الشيعة.

وكان أهم غاية في ذلك تأمين العقيدة به، فإن الاخبارات الغيبية به لا تقاس بالرؤية العيانية في أنعكاسها على اليقين.

٢- وكذلك تواتر الإخبار عن رؤيته في الغيبة الصغرى، مرة عند الكعبة ومرة في بستان وأخرى في دار أبيه والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقد عدد الشيخ الصدوق في كمال الدين كثيراً ممن رأى الإمام عليه السلام في الغيبة الصغرى ووقف على معجزاته، وذكر أسماء الأشخاص وأسماء بلدانهم.[١]

ولا شك أن تعدد المعاينين له يوجب تناقل الأخبار برؤيته، وهو يؤكد وجوده وحضوره، وبها يحصل أمن وأمان العقيدة به.

٣- وأما في الغيبة الكبرى فقد بلغ من رآه كثرة بحيث يصعب الإحصاء، وثبتت الرؤية له بما فوق التواتر كما قال أهل التحقيق.

وقد عقد الأعلام الكبار بابا خاصا في ذكر من رآه في الغيبة الكبرى.

قال الشيخ صافي الكلبايكاني في منتخب الأثر:

(ومن تصفح الكتب المدونة فيها هذه الحكايات يحصل له العلم القطعي الضروري بوجوده)[٢].

وإثبات قطعية وجوده بالرؤية لتحقيق الأمن العقائدي لدى المعتقد به.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق٢/ ٣٣٢.

٢- منتخب الأثر، الشيخ الكلبايكاني٢/ ٥٦٢.

إلى جانب ذلك أشار أهل المعرفة إلى أنه من أعظم وأرقى السعادات التشرف بالرؤية واللقاء والخدمة.

وبينوا أن حكمة الاستتار لا تنافي اللطف الذي يشمل البعض فيسعد برؤيته ويتشرف بخدمته.

ووردت في ذلك الأدعية والتوسلات: ففي المزار: (اللهم أرنا وجه وليك الميمون في حياتنا وبعد المنون)[١].

ومن حرز الامام السجاد عليه السلام: (وارزقني رؤية قائم آل محمد)[٢].

وما الدعاء والطلب في ذلك إلا لإمكان التشرف، بل وحصوله بالفعل لمجموعة لا تكذب بالاستقلال فكيف لو جمعت حكاياتهم في ذلك.

ولحكايات التشرف والدعاء به هدف عظيم وهو تأمين اعتقاد الأمة بوجوده وحضوره وإن كان غائبا عن المجموع.

وهذه الغاية لا تفوت بحال، فوجود أناس ضعاف في البصيرة والعقيدة بحيث تجرهم أحاديث التشرف إلى دعوى البابية والسفارة لا يخول لنا التنازل عن بركات التشرف.

بل تعالج أزمتهم بطريق آخر وهو تقوية عقائدهم عموما.

لذا عقد أهل العلم بابا في مناقشة رواية: (ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كاذب مفتر)[٣] وذكروا لها احتمالات كثيرة:

١- المزار، المشهدي٦٥٨.

٢- مهج الدعوات ومنهج العبادات، ابن طاووس١٦.

٣- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق٥١٦.

منها: ادعاء الرؤية والمشاهدة على نحو دعوى مقام البابية والإرسال بالمسؤوليات الخاصة.

ومنها: ادعاء الرؤية الاختيارية للغائب عليه السلام.

كما بين أهل العلم أن الغيبة والاستتار هي الأساس لكون الحكمة الإلهية البالغة تتحقق بها، بينما الرؤية والتشرف توفيق خاص وفيض مخصوص لحكمة في ذلك، منها أن التشرف يدعم الاعتقاد ويؤمن التعلق به.

***ختاما**

للتشرف بالرؤية والمشاهدة من غير دعوى سفارة شرائط ومقدمات سواء الرؤية والتشرف في الغيبة أو بتعجيل الفرج، وقد بين ذلك في التوقيع المبارك.

ففي المزار: (ولو أن أشياعنا – وفقهم الله لطاعته – على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا.

ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا، فما يحسبنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل)[1].

وأهل الوفاء هم أوفياء في الغيبة كما هم في الحضور، بل قسم من أهل الوفاء يتجلى عندهم الوفاء في الغيبة أكثر من الوفاء في الحضور.

١- المزار، المفيد/ ١١ .

تمهيد (٣)

القيام الفعلي للحجة عليه السلام

القيام الفعلي للحجة عليه السلام

روى الصدوق عليه الرحمة في كمال الدين عن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني أنه قال:

قلت لمحمد بن علي بن موسى عليهما السلام: (إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما).

فقال عليه السلام: يا أبا القاسم:

(ما منا إلا وهو قائم بأمر الله عز وجل، وهاد إلى دين الله، ولكن القائم الذي يطهر الله عز وجل به الأرض من أهل الكفر والجحود، ويملؤها عدلا وقسطا هو الذي تخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه، ويحرم عليهم تسميته، وهو سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وكنيّه، وهو الذي تطوي له الأرض، ويذل له كل صعب)[1].

يضم هذا المبحث جواب أسئلة وردتني من بعض القراء حول نمط تفاعل الإمامة الغائبة مع الواقع في زمن الغيبة.

وقد آثرت أن أضمنها في ثنايا المباحث التمهيدية لأنها باب بصيرة للبحوث القادمة.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٧٨.

*السؤال الأول: فعلية الدولة المحمدية في كل زمان

هل لآل محمد دولة قائمة بالفعل الآن، أم أن دولتهم مؤجلة لما بعد الظهور؟

■ **الجواب في أمور:**

أولا: ثبت للحجة عليه السلام الإمامة عند جميع الشيعة وبالنصوص المتواترة، فهو الإمام من الله تعالى، وهو المسؤول عن الأمة في طول غيبته وإلى هذه اللحظة.

ومما جاء في كتاب الحجة من الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال: (الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق)[1].

وفسر أهل التحقيق هذا النص بالقول: إن أعظم وظيفة للحجة الإلهية ليس هو هداية الخلق بل تمثيل خلافة الأسماء الإلهية، وبالتبع يهدي الخلق ويرشدهم، وساقوا أدلة عقلية في ذلك.

والمحصل أن دولة الأولياء لا تنقطع ولا تتجمد بمفارقة الخلق وعدم مكنتهم من الإرشاد الديني، وإلا لو كانت تنقطع فما هي الحاجة للحجة قبل الخلق وبعد الخلق!!

ثانيا: هل معنى غياب الإمام عليه السلام هو تجميد الإمامة من الدور مطلقا وانتفاء عناصر القيام في دولته؟

أشكل أهل السنة على الشيعة بذلك، وقالوا بالمساوقة بين تجميد الدور وغياب الإمامة، ظنا منهم أن الغيبة عن الأدوار الظاهرية تجميد لكل أنحاء الدور والفعل!!

١- الكافي، الكليني ١/ ١٧٧.

وقد بين في الآيات والروايات أن الأولياء على قسمين: إما ظاهر مشهور أو خائف مغمور.

وفهم العلماء من ذلك أن الدور لا يتعطل بحال، بل يتنوع من حيث طريقة الأداء.

ولذا عرفوا الغيبة بهذه التعابير:

١ - هي الدور الخفي لا خفاء الدور.

٢ - وهي فيض الغياب لا غياب الفيض.

وبين أهل التحقيق آفاق ملك الإمام عليه السلام وتصرفه في ظروف الغيبة وأدواره، وهو ما عنيناه بقولنا ملك آل محمد قائم بالفعل، وليس بيد طغاة الأمة إلا سلب مرتبة من الملك والدولة وهو السلطان الظاهري دون الملك الروحي والدور الخفي.

قال آية الله الشيخ السبحاني في الإلهيات: (إنّ الغيبة لا تلازم عدم التصرف في الأمور، وعدم الاستفادة من وجوده، فهذا صاحب موسى كان وليا، لجأ إليه أكبر أنبياء اللهّ في عصره، فقد خرق السفينة التي يمتلكها المستضعفون، ليصونها عن غصب الملك، ولم يعلم أصحاب السفينة بتصرفه، وإلّا لصدّوه عن الخرق، جهلا منهم بغاية عمله.

كما أنّه بنى الجدار، ليصون كنز اليتيمين، فأي مانع، حينئذ من أن يكون للإمام الغائب عليه السلام في كل يوم وليلة تصرّف من هذا النمط من التصرفات.

ويؤيد ذلك ما دلّت عليه الروايات من أنّه يحضر الموسم في أشهر الحج، ويحجّ ويصاحب الناس، ويحضر المجالس، كما دلّت على أنّه يغيث المضطرين، ويعود

المرضى، وربما يتكفل - بنفسه الشريفة - قضاء حوائجهم، وإن كان الناس لا يعرفونه.

والمسلّم هو عدم إمكان وصول عموم الناس إليه في غيبته، وأمّا عدم وصول الخواص إليه، فليس بأمر مسلّم، بل الذي دلّت عليه الروايات خلافه، فالصلحاء من الأمّة، الذين يستدرّ بهم الغمام، لهم التشرف بلقائه، والاستفادة من نور وجوده، وبالتالي، تستفيد الأمّة بواسطتهم.

وقال: لا يجب على الإمام أن يتولّى التصرّف في الأمور الظاهرية بنفسه، بل له تولية غيره على التصرف في الأمور كما فعل الإمام المهدي، أرواحنا له الفداء في غيبته.

ففي الغيبة الصغرى، كان له وكلاء أربعة، يقومون بحوائج الناس، وكانت الصلة بينه وبين الناس مستمرة بهم.

وفي الغيبة الكبرى نصب الفقهاء والعلماء العدول العالمين بالأحكام، للقضاء وإجراء السياسات، وإقامة الحدود، وجعلهم حجة على الناس، فهم يقومون في عصر الغيبة بصيانة الشرع عن التحريف، وبيان الأحكام، ودفع الشبهات، وبكل ما يتوقف عليه نظم أمور الناس)[1].

فأي كيان أجدر باسم الدولة الفعلية من دولة الغيبة.

ثالثا: بينت الآيات وجود دولتين للأولياء عليهم السلام، كما في الآيات الحاكية لقصة موسى والخضر، فقد كان لكل واحد منهما دولة مستقلة، وفيها يقوم بأدوار خطيرة.

١- الإلهيات على هدى الكتاب والسنة والعقل، الشيخ السبحاني ٤/ ١٤٤.

ودولة الخضر عليه السلام خفية بينما دولة موسى عليه السلام ظاهرة، وقد استند نبي الدولة الظاهرة على ولي الدولة الخفية في استلهام آفاق مستجدة من العلم، مما يدل على خطورة أدواره في ظل الخفاء، وأن ملك الأولياء لا يرتفع بخفائهم بل قد يتعمق ويتعاظم.

وقد بسطت روايات أهل البيت عليهم السلام البيان في آثار دولة الخضر فراجعه في مظانه.

وفصل أستاذنا الكبير آية الله الشيخ السند حفظه الله في كتابه (الإمام المهدي والظواهر القرآنية) أنواع الحكومات والدول.

رابعا: دلت نصوص بالغة في الكثرة على حيوية الدور في ظل الاستتار والغيبة، منها:

١ – المقطع الشريف من دعاء الندبة: (بنفسي أنت من مغيب لم يخل منا، بنفسي أنت من نازح ما نزح عنا)[١].

فالجمع بين وصف (المغيب) و (عدم الخلو منا)، وبين وصف (النازح) و(عدم النزوح عنا) يقتضي بقاء الدور والرعاية في أجواء الاستتار.

٢ – ما رواه الصدوق عن الجواد عليه السلام: (ما منا إلا وهو قائم بأمر الله)[٢]. فهو صريح في إسناد القيام لكل إمام من الأئمة عليهم السلام رغم اختلاف بيئاتهم وتنوع طرائق حركتهم وتفاوت الضغوط التي أحاطت بهم.

---

١ – المزار، المشهدي/ ٥٨١.

٢ – كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٧٨.

٣ - ما ورد في بعض مقاطع الزيارة الجامعة من وصفهم بعبارة (القوامون بأمره)[١].

فهو يثبت وجود دور وقيام بأمر الإمامة حتى في ظل التقية أو الغيبة.

٤ - وفي الزيارات والصلوات على الأئمة عليهم السلام وصف كل واحد منهم بوصف (القائم بأمرك) [٢] ووصف الحجة عليه السلام بنفس الوصف[٣]، وهو يدل على فعلية الإمامة.

وفي مقاطع أخرى وصف بأنه (القائم بقسطك) [٤].

وقد يقال إن هذا التوصيف خاص بعصر الظهور، دون القيام بالأمر الذي لا يتوقف على الظهور.

خامسا: لم تنقطع دولة آل محمد صلى الله عليه وآله على يد الحجة عليه السلام في تمام المراحل، ففي غيبته الصغرى كان يدير الدولة عبر نوابه الخاصين.

وفي ظل الغيبة التامة يديرها بالفقهاء والنواب العامين، ويقوم بشؤونها في الخفاء بما له من ملكات وملك روحي بإذن الله.

وفي ظل يوم الظهور سيهيمن بكافة الوسائل، بما له من قوة غيبية، وبما له من سلاح ظاهري، وبما لديه من وزراء وشيعة.

ولا أعتقد أن أحدا من العلماء فضلا عن الفقهاء والعارفين ينكر وجود دولة لآل محمد صلى الله عليه وآله الآن كما كان لهم دولة دائما حتى في ظروف تقيتهم وقعودهم.

١- المزار، المشهدي/ ٥٢٦.
٢- مفاتيح الجنان/ ٦٠٢.
٣- نفس المصدر/ ١٠٣.
٤- نفس المصدر/ ٦٣٥.

فمن خطبة العقيلة زينب عليها السلام: (أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الإماء أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة وأن ذلك لعظم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت في عطفك جذلان مسرورا حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا فمهلا مهلا..

كد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا ولا تدرك أمدنا)[1].

فهي عليها السلام توجه له هذا الخطاب بعد ذبح إمامها وفي ظل أسر إمامها الآخر، ومفاد كلامها أن ملك محمد وآل محمد لا يزول تحت اي ظرف من الظروف.

*السؤال الثاني: معاني تسميته بالقائم؟

هاهنا أمور:

الأول: يفهم من تعبير الروايات بـ (قيام القائم) بحسب التحليل نسبة قيامين له، قيام في ظل الغيبة وقيام في ظل الظهور.

الثاني: إن تفسير لقب (القائم) بالقيام الفعلي هو ما ذهب إليه العارف صدر المتألهين عليه الرحمة في شرحه على أصول الكافي.

الثالث: لمصطلح القائم تفسيرات متعددة بحسب الروايات:

أولا: تفسير حسب وضع الإمام عليه السلام وصفته في وجوده المثالي في السماء:

فعن أبي حمزة ثابت بن دينار الثمالي قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يا ابن رسول الله .. فلم سمي القائم قائما؟

١- بحار الأنوار، المجلسي ٤٥/ ١٣٥.

قال: لما قتل جدي الحسين عليه السلام ضجت عليه الملائكة إلى الله تعالى بالبكاء والنحيب وقالوا: إلهنا وسيدنا أتغفل عمن قتل صفوتك وابن صفوتك وخيرتك من خلقك. فأوحى الله عز وجل إليهم قروا ملائكتي فوعزتي وجلالي لأنتقمن منهم ولو بعد حين.

ثم كشف الله عز وجل عن الأئمة من ولد الحسين عليه السلام للملائكة فسرت الملائكة بذلك فإذا أحدهم قائم يصلي فقال الله عز وجل بذلك القائم أنتقم منهم)[1].

ثانيا: تفسير حسب عالم ظهوره وهو قيامه بالسيف وإظهار الدين على الأديان.

فعن عبدالعظيم بن عبدالله الحسني قال: قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام: إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، فقال عليه السلام: يا أبا القاسم: ما منا إلا وهو قائم بأمر الله عز وجل، وهاد إلى دين الله، ولكن القائم الذي يطهر الله عز وجل به الأرض من أهل الكفر والجحود، ويملؤها عدلا وقسطا هو الذي تخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه ...)[2].

ومفادها أن وصف القيام ثابت لجميع الأئمة عليهم السلام حتى في زمن التقية والغيبة، ولكن القيام بمعنى تطهير الأرض وسيادتها بالعدالة وصف يطلق في آخر الزمان وبالتحديد على الحجة عليه السلام في عصر الظهور.

ثالثا: تفسير لقيامه في تمام أدوار إمامته بالمسؤولية وإن كان مستترا حتى لا يظن بتعطيل دوره ولو في بعض الأحقاب.

١- علل الشرائع، الشيخ الصدوق١/ ١٩٨.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٤٠٧.

روى محمد بن عجلان، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (.. وسمي بالقائم لقيامه بالحق)[١].

وليس بين هذه التفاسير تعارض، بل من باب الظهور والبطون وتعدد المعاني للفظ الواحد.

قال آية الله الشيخ الجوادي: (هذا اللقب منحصر في إمام العصر وإن كان القيام بالقسط من الشروط العامة لإمامة المعصومين عليهم السلام)[٢].

ومعناه اختصاص لقب (القائم) لإظهار العدل وتطهير الأرض بالحجة عليه السلام وإن كان القيام بالقسط وصفا عاما لهم عليهم السلام.

وقد ورد تعبير آخر في الزيارات في وصف الحجة عليه السلام وهو (السيف الشاهر) كما في المزار: (السلام على السيف الشاهر)[٣].

وهو يدل في بعض معانيه على مقاطعته لبيعة أي ظالم، فهو ذو قيام فعلي في المواجهة ولو بدرجة القطيعة والبراءة بمقتضى أسلوب الاستتار.

ولا يخفى الفرق بين الدلالة الرمزية لوصف (السيف الشاهر) والذي له نحو انطباق على عصر الغيبة بما ذكرناه، وبين استئصال أهل الزيغ والعناد المنحصر وقوعه في قيام الظهور، لأنه تطهير للأرض من الأوبئة المعنوية.

وجاء في ضمن مقاطع دعاء ليلة النصف من شعبان توصيف الغائب الصاحب عليه السلام بأنه (سيف الله الذي لا ينبو)[٤].

ودلالته واضحة على الفعلية والتوثب والنهضة حتى في عصر الغيبة.

١- الإرشاد، الشيخ المفيد٢/ ٣٨٣.
٢- الإمام المهدي الموجود الموعود، الجوادي الآملي/ ١١٠.
٣- المزار، المشهدي/ ٥٩٠.
٤- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي/ ٨٤٣.

تمهيد (٤)

تساؤلات حول الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف

تساؤلات حول الموعود عجل الله تعالى فرجه الشريف

أخرج الصدوق في كمال الدين أنه جاء في آخر توقيع خرج من الإمام عليه السلام في الغيبة الصغرى إلى علي بن محمد السُّمري قبل وفاته بأيام:

(فقد وقعت الغيبة الثانية، فلا ظهور إلا بعد إذن الله عز وجل وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورا ...)[1].

*مقدمات

■ الإمامة بحث مستقبلي

هل البحث في العقيدة المهدوية انحسار في الماضي ورجوع إليه؟

أم هو بحث يستشرف آفاق المستقبل؟

يشكل البعض على الكثير من الأطروحات الدينية بإشكال عدم اتصالها بالواقع المُعاش ويوميات البشر.

ويعيب على الباحثين تعمقهم في العقائد، فيشبههم بمن يضع رجله في القرن الجديد ويرمي بعقله في القرون الغابرة!!

ويصنف ذلك البعض بحث المهدوية ومسائل الرجعة في ضمن تلك البحوث البعيدة عن الواقعية.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٥١٦.

وغير خفي أن هذا التوصيف ليس على الوجه الصحيح؛ لأن هذه الأبحاث واقعية بامتياز، بل تبحث في آفاق المستقبل والمراحل الآتية من عمر البشر.

فالبحث في المهدوية وهي محل كلامنا:

١ – بحث عن أفق تحقيق السعادة المنشودة بالفطرة.

٢ – وأمل كل مظلوم في مجيء اليوم الذي يؤخذ له فيه بحقه.

٣ – وتطلع لباب العلم الذي تنفتح به مغاليق المعرفة.

٤ – بحث عن أفق من الحضارة تنحل به كل المجاهيل المحيِّرة للأجيال السابقة.

ويكفي كل ذلك لوصف المهدوية بكونها تطلعات للمستقبل البعيد.

بل يمكن القول إن الاشتغال بكل شؤون الدين هو اشتغال بالمستقبل الذي تؤول إليه البشرية وليس رجوعًا إلى الماضي.

فمثلا أبحاث التوحيد ومراتبه بحث عن النهايات التي سيصعد إليها الإنسان ويلاقيها في آخر المطاف، وهل هي نهاية واحدة أم نهايات متعددة .

وهكذا العكوف على بحوث الموت ومعارف البرزخ والجنة والنار كلها من التطلع الفكري للغايات..

والبحث في الغايات بحث استقبالي لا تقهقر ماضوي.

ولا شك أن الإنسان الذي يتمتع بحس الاستراتيجية لا يحسر فكره في الماضي ولا يؤطره في الحاضر، بل يمد أفق عقله لما هو آت من مراحل المستقبل.

وبهذا الفهم تنقلب المعادلة ويكون من العدل أن يوصف أصحاب الأفكار المادية والمقصرون عقائديًّا بالماضويين والسطحيين، ويكون من الحق أن يوصف المؤمنون المنشغلون بالاعتقادات بأصحاب الفكر المنفتح على المستقبل البعيد.

وعليه فلا بد أن نضع في ذهننا ونكون على يقين أن اشتغالنا بكل أبعاد العقيدة المهدوية ورد الشبهات عنها هو من التقدمية والبحث عن الغايات، حتى لا يفاجئنا المستقبل بحقائق لم نحضر أنفسنا لها، ولم تتذوقها عقولنا، فنكون من الشاكين فيها والمنحرفين عنها.

والواقع ببابك ماثل فهو الذي يرسم الفرق بين المؤمنين بالمهدوية وغير المؤمنين بها، فبينما يتعايش المهدويون مع المفاجئات والزعازع بكل أمل وتفاؤل وحيوية يصاب غير المؤمنين بها بالحيرة والتوحد والخوف من القادم، إذ فرق بين من حضر نفسه لخفايا المستقبل وبين من لا هم له إلا الحاضر بما له من هموم ضيقة.

■ **الإمامة قلب نابض**

إن الإمامة – والتي تمثل المهدوية الآن صورتها المتجلية وقيادتها الفعلية – هي القلب النابض والعقل المدبر والإدارة القائمة في الأمة.

ولقد أجاد الشيخ الرئيس في توصيف إمامة علي عليه السلام حين قال: (كان علي بين الصحابة كالمعقول بين المحسوس)[1].

وهل تهتدي الحواس في معركة تمييز الحق عن الباطل والحقيقة عن الزيف إلا بالعقل؟!

١- كتاب الأربعين، المحقق البحراني/ ٢٤٠، نقلا عن معراج نامه للشيخ الرئيس بن سينا/ ٩٤.

ولب مقالته مأخوذ من الروايات التي بينت أن حواس البشر لا تستيقن بشيء شكّت فيه أو رأته أو شمته أو لمسته إلا أن ترده إلى العقل فيستيقن الصحيح ويزيل الشك.

والأمة هذا مثالها في رحلة المسير إلى الله، فلا مخلص لها في شيء شكّت فيه أو جهل تحيّرت به إلا أن ترجعه للإمام الذي هو ممثل القلب والعقل بالنسبة لها.

وإذا كانت حاجة حواس الأبدان للقلب المميز والفكر المصحح مستمرة فحاجة الأمة والبشرية للإمام كذلك مستمرة على طول المسير؛ لأنه العقل الكبير الهادي بالنسبة لمجموع الأمة.

وبعد تمييز موقع الإمام في الأمة يكون من المنطقي والضروري حضور الإمام في كل الأزمان والأحقاب، وسهولة وصول الأمة إليه حين المراجعة في المهمات والشبهات المختلفة.

ومن هذا المنطلق كثرت الإشكالات على الشيعة الإمامية لاعتقادهم بالإمامة الغائبة بعد انتهاء عصر الإمامة الحاضرة، وطُرِحت عدة إشكالات على غيبته واستتاره وتركه للأمة في مدلهمات الفتن وزلازل المحن.

*المصلحة في الإمامة الغائبة

يذهب الشيعة إلى أن الحكمة وتمام المصلحة والتدبير يكون بوجود وظهور الإمام عليه السلام وتمكنه من الأمر والنهي!

وهذا موافق لما تعارفت عليه البشرية من أن المصالح لا تتحقق إلا بحكومة السلطان العادل وإشرافه بنفسه على الأمور وتصديه لسياسة البلاد.

ومن جهة أخرى يقول الشيعة بأن انتخاب الله الغيبة لصاحب العصر والزمان عليه السلام هو الموافق للمصلحة!

والسؤال: هل تتحقق المصلحة بالإمامة الغائبة أم بالإمامة الحاضرة؟ فنسبة المصلحة مرة للغائب ومرة للحاضر تناقض؟

الجواب في نقاط:

■ **النقطة الأولى: التناسب بين المصالح والأحوال**

أجاب الشيخ المفيد على هذه الشبهة في كتابه الفصول العشرة بقوله: (إن المصالح تختلف باختلاف الأحوال)[1].

وطرح مثالين:

المثال الأول: إن الحكيم في العادة يبذل لرعيته أسباب المتاجرة والتكسب، فإذا أقبلوا على العمل بذلك بجدٍّ ومسؤولية أدام عليهم ما وفره لهم من الأسباب؛ لأن في إدامة الأسباب من جهته حصول المصلحة لهم.

فإذا عملوا في تلك الأسباب باللهو لا بالجد، وبالتسيب لا بالمسؤولية اقتضت المصلحة أن يقطع المدد عنهم ويرفع الأسباب التي وفرها لهم.

فجدهم ولزومهم المسؤولية في الحال الأول جعل المصلحة في رفدهم وإمدادهم بالأسباب بينما لهوهم ولعبهم في الحال الثاني جعل المصلحة في منع المدد عنهم.

فأين هو التناقض مع اختلاف الأحوال والأشخاص والصفات!!

١- الفصول العشرة، المفيد/ ١١٤.

المثال الثاني: وطرح المفيد مثالا آخر وهو أن الله رأى المصلحة مرة للخلق في إظهار كلمة التوحيد والإعلان بها وأن ذلك هو الأكمل في تدبيرهم.

فإذا وقعوا في حال الاضطراب واضطروا إلى حفظ حياتهم بإظهار كلمة الكفر كانت المصلحة والتدبير الأحسن في عدولهم عن إظهار التوحيد إلى الجهر بالكفر تقية.

ولا يمكن لأحد أن يشكل بالتناقض لاختلاف الأحوال.

ونظير ما مر من المثالين يجري في أنماط الإمامة، فمتى ما أطاعت الأمة وانقادت، أو لا أقل لم تسعَ في تصفية الإمام قبل إنجاز رسالته كانت المصلحة في الإمامة الظاهرة.

وإذا تاركت الأمة معية الإمام عليه السلام وانعقدت نيتها على سفك دمه قبل إتمام الرسالة الموكلة له كانت المصلحة في غيبته واستتاره.

ويقع اللوم في زوال بعض وجوه المصلحة للغيبة على الأمة التي تسببت في حصولها.

■ **النقطة الثانية: اقتضاء نوع الرسالة**

أقول حتى مع تشابه الظروف ووحدة الزمن قد تكون المصلحة بالنسبة لرسالة بعض الأولياء تكمن في ظهوره، وبالنسبة للبعض الآخر تكمن المصلحة في خفائه واستتاره.

ومثاله القرآني ما وقع في حقبة نبوة موسى عليه السلام فقد وقعت فيها دولتان إلهيتان، دولة ظاهرة على رأس قيادتها نبي الله موسى عليه السلام ودولة مستترة على رأس قيادتها ولي الله الخضر عليه السلام.

وبهذا يتلخص أن عوامل شتى منها أحوال الزمان وأهله ومنها نمط الرسالة المأمور بها الأولياء تتسبب في اختلاف المصلحة والتدبير الأحسن.

وفي حقبة ما بعد النبي الأعظم صلى الله عليه وآله كانت المصلحة بلحاظ موقع علي عليه السلام أن يعمل بالتقية والمهادنة، والمصلحة بلحاظ موقع الزهراء عليها السلام أن تعمل بالمواجهة والمبارزة.

كما أن اختلاف مسئوليات الأئمة عليهم السلام اقتضت إختلاف نمط الإمامة.

■ **النقطة الثالثة: الغايات الأعظم أهم**

إن المصلحة المرعية لا يلاحظ فيها شؤون العباد فحسب، بل يلاحظ فيها أولا إنجاز الغاية الإلهية من الوجود، لأن الإمام لم يُبعث لتقويم اعوجاج الخلق فحسب، وإنما لتمثيل الخلافة التامة والعبادة الكاملة معرفة وأداءً وتحققًا، فلو منعته الظروف عن إقامة اعوجاج الخلق كانت المصلحة في استتاره لإنجاز الغايات الأعظم.

كما أن تحقيق المصلحة بظهوره قائم على قاعدة الأمر بين الأمرين، أي اختيار العباد وقيامه بالمسؤولية، وليس على جبرهم وإلجائهم بالقبول بالمشروع الإلهي، فلو اختاروا العناد اختار عدم إنجاز المسؤولية بالظهور، وكان الإخلال راجع إلى سوء اختيارهم.

*المهدوية والوقف

يتشدد الشيعة في إبطال مذاهب الواقفية كلها، لكنهم مع ذلك وقفوا على إمام غائب، ونسبوا له الحياة بلا موت إلى ماشاء الله، وأنه سيظهر ليقيم العدل ويملأ الأرض بالقسط!!

والسؤال: كيف تبطل الإمامية مذاهب الوقف بكل شؤونها، ثم تقول به في الغائب المهدي عليه السلام؟

إذ بالاعتقاد به إماما خاتما يتحقق لب عقيدة الواقفية، فهو إمام غائب حي بحياة طويلة وسيخرج بعد ذلك ليملأ الأرض قسطًا وعدلا.

أليس هذا من التناقض؟!

والجواب في نقاط:

■ **النقطة الأولى: الوقف الممقوت**

إن الوقف على إمام خاتم ليس ممقوتًا، وإنما الممقوت هو الوقف على بعض الأئمة ومتاركة آخرين، قد أمر الله بالإيمان بهم والاعتقاد بإمامتهم في زمانهم.

فلو آمن بالسابقين ووقف على آخر إمام دلّ الدليل على ختمه لمقام الإمامة فهو وقف واجب وعقيدة مأمور بها.

فثمة اعتقاد مشترك مجمع عليه بين المسلمين يحصر عدد الأئمة في اثني عشر إمامًا من قريش، كما يعتقد الكل أن هذا الزمان هو زمان إمامة الثاني عشر، وبعده لم تُجعل الإمامة الخاصة لأحد، فالوقف على إمامته لازم شرعي مجمع عليه.

ويبطل الشيعة قول من قال بتعدد المهديين بلا توقف، وأنه على رأس كل مئة سنة يظهر مهدي ليجدد معالم الدين.

فإن ظهور المجدد على رأس كل سنة شيء والاعتقاد بأنه المهدي الأخير الثاني عشر شيء آخر، والعقيدة الشيعية تؤمن بظهور المجددين بالتعاقب والتتابع، لكنها تحصر المهدوية في شخص بعينه.

كما يرفض الشيعة تفسير المنجي والمهدي بأنه مجرد طموح نفساني مثالي يدفع البشرية للاستمرارية في العمل ويخلصها من اليأس والقنوط ويبعث فيها التجلد والصبر، وأنه نظير فكرة المدينة الفاضلة التي هي عبارة عن طموح جاذب لا واقع مشخص له.

إن النظرية الشيعية تنصب على أمرين:

١ - وجود وازع فطري وطموح داخلي واشتياق للمنجي ولدولته.

٢ - وتؤمن بأن كل تطلع فكري متفق عليه له تحقق في الخارج، وأن المهدي شخص واقعي، ستلاقيه البشرية يوما ما، فينجز به طموحها، وتتحقق به غاياتها.

فالطموح الذي يحرك الإنسان نحو العدل يحركه إلى واقع سيلاقيه، وليس إلى سراب موهوم.

■ **النقطة الثانية: مآرب الواقفية**

إن الذي أعيب به على الواقفية الباطلة، وثبت به عنادهم، ووجود مآرب فاسدة لديهم من القول بالوقف، هو تسميتهم لإمام ووقفهم عليه وادعاء أنه حي لم يمت رغم تحقق قتله وموته بالحس والعيان.

أي يعتقدون بحياة إمام قتل بالسم، ورُفعت جنازته، وعُين قبره، وشهِد من أتى من بعده من الأئمة من أولاده بحلول الموت عليه.

فهم بذلك معاندون في قولهم ببقائه وحياته، ولا شك في بطلان قولهم وفساد نيتهم لمخالفتهم للمحسوس وشهادة الأولياء.

ولم يتحقق ذلك في قول الإمامية بختم الإمامة في الثاني عشر عليه السلام، فلم تُشاهد له جنازة بالحس، ولم يقم بعده ولي من نسله يشهد بوفاته.

فوقف الشيعة عليه هو قول بختم الإمامة واستمرارها فيه، ولا دافع لهذا الاعتقاد.

*المذهب المنصور في يوم الظهور

يذهب الشيعة إلى أن الغاية من ظهور المهدي عليه السلام هو أن يسيّد مذهبًا وجماعة من البشر على سائر أطياف البشرية.

لذا تساءل بعضهم هذا السؤال:

لأي دولة ومذهبٍ من مذاهب الشيعة سينتصر الإمام عليه السلام؟

فهل سينتصر للفرقة التي تعتمد المنهج العرفاني، أو للجماعة السالكة وفق المنهج الإخباري، أو للفئة التي تستعمل المنهج الأصولي، أو لأصحاب الذوق الفلسفي؟

وجواب هذا السؤال بسيط، ولا نحتاج إلا إلى ترجمة أخرى لسؤال السائل لتتضح الغاية من ظهور المهدي عليه السلام.

فإن طرح المسألة بهذا النحو:

هل سيعمل عليه السلام على تسييد مذهب على مذاهب أو قومية على قومية؟

أو هل سيقدم الشيعة على أنهم شعب الله المختار؟

نحو من الطرح فيه تشويش للمطلب.

وبالترجمة العصرية للمسألة يزال عنها غبار الغموض، فنقول:

إن الشيعة يعتقدون بأن الحقيقة هي شعب الله المختار، وإن الحجة عليه السلام سينتصر للحقيقة ويعمل على سيادتها ومحاربة التمرد والتكبر عليها.

إن برنامج المهدي عليه السلام يتلخص في كشف الحقيقة على كافة المستويات والعمل على إقامة دعائم دولة الحق؛ فإن كانت الحقيقة متجلية في التشيع فسوف يعمل على سيادة مذهب الشيعة، وإن كانت الحقيقة في الشق العرفاني من التشيع أو الفلسفي أو الأخباري، أو كانت موزعة الأبعاد في هذه المشارب جميعا، فالمهدي عليه السلام سيعمل على إقرارها وتمييزها عن غيرها.

ولن يعترض على مشروع الإمامة أي معترض إذا كان الشعار المرفوع والمدعوم بالفكر والبرهان هو شعار الكشف عن العلم والحقيقة.

ولن يرى أحد في عمل الإمام عليه السلام انحيازا لمذهب على آخر، أو تقديما لشعب على شعب، ما دامت الحقيقة قد انكشفت ببرهان جلي وحجة واضحة.

بل لو اقتضى عمل المهدي عليه السلام أمر الناس بقتل بعضهم بعضًا فلن يكون ذلك مبغوضًا للبشر بعد وضوح الحقيقة وتمرد البعض بنشره وباء الجهل.

فهذا منطق القرآن ببابنا، فقد طرح موسى عليه السلام مثالا للمهدي والمنجي عليه السلام ومبرزًا للحق الصراح الذي سجدت له فئة وتمردت عليه أخرى، فما كان منه إلا أن أمرهم بقتل بعضهم بعضا لحصول النجاة والخلاص من التيه والشتات.

إن الأسلوب المبهرج في طرح الإشكالات ينم عن شطط عن منطق القرآن ومنهاجه والنماذج التي تحدث عنها بجلاء ووضوح.

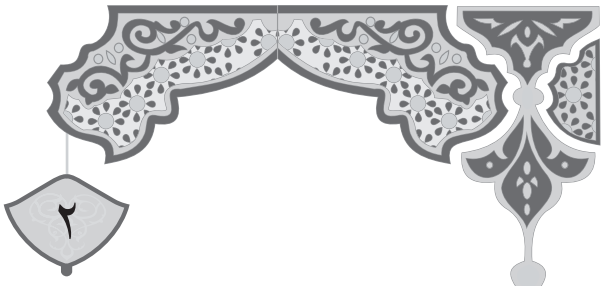

٢

الفصل الثاني

التأصيل القرآني والروائي والتحليلي للغيبة

- المبحث الأول: الاستضعاف ومسير الاستخلاف
- المبحث الثاني: الوعد الإلهي بالمشروع الحضاري
- المبحث الثالث: مشروع المنجي قرآني حضاري
- المبحث الرابع: خطوات التمهيد لظاهرة الغيبة
- المبحث الخامس: تفسير عقيدة الغيبة
- المبحث السادس: مبررات الدولة المهدوية
- المبحث السابع: سنة وسيرة الغيبة
- المبحث الثامن: شبهات حول غيبة القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف
- المبحث التاسع: حتمية الإمامة والغيبة عجل الله تعالى فرجه الشريف

المبحث الأول

الاستضعاف ومسير الاستخلاف الحتمي

الاستضعاف ومسير الاستخلاف الحتمي

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

***المقدمة**

من السمات الأساسية في كل آية من آيات القرآن الكريم أنها في سياق معالجتها لموضوعها الأساسي وبحثها الأصلي تتضمن معالجات لموضوعات فرعية شتّى وشؤون مختلفة.

فقد يكون موضوع الآية من الموضوعات الفقهية، غير أنها وبالتبع تعالج موضوعًا عقديّا أو فضيلة أخلاقية.

وقد يكون موضوع الآية منصبًّا على مسألة اعتقادية، غير أنها تفصح تباعا عن مسألة علمية أو حقيقة كونية.

وهذه السمة على بالغ أهميتها مغفول عنها عند الكثير من الباحثين، بل وكبار المفسرين.

وإذا ما ركز الباحث عن حقائق القرآن في عقله هذه الميزة أمكنه الاستفادة من الآيات بنحوٍ متجدِّدٍ ومتشعب.

١- القصص/ ٥.

وبهذه المنهجية تتبرهن القاعدة القرآنية: ﴿**قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا**﴾[1].

كما يتضح بها خطأ توصيف بعض الآيات بوصف الفقهية أو الأخلاقية أو العقدية فحسب، بظن أن نظرها في المعالجة ينحصر في الشأن الفقهي أو العقدي أو الأخلاقي.

وآية البحث جليّة في هذه السمة، فبرغم أن موضوعها الأساسي هو الوعد الإلهي بالمنة على المستضعفين بالحكومة والوراثة والنصر والنجاة، لكنها بالتبع تعالج موضوعات كثيرة ومتنوعة.

* عينات من بحوث الآية

■ الموضوع الأول: علامات الحق

يظن كثير من الناس أن هزيمة ومغلوبية المستضعفين في بدايات المسير علامة على فقدان المستضعف للحق والحقيقة، بينما غلبة وسيطرة الاستكبار عسكريا دليل على وجدانهم للحق والحقيقة!!

وقد صحح القرآن ذلك المنطق المعوج ببيان أن انهزام الصالحين ماديًّا وعسكريًّا في بدايات المسير ليس دليلا على سقم نهجهم ومتبنياتهم، بل غالبا ما تصاب مسيرة الصالحين بإخفاقات مادية وتواتر أصناف الشدائد امتحانا واختبارا من الله، وبحسب القاعدة القرآنية فلن تكون الخواتيم السعيدة إلا من نصيبهم.

١- الكهف / ١٠٩.

والخلاصة: إن نور المنهاج وساطع البرهان وحدهما يمثلان علائم الحق، وليس السيطرة المادية والغلبة العسكرية.

ومنه يُعلم الخطأ الفادح الذي وقع فيه ابن تيمية، حيث ربط الإمامة بالانتصار العسكري والسيطرة على مقاليد الأمور، وعلى أساسه قال: (فالأئمة الاثنا عشر لم يحصل لأحد من الأمة بأحد منهم جميع مقاصد الإمامة ... ومن المعلوم أن الموجودين الذين كانوا قبل المنتظر لم يكن أحد منهم منبسط اليد ولا متصرفا.

وعلي تولى الخلافة ولم يكن تصرفه وانبساطه تصرف من قبله وانبساطهم، وأما الباقون فلم تكن أيديهم منبسطة ولا متصرفون ... وأما الغائب فلم يحصل به شيء.. وأنه خائف لا يمكنه الظهور فضلا عن إقامة الحدود ولا يمكنه أن يأمر أحدا ولا ينهاه) [1]

ومراده إنه ليس لأحدٍ من أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد علي عليه السلام إمامة على المسلمين، معللا ذلك بالقهر والاستضعاف الذي وقعوا فيه، وكون الغلبة العسكرية بيد غيرهم.

لكن هذا الفهم مجانب للمنطق القرآني الصريح في ثبوت إمامة المستضعفين الروحية والفكرية والسياسية وإن كانوا مقهورين مهزومين عسكريًّا وظاهريا.

إن ابن تيمية اعتبر استضعاف أئمة الكفر لأئمة أهل البيت عليهم السلام دليلا على زوال إمامتهم وولايتهم، بينما يصرح القرآن بأن الإمامة من الله مشروطة بالاستضعاف، لترتب جعلهم أئمة في الظاهر بعد الباطن على استضعافهم بحسب مفاد الآية.

١- منهاج السنة، ابن تيمية ٤/ ٩ و١١ و١٢.

فجعل ابن تيمية الدليل على الشيء بحسب نص القرآن دليلا على العدم، أي أن القرآن اشترط في الإمامة والأئمة استضعافهم في بدايات المسير بينما جعل ابن تيمية الاستضعاف الابتدائي دليلا على عدم الإمامة.

من هنا علينا ألا ننساق وراء مغالطات دجالي العلم في تصويراتهم لمفهوم الإمامة وشؤونها، بل لزامًا علينا أن نستنبط معنى الإمامة ولوازمها من تعاليم القرآن ومنطقه الجلي.

فإن ثمة أوضاع ومظاهر قد نفهم منها بحسب ثقافتنا المادية أنها مؤشر عدم الإمامة غير أنها بحسب ثقافة القرآن من مؤشرات الإمامة وبراهينها الدالة عليها.

فآية البحث تخبر عن أن الأئمة عليهم السلام الذين رشحتهم السماء لوراثة وحكومة ظاهر الأرض في آخر الزمان سيكونون مستضعفين مقهورين مظلومين في أوله.

والاستضعاف الذي هو إزاؤهم عن حقهم وإمامتهم في الظاهر علامة على أنهم أهل دولة الحق في الخفاء، وأهل دولة الحق في الظاهر في آخر الزمان.

ويحق لنا القول: أراد بن تيمية نفي الخلافة والإمامة عنهم بدليل عدم تمكنهم من السيطرة على مقاليد الأمور في أوائل عصر الرسالة فأكد بذلك على علامة وبصمة إمامتهم عن الله وهو الاستضعاف.

إن الاستضعاف لأئمة الحق وإن كان أكبر طامة أوقعها المستكبرون على الرعية، لكنه من جهة أخرى ساهم في إبراز الدليل المثبت لكون المستضعفين منصوبين من الله على الخلق.

■ **الموضوع الثاني: أسباب النصر روحية أولا**

من الظنون الخاطئة لدى كثيرين ربط الانتصار بالأسباب المادية، من كثرة الجند والعتاد وقوة العسكر، فمن كان له ذلك حقق الانتصار المطلق.

بينما في منطق القرآن رُبِط النصر والهزيمة بأسباب غير مادية، وأعظمها قوة الفكر وسطوع البرهان وعلو الروح.

ولا يحتاج الباحث إلى مزيد عناء في الإيقان بهذه الحقيقة من القرآن، وخصوصًا في الآيات التي تخبر عن إمداد الله المؤمنين بجنود غيبية على قلة عددهم وتواضع إمكانياتهم.

وآية البحث اختارت إطلاق عنوان المستضعف على الصالحين الموعودين بالنصر والوراثة ليدلل ذلك على ربط الانتصار بأسباب غير مادية.

فإن الاستضعاف يعني تواضع الإمكانيات في جانب القوة العسكرية.

■ **الموضوع الثالث: شروط انتصار المستضعفين**

هل الموعود بالنصر والظفر هو مطلق المستضعف في الأرض ولو لم يكن متدينًا ومتشرعا؟ أم أن نجاة المستضعفين مشروطة ومقيدة؟

جزم بعض بأن الوعد القرآني عام لكل من أنطبق عليه عنوان المستضعف، وغير مخصوص بالمستضعف في الأمة الإسلامية.

وأضاف: إن الآية تخبر أنه إذا ما وقع استضعاف في الأرض على جماعة تعلقت الإرادة الإلهية بنصرهم والمن عليهم وجعلهم أئمة ووارثين وممكنين في الأرض.

والجواب عن ذلك في نقاط:

أولا: يجاب على شبهة (عموم الوعد بالنصر لكل من انطبق عليه عنوان المستضعف) بالآيات الكثيرة التي شرطت شروطًا معنوية لحصول النصر والانتصار، ومنها يفهم أن الإرادة الإلهية تعلقت بنجاة وإنجاء المستضعف بسبب الدين والمنهج.

كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[٢].

فالأولى: شرطت الثبات على الإيمان بالله والسعي في نصرة دينه، ليأتي النصر من الله.

والثانية: شرطت تغيير محتوى النفوس وخلجات القلوب.

فتدل بذلك على أن الاستضعاف أحد مقدمات وشروط الانتصار والوراثة، وأنه جزء العلة وليس كل أجزائها.

فلو كان المستضعف من أهل المعاصي والذنوب، ومن الغارقين في الشهوات، ومن المهملين للمسؤوليات الواجبة، ومن القاعدين والخالدين إلى الأرض، فلا تعلق لإرادة الله بتأييده، ولا وعد إلهي بنصره والمن عليه.

ثانيًا: تشتمل الآيات على قرائن تعيِّن هوية المستضعف الموعود بالوراثة.

ومن تلك القرائن قوله تعالى: ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾ مقرونًا بقوله تعالى: ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[٣].

١- محمد/ ٧.
٢- الرعد/ ١١.
٣- القصص/ ٦.

فجعلهم أئمة في مقابل فرعون وهامان اللذين يمثلان أئمة للكفر يدل على جعل المستضعفين أئمة خير وهدًى وصلاح، ولن يكونوا كذلك إلا أن يكونوا مستضعفين في خط الإيمان ولأجل تدينهم ونهجهم الإلهي.

ثالثًا: بمعونة بعض الآيات كقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[1]، يتعين صنف المستضعف الموعود بالنصر، فإن وصف الوارثين بالعباد الصالحين قيد مميز للوارثين من المستضعفين.

أي أن المستضعف الصالح هو الذي كتب نصره في الذكر والزبور.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[2]، بيان لوصف المستضعف المَمكن في المآل والعاقبة، وهو وصف التقوى.

ومن مجموع هذه الشواهد تسقط الفكرة القائلة إن الوعد عام لكل المستضعفين حتى ولو كانوا من غير المؤمنين.

*فلسفة الاستضعاف

قد يسأل سائل: ما هي فلسفة استضعاف المؤمنين عبر الزمن؟

وما هي فلسفة غيبة المنجي عليه السلام التي أوقعت الأمة في البلبلة والحيرة، فعمّقت الاستضعاف أكثر ووسّعت جهات الانهزام فيها؟

١- الأنبياء/ ١٠٥.

٢- الاعراف/ ١٢٨.

لا شك وبحسب منطق القرآن أن للبشرية مشروعًا إلهيًّا كبيرًا، ولكي تتأهل البشرية للقيام به فلا بد من الاستعداد المكثف، وفلسفة مراحل الاستضعاف هي صناعة ذلك الاستعداد، بمقاومة الانحراف والسعي في نشر كملة الله في الأرض.

فلو قيل: إن تلك الفلسفة غائبة عن أذهان الكثير من أفراد الأمة، فلم يحقق الاستضعاف نتائجه المرجوة منه؛ وأكثر الناس يروم التخلص من وطأة وذلة الاستضعاف فيسير في ركب الظالمين وينفر من مواطن المؤمنين!!

وجوابه: إن عدم استثمار ظروف وبيئات الاستضعاف في خلق الاستعداد والأهلية للمشروع الحضاري الإلهي الرائد مسبب عن غياب الفهم الصحيح للاستضعاف.

وذلك الفهم هو ما تريد الآية الكريمة ضخه في أفهام المؤمنين لترتفع الحيرة والاضطراب ويتعمق الإيمان بالحقانية، ببيان أن الغربة والظلامة وطول عهد المحنة هي شواهد وأدلة حقانية أهل الحق، كما أنها الشرط المطلوب لتحقق الوراثة والدولة بحسب بيانات القرآن.

ومما يؤسف له أن تتحول المؤشرات والشواهد التي يراد لها أن تثمر الإيقان وترفع الحيرة إلى دواعي وعوامل لليأس والضلالة واستصعاب طريق الحق.

ولو كانت قاعدة (الاستضعاف سبيل الانتصار) منطق روايات ضعيفة لأمكن أن نتعقل تسرب اليأس للقلوب في أوضاع الاستضعاف، واستصعاب الربط بين الضعف المادي والنصر الحضاري، بينما لما كان الرابط بينهما هو المنطق القرآني الجلي فالمفروض أن يكون ذلك داعيا للصبر والثبات والأمل.

فلو قيل لك: إن مقدمة الظفر بالربح الوفير هي حيازتك البضاعة الكذائية وعرضها في الموقع المعين، وقدرت على تحقيق الشرطين، فالنتيجة الطبيعية تعاظم طاقتك على العمل وتجدد أملك النفساني مهما تكن الصعاب، لكون الهدف عظيما والنتيجة حتمية.

والقرآن ها هنا يخبرنا أن النجاة الحتمية وليدة الصبر مع الاستضعاف، فلو وقعت الأمة في الاستضعاف لساهم إيمانها بالقرآن في تجدد طاقتها وتوسع صبرها.

ولقد تساءل بعض المنظرين الاستراتيجيين باستغراب فقال: ما هو السر في ازدياد الشيعة قوة وأملًا وصمودًا كلما استضعفوا أكثر!!

ومن حقه الاستغراب، وذلك لارتباط الانهيار كنتيجة بالاستضعاف كمقدمة لدى أصحاب المنهج المادي.

وهو بخلاف المعادلة القرآنية التي تجعل الاستضعاف هو الطريق الوحيد والمنطقي لتحقق طموح الوراثة والمكنة، أي أن الاستضعاف سبيل الوراثة والانتصار والعلو، وليس طريق الانهيار والزوال والاضمحلال.

وهو السر العظيم في ثبات أئمة أهل البيت عليهم السلام في ظروف القهر والمحنة!!

فلو قيل: ما السر في ثبات الزهراء عليها السلام في المواجهة الأولى، وثبات علي عليه السلام في المواجهات التالية، وصبر الحسين عليه السلام في صراع كربلاء؟

فجوابه: إيقانهم بالوعد القرآني الرابط بين تفعل النصر والوراثة كنتيجة بالاستضعاف كمقدمة.

وكلما كان الإيقان بتلك الرابطة أكبر فلن يزيد الاستضعاف المؤمن إلا صبرًا وتحملًا وثباتًا.

وما تساؤل كثير من أبناء الأمة اليوم عن سبيل الخلاص وزمن الانتصار مع اشتداد وطأة القهر والاستضعاف ويأسهم من ذلك إلا نذر تخلف عقيدتهم عن الإيمان بالمعادلات القرآنية.

***إشكالية مهمة**

ما هي آليات ووسائل المستضعفين لنشر مشروعهم في آخر الزمان؟

فهل تنحصر وسائلهم في استخدام القوة العسكرية القاهرة أم تتسع لتشمل التسلح بالبرهان الفكري ودلائل العقول؟

وربما يصاغ التساؤل بصياغة أخرى، فيقال:

إن البشرية المعاصرة تستنكر فرض العقائد والمناهج الفكرية على الناس بالقوة، وهي بذلك تختار أن تكون آليات مشروع المستضعفين فكرية عقلية يحكم فيها البرهان وتنطق بها الحجة لا السيف وقوة العسكر.

وعلى أساس ذلك لو أخذ بظاهر الروايات الناصة على أن مشروع المنجي عجل الله فرجه الشريف - وهو رائد المستضعفين - يتمثل في التصفيات الجسدية، وأنه سيقتل من كل عشرة أشخاص تسعة، فلن يحظى برنامجه بالموافقة والتأييد من قبل البشرية!!

والإجابة عن هذه الإشكالية في نقاط:

الأولى: إن الروايات - التي كشفت عن أعداد من يُقتل ويُقصى في دولة المنجي عليه السلام على يد المستضعفين - وإن صرّحت باستخدام آلية القوة

والعسكر في نشر المشروع المستقبلي إلا أنه من الخطأ تفسيرها بشكل ساذج، بأن يُظن أن قوة العسكر هي الآلية الوحيدة، أو هي المنطق الأول والأخير في نشر فكر المستضعفين، أو أن المستضعفين سيستعملون القوة بنحو متعسف وجائر!

إن كل تلك الاحتمالات تفسيرات خاطئة، والمحمل الصحيح لتلك الروايات هو بيان ملحمة مستقبلية، خلاصتها الكشف عن حال الناس اتجاه الحقائق التي ستكشف في دولة المستضعفين ومدى تقبلهم لها أو تمردهم عليها، وأن الكثير سيكون من أهل التمرد والجحود.

وقد أخبرت الروايات بخروجه في زمان تمتلئ فيه الأرض بالجور والظلم، وهو إخبار عن ازدياد أعداد من يتمرد على الحقيقة.

فهذه روايات ملاحم مستقبلية، وليس هدفها تخويف البشر من مشروع المنجي عليه السلام ودولة المستضعفين.

والإمعان في العناوين الواصفة لشخصه - كعنوان المنجي والمهدي ومقيم العدل- توضح سعة آليات نشر المشروع.

فتلك العناوين الثلاثة وغيرها تفسر نمط البرنامج الذي سيكشف عنه إمام الزمان عليه السلام.

إذ توضح هذه العناوين أمور عديدة:

١- إن هداية وخلاص ونجاة البشرية على يديه، ومثله لا يتأتى منه الظلم أو الحيف أو الجور على بقية المذاهب والملل.

٢- إن من شأن صاحب تلك العناوين استخدام آليات الفكر والتوعية والتوجيه أولا، لا آليات العسكر والحرب.

٣- ومن شأن حامل تلك الأوصاف أن يرفع الشتات الفكري والضياع العقائدي، إذ لا هداية ولا نجاة في الحرية العقلية المطلقة المسببة للمفاسد الفكرية المترامية.

٤- لا تقتصر دلالة عنوان المنجي على تخليص البشر من تسلط الحكومات الظالمة فحسب، بل إن أبرز دلالاته تخليص البشر من الحيرة الفكرية والتشرذم المذهبي والتشتت الأديان.

الثانية: رسم القرآن الكريم وفي آيات عديدة برنامج المنجي في أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ.

فموسى عليه السلام كان نموذجًا من نماذج المنجي، وقد بعث لتوحيد الأمة على نهج الإيمان، وقد استخدم لذلك آليات أولها البرهان والفكر.

لكنه لم يقتصر على تلك الآلية، وإنما استعمل القوة والتصفية كذلك لوجود المعاندين والمتمردين.

وكان عيسى عليه السلام نموذجا آخر من نماذج المنجي والمهدي، وكان أول برنامج أعلن عنه هو: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾[1]، أي توحيد الأمة على دين السماء، وليس إقرارهم على التعددية الدينية التي هي عبارة محسنة عن حيرة البشر في عالم الأديان والمذاهب.

ومن الجهل بمكان مقايسة مشروع المنجي والمستضعفين بمشاريع بقية البشر، فلو كان سبيل الدولة المدنية هو إقرار الناس على أديانهم وأفكارهم في عصورنا للمحافظة على السلم والأمن، فهذا لا يصلح أن يكون سبيلا للمنجي المبعوث

١- مريم/ ٣٠.

من الله لخلاص البشرية، وللعمل على الارتقاء بها من ظلمات الأرض إلى معارج السماء، وبناء حضارة إنسانية رائدة لها.

والخلاصة: كيف يكون المنجي منجيًا والهادي هاديًا إذا ما أقر البشرية على عماها وضلالتها، وآثر السكوت اتجاه المتمردين على استخدام القوة بعد استنفاذ آليات الفكر والبرهان!!

يعتمد خصوم القرآن على منطق وأسلوب الصحافة لتنفير الناس من المعارف الدينية، فيذهبون بعيدًا في التنظير لأسلوب اللين والحوار وكأنه هو منتهى الأساليب، وكأن البشر متفقون على تقبله والركون إليه كأسلوب وحيد لإدارة مصلحة البشر.

إن اختلاف الناس في الخضوع للحقيقة يحتم تنوع الآليات وتعدد الأساليب، لذا يكون لزامًا على المنجي أن ينوع وسائل برنامجه كي يصل لغاية تخليص البشرية من كل أشكال الفساد على الوجه الحتمي.

الثالثة: بيّن الله في آية البحث الآليات التي سيستخدمها المستضعفون في نشر مشروعهم الفكري، وبَيْن تلك الآليات تقدم وتأخر وأولوية وثانوية، واستخدام منطق القوة واحد من تلك الآليات.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[1].

وما فرعون وهامان إلا أمثلة سيقت للمعاندين والمتمردين على الحقيقة والبرهان، فلا محيص عن استخدام منطق القوة مع أمثالهم لإرساء مشروع النجاة ووراثة الأرض.

١- القصص/ ٦.

المبحث الثاني

الوعد الالهي بالمشروع الحضاري

الوعد الإلهي بالمشروع الحضاري

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

*دعوى عدم دلالة الآيات على المهدوية

إن النصوص التي استدل بها الشيعة على عقيدة المنجي القائد لمسيرة المستضعفين كثيرة ومتنوعة، ومن بينها نصوص وحيانية قرآنية أجلاها وأوضحها آية البحث.

فإذا قيل: ما هي آيات المهدوية في القرآن؟

فأول ما ينصرف إليه الذهن من الآيات هي هذه الآية.

وقد صدرت محاولات من جهات عديدة لإثبات أجنبية هذه الآية عن الفكرة المهدوية.

وأقتصر هنا على مناقشة محاولة جديدة لبعض المتأثرين بالفكر الراهن، وقد استهدف بها نفي أي ارتباط بين مضامين الآية وعقيدة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

١- القصص/ ٥.

(١)

ادعي صاحب تلك المحاولة تأسيس مسار جديد في القراءة الموضوعية لآيات القرآن، ويقوم ذلك المسار على إلغاء التفسير بالموروث المتلقى من الرواة عن حملة الدين!!

*ملاحظات على المسار المزعوم

■ الملاحظة الأولى

إن دعوى ضرورة تجرد المفسر عن التأثر – حين استنطاق آيات القرآن –بأي شيء ضرب من المحال، إذ كلما تجرد عن نوعٍ من المؤثرات وقع في نوع آخر.

فمن يدعي التجرد الفكري عن التلون بالموروث السني أو الشيعي في فهم القرآن فقد وقع لا محالة في شراك التأثر بالفكر الثقافي الراهن ونمط تعاطيه في فهم مرادات القرآن، إذ للمثقفين طريقة في التفسير بالرأي ذات آثار خطيرة ومعطيات فكرية مدمرة.

■ الملاحظة الثانية

إن المسار المزعوم في فهم الآية القرآنية لا يؤدي بحال من الأحوال إلى استلهام الحقيقة واستخراج المدلول الأقرب، إذ الحقائق في كل العلوم والاختصاصات تُنال بتراكم نتائج أبحاث أرباب تلك العلوم.

ولذا يبدأ الجيل اللاحق في كل علم على أساس الجهود العلمية للرواد السابقين، ولا يبدأ أحد منهم من نقطة الصفر.

وفي البحث عن المدلول الأقرب للآيات يتأكد الأخذ بالمسار التراكمي لأفهام العلماء، لأن القرآن كتاب إلهي بعيد الغور والبطون.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه)[1]، وليس من بدأ من نقطة الصفر.

بل إن إلغاء التأثر يعني التشطيب على تراث المذهب الصادر عن رموزه الأوائل، فإذا كان الرموز أئمة معصومين أدى إلغاء تراثهم إلى الوقوع في كوارث عقدية معرفية.

ولا يخفى اشتمال تراث المذهب على قواعد بها تفهم بطون القرآن، فدعوى رفع اليد عن التأثر بالمذهب تفضي إلى التجرد عن السلاح المعرفي حين تفسير مطالب القرآن.

■ **الملاحظة الثالثة**

يصرِّح صاحب المحاولة بأن الطريقة المثلى لفهم حقائق القرآن تكمن في إلغاء الموروث المذهبي وتقمص شخصية صحابة رسول الله ﷺ قبل نشوء المذاهب!

فيشكل عليه بقوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[2]، فأين موقع تلك الطريقة في الفهم من بيان الآية؟

فهل كان دور النبي ﷺ أن يعطينا نسخة من القرآن ودورنا فهم النصوص بتجردنا الفكري!!

أم كان دوره رسم خريطة محددة للتفسير والفهم!!

١- روضة الواعظين، النيسابوري ١/ ٨..

٢- النحل/ ٤٤.

(٢)

تساءل صاحب تلك المحاولة عن نوع الإرادة المذكورة في الآية: فهل هي من سنخ إرادة التكوين أو هي من قبيل إرادة التشريع؟

واستنبط عدم وجود أي قرينة على أحدهما!!

بينما كل مصاديق النعمة والمنة التي وُعِد بها المستضعفون هي من النعم الجعلية التكوينية، فتكون الإرادة إرادة تكوين لا إرادة تشريع.

(٣)

وتساءل صاحب المحاولة عن المقصود من الأرض: فهل هي كل الأرض أم بقعة معينة؟

وأجاب بأن كل من استضعِف في بقعة يُنصر ويمن عليه في تلك البقعة لا في كل الأرض!

ويتلخص الجواب على الفكرة السابقة بما نلاحظه في ميادين الصراع بين المستضعفين والمستكبرين، فكم من مستضعف في بقعة من الأرض سعى ووفَّر الأسباب إلا أن النصر والمنة لم تتحقق بالنسبة إليه!!

وهذا يدل على أن المنظور في الآية هو مسيرة كل المستضعفين ووراثتهم لكل الأرض في نهايات الصراع الكبير.

هذا مضافا إلى ورود كلمة (الأرض) في الآية معرّفة بالألف واللام، ومنها يتبادر إلى الذهن إرادة كل الأرض لا بقعة من بقاعها.

(٤)

نفى صاحب المحاولة أي علاقة للآية بالمهدي عليه السلام في اصطلاح المسلمين أو في اصطلاح الشيعة!! لخلو الآية عن أوصاف المهدوية ومعالمها بحسب علم الكلام؛

فقد ذكر الشيعة في معالم المهدوية أن المهدي عليه السلام شخص واحد يخرج في آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض قسطًا وعدلا.

ولا تدل الآية على ذلك التوصيف لا بالمنطوق ولا بالمفهوم!!

وجوابه في نقاط:

أولا: إن العقيدة المهدوية الشيعية وإن كانت تؤمن بظهور شخصٍ واحد وتحقق مشروع العدل والهداية على يديه، إلا أن قيامه سيتم في ضمن مجموعة من الصالحين كوزراء ونواب له.

وبهذا البيان تنطبق الآية على مشروعه، أي مشروع وراثة المستضعفين؛ لأن قيادات وجنود دولته طائفة ومجموعة وليست شخصًا واحدًا.

فذكر المجموعة في الآية لا ينافي فكرة ظهور شخص ليمثل القيادة والتدبير لمجموعات مستضعفة.

ثانيًا: قال أحد كبار الأعلام المعاصرين:

(إن من الثقافات الخاطئة والتي راجت في الأذهان أن المهدوية تعني شخص المهدي عليه السلام، بينما تشير نصوص أهل البيت عليهم السلام إلى أن المهدوية تشمل سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام في العوالم الآتية، أي عوالم دولتهم، فكل إمام استُضعِف في عصره هو مهدي وولي في طورالعاقبة والوراثة.

بل وصفت الروايات عليًّا عليه السلام بوصف المهدي الأكبر ولو بالفحوى والمعنى.

فيكون عنوان المهدي الذي أُطلِق على خصوص الإمام الثاني عشر عليه السلام يشير بالدقة إلى المهدوية الصغرى وستتلوها دول مهدوية أعظم وأكبر).

وبذلك تكون الآية منطبقة على كل دول أهل البيت عليهم السلام الآتية في الرجعة وعلى رأسها دولة الدول بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام.

وخلاصة القول:

إن ذكر الشيعة للآية الكريمة في الآيات الدالة على المنجي الموعود عليه السلام أو مشروع المهدوية ينطلق من عدة شواهد وأدلة:

الأول: ظهور الآية في أنها بصدد طرح قاعدة عامة وسنة إلهية تنطبق بجلاء ووضوح على لب الفكرة المهدوية.

فإن ما ذكر فيها من وعد المستضعفين بالمنة وجعلهم أئمة وتمكينهم في الأرض وجعلهم الوارثين هي عين أهداف وغايات المنجي الذي يؤمن به الشيعة.

الثاني: بضم الآية إلى آيات الوراثة والاستضعاف والنصر والمكنة يتأكد انطباق الآية على الدولة المهدوية، بل تكون هي أبرز مصاديقها ومعانيها الجدية.

الثالث: صدور الروايات المفسرة للآية بدولة المهدي عليه السلام في آخر الزمان.

فبكل تلك الشواهد يكون تسمية الآية بآية المهدوية أو المنجي أو المهدي حقيقة وليس خيالًا.

فما يحاوله البعض – بتفسير الآية على وفق المذاق الثقافي المنفلت عن أي عقال والتارك لكل القواعد، مستنتجا أن خصائص ومعالم الفكرة المهدوية لا تلتقي بمضامين الآية – نوع من المغالطة والتفسير بالرأي.

ولو سلمنا تنازلًا بخفاء بعض جوانب الآية وعدم وضوح تلاقيها بعقيدة المنجي والمهدي عليه السلام، فذلك وليد النظرة الأحادية التجزيئية للآية.

وقد أكد أهل العلم على ضرورة فهم حقائق الدين بالأدلة المجموعية، وبالأخذ في الاعتبار كل المقدمات والقواعد التفسيرية، لأن القرآن حمّال ذو وجوه، وتعيين الوجوه الحقة والمرادة جدًّا رهن الأخذ بالقواعد والأدلة المجموعية.

*إيضاح مجموعة إشكاليات

■ الإشكالية الأولى

بعد أن أخبر القرآن بلا بدية تحقق مشروع المستضعفين بقيادة المهدي عليه السلام في آخر الزمان يحق لنا أن نتساءل:

هل تجنح قيادة المستضعفين نحو حوار الحضارات أم نحو صدام الحضارات؟

وهل يلغي المنجي عليه السلام الآخر ويسحق وجوده، أم ينفتح فكريا على الآخرين فيسمح بتعددية الأفكار والمذاهب والأديان؟

وهل يقر مشروع المستضعفين في آخر الزمان السلمية ويقرر التعددية والاختلاف والانقسام الفكري؟

ولو أشيع إن مؤدى مشروع الحجة عليه السلام استئصال الآخر وسحق الفكر المغاير فهذا يولد رفض أطياف البشرية له من الآن، لأن البشرية اليوم تؤمن بالتعايش والحوار وترفض القهر والصدام!!

وعلى ضوء هذه الفكرة ينكر البعض – حتى من الوسط الداخلي ـ أتصاف المهدي عليه السلام بصفة المنتقم، ولا يقبل نسبة الانتقام المستقبلي لمشروع المستضعفين، بذريعة أن الانتقام والتشفي بات مجرّمًا ومنبوذًا في الفكر البشري المتحضر.

والرد على تلك الجدلية ببيان أمرين:

● **الأمر الأول: هوية المنجي عليه السلام**

في البداية نتساءل: ما هي الهوية التي تصبغ شخصية المنجي عليه السلام وكيان المستضعفين؟

لقد تكفلت نصوص كثيرة ببيان تلك الهوية، ومنها نصوص الزيارات والأدعية.

والالتفات لتلك الهوية من لسان تلك النصوص رهن القراءة بوعي، فلو قرئت بروحية مجردة عن التفكر والاستلهام العقلي لم تدرك ولم تقتنص.

فمما ورد في دعاء الندبة وصف المنتظر الموعود عليه السلام بهذه الفقرات: (يا بن العلوم الكاملة، يا بن السنن المشهورة، يا بن المعالم المأثورة.... يا بن الآيات

والبينات، يا بن الدلائل الظاهرات، يا بن البراهين الواضحات الباهرات، يا بن الحجج البالغات)[١].

ومما لا شك فيه أن كل فقرة من الفقرات السابقة ترسم جزءًا من هوية المنجي الموعود عليه السلام.

فهو إمام العلوم الكاملة والحقائق المطلقة، ومظهر الآيات والبينات، والهادي للدلائل الظاهرات، والقائم بالبراهين الواضحات والحجج البالغات.

ومن هذا شأنه ووصفه فإنه يكشف الحق الصراح في كل شيء للبشرية، فلا يتمكن أي عاقل منصف من إبداء الشك أو الارتياب، فمن واجهه بالإنكار وعدم القبول كان متمرِّدًا على الحقيقة الواضحة ومعاندًا للدلائل اللائحة.

فلو اتخذ المنجي عليه السلام إجراء الإقصاء للمتمردين ومنهج القضاء على المعاندين فعمله ذاك هو عين إقصاء الجهل ودفع العناد والمكابرة، ولا يقال في حقه أنه قام بإقصاء الرأي الآخر والقناعات الأخرى.

وهل تجد عاقلا واحدا - من أي ملة وشريعة - يعترض على رفع الجهل العقلي، ويرفض القضاء على الظلام الفكري، ويستنكر إزاحة أعداء العلم والحقيقة!!

إن البشرية ترفض مصادرة قناعات الآخرين بالقوة والقهر لو آمنوا بها اشتباها وقصورا، ولن يبقى في عصر الظهور اشتباه او قصور عند أحد بعد انكشاف العلم الكامل والدليل الواضح والبرهان اللائح على يد المخلِّص.

١- المزار، المشهدي/ ٥٨٠.

● **الأمر الثاني: التفسير الحقيقي للانتقام**

إن الاشتباه الذي أدى ببعض لرفض توصيف المنجي عليه السلام بالمنتقم يكمن في تفسير الانتقام بالتشفي وهو أمر رذيلي، بينما الانتقام في مورد حديثنا ليس بهذا المعنى جزما.

والمراد من الانتقام هنا عدة معانٍ مترابطة وهي:

١ـ تعقيم الوسط الإيماني ودولة العدالة بالعلم والمعرفة.

٢ـ تطهير البيئة الإيمانية عن الأوبئة المعنوية والجراثيم الفكرية.

٣ـ تأمين نسيجها الطاهر برفع الرذائل ومساوئ الأخلاق.

وهل يرفض أحد من البشر تطهير الأرض من الأوبئة؟

أم هل تجد عاقلًا واحدًا يستنكر على الحملات الرامية للقضاء على الجراثيم ومسببات الأمراض؟

إن البشرية قاطبة الآن تؤمن بضرورة المحاجر الصحية التي يحبس فيها المرضى الناقلين للعدوى.

فلو لم يكف الحجر الصحي لمنع انتقال العدوى تتجه البشرية عندها إلى التخلص من حياة أولئك المرضى تحفُّظًا على حياة الاحياء الاصحاء.

إن انتقام المنجي عليه السلام في لسان الروايات، أو ما يسمى في المصطلح الراهن بصدام الحضارات، هو عبارة عن حملات تطهيرية للمجتمع الإيماني من أصحاب الأمراض الروحية والفكرية المستعصية والناقلة للعدوى، بعد اطلاعهم على العلوم الكاملة والدلائل الواضحة ومقابلتهم لها بالتمرد والعناد والجحود.

■ **الإشكالية الثانية**

هل يولد الاعتقاد بأطروحة انتصار ووراثة المستضعفين في آخر الزمان نتائج إيجابية وإصلاحية؟

أم أن الإيمان بغلبة المحرومين مستقبلا فكرة مخدرة وسلبية؟

وهل يصب الاعتقاد بظهور المنجي عليه السلام في صالح الأمة أم يناقض مصالحها؟

قد يقال بسلبية نتائج تلك الفكرة على أساس أنها تخلق الاتكالية على ما سيكون، فتنتفي بها الحركة والنهضة من أجل التغيير والإصلاح!

وقد تزداد الفكرة سلبية بالاعتقاد بامتلاء الأرض بالظلم والجور قبيل الظهور؛ فقد تخالج المعتقد بغلبة المستضعفين مستقبلا وظهور المنجي عليه السلام فكرة إهمال المسؤوليات وترك الحبل على الغارب ليزداد الظلم والجور حتى تتوفر أرضية ظهوره وظهور دولة المستضعفين!

وفي المقابل يجزم آخرون بإيجابية عقيدة الانتظار لأنها من دواعي اشتعال الطاقات وتولد الأمل.

وقد حاول بعض تعميق سلبية أطروحة انتصار المستضعفين وظهور المنجي عليه السلام بإلقاء أسباب تأخر الشيعة على تلك العقيدة.

ولا شك أن الحكم بسلبية أو إيجابية فكرة ما متوقف على فهم هوية تلك الفكرة، فلو فُهِمت بنحوٍ خاطئ وتسبب ذلك الفهم في توالد النتائج السلبية تكون تلك النتائج من آثار الفهم الخاطئ وليست من آثار الأطروحة بمعناها الصحيح.

ومنه ندرك سر اختلاف آثار فكرة وراثة المستضعفين وحكومة المنجي عليه السلام عبر العصور، بل في العصر الواحد لدى طوائف الشيعة.

فإن ظهور السلبيات لدى بعض الطوائف كسلبية التكاسل عن النهضة من أجل التغيير مسبب عن الفهم الخاطئ، بينما تراكم الإيجابيات لدى بعض الفئات مسبب عن الوعي بهوية الفكرة.

ولا مبالغة إذا قلنا إن أكثر فئات الشيعة عبر الزمان جنوا إيجابيات عظيمة من اعتقادهم بوراثة المستضعفين وظهور المنجي عليه السلام، ببركة الوعي الذي نشره علماء عصور الغيبة في الناس بجوهر تلك الفكرة، وصبر وثبات الشيعة أمر مشهود عبر التأريخ.

إن المعادلة التي تولد الآثار الإيجابية بتلك الفكرة غير مستعصية على الأفهام، لأن وراثة المستضعفين تعني وراثة أهل الطهر والطهارة، وظهور المنجي عليه السلام هو ظهور رائد الطهر، فلا محيص أن يكون المؤمن بتلك الفكرة طاهر الفكر والسلوك والمسيرة، وإلا لن ينطبق عليه عنوان المنتظر لدولة الطاهرين.

هذا وقد حُلَّت جدلية الانتظار- وهل هو بمعنى الشلل عن الحركة أم هو وهج في الطاقات - بالآيات الجلية والروايات الصريحة.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾[1].

وبِضم الاعتقاد بوراثة المستضعفين - المدلول عليه بآية البحث - إلى الأمر بإعداد القوة في كل المجالات - المدلول عليه بالآية السابقة - ينكشف معنى

١- الأنفال/ ٦٠.

الانتظار الحقيقي وهوية المنتظر الإيجابي، وهو السعي بلا هوادة ولا كلل في إعداد كل مظاهر القوة والغلبة.

ومن الروايات ما ورد عن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: (وإن للقائم منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى، أما الأولى فستة أيام، أو ستة أشهر، أو ستة سنين، وأما الأخرى فيطول أمدها حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر من يقول به فلا يثبت عليه إلا من قوي يقينه وصحت معرفته ولم يجد في نفسه حرجا مما قضينا، وسلم لنا أهل البيت)[1].

فتشير هذه الرواية إلى أعظم مقومات الانتظار والمنتظر وهي اليقين الصحيح والمعرفة المتكاملة.

فالمنتظر مشغول دوما بتقوية المعرفة، وساع في العمل على ترجمة آثارها على واقعه العملي.

وخلاصة الأمر:

إن الاستضعاف والإيمان بوراثة المستضعفين لا ينافيان الأمر ببرنامج إعداد القوة بكل أشكالها وعلى كافة الأصعدة، بل يؤكد ذلك ويلزم به.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٤.

المبحث الثالث

مشروع المنجي قرآني حضاري

مشروع المنجي قرآني حضاري

قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آَلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

إن هذه الآية الكريمة واحدة من مجموعة آيات نزلت للإخبار عن نجاة وإنجاء وقع في تاريخ واحد من أعاظم الأنبياء، وفي مقطعٍ تأريخي سياسي معقد للغاية.

والنجاة تحول واقعي، وهي تشتمل على أطراف:

١ – المنجي بالأصالة وهو الله تعالى.

٢ – المنجي بالتجلي وهو الرسول.

٣ – الأمة التي وقع عليها فعل الإنجاء.

ولوقوع النجاة لا بد من تقدم شرائط ومقدمات لازمة من قبل المؤمنين.

والسؤال: هل يمكن أن تتحقق النجاة ويتجلى الإنجاء في أفق أرحب وأوسع من نطاق المقطع التاريخي الذي أخبرت عنه الآية الكريمة؟!

وهل ثمة منتظر عالمي؟!

وهل وفرنا الشروط والمقدمات لتحقق نجاة البشرية في المدى الأوسع؟

١- البقرة/ ٤٩.

*المهدوية في القرآن

ويمكن صياغة الأسئلة السابقة بتعبير آخر فيقال:

هل للمشروع المهدوي العظيم - بحسب مباني الشيعة - تنظير في القرآن؟

قد يقال: لا نجد لاسم الموعود أثرًا في القرآن!!

ولا نتلمس فيه ذكرا لتاريخ الغيبة ولا تلميحا بعلامات يوم الظهور!!

ولا نلحظ أثرا لعقائد المهدوية الشيعية في الآيات!!

والنتيجة انعدام أي علاقة للقرآن بالمشروع المهدوي!!

لو أخذنا المسألة بهذه البساطة، وسلكنا طريقة سطحية في الاستدلال فلن نجد تنصيصا واضحا على مساحة واسعة من الاعتقادات المهدوية في القرآن الكريم.

بل لن نعثر على أثر لعقائد كثيرة نسلم بها.

فأين تكمن الإشكالية؟

ثمة طريقتان من النظر في آيات القرآن الكريم، ولكلا الطريقتين معالم ومرتكزات.

■ الطريقة الأولى

وهي تتلخص في خطوات:

١ - التفسير الاستقلالي للآية بحسب موقعها في السورة، وغض النظر عن بقية الآيات الواردة في نفس الموضوع مادة أو معنى.

٢ - ربط الآية بخصوص الحدث التاريخي الذي تشير إليه، وقصر نظرها على الأشخاص المذكورين فيها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[1].

٣ - حمل الآيات على المفاهيم العامة بالارتكاز على ألفاظها، وعدم الاستفادة من إشاراتها للانتقال بها من التأريخ إلى الملاحم المستقبلية.

٤ - العزل بين الآيات والتفسيرات الروائية.

■ **الطريقة الثانية**

ومرتكزاتها تختلف كليا عما مر في الطريقة الأولى:

١ - النظر في الآيات بغاية اكتشاف المعادلات القرآنية السارية عبر الزمن، واستنباط السنن الإلهية التاريخية الحتمية منها.

٢ - استكشاف تجليات العناوين القرآنية في راهن ومستقبل البشرية، كعنوان (التمكين) و (الوراثة) و (الاستضعاف)، وذلك بالارتكاز على إرشادات روايات أهل البيت عليهم السلام، والبناء على دور رئيسي للروايات في تلوين التفسير وتوجيهه.

٣ - المحافظة على روح القرآن المتجددة والتي تعالج آمال الحاضرين والمعدومين كما عالجت تطلعات الماضين.

والخلاصة أنه وبحسب مسلك تفسير الآيات ستتنوع النتيجة.

١- القصص/ ٥، ٦.

فعلى ضوء الطريقة الأولى لن يجد المفسر أثرا واضحا لعالم الظهور في القرآن، بينما على وفق الطريقة الثانية سيتلمس المفسر علاقة وطيدة بين القرآن والدولة الموعودة، بل سيجزم أنه هو المؤسس الأول للإيمان بها.

فلو سلطنا مرتكزات الطريقة الثانية على آيات نجاة وإنجاء بني إسرائيل، فسنلحظ ارتباطا وثيقا بينها وبين العقيدة المهدوية، وذلك ببركة النظر في كلياتها وقواعدها المستبطنة فيها.

ومن كليات تلك الآيات الإشارة إلى شروط علمية النجاة، وخصائص القيادة المنجية، وضرورة تحمل أعباء الامتحانات العديدة بغية الوصول إلى التحول المأمول.

ولا شك أن تلك الكليات حاكمة على التأريخ والمستقبل.

بل على وفق الطريقة التفسيرية الثانية سيكون عدد الآيات التي تبلور وتبرهن مسائل الغيبة والظهور فوق حد الإحصاء، كآيات غيبة الأنبياء، وآيات رفع بعضهم للسماء انتظارًا للدور والمسؤولية.

وسيغدو مشروع المهدوية مستساغا، بل ضروريًّا ويقينيًّا.

*الشبه بين المنجي التاريخي والمنجي المستقبلي

على ضوء آيات إنجاء بني إسرائيل يمكن استخراج وجوه الشبه بين ما جرى في تاريخ نبوة موسى عليه السلام وما جرى وسيجري في مفاصل المشروع المهدوي.

فقد ورد عن الإمام الرضا عليه السلام قوله في الحجة عليه السلام: (بأبي وأمّي سميّ جدّي وشبيهي وشبيه موسى بن عمران عليه السلام)[1].

١- مختصر بصائر الدرجات، الحلي/ ٢١٤.

■ **الشبه الأول: المنجي بالتجلي**

إن المحور الذي تدور عليه المسائل نفيا أو إثباتا هو من أهم وجوه الفرق بين المذاهب.

فالعامة يرفعون شعار محور التوحيد صورة، ويتحسسون من جملة من العقائد والممارسات الشيعية، لأنها في زعمهم منافرة لمحور التوحيد.

بينما يركز الشيعة على محاور وأصول متعددة منها محور الإمامة والمهدوية إلى جانب محور التوحيد، وعلى هذا الأساس يؤمنون بهندسة عقائدية خاصة ينبثق منها طقوس وممارسات محددة.

وقد أوجب اختلاف المحاور التباعد والتنافر بين المذاهب، فروج البعض الآن فكرة وجود دين خاص بالشيعة في مقابل دين الإسلام.

والفكرة الآنفة – وإن كان يجهر بها شريحة واسعة من رجال الدين في المذهب الآخر هذه الأيام – هي سياسية المنشأ ولها غايات خبيثة، بل أسست تمهيدا للتصالح مع اليهود بتوجيه أصابع الاتهام للشيعة ونعتهم بوصف الخطر الأول على المسلمين.

وقد خفي على من يردد تلك الفكرة حقيقة التوحيد لدى الشيعة، لذا اتهمهم بأنهم يقدمون الإمامة على التوحيد، بينما يؤمن الشيعة بالإمامة بما انها بوابة للتوحيد لا بديلا عنه.

ومن هنا كان إمعانهم في العقيدة المهدوية ومشروع المنجي على خلفية شبهه بالمنجي التاريخي في بني إسرائيل، ولم تكن قيادة المنجي التاريخي اعراضا عن التوحيد.

لأن القرآن سمى موسى عليه السلام بالمنجي وسمى الله تعالى كذلك بالمنجي مع حفظ الفارق.

وعليه فوسم المهدي عليه السلام بعنوان المنجي لا يعارض التوحيد في شيء، لأن الله هو المنجي بالأصالة، والمهدي وموسى عليهما السلام منجيان بالتجلي.

إن التركيز على عقيدة المخلص والمنجي بنفس منطق القرآن ليس انفصالا عن التوحيد، بل تركيز على تجليات إرادة الله في فعل أوليائه.

فدور الحجة عليه السلام في آخر الزمان كدور موسى عليه السلام في التأريخ، وإن كان للإمام عليه السلام ولاية أوسع وهيمنة أشمل.

ويعرف ما قلناه من تنوع النسبة في آيات المنجي، فمرة ينسب الفعل لله بالمفرد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾[١].

ومرة بالجمع، وهو وارد في عدة من الآيات كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾[٣].

١- ابراهيم/ ٦ .
٢- البقرة/ ٤٩.
٣- الاعراف/ ١٤١.

فالنسبة لله وحده إشارة إلى الفاعل بالأصالة، وأنها النسبة الأهم في حصول الفعل.

والنسبة للجمع إشارة لفعله تعالى، ولفعل الأنبياء والأئمة عليهم السلام وهو فعل آيتي مرآتي.

● تنبيه

وقد يجمع البعض بين انتساب النجاة لله - كما ورد في نص القرآن -، وبين الرواية العظيمة الواردة بألسن مختلفة، منها ما في سنن الترمذي: (أفضل العبادة انتظار الفرج) [١] ومنها (أفضل العبادة توقع الفرج) [٢] ومنها (أفضل العبادة بعد المعرفة انتظار الفرج) [٣]

فيستنتج خطأ أن المطلوب من المؤمنين هو انتظار إرادة الله، وليس عليهم إلا السكون والسكوت في الواقع!!

إن مثل هذا الاستنتاج يكذبه مكابدات موسى عليه السلام مع قومه، وسعيه الحثيث للتغيير.

وتكذبه آيات القرآن التي تنص على توقف التغيير من الله على شرط التغيير من العباد.

وبذلك يكون فعل الإنجاء من الله تعالى ومن الرسول والإمام عليهما السلام مرتبط بالقواعد والمسلمات القرآنية من لزوم سعي الأنبياء ومكابدات المؤمنين.

١- سنن الترمذي٥/ ٥٦٥.

٢- كتاب الكامل في ضعفاء الرجال، بن عدي٢/ ٥١١.

٣- تحف العقول، ابن شعبة الحراني١/ ٤٠٣.

بل أشار بعض المحققين إلى مطلب مهم يتجلى من ربط النجاة والإنجاء بالله في القرآن، وهو رفع المبررات الواهية ونزع الجزع النفساني والهزيمة الروحية من قلوب الخائفين والمرعوبين من القوى الكبرى والدول العظمى؛ لأن المنجي والمخلص من ذلهم ومشروعهم المدمر هو الله الذي تصغر أمامه كل القوى.

■ **الشبه الثاني: قيام المؤمنين بالمسؤولية في كل زمان**

رهن القرآن تحقق النجاة في ذلك المقطع التاريخي بقيام جملة من المؤمنين بالمسؤولية الفردية والاجتماعية.

فقد جاءهم الغوث الإلهي والتأييد السماوي بعد التحاقهم بمشروع موسى عليه السلام.

وهذا الشرط مربوط بسنة قرآنية محكمة وجلية، ومقررة في آيات كثيرة كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1]، فهي ترشد إلى أن النجاة المستقبلية مرهونة بالسعي والتغيير من قبل الإنسان فردا ومجتمعا.

وهذا ينطبق على المؤمنين المعاصرين والمشروع المهدوي، فتمهيد المؤمنين الآن للظهور، وأخذهم بالتوصيات، وإنجازهم للتكاليف كلها شروط لظهور المنجي، لرجوع ذلك لقاعدة قرآنية لا تتخلف في مورد واحد.

فشرط ظهور المنجي عليه السلام بالدولة الموعودة هو قيام كل مكلف بالتغيير على مستوى ساحة نفسه وكيان ذاته كمسؤولية فردية أولى تصب في أداء وإنجاز المسؤولية الاجتماعية.

١- الرعد/ ١١.

فما نسميه بالتمهيد للظهور هو دعوة قرآنية متضمنة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1] ونظائرها، لأن التمهيد نوع من التغيير لمسار الذات والواقع.

*التمهيد بالتقية أم بالحماسة؟

بعد التسليم بضرورة التمهيد ينفتح الباب لهذا السؤال:

هل يتبلور التمهيد للمشروع المهدوي بالأخذ بأسلوب التقية، أم بسلوك أسلوب الثورة والحماسة؟

مما يؤسف له أن الباحثين لم يخوضوا في جواب هذا السؤال بالنحو التفصيلي، ولم يؤصلوا له معرفيا، ولم يتحول إلى همٍّ ثقافي، رغم أنه بحث حساس وأساسي للغاية.

إذ إنَّ منهاج التغيير وأسلوبه إما أن يفضي إلى أداء المسؤولية، وإما أنه يصد عنها ويمانعها.

لذا فالمؤمن الرسالي ليس مخيَّرًا في منهج التغيير، بل إنه مخيّر في المناورة في المنهج وفق ما تتطلبه الحكمة، وأما أساس المنهج فتحدده ظروف موضوعية وعوامل خارجية.

وقد بين ذلك إمامنا الرضا عليه السلام في واحدة من أروع بياناته وتعاليمه للشيعة.

فقد روى الطبرسي في الاحتجاج عن أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام في حديث أن الرضا عليه السلام جفا جماعة من الشيعة وحجبهم.

١- الرعد/ ١١.

فقالوا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ما هذا الجفاء العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟

قال عليه السلام: (لدعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون ومقصرون في كثير من الفرائض، وتتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتقون حيث لا تجب التقية، وتتركون التقية حيث لا بد من التقية)[1].

فلم يكن غضب الإمام عليه السلام عليهم لكفرانهم بعقائد التشيع، ولم يحتجب عنهم لعدم اتخاذهم منهجًا عمليًّا للتغيير والتمهيد.

كما أن استغرابهم من احتجاب الإمام عليه السلام عنهم يدل على اعتقادهم باستقامة عقائدهم، وعلى سلوكهم منهجا معيّنا في أداء المسؤولية.

فعلى أي شيء غضب الإمام عليه السلام؟

وفي أي موضوع بالتحديد أخفق الشيعة آنذاك؟

يكمن إخفاقهم في عدم عقدهم لدراسات فكرية وميدانية جادة وممهدة لتحديد المنهج الصحيح والمناسب للظروف، لكي تتحقق به الوظيفة والمسؤولية حقيقة.

وعلى ضوء ما مر فثمة أسئلة مطروحة على صعيد الفكر الآن وتحتاج إلى إجابات وافية، وهي:

١ـ هل يكفي صرف إيماننا واعتقادنا بمشروع المنجي عليه السلام؟

٢ـ وهل نحن مخيرون في اختيار منهج التمهيد للظهور؟

إن أهم الإخفاقات التي منيت بها بعض مجتمعات الشيعة تتجلى في أمرين:

١- الاحتجاج ٢، الطبرسي/ ٢٣٧.

أولاً: المعرفة الكافية بالمشروع المهدوي.

ثانياً: تحديد المنهج المفضي للتمهيد الحقيقي.

إذ ينقسم الشيعة إلى ثلاث أنماط:

١ – نمط مهمل للمسؤولية معرفة وأداء.

٢ – جماعات تؤدي الوظيفة بلغة حماسية دائمًا.

٣ – فئة آخذ بالتقية بلا حدود في أداء ما قرر عليهم.

وإذا ما أردنا تصحيح المسار وتفادي الإخفاقات في أداء الواجب فلا بد أن ننجز أمرين:

الأول: التوسع المعرفي في عقائد أهل البيت عليهم السلام، وبالأخص معارف إمامة المنجي عليه السلام ودولة الظهور، ليكون ذلك بوابة لمعرفة بقية الأئمة عليهم السلام علمًا وعملًا وسيرة؛ لأنه عليه السلام هو المعرِّف الأجلى لهم، وهو مرآة علومهم ومقاماتهم وأخلاقهم.

مضافًا إلى معالجة الشبهات المبثوثة في الفضاء العام، لإنعاش الاعتقادات الدينية وتوليد النشاط العقلي والحيوية الفكرية.

الثاني: إقامة دراسات فكرية وميدانية معمقة لتحديد أسلوب ومنهج التمهيد في كل مقطع زماني، حتى لا نكون من أهل التقية حيث لا تقية، أو من أهل الحماسة حيث لا ظروف مناسبة للثورة.

وحصول الاختلاف بيننا – حتى في البيئة الواحدة والظروف المتشابهة – في أنماط التغيير والتمهيد شاهد حي على عدم نضج الحس العلمي فينا لقراءة الأحداث على ما هي عليه، وعلى قصور البصيرة عن تحديد نمط الواجب والمسؤولية الملقاة على عواتقنا.

*انتظار الفرج الإلهي بلغة عصرية

قد يسأل سائل:

١ - أين هو صدى وانعكاس المشروع المهدوي لدى المذاهب الأخرى وأهل الملل والنحل في أرجاء العالم؟

٢ - أليس هو فكرة خاصة وهم خاص بنا كشيعة لا يشاركنا فيه أحد؟

٣ - أليس من شأن الأفكار الخاصة أن تذوب وتنماث كلما تقدم بها الزمن كما ينماث الملح في الماء؟

إن إجابة هذه الأسئلة يعتمد على هوية السائل وقربه وبعده من القرآن والدين.

فإن كان السائل من أهل الإيمان، فإن المؤمن لا يكترث لعدد من يشترك معه في الفكرة، ما دام الدليل اليقيني العقلي أو النقلي قائمًا على ثبوتها، ويظل متمسكًا بها حتى لو عاش غربة فكرية في محيط المنكرين والجاحدين.

وإذا كان السائل غير مؤمن بالقرآن والدين فثمة تصوير عصري للفكرة المهدوية يرفع الإشكالية من أساسها، وذلك بأن يترجم له انتظار الفرج وعقد الآمال على المشروع المهدوي بلغة عصرية يفهمها الأكاديميون، بل عموم البشر.

بأن يقال:

إن انتظار الفرج ويوم الظهور هو فكرة يؤمن بها بقية البشر، ولا تجد من يتنكر لها.

أليس البشر على اختلاف فلسفاتهم ينشدون عملية التغيير السياسي والاجتماعي!!

أليس التغيير للأفضل والأحسن والأمثل من الهموم اليومية التي لا تبارح خيال البشر ويقاتل لأجلها كل الشعوب!!

ولذا يجنح الحكام وحتى المفسدين والظالمين منهم - إذا أرادوا أن يثبتوا وضعهم السياسي وينزعوا التوتر الشعبي عن مملكاتهم - إلى تنشيط آمال التغيير السياسي والاجتماعي لدى شعوبهم بالوعود والمظاهر حتى ولو كانت كاذبة خادعة، معرفة منهم أنها فطرة مودعة في كيان كل البشر.

بل وحتى الدول العظمى إذا ما أرادت أن تعمم قيمها وتحافظ على صورتها عالميًّا فإنها تلزم الحكام في بقية الدول بإقرار مقتضيات الديمقراطية وإطلاق الحريات وفتح مجالات النشاط السياسي.

وكل ذلك يصب في عملية التغيير السياسي والإصلاح الاجتماعي التي تراود كل الشعوب على تنوعها.

إن هذا الأمل اليومي والأمنية الحاضرة باستمرار لدى كل الأفراد والأمم، والتي يستغلها حتى أهل السياسة للسيطرة على المشاعر والرغبات العارمة هي ترجمان للعقيدة المهدوية، وعبارة أخرى عن انتظار الفرج وترقب المنجي عليه السلام.

إن ثمة عاملين أساسيين يثبتان عقيدة المنجي عليه السلام ويلزمان بانتظار الفرج، وهما:

١ - إخبارات الكتب السماوية ونصوص الروايات.

٢ - كونها عقيدة ذات منشأ فطري، وأمل يتحرك في نفوس البشر، وإن كان يترجم في الواقع بصياغات ولغات وبرامج مختلفة، وله انعكاسات وأصداء متنوعة.

إن انتظار الفرج بمعناه الصحيح هو ملتقى آمال الشعوب على التغيير الاجتماعي، والإصلاح السياسي.

ولأن المنجي عليه السلام مبعوث سماوي فهو يتكفل برسم خريطة التغيير الأعظم المستوعب لكل النواحي والجهات.

وعلى ضوء الترجمة التي بيناها لفكرة مشروع المنجي تسقط التفسيرات البائسة التي فسرت نشوء الفكرة بشكل سلبي؛ إذ أرجعها البعض إلى الخوف الناشئ من الجهل المستقبلي، أو إلى حالة نفسية منعكسة من الاضطهاد، أو إلى ممارسة تقليدية موروثة.

لكنها على ضوء ما قدمنا فكرة حضارية قويمة، لإيمان جميع البشر بضرورة التغيير السياسي والاجتماعي والسعي للتكامل بلا حدود.

وقد دعمها القرآن وصادق على صحتها.

ومن هذا الباب ينفتح لنا فرق عظيم بين الشيعة وسائر البشرية يتجلى في الوقوف على المصاديق الواقعية للعقائد والآمال والتطلعات، فالشيعة وإن كانت تشترك مع البشرية في الفطرة والتطلعات لكنهم يتميزون عن سائر البشر في الظفر بالتفسير الواقعي وتطبيق الكليات على الجزئيات حقيقة.

المبحث الرابع

خطوات تمهيدية لظاهرة الغيبة

خطوات تمهيدية لظاهرة الغيبة

روى الحلي في مختصر بصائر الدرجات عن أبي بصير قال:

قلت لأبي عبدالله عليه السلام كان أبو جعفر عليه السلام يقول: (لقائم آل محمد عليه السلام غيبتان واحدة طويلة والأخرى قصيرة، قال: فقال لي نعم يا أبا بصير أحدهما أطول من الأخرى)[1].

وروى الصدوق في كمال الدين عن الإمام الصادق عليه السلام في وصف أحوال طائفة من الناس في الغيبة الكبرى أنه قال: (إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل)[2].

***تمهيد**

يدور الحديث في هذا البحث حول ظاهرة الغيبة الكبرى، والتي لا يعلم مداها إلا الله، ونتوخى الإجابة عن هذا السؤال:

كيف استطاعت الطائفة الشيعية أن تتعقل غيبة المنجي عليه السلام طول هذه المدة، وأن تتجاوز إشكاليات الغيبة فكريا وعمليًا؟

في البداية نشير إلى ثلاث نقاط:

١- مختصر بصائر الدرجات، الحلي/ ١٩٥.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤٨٢.

النقطة الأولى: اصطلح على الإمام الثاني عشر عليه السلام بمصطلح القائم، سواء في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله أو في روايات الأئمة عليهم السلام.

فهل لهذا المصطلح دلالة متميزة يريد الأئمة عليهم السلام إيصالها للأمة، أم أنه مصطلح ذو دلالة عادية متعارفة؟!

يشير بعض العرفاء إلى ان المنجي عليه السلام إنما سمي بالقائم إشارة إلى نحو وجوده، فهو ذو وجود خاص:

١ - لا يذبل ولا يهرم ولا يفسد.

٢ - لا تؤثر عليه مواد الدنيا كتأثيرها في سائر الناس.

٣ - لا يتغير بحركة الزمان والمكان كما يتغير بقية الناس.

٤ - إن موته وحياته مرتبطان مباشرة بالتقدير الإلهي من غير أن يكون للأسباب والعلل أي أثر في ذلك.

ومن البين أن هذه الخصائص مستلة من الأحاديث، فعن الصادق عليه السلام أنه قال: (... يا ابن الفضل: إن هذا الأمر أمر من أمر الله وسر من سر الله وغيب من غيب الله)[1].

وفي ظني أن كلام العارف الآنف يشير لخصوصية وجوده الشريف من جهة التكوين.

وفي اعتقادي إن لمصطلح القائم دلالة أخرى تشير إلى خصوصية في فعلية رسالته حتى في ظرف الغيبة.

---

١ - علل الشرائع، الصدوق/ ٢٤٥.

وقد دل عليه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ظاهر مشهور أو خائف مغمور) [١].

بمعنى قيام دوره بالفعل، ووجود أثر وسلطان له حتى في زمان الغيبة.

وهذا أمر سنشبعه بحثًا في طيات الكلام.

*الصورة البدنية التي يظهر عليها الحجة عليه السلام

كثر في روايات المعصومين عليهم السلام ذكر خصوصيات الصورة الجسمانية التي يظهر عليها القائم عليه السلام.

نذكر بعضا منها:

١- روى الصدوق بسنده إلى زيد الشحام عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: (إِنَّ صَاحِباً عليه السلام غَابَ عَنْ قَوْمِهِ زَمَانا وَ كَانَ يَوْمَ غَابَ عَنْهُمْ كَهْلًا مُبْدَحَ الْبَطْنِ حَسَنَ الْجِسْمِ وَافِرَ اللِّحْيَةِ خَمِيصَ الْبَطْنِ خَفِيفَ الْعَارِضَيْنِ مُجْتَمِعاً رَبْعَةً مِنَ الرِّجَالِ.

فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ لَمْ يَعْرِفُوهُ بِصُورَتِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ عَلَى ثَلَاثِ طَبَقَاتٍ: طَبَقَةٌ جَاحِدَةٌ لَا تَرْجِعُ أَبَداً، وَأُخْرَى شَاكَّةٌ فِيهِ، وَأُخْرَى عَلَى يَقِينٍ.

فَبَدَأَ عليه السلام حَيْثُ رَجَعَ بِالطَّبَقَةِ الشَّاكَّةِ فَقَالَ لَهُمْ:

أَنَا صَالِحٌ فَكَذَّبُوهُ وَشَتَمُوهُ وَزَجَرُوهُ وَقَالُوا بَرِئَ اللهُ مِنْكَ إِنَّ صَاحِباً كَانَ فِي غَيْرِ صَورَتِكَ.

قَالَ: فَأَتَى الْجُحَّادَ فَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ الْقَوْلَ وَنَفَرُوا مِنْهُ أَشَدَّ النُّفُورِ.

١- كمال الدين، الصدوق١/ ٢٩٤.

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ وَهُمْ أَهْلُ الْيَقِينِ فَقَالَ لَهُمْ:

أَنَا صَالِحٌ، فَقَالُوا أَخْبِرْنَا خَبَراً لَا نَشُكُّ فِيكَ مَعَهُ أَنَّكَ صَالِحٌ فَإِنَّا لَا نَمْتَرِي أَنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْخَالِقُ يَنْقُلُ وَيُحَوِّلُ فِي أَيِّ صُورَةٍ شَاءَ وَقَدْ أَخْبَرَنَا وَتَدَارَسْنَا فِيمَا بَيْنَنَا بِعَلَامَاتِ الْقَائِمِ إِذَا جَاءَ.

وَإِنَّمَا يَصِحُّ عِنْدَنَا إِذَا أَتَى الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ.

فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ أَنَا صَالِحٌ الَّذِي أَتَيْتُكُمْ بِالنَّاقَةِ فَقَالُوا صَدَقْتَ وَهِيَ الَّتِي نَتَدَارَسُ، فَمَا عَلَامَتُهَا.

فَقَالَ: ﴿**لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ**﴾.

قَالُوا آمَنَّا بِاللهَّ وَبِمَا جِئْتَنَا بِهِ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿**أَنَّ صالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾.

فَقَالَ أَهْلُ الْيَقِينِ ﴿**إِنَّا بِما أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ قالَ ﴿**الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**﴾ وَهُمُ الشُّكَّاكُ والْجُحَّادُ ﴿**إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كافِرُونَ**﴾.

قُلْتُ هَلْ كَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ الْيَوْمَ عَالِمٌ بِهِ؟

قَالَ اللهَّ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يَتْرُكَ الْأَرْضَ بِلَا عَالِمٍ يَدُلُّ عَلَى اللهَّ عَزَّ وجَلَّ، وَلَقَدْ مَكَثَ الْقَوْمُ بَعْدَ خُرُوجِ صَالِحٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ عَلَى فَتْرَةٍ لَا يَعْرِفُونَ إِمَاماً غَيْرَ أَنَّهُمْ عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ دِينِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ كَلِمَتُهُمْ وَاحِدَةٌ، فَلَمَّا ظَهَرَ صَالِحٌ عليه السلام اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ.

وَإِنَّمَا مَثَلُ الْقَائِمِ عليه السلام مَثَلُ صَالِحٍ)[1].

١- كمال الدين، الصدوق١/ ١٣٦ و١٣٧.

وتدل الرواية على أن مثل القائم من أهل البيت عليهم السلام مثل صالح عليه السلام من عدة جهات:

١ - يخرج الحجة عليه السلام على الأمة في صورة جسمانية غير متناسبة مع طول الغيبة، وتكون تلك الصورة فتنة وامتحان للناس.

٢ - يواجه عليه السلام ثلاث طبقات وفئات من حيث الإيمان وعدمه ومن حيث حسن الاعتقاد وفساده.

٣ - تلعب ظروف الغيبة والفترة دورا هاما في التحول العقدي، وفي سنة الاستبدال من حال إلى حال، وذلك لأن الغيبة محنة مهولة وامتحان عظيم.

٤ - إن أهل اليقين هم الذين لا يدور إيمانهم واعتقادهم مدار المظاهر والشكليات، بل مدار البينات والدلائل الظاهرات.

٥ - إن غيابه عليه السلام لا يعني ارتفاع كل درجات الحجج الهادية، بل يتزامن مع الغيبة والفترة وجود علماء وأهل دراية يأخذون بيد الناس نحو الله، ويدلونهم على مواضع الإيمان.

٦ - ويصطلح عليهم في غيبة القائم من آل محمد عليهم السلام بالمراجع والمجتهدين والفقهاء.

٢- وروى الصدوق في كمال الدين بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَقِيصَا قَالَ:

لَمَّا صَالَحَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَلَامَهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَيْعَتِه فَقالَ عليه السلام ... (أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّهُ مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا وَيَقَعُ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ لِطَاغِيَةِ زَمَانِهِ إِلَّا الْقَائِمُ الَّذِي يُصَلِّي رُوحُ اللهِ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليه السلام خَلْفَهُ.

فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخْفِي وِلَادَتَهُ وَيُغَيِّبُ شَخْصَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِأَحَدٍ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ إِذَا خَرَجَ، ذَلِكَ التَّاسِعُ مِنْ وُلْدِ أَخِي الْحُسَيْنِ ابْنِ سَيِّدَةِ الْإِمَاءِ يُطِيلُ اللهُ عُمُرَهُ فِي غَيْبَتِهِ ثُمَّ يُظْهِرُهُ بِقُدْرَتِهِ فِي صُورَةِ شَابٍّ دُونَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير) [١].

٣- وروى الصدوق عَنْ أَبِي الصَّلْتِ الْهَرَوِيِّ قَالَ: قُلْتُ لِلرِّضَا عليه السلام مَا عَلَامَاتُ الْقَائِمِ مِنْكُمْ إِذَا خَرَجَ؟

قَالَ: (عَلَامَتُهُ أَنْ يَكُونَ شَيْخَ السِّنِّ شَابَّ الْمَنْظَرِ حَتَّى إِنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهِ لَيَحْسَبُهُ ابْنَ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَوْ دُونَهَا وَإِنَّ مِنْ عَلَامَاتِهِ أَنْ لَا يَهْرَمَ بِمُرُورِ الْأَيَّامِ وَ اللَّيَالِي حَتَّى يَأْتِيَهُ أَجَلُهُ) [٢].

٤- وروى الصدوق عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الثَّقَفِيِّ الطَّحَّانِ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْبَاقِرِ عليه السلام وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَهُ عَنِ الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله.

فَقَالَ لِي مُبْتَدِئاً: (يَا مُحَمَّدَ بْنَ مُسْلِمٍ إِنَّ فِي الْقَائِمِ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله شَبَهاً مِنْ خَمْسَةٍ مِنَ الرُّسُلِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى وَيُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله.

١- كمال الدين، الصدوق١/ ٣١٦.

٢- نفس المصدر ٢ / ٦٥٢.

فَأَمَّا شَبَهُهُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَرُجُوعُهُ مِنْ غَيْبَتِهِ وَهُوَ شَابٌّ بَعْدَ كِبَرِ السِّنِّ.

وَأَمَّا شَبَهُهُ مِنْ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ عليه السلام فَالْغَيْبَةُ مِنْ خَاصَّتِهِ وَعَامَّتِهِ وَاخْتِفَاؤُهُ مِنْ إِخْوَتِهِ وَإِشْكَالُ أَمْرِهِ عَلَى أَبِيهِ يَعْقُوبَ عليه السلام مَعَ قُرْبِ الْمَسَافَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ وَشِيعَتِهِ.

وَأَمَّا شَبَهُهُ مِنْ مُوسَى عليه السلام فَدَوَامُ خَوْفِهِ وَطُولُ غَيْبَتِهِ وَخَفَاءُ وِلَادَتِهِ وَتَعَبُ شِيعَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِمَّا لَقُوا مِنَ الْأَذَى وَالْهَوَانِ إِلَى أَنْ أَذِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظُهُورِهِ وَنَصْرِهِ وَأَيَّدَهُ عَلَى عَدُوِّهِ.

وَأَمَّا شَبَهُهُ مِنْ عِيسَى عليه السلام فَاخْتِلَافُ مَنِ اخْتَلَفَ فِيهِ حَتَّى قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَا وُلِدَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مَاتَ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ قُتِلَ وَصُلِبَ.

وَأَمَّا شَبَهُهُ مِنْ جَدِّهِ الْمُصْطَفَى صلى الله عليه وآله فَخُرُوجُهُ بِالسَّيْفِ وَقَتْلُهُ أَعْدَاءَ اللهِ وَأَعْدَاءَ رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله وَالْجَبَّارِينَ وَالطَّوَاغِيتَ وَأَنَّهُ يُنْصَرُ بِالسَّيْفِ وَالرُّعْبِ وَأَنَّهُ لَا تُرَدُّ لَهُ رَايَةٌ ..) [1].

٥- وفي كمال الدين عَنِ الرَّيَّانِ بْنِ الصَّلْتِ قَالَ: قُلْتُ لِلرِّضَا عليه السلام أَنْتَ صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ.

فَقَالَ: (أَنَا صَاحِبُ هَذَا الْأَمْرِ وَلَكِنِّي لَسْتُ بِالَّذِي أَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَكَيْفَ أَكُونُ ذَلِكَ عَلَى مَا تَرَى مِنْ ضَعْفِ بَدَنِي، وَإِنَّ الْقَائِمَ هُوَ الَّذِي إِذَا خَرَجَ كَانَ فِي سِنِّ الشُّيُوخِ وَ مَنْظَرِ الشُّبَّانِ قَوِيّاً فِي بَدَنِهِ حَتَّى لَوْ مَدَّ يَدَهُ إِلَى أَعْظَمِ شَجَرَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَقَلَعَهَا، وَلَوْ صَاحَ بَيْنَ الْجِبَالِ لَتَدَكْدَكَتْ صُخُورُهَا يَكُونُ مَعَهُ عَصَا مُوسَى وَخَاتَمُ سُلَيْمَانَ ع، ذَاكَ الرَّابِعُ مِنْ وُلْدِي يُغَيِّبُهُ اللهُ فِي سِتْرِهِ مَا شَاءَ ثُمَّ يُظْهِرُهُ فَيَمْلَأُ بِهِ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً) [2].

١- كمال الدين و تمام النعمة، الشيخ الصدوق١ / ٣٢٧.
٢- نفس المصدر ٢ / ٣٧٦.

٦- وفي غيبة الطوسي عَنْ عَلِيِّ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنْ أَبِي عَبْدِاللهِ عليه السلام قَالَ: (إِنَّ وَلِيَّ اللهِ يُعَمَّرُ عُمُرَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عِشْرِينَ وَ مِائَةَ سَنَةٍ وَيَظْهَرُ فِي صُورَةِ فَتًى مُوَفَّقٍ ابْنِ ثَلَاثِينَ سَنَةً) [١].

٧- وفي نفس المصدر عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (لَوْ خَرَجَ الْقَائِمُ لَقَدْ أَنْكَرَهُ النَّاسُ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ شَابّاً مُوَفَّقاً، فَلَا يَلْبَثُ عَلَيْهِ إِلَّا كُلُّ مُؤْمِنٍ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَهُ فِي الذَّرِّ الْأَوَّلِ) [٢].

٨- وفي الغيبة: وَرُوِيَ فِي خَبَرٍ آخَرَ أَنَّ فِي صَاحِبِ الزَّمَانِ عليه السلام شَبَهاً مِنْ يُونُسَ رُجُوعُهُ مِنْ غَيْبَتِهِ بِشَرْخِ الشَّبَابِ)[٣].

٩- وفي غيبة النعماني عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (الْقَائِمُ مِنْ وُلْدِي يُعَمَّرُ عُمُرَ الْخَلِيلِ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ يُدْرَى بِهِ ثُمَّ يَغِيبُ غَيْبَةً فِي الدَّهْرِ وَيَظْهَرُ فِي صُورَةِ شَابٍّ مُوفِقٍ ابْنِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً حَتَّى تَرْجِعَ عَنْهُ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ يَمْلَأُ الْأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً)[٤].

وقد تثار عدة مسائل من خلال النظر في هذه الروايات:

أولا: إن استمرار المرحلة الشبابية في الإمام عليه السلام بطريق الإعجاز الإلهي وجريان سنن خاصة فيه مختلفة عن السنن الجارية في سائر الخلق تفسر مسألة بقائه حيا إلى هذه اللحظة، فرغم تقدم الزمان به إلا أن استمرار الطبيعة الشبابية فيه تساعد في بقائه على قيد الحياة طويلا.

١- الغيبة، الشيخ الطوسي / ٤٢٠.
٢- نفس المصدر/ ٤٢٠.
٣- نفس المصدر/ ٤٢١.
٤- كتاب الغيبة، النعماني، محمد بن إبراهيم / ١٨٩.

فإن كان ثمة تساؤل عن بقائه إلى هذه اللحظة فلا بد أن يوجه إلى إعجاز استمرار شبابه لا إلى طول بقائه، لأن طول بقائه يكون سهل القبول بعد التسليم ببقائه شابا.

قال السيد علي الصدر:

(إن الرمز المكنون في طول عمره رعاه اللهّ تعالى هو الإعجاز الالهي بإبقائه شاباً مصوناً عن عوارض الشيب، واللهّ هو القادر على كل شيء). [١]

ثانيا: أشكل بعض العامة بالتناقض، لأن تلك الروايات ذكرت سنينا متفاوتة!!

ورد بعض الأعلام بالقول: إن الروايات التي أفادت أنه يظهر وهو ابن اثنين وثلاثين أو ابن ثلاثين أو ما دون الأربعين كلها يمكن قبولها على أساس أن الإمام عند ظهوره يظهر بعمر كبير قد تجاوز الألف سنة ولكن صورته صورة شاب، وتحديد عمر هذه الصورة يختلف باختلاف الأشخاص.

فلعل الإمام عليه السلام نظر لحال الرواي، فقال إنك لو نظرت إليه لقلت أنه بعمر أثنين وثلاثين أو بعمر ثلاثين أو دون الأربعين، وهذه كلها تدل على نفس المرحلة العمرية الواقعة بين الثلاثين والأربعين.

النقطة الثانية: يدل وصف القائم على أن الحجة عليه السلام محط العناية الإلهية الخاصة، غير أن له مع ذلك طبيعة إنسانية كسائر الطبائع، فهو ذو بدن تتعلق به روح مدبرة.

وبتلك الطبيعة يمارس طبائع البدن من الأكل والشرب والكلام والحركة، وتصاب نفسه بما يعتري النفوس من ألم وضيق جراء ما يراه من واقع مرير.

١- الإمام المنتظر عليه السلام من ولادته إلى دولته ، السيد علي الصدر / ١٩٠.

وقد أشارت الروايات إلى ذلك عند التعرض لمسألة عرض الأعمال على الإمام المعصوم عليه السلام.

النقطة الثالثة: إن أوضح مثال يقرب بقاء وجوده الشريف مع الغيبة الطويلة، هو مثال عيسى عليه السلام في السماء والذي نص عليه القرآن الكريم.

فحياة الحجة عليه السلام وطولها في الأرض نظير حياة عيسى عليه السلام وطولها في السماء، بل حتى بعض فلسفات غيبته عليه السلام كالخوف عليه من القتل تلتقي بفلسفة ارتفاع عيسى عليه السلام للخوف عليه من الصلب والتنكيل.

وكل إشكال يطرح على غيبة الحجة عليه السلام يرد على رفع عيسى عليه السلام وحياته إلى الآن.

فإذا كانت غيبة عيسى عليه السلام مسلمة قرآنية وليست غُلوًا مفتعلًا، ولا ينبغي أن تكون محط سخرية أو استهجان، فمثله يجري على المسألة المهدوية بلا فرق!!

بل ورد في رواياتنا أن سنن الأنبياء عليهم السلام جارية في الحجة عليه السلام، وأن ما وقع عليهم يقع عليه.

فعن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: (إن في صاحب هذا الأمر سننًا من سنن الأنبياء: سنة من موسى بن عمران، وسنة من عيسى وسنة من يوسف، وسنة من محمد صلى الله عليه وآله).

فأما سنته من موسى بن عمران فخائف يترقب، وأما سنته من عيسى فيقال فيه ما قيل في عيسى، وأما سنته من يوسف فالستر، يجعل الله بينه وبين الخلق حجابًا يرونه ولا يعرفونه، وأما سنته من محمد صلى الله عليه وآله فيهتدي بهداه ويسير بسيرته)[1].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٥١.

*الغيبة ظاهرة استثنائية

تعتبر غيبة القيادة بنحو طويل ظاهرة غريبة واستثنائية، نظرا إلى أن الحالة الأولية التي ألفتها الأمة في أدوارها الأولى هي ظهور القيادة المعصومة – متمثلة في شخص الإمام المعصوم عليه السلام متمتعا بعناصر مرجعيته الدينية – إلى جنب القواعد الشعبية، ولو كانت مبعدة عن التحكم في القرار السياسي.

وأما في عصر الغيبة الكبرى فقد انتقلت الإمامة إلى وضع جديد وتكليف غريب من نوعه، تمثل في غياب القيادة كليا (على المستويين الديني والسياسي) عن الأنظار، مع استمرار مسؤولية وتكليف الأمة بمتابعة تلك القيادة المستترة.

ولا يخفى أن أحرج أوضاع الأمة وأشد مواقفها خطورة على مشروعها هو حال انفصالها عن مصدر التشريع والتحكم والقيادة.

فعن عبدالله بن سنان قال: دخلت أنا وأبي على أبي عبدالله عليه السلام، فقال: (كيف أنتم إذا صرتم في حالٍ لا ترون فيها إمام هدىً ولا علمًا يُرى، فلا ينجو من تلك الحيرة إلا من دعا بدعاء الغريق، فقال أبي: هذا والله البلاء ..)[1].

ومحور حديثنا الأساسي ينصب على هذا السؤال:

ما هي الخطوات التي تقدم بها الأئمة عليهم السلام تمهيدا وترتيبا لظاهرة الغيبة لكي تكون متعقلة لدى أجيال الأمة، بحيث تتأمن تبعيتها وانتماؤها لمرجعية الإمام الحجة عليه السلام؟

وكيف استطاعت قوافل أجيال الشيعة الثبات على خط الولاية الحقة بفاعلية في ظروف الغيبة الكبرى والتي لا يعم مداها إلا الله تعالى!؟

١- الغيبة، النعماني/ ١٦١.

***مراحل التمهيد**

الجواب: لقد بدأ تحضير المؤمنين لقبول تلك الظاهرة قبل عصر الحجة عليه السلام بمدد طويلة ومراحل كثيرة، لأن للغيبة لوازم خطيرة وفيها امتحانات مهولة وتكاليف صعبة.

كيف وقد أفاضت الروايات في ذكر التفاصيل التي ستحل بالأمة من التغريب ومسخ الهوية وتكالب الأعداء وضياع المفهوم الصحيح لظاهرة الغيبة.

وعلى ضوء ذلك كان التمهيد لتلك الظاهرة على مرحلتين:

***الأولى: مرحلة ما قبل ولادة الحجة عليه السلام**

وتتمثل هذه المرحلة في عدة خطوات، وبالبحث في تلك الخطوات نتعرف على أن ظاهرة الغيبة وبرغم غرابتها لم تكن معطلة لمصالح الأمة، ولا مضيعة لجهود القيادة الربانية.

وذلك لقبول ملابساتها للتحليل، ووعي نخب وجماهير الأمة المعاصرة لها بذلك التحليل.

■ الخطوة الأولى: تواتر الروايات في وقوع الغيبة

ولا يخفى أثر ما صدر مستفيضا عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من روايات حول الغيبة وظاهرة الاختفاء في توعية الأمة وتقبلها للظاهرة على انها وظيفة دينية لها مبرراتها ودوافعها.

١ - فقد روى الصدوق عن رسول الله ﷺ أنه قال: (المهدي من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقًا وخُلقًا تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم...)[١].

٢ - وعنه ﷺ: (القائم من ولدي اسمه اسمي ، وكنيته كنيتي ، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي ، يقيم الناس على ملتي وشريعتي ، ويدعوهم إلى كتاب ربي عز وجل ، من أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني ، ومن كذبه فقد كذبني ، ومن صدقه فقد صدقني ، إلى الله أشكو المكذبين لي في أمره ، والجاحدين لقولي في شأنه ، والمضلين لامتي عن طريقته «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»)[٢].

وهذا نموذج من روايات كثيرة رواها الفريقان، ولا حاجة لإخراجها في هذا البحث لوضوحها في مصادر المسلمين.

وأما لو فتشنا عن روايات الأئمة عليهم السلام في ظاهرة الغيبة والحيرة فسنجدها فوق حد الإحصاء.

٣ - ففي كمال الدين عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: (للقائم منا غيبة أمدها طويل كأني بالشيعة يجولون جولان النعم في غيبته ، يطلبون المرعى فلا يجدونه، ألا فمن ثبت منهم على دينه ولم يقس قلبه لطول أمد غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٢٨٧.

٢- نفس المصدر/ ٤١١ .

ثم قال عليه السلام: إن القائم منا إذا قام لم يكن لأحد في عنقه بيعة فلذلك تخفى ولادته ويغيب شخصه)[١].

٤ - وفيه عن الأصبغ ابن نباتة قال: ذكر عند أمير المؤمنين عليه السلام القائم عليه السلام فقال: (أما ليغيبن حتى يقول الجاهل: ما لله في آل محمد حاجة)[٢].

٥ - وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: (إن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته، والمنتظرين لظهوره، أفضل من أهل كل زمان، لأن اللهَّ تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة العيان، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول اللهَّ بالسيف، أولئك المخلصون حقًا والدعاة إلى دين اللهَّ سرًّا وجهرًا)[٣].

بل يظهر من الروايات الواردة عن الصادق عليه السلام - والتي أخبرت عن الغيبة والحيرة - انفعال تلامذته بأحاديثه الكثيرة في ظاهرة الغيبة، وكانوا يسألونه عن تفاصيلها وعن واجباتهم فيما لو أدركوها وعاشوا في أجوائها.

٦ - فقد روى الكليني عن زرارة أنه قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

(إن للغلام غيبة قبل أن يقوم، قال قلت: ولم؟ قال: يخاف ـ وأومأ بيده إلى بطنه ـ ثم قال: يا زرارة وهو المنتظر وهو الذي يشك في ولادته، منهم من يقول مات أبوه بلا خلف، ومنهم من يقول حمل، ومنهم من يقول إنه ولد قبل موت أبيه بسنتين، وهو المنتظر غير أن الله عز وجل يجب أن يمتحن الشيعة فعند ذلك يرتاب المبطلون يا زرارة، قال: قلت: جعلت فداك إن أدركت ذلك الزمان أي شيء أعمل؟

١- نفس المصدر/ ٣٠٣.
٢- كمال الدين/ ٣٠٣ .
٣- نفس المصدر/ ٣٢٠.

قال: يا زرارة إذا أدركت هذا الزمان فادع بهذا الدعاء: اللهم عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني..)[١].

٧ - وعن صفوان بن مهران عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: (من أقر بجميع الأئمة وجحد المهدي كان كمن أقر بجميع الأنبياء وجحد محمدا صلى الله عليه وآله نبوته، فقيل له: يا ابن رسول الله فمن المهدي من ولدك؟ قال: الخامس من ولد السابع، يغيب عنكم شخصه ولا يحل لكم تسميته) [٢].

فمع أنهم في عصر إمام فعلي، ومكلفون بالتبعية لإمامته، إلا أن الإمام عليه السلام كان يربطهم بإمامة القائم عليه السلام، ويثير التساؤل لديهم حول التكاليف والواجبات المطلوبة منهم لو أدركوا ظاهرة الغيبة.

وما تفسير ذلك إلا أنها محاولة جادة وفاعلة منه عليه السلام تستهدف تعميق الوعي بالغيبة، والحرص على التدين في أجوائها الباعثة على الحيرة والارتياب.

والأعجب ما ورد في بكاء وندبة الإمام الصادق عليه السلام على الغائب - الذي بعد لم يولد - وبلوى المؤمنين في غيبته، وكأن المصيبة فعلية وحاضرة في عصره عليه السلام.

٨ - فقد روى الصدوق عن سدير الصيرفي أنه قال: دخلت أنا والمفضل بن عمر وأبو بصير وأبان بن تغلب على مولانا أبي عبدالله الصادق عليه السلام

١- الكافي، الكليني١/ ٣٣٧.

٢- كمال الدين، الصدوق / ٣٣٣.

فرأيناه جالسًا على التراب وعليه مسح ـ والمسح: الكساء من الشعر ـ خيبري مطوّق بلا جيب مقصّر الكمين وهو يبكي بكاء الواله الثكلى ذات الكبد الحرى، قد نال الحزن من وجنتيه وشاع التغيير في عارضيه وأبلى الدموع محجريه وهو يقول: سيدي غيبتك نفت رقادي وضيقت علي مهادي وابتزت مني راحة فؤادي، سيدي غيبتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وفقد الواحد بعد الواحد يفني الجمع والعدد، فما أحس بدمعة ترقى من عيني وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوالف البلايا إلا مثّل بعيني عن غوابر أعظمها وأفظعها وبواقي أشدها وأنكرها ونوائب مخلوطة بغضبك ونوازل معجونة بسخطك.

قال سدير: فاستطارت عقولنا ولهًا وتصدعت قلوبنا جزعًا من ذلك الخطب الهائل والحادث الغائل، وظننا أنه سمت لمكروهة قارعة، أو حلّت به من الدهر بائقة، فقلنا: لا أبكى الله يا ابن خير الورى عينيك، من أية حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك؟ وأيّة حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: فزفر الصادق زفرة انفتح منها جوفه واشتد عنها خوفه وقال ويلكم نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة الذي خص الله به محمدًا والأئمة من بعده، وتأملت منه مولد قائمنا وغيبته وإبطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين في ذلك الزمان، وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينهم وخلعهم ربقة الإسلام من أعناقهم التي قال الله تقدس ذكره: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» يعني الولاية ـ فأخذتني الرقة واستولت علي الأحزان)[1].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٥٣.

■ **الخطوة الثانية: بيان المفهوم الصحيح للغيبة**

مما مُهد به لقبول ظاهرة الغيبة – على غرابتها وغموض حقيقتها – صدور بيانات من الأئمة عليهم السلام حول المفهوم الصحيح للغيبة.

فإن ثمة إشكالاً طرح على الغيبة يستهدف تقويض الإيمان بديمومة واستمرارية الإمامة، وهو إشكال انقطاع التواصل بين القيادة والقاعدة، واحتجاب دور الإمام المحجوب ظاهرا، مما يعني أنه لا إمامة عملية وفعلية على أرض الواقع!!

وكثيرا ما ردد أحمد الكاتب هذا الإشكال بزعمه أنه مدخل قوي لإبطال العقيدة المهدوية، بتقرير:

إن الإمامة – بحسب مدرسة أهل البيت عليهم السلام –:

أولا: تشتمل على مناصب ومسؤوليات، وبها يكون الإمام ذا سلطة ومسؤولية تنفيذية.

ثانيا: من الثوابت وفق حديث الثقلين اقتران الإمامة بالقرآن.

وظاهرة الغيبة والاستتار تصادر مهام وأدوار ومسؤوليات الإمام، وتعزله عن دوام معيته مع القرآن!!

وقد طرح هذا السؤال قديما وأجاب عليه الأئمة عليهم السلام.

فقد روى الصدوق في الأمالي عن سليمان بن مهران الأعمش، عن الصادق جعفر بن محمد، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين عليه السلام قال: (نحن أئمة المسلمين، وحجج الله على العالمين، وسادة المؤمنين، وقادة الغر المحجلين، وموالي المؤمنين، ونحن أمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء، ونحنُ الذين بنا يمسك الله السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبنا

يُمسك الأرض أن تميد بأهلها، وبنا ينزل الغيث، وبنا ينشر الرحمة، ويخرج بركات الأرض، ولولا ما في الأرض منا لساخت بأهلها.

قال عليه السلام: ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها، ظاهر مشهور، أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله فيها، ولولا ذلك لم يعبدالله).

قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: (كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب)[1].

فالغيبة بحسب الروايات تعني الاستتار والخفاء والسرية في أداء الأدوار والوظائف، وليست مساوقة لانعدام الدور والأثر.

وقد أكد أستاذنا الشيخ السند في مناسبات مختلفة قائلا:

(إن من بديهيات السياسة في جامعات العالم أن القوى المؤثرة هي التي تعمل في خفاء وسرية، فالقوى السياسية وقوى المعارضة، ومن بيدها القرار المطبق على الأرض، هي تلك التنظيمات السرية، وسريتها لا يضر بوجود دور لها وتأثير.

بل أقوى الجماعات التي تدير العالم اليوم، وتتحكم حتى في الحكومات الرسمية الظاهرة هي الجماعات السرية، وهذا الأمر ليس وليد هذه الأعصار، وإنما كان موجودا سابقًا).

وقد حدثنا القرآن عن رائد عظيم مختص في تعليم النخب من الأولياء وهو مستتر عن عموم البشر، ويقوم بمسؤولياته العظيمة في سرية تامة.

وقصة مصاحبة موسى عليه السلام للخضر واضحة المعالم في القرآن.

١- الأمالي، الصدوق/ ٢٥٣.

هذا وقد حاول أحمد الكاتب أن يقرب عقيدته الفاسدة في الغيبة فقايس بين نصب إمام مع افتراض غيبته وبين نصب شرطي للمرور مع عدم مداومته في محل عمله، مستنتجا أن ذلك يستلزم الفوضى واختلال النظام!!

وخفي عليه أن لنصب شرطي المرور طرائق مختلفة، منها ما يعمل به في هذه الأعصار من تركيب كامرات تصوير حديثة تعمل في الخفاء، ولعل أداءها في ضبط حركة السير أفضل بمرات من مراقبة شرطي المرور.

وعلى هذا الأساس، فالغيبة في بيانات أهل البيت عليهم السلام تساوي الدور الخفي، لا خفاء الدور وانعدامه.

وقد أشاع الأئمة عليهم السلام هذا التفسير، فكان له أتم الأثر في تعقل الجماعات المؤمنة لمرحلة الغيبة، والإحساس بحضور الإمام عليه السلام ورقابته وشمولية اطلاعه على الأوضاع، وتدخله في مهمات الأمور.

■ الخطوة الثالثة: تكرر غيبات الأئمة عليهم السلام في مراحل مختلفة

إن غيبة الإمام الحجة عليه السلام لم تحدث فجأة في حياة الأمة، وإنما سبقتها غيبات متكررة لأكثر من إمام وبأنحاء شتى من الاختفاء.

وبتعبير آخر: إن غيبة القيادة عن القاعدة وإن تبلورت وطالت بمدى واسع في عصر الحجة عليه السلام إلا أن خفاء وتواري الإمامة عن الأمة حصل في أكثر من مرحلة، خصوصًا في الأعصار القريبة من عصره الحجة عليه السلام، وذلك لاشتداد الضغوط على الأئمة المتأخرين.

فمن عصر الكاظم عليه السلام الذي غُيِّب في السجون سنوات طويلة، مرورا بعصر الإمام الرضا عليه السلام الذي أشخص عن قواعده الشعبية وحبس بين

قصور الظلمة، وإلى عصر الجواد عليه السلام الذي أشخص إلى بغداد، ثم عصر الهادي والعسكري عليهما السلام حيث الإبعاد والسجن والتغرب بعيدًا عن محافل الأمة وحواضرها، كانت أنحاء من الغيبة تتفعل في حياة القيادة.

فحول الأئمة عليهم السلام السجن والإشخاص والإبعاد وفرض طوق الإقامة الجبرية إلى فرصة، وبذلك تقبلت الأمة ظاهرة الغيبة الكبرى التي وقعت في عصر الحجة عليه السلام.

وبذلك تبلور:

أولا: إن الدور العلني الظاهري ليس هو الصيغة الوحيدة التي يؤدي الأئمة عليهم السلام من خلالها مسؤولياتهم الإلهية، بل ثمة أنحاء من الدور.

ثانيا: إن الحكم الخفي والتصرف السري الذي يمارسه الأئمة عليهم السلام نحو من الدور، وهو لا ينقطع بحال.

ثالثا: كان لتدبير الظلمة وكيدهم بسجن وتغييب الأئمة عليهم السلام وفصلهم عن قواعدهم الشعبية أثر إيجابي غير مقصود على المدى البعيد، فانقلب تدبيرهم وبالا عليهم.

*الثانية: مرحلة ما بعد ولادة الحجة عليه السلام وإمامته الفعلية

بعد سلسلة من الخطوات التمهيدية السابقة على ولادة الحجة عليه السلام – والتي كان للأئمة السابقين دور بارز فيها – لحقتها خطوات أخرى قام بها الإمام الغائب عليه السلام قبل وصول الأمر لمرحلة الغيبة الكبرى! فلم يفاجئ أمته بظاهرة الغياب التام.

■ **الخطوة الأولى: الغيبة الصغرى**

وأهم تلك الخطوات هي غيبته الصغرى.

وقد أكدت الروايات الكثيرة على تنوع الغيبة المهدوية إلى مرحلتين، صغرى وكبرى.

وأطلق فيها على الغيبة الكبرى – التي نحن نعيش أجواءها – عدة أسماء؛

١ – الغيبة الثانية:

فعن أبي عبدالله عليه السلام: (يا حازم إن لصاحب هذا الأمر غيبتين يظهر في الثانية فمن جاءك يقول: إنه نفض يده من تراب قبره فلا تصدقه)[١].

٢ – الغيبة التامة:

روى الطوسي في كتاب الغيبة: خرج التوقيع إلى أبي الحسن السمري: (يا علي بن محمد السمري اسمع! أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام فاجمع أمرك ولا توص إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره....)[٢].

٣– الغيبة الطويلة:

فعن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبدالله جعفر بن محمد عليه السلام يقول: (للقائم غيبتان إحداهما طويلة والأخرى قصيرة)[٣].

وأطلق على الغيبة الصغرى مرة لفظ الأولى وأخرى لفظ القصيرة.

١– الغيبة، النعماني/ ١٧٧.

٢– الغيبة، الطوسي/ ٣٩٥.

٣– الغيبة، النعماني ١٧٥.

فعن إسحاق بن عمار قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: (للقائم غيبتان: إحداهما قصيرة والأخرى طويلة، الغيبة الأولى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصة شيعته، والأخرى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصة مواليه) [١].

وقد كان للغيبة الصغرى أهمية بالغة في تعميق فكرة الغيبة الكبرى.

كما اتصلت غيبته الصغرى بإخفاء الولادة، وابتدأت بعد وفاة أبيه الإمام العسكري عليه السلام.

قال المازندراني: (الصغرى وهي سبعون سنة إلاّ اثنى عشر شهرًا وأربعة أيام)[٢].

وتميزت هذه الغيبة بالنسبية، حيث كان لعدد كبير من خاصة شيعته شرف لقياه والتشرف بالحديث معه، وخصوصًا النواب الأربعة الذين مثلوا أركان السفارة والنيابة الخاصة.

وكان من مهماتهم إيصال الرسائل والكتب والأسئلة للإمام عليه السلام، وحمل التوقيعات منه إلى الشيعة.

وتميز النواب الخاصون بالتقوى والورع والعلم وصدور الكرامات وأعلى درجات الوثاقة وثبات القدم وشدة التحمل.

فقد سُئل النوبختي عن فضل الحسين بن روح عليه:

فقال: (إني لو علمت بمكان الحجة وضغطتني الحاجة، لعلي كنت أدل على مكانه، أما أبو القاسم، فلو كان الحجة تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه)[٣].

١- الكافي١، الكليني/ ٣٤٠.
٢- شرح أصول الكافي٦، المولى المازندراني/ ٢٦١.
٣- الغيبة، الطوسي/ ٣٩١.

وكان لوجود النواب الذين يلتقون بالإمام عليه السلام ويحملون التوقيعات الخاصة الصادرة منه إلى شيعته دور كبير في تأمين استقامتهم وشعورهم بعناية إمامهم.

فكان للنيابة الخاصة دور الوسيط في كشف المهمات الصعبة وحلحلة المسائل الشائكة، كما كان في تردد النواب على الصاحب عليه السلام طمأنة للقلوب وتوثيق للعلاقة معه وشد للأواصر به.

ولذلك أثره البالغ في استيعاب شؤون وغايات الغيبة الكبرى.

■ **الخطوة الثانية: ولاية الفقه والفقيه**

يترتب على ظاهرة الغيبة الكبرى أمور:

١- فراغ في القيادة السياسية الظاهرية.

٢- ظمأ معرفي ملح.

٣- جهل بالوظائف الشرعية الفقهية والعملية.

٤- حاجة لتنظيم شؤون ذوي الاحتياجات، ومن لا ولي لهم بالانتساب.

ولكل ذلك اقتضت الحكمة الإلهية أن تشرع ولاية الفقه ومرجعية الفقهاء العامة في الحلال والحرام والنظام.

ولو قَدر عدم جعل هذه الولاية وما يلزمها من آليات تشريعية من قبل المشرع الأول لكانت المحصلة هي انسداد الأفق على المؤمنين واختلال نظامهم على كافة المستويات.

لذا فمن الأمور المسلمة بين كل طبقات فقهاء الإمامية:

١- إن الإمام الحجة عليه السلام قد نصّب الفقهاء لمرجعية الحلال والحرام وبيان الأحكام الشرعية.

٢- ولا يوجد خلاف في أن للفقيه الجامع للشرائط أن يتسلم منصب القضاء والفصل في النزاعات والخصومات.

يبقى سؤال:

هل ورد في الأدلة الشرعية والروايات الشريفة ما يسند مشروع ولاية الفقيه؟

هذه مسألة جدلية وتتوقف على بحوث مطولة ودقيقة وتخصصية وليس هذا الكتاب مخصصا لها.

المبحث الخامس

تفسير مسألة الغيبة

تفسير مسألة الغيبة

قال تعالى: ﴿يَا أهل الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾[1].

وروى الكليني عن شعيب، عن أبي حمزة قال دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقلت له: أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: (لا.

فقلت: فولدك؟ فقال: لا، فقلت: فولد ولدك هو؟ قال: لا، فقلت: فولد ولد ولدك؟ فقال: لا، قلت: من هو؟

قال: الذي يملؤها عدلا كما ملئت ظلما وجورا، على فترة من الأئمة، كما أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث على فترة من الرسل)[2].

***تمهيد**

لو جمعنا بين مضمون الآية الكريمة المتقدمة ودلالة الرواية الشريفة الآنفة لاقتنصنا صفة مشتركة بين بعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وظهور خاتم الحجج عليه السلام، وهي تقدم الفترة على البعثة والظهور، وخلو الأرض قبلهما من حكومة المعصومين عليهم السلام.

فبعثة النبي صلى الله عليه وآله لم تتصل بصعود عيسى عليه السلام إلى السماء، كما أن ظهور الحجة عليه السلام على الأمة لم يتصل بوفاة وارتحال الإمام العسكري عليه السلام، فكانت

١- المائدة/ ١٩.

٢- الكافي، الكليني ١/ ٣٤١.

بعثة النبي صلى الله عليه وآله على فترة من الرسل، وسيكون ظهور الحجة عليه السلام وقيامه بمشروعه الإلهي على فترة من الأئمة عليهم السلام.

ولا شك أن هذا المضمون يثير مجموعة من الأسئلة تتطلب جوابا وبيانا.

***السؤال الأول: إشكالية الفترة**

قسم علماء الكلام اللطف إلى قسمين:

الأول: لطف يلجئ العباد إلى الطاعة.

الثاني: لطف يقربهم منها.

واتفق المحققون على أن الأول خلاف الحكمة الإلهية، وأن الله قد أوجب الثاني على نفسه؛ لأنه يفتح أبواب الطاعة ويسهل مسير العباد إليه تعالى.

وقالوا: إن من أمثلة اللطف المقرب دوام نصب الحجج وتواتر الأولياء كواسطة بين الله وخلقه.

وعلى هذا الأساس: ألا يكون عدم اتصال بعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله برفع عيسى عليه السلام إلى السماء خلاف اللطف المقرب؟

وعين هذا السؤال يرد على عدم اتصال ظهور الإمام الثاني عشر عليه السلام بارتحال الإمام الحادي عليه السلام عشر؟

وبتعبير آخر، إن تسمية مرحلة غيبة إمام الزمان عليه السلام بعصر الفترة أو الحيرة في لسان الروايات يثير الاستفهام عن علة ارتفاع اللطف الإلهي في ذلك الزمان!!

هذا مضافًا إلى أن تسمية الغيبة بالفترة يقرر التساوي بين الغياب وانعدام الوجود من رأس، وأنهما على وزان واحد.

فما هو المخرج من هذا الإشكال؟

■ **الفترة رابطة خفية بالسماء**

يتصور البعض - خطًا - أن مصطلح الفترة في القرآن أو الروايات يعني انقطاع الأولياء والحجج بمختلف رتبهم وأدوارهم عن الأرض.

بمعنى خلو الأرض ما بين صعود عيسى للسماء وبعثة محمد ﷺ إلى الأرض من الرابطة السماوية.

ومنه يأتي إشكال اضمحلال اللطف الإلهي الذي يعين الخلق في المسير الروحي.

وكذا قد يعتقد البعض أن تسمية الغيبة بالفترة يعني جمود وسكون إمامة الثاني عشر عليه السلام عن القيام بأي دور في الأرض.

وقد أجاب الشيخ الصدوق طاب ثراه في كتاب الإكمال عن هذا التفسير الخاطئ لمصطلح الفترة في القرآن، وبيّن التفسير الصحيح تحت عنوان (تحقيقات المؤلف حول معنى الفترة) [1].

وتلخّص من تحقيقه أمور:

١ - إن الفترة - بحسب القرآن - ليست مخصوصة بالمرحلة الفاصلة بين النبي الخاتم ﷺ وعيسى عليه السلام، بل الفترة بين الأنبياء سُنّة إلهية وسيرة سماوية قد تكررت كثيرًا عبر تاريخ الأنبياء.

٢ - بعد الانتهاء من صراحة النصوص القرآنية والروائية الدالة على وجود فترة وانقطاع بين الأنبياء وكون الأخبار في ذلك صحيحة لا بد من تفسيرها بالنحو الصحيح، لأن تفسير المخالفين لها كان خاطئًا؛ إذ فسروها بانقطاع الأنبياء والأئمة والرسل عليهم السلام من الأرض بشكلٍ كلي.

---

١ - كمال الدين/ ٦٥٩.

٣- المعنى الصحيح للفترة هو خلو الأرض من رسولٍ أو نبيٍّ أو وليٍّ ظاهرٍ مشهور على وزان الأنبياء والأولياء الظاهرين المعروفين.

فلا تنافي بين وقوع الفترة ووجود رابطة بين الأرض والسماء إلا أنها غير ظاهرة للعيان، وليست بمشهورة.

٤- دلّت الأدلة على وجود أنبياء وأوصياء مستورين خائفين بين الخاتم صلى الله عليه وآله وعيسى عليه السلام، منهم: خالد بن سنان العبسي.

فقد تواطأت الأخبار عن الخاص والعام بالإخبار عن وجوده، وأن ابنته أدركت رسول الله صلى الله عليه وآله ودخلت عليه، فقال النبي صلى الله عليه وآله: (هذه ابنة نبي ضيعه قومه، خالد بن سنان العبسي).

ويؤيد تفسير الفترة بما مر أخبار عديدة، منها ما في كمال الدين عن كميل بن زياد النخعي قال:

قال لي أمير المؤمنين عليه السلام: (اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ظاهر (مشهور) أو خاف مغمور لئلا تبطل حجج الله وبيناته)[1].

ومما يؤيد ذلك أيضًا روايات رواها الكليني في الكافي تفيد وجود خصائص لعبدالمطلب تُفهم أن له وصاية سماوية غير ظاهرة ولا مشهورة.

وبهذا التفسير يتبين عدم ارتفاع اللطف في أزمنة الفترة لوجود الرابطة السماوية وإن كانت غير معروفة.

وإذا كانت الفترة في النبوة هي عين الفترة في الإمامة فالحاصل في عصر الغيبة هو خفاء الإمام عليه السلام وليس ارتفاعه عن الخلق.

وسيأتي مزيد بيان في جواب السؤال الثاني.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق١٣٩.

*السؤال الثاني: إشكالية الغيبة

من البنى الاعتقادية الأساسية التي أسس لها القرآن وأكدت عليها الروايات، عدم خلو الأرض من الحجة الإلهية.

فهذا القرآن قد دل على ذلك في آيات منها:

قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً * قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ * قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1].

ولم يتبصر مفسرو القرآن من المذاهب الأخرى إلى دقة ألفاظ الآية، فظنوا أن المعنى هو جعل آدم بالخصوص خليفة لله في الأرض، بينما اهتدى المحققون من علماء الشيعة – وبالاستهداء بإشارات أئمة أهل البيت عليهم السلام – إلى الفرق بين قول الآية: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ وبين عبارة: (إني جاعل آدم خليفة)؛ إذ لو كانت العبارة الثانية هي المنطوق بها في القرآن لكان مضمون الآية خاصًّا باستخلاف آدم؛ لكن منطوق الآية يشير إلى قاعدة استخلاف الله خليفة على نحو الدوام، وما آدم إلا مصداق في زمان معين لتلك القاعدة.

وروى الكليني في الكافي عن أبان عن الصادق عليه السلام أنه قال: (الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق)[2].

وبالجمع بين دلالتي الآية والرواية نقتنص عقيدة مفادها: (إن الخلافة قبل الخليقة ومعها وبعدها، وأن الخليفة قبل الخلائق ومعهم وبعدهم).

١- البقرة/ ٣٠.

٢- الكافي١، الكليني/ ١٧٧.

وعلى ضوء هذه القاعدة فسر الشيعة الحديث المجمع عليه عند الشيعة والسنة وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (الأئمة من بعدي اثنا عشر)[1] تفسيرًا خاصًّا يشتمل على خصوصيات:

١- لا يجتمع الخلفاء الاثنا عشر عليهم السلام كلهم في زمان واحد؛ إذ لو اجتمعوا في زمان واحد وارتحلوا في زمان واحد لخلت الأرض من الخليفة والحجة.

٢- ضرورة أن يكونوا متعاقبين مع اتصال زمان إمامة اللاحق بانتهاء زمان إمامة السابق.

٣- على قلة عددهم لا بد أن يغطوا كل مساحة الزمان الفاصل بين ارتحال الرسول صلى الله عليه وآله وإلى قيام الساعة.

والسؤال:

أليس الاعتقاد بغيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام يخالف تلك العقيدة المستدل عليها من القرآن والروايات؟

إذ إن الغيبة تمانع تفعيل إمامته، وتقطع اتصال إمامته بإمامة من سبقه.

وقد يطرح السؤال بهذه الصيغة:

ما هو الفارق بين الشيعة وغيرهم من أتباع المذاهب في ظل عصر الغيبة؟

فكما أن أتباع المذاهب الأخرى يأخذون دينهم وأحكامهم ورؤاهم من العلماء غير المعصومين، كذلك حال الشيعة.

فلم يبق أي فرق بين الإيمان بإمامته والجحود بها، إذ لا أثر لإمامته عمليًّا وثقافيًّا وتوجيهيًّا بالنسبة للمؤمنين بها في عصر الغيبة؟

١- الأمالي، الصدوق/ ١٧٣.

■ **تفطن بعض المستشرقين لمعنى الغيبة**

إن التساؤل السابق بصِيَغه ورد مثله في منهاج ابن تيمية، بل بلغ بالإشكال إلى القول:

إن افتراض كونه إمامًا مع غيبته يبطل إمامته؛ إذ قوام الإمامة بجانبين:

الأول: الارتباط بالله للاستفاضة منه.

الثاني: الارتباط بالخلق للإفاضة عليهم.

وجواب السؤال بكل صيغه يتم ببيان خطأٍ فادح وقع فيه من قال بالتساوق بين الغيبة وانعدام الأثر.

وقد تفطّن لمعنى الغيبة على وجه الحقيقة مستشرق غربي، وعلى أساسه آمن بالتشيع، وهو الكاتب الشهير (هنري كوربان).

فقد نقل: العلامة الجوادي عن أستاذه السيد الطباطبائي أنه نقل عن البروفسور كوربان قوله:

(حين ألقيت خطابي بجامعة السوربون في فرنسا ذكرت أن من بين جميع الأديان والمذاهب في العالم تختص مدرسة التشيع بالحياة والحيوية ما يكون لها قابلية البقاء والدوام والعرض على البشرية، لأن الشيعة يعتقدون بأن علاقة الإنسان مع الله لا تنقطع مطلقًا لارتباطهم بالإنسان الكامل وواسطة الفيض بين الخلق والخالق)[1].

وتفطن لذلك مستشرق آخر وهو فرنسوا تويال في كتابه (الشيعة في العالم) بقوله:

١- الإمام المهدي الموجود الموعود، الجوادي الآملي/ ١١٨.

(عندما تطرح مسألة العصرنة والتحديث على الشيعة فإن جوابهم يكون بسيطًا:

لا شيء في التقدم التقني يجافي الحقائق الشيعية أو يناقضها؛ إذ ينظرون إلى التقدم العلمي والتقني كعنصر مسرِّع لتحرير الإنسان وكمرحلة إضافية استعدادًا لعودة تشير إلى نهاية التاريخ وبداية عالم جديد كامل؛ لذلك فالشيعة لا يمكن أن تذوب في العصرنة؛ لأنها ديانة النهايات الأخيرة) [1].

وأهم ما في هذين النصين وقوف هذين المستشرقين على المعنى الحقيقي والراقي للغيبة عند الشيعة، والذي لا يلتقي بحال من الأحوال بالجمود والسكون وانعدام التأثير.

فالغيبة لا تنافي الوجود الفاعل والحضور المؤثر والبرنامج الناهض للإمام الغائب عليه السلام، والانتظار هو ارتقاء الجماعة المؤمنة في كافة المستويات، وسعيها الدؤوب نحو مشروع القائد الذي سيأخذ بيدها إلى حيث الآمال والتطلعات.

*المعنى الدقيق للغيبة

هل المراد من غيبة الإمام الحجة عليه السلام هو السكون والاسترخاء في أقاصي الأرض؟

إن كل الأدلة والنصوص التي تحدّثت عن الغيبة أو عن الأولياء المستترين عن أنظار الناس تصفهم بالمغمورين، وهذه إشارة إلى خفاء العنوان والهوية مع التواجد الحي والفاعل في أوساط الناس.

١- الشيعة في العالم، فرنسوا تويال / ١٧١.

فتفسير غيبته بالخفاء الكلي، أو التعبير عن ظهوره بالرجعة أو بالتواجد أو بالوجود أو بالمجيء أو بالحضور، تعابير لا تلامس الحقيقة.

لأن الرجعة تكون بعد الموت، والتواجد يكون بعد النأي البعيد، والوجود يكون بعد العدم، والحضور يكون بعد الغيبة التامة، وكل ذلك لا يفسر الظهور.

إن الغيبة هي خفاء الهوية وتواري العنوان ومجهولية الحال، فهو موجود وحاضر وقريب لكنه خفي ومغمور.

وهذا هو المشار إليه في دعاء الندبة في هذا المقطع: (بنفسي أنت من مغيب لم يخلُ منا، بنفسي أنت من نازح ما نزح عنا)[١].

فلاحِظ دقة العبارة والجمع بين المعاني المتقابلة، فقد نسب إليه الغياب مع عدم الغيبة عن أمته، ونسب إليه النزوح مع نفي نزوح البُعد والنأي، وهذا لا يتلاءم إلا مع النأي عن العيون والنزوح عن الأبصار.

ونفس هذا المعنى تشرحه الرواية التي تشبه غيبته بتواري الشمس إذا جللها السحاب، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: (أي والذي بعثني بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سر الله، ومخزون علمه، فاكتمه إلا عن أهله)[٢].

وقد أفاض بعض أهل العلم في بيان المفاهيم المرادة من هذا التشبيه:

منها إن تشبيهه بالشمس إشارة إلى نورية الإمام عليه السلام في نفسه في حال الغيبة وحال الظهور.

١- المزار، المشهدي/ ٥٨١ .

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٢٥٣.

ومنها إن تواري الشمس خلف السحاب يحجب النظر لجرمها، لكنه لا يمنع وصول أثر وجودها للأرض.

وثمة روايات أخرى ركزت على هذا المعنى، وهو حضوره عليه السلام في عين غيابه.

ففي كمال الدين عن حكيمة عليها السلام: (إن الله تعالى لا يخلي الأرض من حجة ناطقة أو صامتة)[١] وهي تشير لخفاء الهوية والعمل في الخفاء دون تواري الشخص.

وكذا ما رواه المفيد في الإرشاد عن الصادق عليه السلام أنه قال: (وسمي بالقائم لقيامه بالحق)[٢]، وهي تشير للقيام الفعلي بالدور، وفي تمام أزمان حياته وإن كانت العيون لا ترى ذلك.

وكذا قول الصادق عليه السلام للمفضّل: (مقصرة شيعتنا - تقول - إن معنى الرجعة أن يرد الله إلينا ملك الدنيا فيجعله للمهدي ويحهم متى سلبنا الملك حتى يرد إلينا!!

قال المفضل لا والله يا مولاي ما سلبتموه ولا سلبوه لأنه ملك النبوة والرسالة والوصية والإمامة)[٣].

ومعنى عدم سلب الملك ممارسة الأدوار في تمام آنات الحياة بلا فرق بين أن تكون الحكومة والسلطة الظاهرية بيدهم أو بيد غيرهم، وأن يكونوا في حال الظهور أو حال الغياب.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤٢٦.

٢- الإرشاد٢، المفيد/ ٣٨٣.

٣- الهداية الكبرى، الخصيبي/ ٤١٩.

وقد أجاد العارف الجوادي في تقسيم الغيبة إلى قسمين، مطلقة ونسبية:

قال: (أما الغيبة المطلقة فهي حصول الخفاء ضمن جميع مراتب الوجود ولدى جميع الأفراد نظير خفاء الذات الإلهية المقدسة التي لا يمكن لأي فرد أن ينال كنهها..

وأما الغيبة النسبية فهي الغيب في بعض مراتب الوجود أو الغيبة عن البعض دون البعض الآخر، ومنه الملائكة، فهم غيب في بعض مراتب الوجود لا مطلقًا وهم غيب عن بعض الأفراد دون البعض الآخر)[1].

وعلى أساس هذا التفصيل تتصنف غيبة إمام العصر عليه السلام في خانة الغيبة النسبية، فهو غائب عن الظهور الاجتماعي العلني والرسمي وغائب عن أكثر الناس، غير أن للخاصة من أولياء الله طريقا وأفقا للوصل والاتصال به.

١- الإمام المهدي الموجود الموعود، الجوادي الآملي/ ١٤٠.

المبحث السادس

مبررات الدولة المهدوية

مبررات الدولة المهدوية

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

***المقدمة**

نظرا لمكانة الدولة المهدوية - وذلك لارتباطها بكل نهضات الأنبياء وآمال المظلومين ولتحقيقها الأهداف الإلهية الكبرى - تكثرت الآيات المرتبطة ببيان جوانب وخصائص تلك الدولة.

وأي مفسر يقرأ تلك الآيات بعقلية العصبية أو بفكر جامد دون الاستلهام من علوم أهل الذكر والتأويل لا يقتدر على استيعاب المرادات الواقعية منها.

وقد ذكرت حقيقة الدولة الموعودة في آخر الزمان في مواقع كثيرة من القرآن.

ففي بعض الآيات وصفت بدولة التمكين والأمن والنصر والخاتمة الحسنة والثأر بالحق.

وفي طائفة أخرى وصفت بدولة المنة الإلهية وجامعة الأئمة والأولياء.

وفي طائفة ثالثة وصفت بدولة ظهور الدين واستعلائه على سائر الأديان.

وفي آية البحث نعتت بدولة وراثة الأرض.

وبحثنا ينصب على مبررات الدولة الموعودة وأهداف وجودها.

١- القصص/ ٥.

* المبرر الأول: تحقيق الخلافة الإلهية الكاملة في الأرض

لا يشك مسلم – من أي الطوائف المؤمنة بالقرآن – في أن الهدف الأكبر من الإيجاد هو تمثيل الله تعالى في الأرض بإقامة الخلافة الإلهية.

وبتعبير أهل العرفان: إن هدف الخلقة هو تحقيق حكومة الأسماء والصفات الإلهية في الأرض وفي واقع البشر.

وهذا الهدف وإن كان كل مسلم مأموراً أن يسعى لإنجازه إلا أن مستواه العالي والحقيقي لا يتحقق إلا على يد الأنبياء والكمل من الأولياء.

وبالتأمل في تاريخ سائر الأنبياء والأولياء عليهم السلام نجزم أن تمثيل الخلافة الإلهية لم يتحقق، إما لقصور في كمال من تسلم منصب الإمامة غصبا وقهرا، وإما لاستعصاء الواقع الذي عاش فيه الأنبياء والأولياء عليهم السلام عن ارساء قواعد الخلافة الإلهية.

وإذا اتضح هذا ينكشف أن أحد مبررات وجود الدولة المهدوية هو تمثيل الخلافة الإلهية، وإرساء حكومة الله في الأرض بكل مراتبها ومقتضياتها.

والجدير بالذكر أن هذا المبرر ليس من متبنيات الشيعة لوحدهم، بل يشترك معهم فيه كثير من الأديان والطوائف وإن عبروا عنه بصيغ مختلفة وقوالب متفاوتة.

■ عقيدة المفسر الآلوسي في المهدي عليه السلام

برغم تعصب الآلوسي ضد الشيعة، فإنه لما مر في تفسيره على ذكرهم قال: (قال الإمامية وهم بيت الكذب) [1].

١- تفسير روح المعاني، الآلوسي/ ١٢ / ١٤.

ولما مر على روايات الوصاية من الله في المعراج على الأئمة عليهم السلام قال: (وهو خبر يتفجر الكذب منه) [١].

برغم ذلك فإنه لما ذكر المهدي المنتظر عليه السلام صرح قائلا:

(والفرق عندهم بين الخلافتين كالفرق بين القشر واللب، فالخلافة الباطنة لب الخلافة الظاهرة، وبها يذب عن حقيقة الإسلام، وبالظاهرة يذب عن صورته، وهي مرتبة القطب في كل عصر، وقد تجتمع مع الخلافة الظاهرة كما اجتمعت في علي كرم الله تعالى وجهه أيام إمارته، وكما تجتمع في المهدي أيام ظهوره) [٢].

وبيانه:

إنه ذكر مذهب الصوفية الذين جمعوا بين صحة خلافة علي عليه السلام وخلافة غيره في آن واحد وصحح مذهبهم معللاً، بأن الروايات الناصة على ولاية علي عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله مرادها النص على الإمامة القطبية، أي إمامة الإرشاد والتعليم، والتربية الروحية.

وهي لا تزاحم إمامة أبي بكر للمسلمين لأنها إمامة ظاهرية، ومن وظائفها تسيير الجيوش واقامة الحدود، مضافاً إلى أن النسبة بين الإمامة الظاهرية والإمامة القطبية كالنسبة بين القشر واللب.

وهذان المعنيان من الإمامة لم يجتمعا في أحد إلا في فترة إمارة علي عليه السلام، وستجتمعان على أكمل وجه في المهدي المنتظر عليه السلام بلا مزاحم ولا استعصاء

١- تفسير روح المعاني، الآلوسي١٦ / ٢٤١.
٢- نفس المصدر السابق ٣ / ٣٥٢.

من قبل الناس، فستكون له إمامة التعليم والتربية والإرشاد، وإمامة السياسية، وتسيير الجيوش، وإقامة الحدود.

وذكر الآلوسي في موضع آخر من تفسيره بعد أن نقل الآراء حول القطبية: (رأيت في مكتوبات الإمام الفاروقي الرباني مجدد الألف الثاني قدس سره ما حاصله أن القطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا لأئمة أهل البيت المشهورين، ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة .. فإذا جاء المهدي ينالها أصالة كما نالها غيره من الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين..

والذي يغلب على ظني أن القطب قد يكون من غيرهم لكن قطب الأقطاب لا يكون إلا منهم لأنهم أزكى الناس أصلا وأوفرهم فضلا وأن من ينال هذه الرتبة منهم لا ينالها إلا على سبيل الأصالة ..)[1].

وبما ذكرناه تحقق أن المبرر الأول للدولة المهدوية هو إقامة الخلافة الإلهية كاملة بتفعيل كل وجوه الإمامة والولاية.

*المبرر الثاني: الانفجار المعلوماتي

من الطبيعي أنه كلما تقدم مسير الإنسان تتفتق أمامه شعب العلوم والمعارف.

والعصر الذي نعيش فيه اليوم يوسم بعصر الانفجار العلمي والمعلوماتي، ومن المنطقي أن انفجار المعلومات يلازمه انفجار المجهولات والمشاكل العلمية.

وهذا يفضي إلى ضرورة وجود إمام يقتدر على أن يكشف من القرآن ما يفوق انفجار المعلومات لدى البشر، ويحلحل تفاصيل المجهولات، حتى لا يسبق العلم الدين، بل يتواكبان، فلا يوسم حينها الدين وتعاليمه بالرجعية والتخلف.

١- تفسير روح المعاني، الآلوسي١١/ ٢٠٠ ..

وبالتالي فأحد أوسمة الإمام المهدي عليه السلام أنه مفجر العلوم من غيوب القرآن الكريم.

وهذا مضمون ما ورد في زيارته: (السلام عليك أيها العلم المنصوب والعلم المصبوب)[١].

ولنا أن نثبت بطريقة أخرى ضرورة وجوده فنقول: إن انفجار المعلومات هو أحد أدلة وجود الإمام الحجة عليه السلام، بمعنى أن تتابع وتراكم الخبرات والاكتشافات البشرية سيكشف أحقية المعارف الدينية، ومن تلك المعارف العقيدة المهدوية.

لذا قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٢].

وعن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾؟

قال: (يريهم في أنفسهم المسخ ويريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم وفي الآفاق، قلت له: (حتى يتبين لهم أنه الحق)؟

قال: خروج القائم هو الحق من عند الله عز وجل يراه الخلق لا بد منه)[٣].

فتشير الآية إلى أن تراكم المعارف الآفاقية العلمية والمعارف النفسانية عند البشرية يدلهم على العقيدة المهدوية واحتياج البشرية إليه عليه السلام.

فكما أن شوق الإنسان للعدالة بكل شعبها يلزمه حب محقق العدالة، ويكشف له عن ضرورة وجود من يرسي قواعدها، فكذلك انفجار المعلومات وتوالد

١- المزار، المشهدي/ ٥٦٨.
٢- فصلت / ٥٣
٣- الكافي٨، الكليني/ ٣٨١.

المجهولات يحبب البشرية في وجود عالم لا يستعصي عليه شيء، ويلزمها فطريا بوجوده.

*** المبرر الثالث: إخراج ما بالقوة إلى ما بالفعل**

إن البشرية تعشق الكمال وتميل إليه، لكنها لم تصل إلا إلى بعض مظاهر الكمال، ونقصد بالكمال ما يعم كمال العدالة والعلم والقدرة وغير ذلك.

ومن أهم دواعي الدولة المهدوية هو إخراج الناس من حالة الاستعداد للكمالات إلى حالة وجدان الكمالات، أو ما يعبر عنه الفلاسفة إخراجهم من القوة إلى الفعل.

وهنا نتحدث عن الجانب الإيجابي من هذا المبرر، أي إخراجهم من حالة ضمور الكمالات إلى حالة بروز الكمالات وتضخم المعنويات.

وفي هذا المجال بينت الروايات أن القيام الأول والابتدائي للإمام عليه السلام قيام سلم ومحاورة، فيدعو الناس كما دعاهم جده النبي صلى الله عليه وآله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتم عليهم الحجة البالغة.

فقد روى الصدوق في كمال الدين: (وَأَمَّا سُنَّتُهُ مِنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله فَيَهْتَدِي بِهُدَاهُ وَيَسِيرُ بِسِيرَتِه) [1].

فإذا قامت طائفة بتدبير المؤامرات ضد دولة الإمام عليه السلام جنح للثورة المسلحة وطهر بقاع الأرض من وجودهم.

وثورة التبيين والحوار تحتاج إلى وقت ومدى حتى تؤتي أثرها وتظهر ثمارها.

١- كمال الدين/ ٣٥١.

لذا ورد في الروايات أن سني عمره طويلة، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (إن القائم يملك ثلاثمائة وتسع سنين كما لبث أهل الكهف في كهفهم، يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا، ويفتح الله له شرق الأرض وغربها، ويقتل الناس حتى لا يبقى إلا دين محمد صلى الله عليه وآله، يسير بسيرة سليمان بن داود)[1].

ولا يتوهم أحد أن ملأ الأرض بالعدل والقسط هو أثر السيف والسلاح لوحده، وإنما هو أثر الحكمة والحجة الدامغة أولا وقبل كل شيء.

*سؤال حول مدة ملكه

وإن قلت:

قد اختلفت الروايات في عدد السنين التي يحكم فيها الإمام عليه السلام، فبين رواية توصلها إلى سبعين سنة، وأخرى تقتصر على سبع سنوات، وثالثة تسعة عشر سنة.. الخ

قلت ثمة وجوه من الجواب:

■ الوجه الأول

أشير في بعض الروايات إلى أن سنيه أضعاف سني البشر، وذلك لطول الأيام والليالي في دولته.

فقد روى المفيد عن عبدالكريم الخثعمي قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: كم يملك القائم عليه السلام؟

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ٤٧٤.

قال عليه السلام: (سبع سنين، تطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة من سنيه مقدار عشر سنين من سنيكم، فيكون سنو ملكه سبعين سنة من سنيكم هذه)[١].

وقد يقال:

ورد في الدعاء: (اللهم كن لوليك فلان بن فلان في هذه الساعة وفي كل ساعة وليا وحافظا، وقائدا وناصرا، ودليلا وعينا حتى تسكنه أرضك طوعا، وتمتعه فيها طويلا) [٢].

ومعنى (تسكنه أرضك طوعا) تمكينه وانبساط ملكه في أمن وأمان، ومعنى (وتمتعه فيها طويلا) امتداد عمره الشريف، فأين ذلك من حكمه سبعا أو سبعين أو أربعين سنة؟

وجوابه ما ذكره بعض الأعلام من أن سني حياته بعد ظهوره ستكون قليلة، إلا أن عمره في الرجعة مديد وكبير.

■ **الوجه الثاني**

لعل ملك السبعين محتوم، وما زاد موقوفا على شرط غير محتوم.

■ **الوجه الثالث**

أن تكون السبعين بعد استيلائه وظهور أمره في كل ربوع الأرض، أي بعد تمكنه وزوال الضلال، وأما الثلاثمائة وتسع سنين فهي من أول يوم خروجه.

١- الإرشاد ٢ الشيخ المفيد / ٣٨١.

٢- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي/ ٦٣٠، ٦٣١.

■ **الوجه الرابع**

لا يبعد أن تكون مدة حكومته ثلاثمائة وتسع سنين، ولكن تكون على مراحل، مرحلة خمس سنوات، ومرحلة سبع سنوات، ومرحلة تسعة عشرة سنة.. وهكذا.

وعلى أية حال فعصر الحجة عليه السلام هو زمان الكمال والإكمال، وعصر التسامي والسمو، وسيطول ببركة وجوده وأدائه وكفاءته، ولن يبقى أمل من آمال الأنبياء، ولا هدف من أهداف الأولياء إلا وسينجز ويستوفى غاية الاستيفاء على يديه.

المبحث السابع

سنة وسيرة الغيبة

سنة وسيرة الغيبة

روى الصدوق في كمال الدين عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إن سنن الأنبياء عليهم السلام بما وقع بهم من الغيبات حادثة في القائم منا أهل البيت حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة)[1].

***المقدمة**

ورد مضمون رواية البحث في غير واحدة من الروايات، مما يدل على أنه مضمون قوي، ومن تلك الروايات غير ما مر ما في كمال الدين عن العسكري عليه السلام أنه قال: (إن ابني هو القائم من بعدي وهو الذي يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام بالتعمير والغيبة)[2]، وغيرها.

وما تذكره هذه الروايات هو بمثابة الصغرى لقاعدة كبرى روائية مسلمة بين الفريقين، وهي قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة)[3].

وعليه فلا يحق لأحد أن يستبعد حصول الغيبة عند أئمة الشريعة الخاتمة ما دامت قد وقعت في أنبياء الأمم السالفة.

هذا، ولكن عقيدة الغيبة كانت ولا زالت مثار سخرية كثير من المسلمين.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٣٤٥.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٥٢٤.

٣- بحار الأنوار، العلامة المجلسي ١٣ / ١٨٠ وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني ٧/ ٩١٦.

فقائل: كيف يمكن بقاء إمام الشيعة في سرداب إلى الآن بلا طعام ولا ماء! رغم أن الشيعة تقدس السرداب لكونه محلا لعبادة الأئمة عليهم السلام لا لكونه مخبئا للغائب عليه السلام إلى هذه الساعة.

وقائل: كيف يصدق عاقل ببقائه حيا إلى هذا اليوم بعد هذا التاريخ الطويل؟

وقائل آخر: إن فكرة الغيبة طارئة على عقائد الشيعة، إذ لما أصابتهم الحيرة بعد وفاة العسكري عليه السلام اخترعوا فكرة الغيبة، ليوهموا استمرارية الإمامة!

وكل تلك الإشكاليات إنما هي وليدة الجهل بمقالات الشيعة وقواعد الإسلام، بل جهل بقواعد الديانات السماوية.

* سؤال حول اللطف

إذا كانت الإمامة لطفا كما يقرر أغلب الشيعة، فأي لطف يتحقق بنصب إمام مع غيبته وخفائه؟

وبعبارة أخرى: اللطف والعناية تقرب الخلق من الطاعة وتبعدهم عن المعصية مع بقاء اختيارهم، ولطف الإمامة يتم بالإمام الحي الظاهر، وأما الحي الغائب فلا يتم بإمامته شيء من ذلك، وعليه فإمامته ليست من اللطف في شيء؟

* نظريات المعترضين

تتلخص نظريات المعترضين على وجود إمام حي غائب في ثلاثة مستويات:

■ المستوى الأول:

لو سلمنا بأن الإمامة لطف إلهي فإنه يتم في الإمام الحاضر ولا يتحقق شيء من اللطف في وجود إمام غائب محجوب.

■ **المستوى الثاني:**

إن الاعتقاد بإمام موجود غائب لا يولد إلا الحسرة والتحسر على غيابه، فلا بركات في غيبته بل حسرات.

وبعبارة أخرى: إن انتظار ظهوره يساوي انتظار وجوده، وليس للمنتظر للظهور إلا التحسر، لأن تحقق وإنجاز الأهداف إنما هو بعد الظهور، فليكن إيجاده في أوان الظهور.

■ **المستوى الثالث:**

وهو قول مبثوث بصيغ عديدة في كلمات ابن تيمية وخلاصته:

إن تقدير وجوده مع غيابه شر محض – والعياذ بالله –.

وذلك لأن المنتظرين له ليس لهم إلا الخسارة وضياع العمر، فلا شخص يرون ولا علم يستفيدون.

والمكذبون به والجاحدون له يموتون ميتة جاهلية، وهم موعودون بالعذاب والمداينة.

فلا مصلحة في وجوده غائبا، بل تترتب مفسدة لكلا الطرفين، المعتقد به والمنكر له!!

وقبل الجواب عن هذه الشبهة في مستوياتها الثلاثة ينبغي أن نؤكد على وجود نقطتي اشتراك بينها:

النقطة الأولى: عدم تفطن أصحاب هذه الأقوال إلى هوية الإمامة في مذهب أهل البيت عليهم السلام.

النقطة الثانية: تفسيرهم الغيبة والانتظار على خلاف ما هو مقرر في عقيدة الإمامية.

فإذا ما وقفنا على هاتين الحقيقتين بنحو صحيح تبين أن الإشكالات الواردة على الإمامة الغائبة واهية وساقطة.

***ما هي الإمامة؟**

لا يخفى أن للدين حقولا وأبوابا، كالعقائد والفقه والأخلاق.

وقد تعرف المصطلحات الدينية في كل حقل علمي بزاوية منها، وتبين ببيان خاص، فيعرف الفقيه التوحيد أو النبوة أو الإمامة من زاوية علمه، ويتناولها المتكلم من جهة اختصاصه العقلي، ويصبغها العارف بلون وذوق عرفانه.

وكثيرا ما يقع بعض الباحثين في الخطأ، فيحمل تلك التعريفات على الاختلاف ويراها متقاطعة متصادمة، وبالتالي يعمد إلى اختيار أحدها أو إلى استحداث وبلورة تعريف آخر.

بينما لو أعمل دقة النظر فيها لتفطن إلى أن كل عالم ومتخصص عرف تلك المصطلحات من جهة وزاوية، والتعريف الجامع هو الذي تؤخذ فيه كل تلك الزوايا بعين الاعتبار.

ومن باب التطبيق نشير إلى الإمامة مثالا ونموذجا، فقد عرفت بأنحاء وحسب التخصصات.

فالإمامة عند أهل الشريعة رئاسة دينية يدار بها مصالح الدين والدنيا والتي تعود بالنفع على سائر الناس، والإمام هو سائق الرعية إلى ما يصلح دينهم ودنياهم، وهو الزاجر لهم عما يضرهم.

والإمام بحسب هذا التعريف حافظ لأحكام الشريعة عن الزيادة أو النقصان أو الضياع.

وهي عند أهل الطريقة تعرف بالقطبية، ومعناها الفناء المطلق من قبل الإمام، وقدرته على سوق نفوس الخلق المستعدة لما هي مستعدة له.

بينما تعرف الإمامة عند أهل الحقيقة بالقوة التي تدير الوجود تكوينا وتشريعا.

والإمام هو سلطان التكوين والتشريع.

والمحصلة أنه إذا ما أراد الباحث أن يعرف الإمامة بكامل حدودها فلا ينبغي له أن ينتخب تعريفا واحدا، لكون كل تعريف منها ناظرا لزاوية.

والإمامة بحدودها الكاملة هي الجامعة لكل الزوايا، والإمام هو قائد الشريعة والمسيرة ومحور الوجود تكوينا وتشريعا وهو سائق النفوس لكمالاتها.

وإذا كان للوجود مراتب ومراحل، فلإمامته طبقات بحسب مراحل الوجود.

وعلى ضوء ما مر فلو سلمنا أن الغيبة تمانع الزعامة السياسية والمرجعية الفقهية، وتمنع الإمام عليه السلام من إقامتهما، فلا يصح القول إن وجوده بلا منفعة، وأن الغايات كلها تتحقق بوجوده وظهوره!!

كما لا يصح القول إن وجوده مع غيبته شر محض، وذلك لوجود شؤون ومسؤوليات ووظائف موكلة للإمام في الغيبة، فانعدام حكومته السياسية وتعطل دوره الفقهي لا يقوض أدواره الأخرى كالدور الوجودي.

وقد أشير لدوره الوجودي في روايات الفريقين، فهذا أمير المؤمنين عليه السلام يقول في دعاء كميل: (وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء)[1].

١- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٨٤٤.

والإمام الذي يتقوم كل شيء به كواسطة تكوينية لا بد من وجوده وحضوره سواء كان ظاهرا أو غائبا.

*الدور الوجودي في روايات العامة

وهاهنا نقف وقفة خاطفة لمعرفة بعض ما أخرجه العامة في كتبهم مما يدل على الدور الوجودي لعترة الرسول صلى الله عليه وآله، وإلا فالأدلة من مذهبنا في ذلك لا تعد ولا تحصى.

فمنها ما أشار إليه ابن حجر في صواعقه تحت قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [١]، قال:

(أشار صلى الله عليه وآله إلى وجود ذلك المعنى في أهل بيته وأن أهل البيت أمان لأهل الأرض كما كان هو صلى الله عليه وآله أمانا لهم، وفي ذلك أحاديث كثيرة، منها... (النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأمتي، فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض).

وفي رواية صححها الحاكم على شرط الشيخين: (النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف) [٢].

وفي المستدرك عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (النجوم أمان لأهل السماء فإذا ذهبت أتاها ما يوعدون وأنا أمان لأصحابي ما كنت فإذا ذهبت أتاهم ما يوعدون وأهل بيتي أمان لأمتي فإذا ذهب أهل بيتي أتاهم ما يوعدون)، صحيح الإسناد ولم يخرجاه.[٣]

١- سورة الأنفال/ ٣٣.

٢- الصواعق المحرقة، ابن حجر ٢ / ٤٤٥.

٣- المستدرك، الحاكم النيسابوري ٢ / ٤٤٨.

وتحت قول الحاكم في ذيل الروايتين (صحيح الإسناد)، علق الذهبي على الأولى فقال بل موضوع، وعلق على الثانية فقال: أضنه موضوعاً.

ويمكن أن يقوى مضمون هذه الروايات بالالتفات للتالي:

أولا: ما ذكره ابن حجر تحت الآية السابقة في فضائل أهل البيت عليهم السلام من أنها روايات كثيرة، وللروايات الكثيرة وزن وقيمة، حتى لو قيل بضعفها.

ثانيا: إن هذا المضمون عليه إجماع من الطائفتين.

ثالثا: قال العلامة الأميني في كتابه سيرتنا وسنتنا:

(وقال الصبان في الإسعاف: وقد أقيم أهل بيته مقامه في الأمان لأنهم منه وهو منهم).

وعدّ ابن حجر تلك الآية من الآيات النازلة في أهل البيت. [1]

وكيف يُرد مضمون نطق به صريح القرآن، وتطابقت روايات الفريقين على روايته!!

وعلى عادة بعض المسلمين في امتهان التحريف – وبأساليب عديدة لتغييب الحق – فقد رموا هذه الروايات بالضعف، بل ورغم نقل الحديث في المصادر عن مسند أحمد إلا أنه ليس موجودا فيه بحسب الطبعات المتوفرة الآن.

ومضافا لكل هذه الروايات التي تشير إلى دور الإمام في التكوين أُستدل بما رواه الصدوق في الأمالي أنه سئل الصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجة الغائب المستور؟ قال: (كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب)[2].

---

١ – سيرتنا وسنتنا، العلامة الأميني/ ٩٠.

٢ – الأمالي، الشيخ الصدوق / ٢٥٣.

فقال بعض أهل العلم يشير الإمام عليه السلام إلى أن الانتفاع به لا يختص بعالم التشريع والاعتبار، بل يتجاوزه إلى عالم التكوين.

* نظر الشيخ آصف محسني

والعجب من مقالة الشيخ محمد آصف محسني في كتابه صراط الحق، فقد قرر وجود فائدة عظيمة للإمام الغائب عليه السلام من جهة التكوين، فقال:

(ما فائدته وهو مستور غائب لا ينتفع منه أحد؟

وفيه **أوّلًا**: أنّ الجهل بفائدة وجوده عليه السلام قبل قيامه بعد ما ثبت إمامته ومهدويّته وخروجه في آخر الزمان ليملأ الأرض قسطاً وعدلًا غير مضر؛ فإنّا نجهل فائدة كثير من أفعاله تعالى، وما أوتينا من العلم إلّا قليلًا، نعم نحن نعلم أنّ الله حكيم لا يفعل إلّا لحكمة وغرض، بل لا يفعل إلّا الأصلح كما مرّ.

وثانياً: أنّ لوجوده عليه السلام وإن لم يكن فائدة من حيث التشريع، لكن له فائدة عظيمة من جهة التكوين). انتهى

لكنه صرح في آخر الصفحة بقوله: (نعم ما ذكره بعض أفاضل أهل المعقول في مدخلية وجوده في نظام التكوين لا يمكن لنا تصديقه![1].

فما هو جوابه عن تلك الروايات المروية عند الفريقين وهو قد استدل بها على وجود مصلحة تكوينية للحجة عليه السلام!

وعلى أي وجه يفسر ما ورد في دعاء رجب: (فبهم ملأت سماءك وأرضك حتى ظهر أن لا إله إلا أنت)[2]!

١- صراط الحق، آصف محسني ٣/ ٣٦٤.

٢- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي/ ٨٠٤.

وكذا ما رواه الصدوق عن الصادق عليه السلام: (نَحْنُ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَحُجَجُ اللهِ عَلَى الْعَالَمِينَ وَسَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَادَةُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ وَمَوَالِي الْمُؤْمِنِينَ وَنَحْنُ أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ النُّجُومَ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ وَنَحْنُ الَّذِينَ بِنَا يُمْسِكُ اللهُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَبِنَا يُمْسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَبِنَا يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ تُنْشَرُ الرَّحْمَةُ وَتَخْرُجُ بَرَكَاتُ الْأَرْضِ.

وَلَوْ لَا مَا فِي الْأَرْضِ مِنَّا لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا.

ثُمَّ قَالَ وَلَمْ تَخْلُ الْأَرْضُ مُنْذُ خَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ حُجَّةٍ للهِ فِيهَا ظَاهِرٍ مَشْهُورٍ أَوْ غَائِبٍ مَسْتُورٍ وَلَا تَخْلُو إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ مِنْ حُجَّةٍ للهِ فِيهَا وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يُعْبَدِ اللهُ..)[1].

وفي نفس المصدر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (بِهِمْ يُمْسِكُ اللهُ عَزَّ وَجَلَ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَبِهِمْ يَحْفَظُ اللهُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا) [2].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٢٠٧.
٢- نفس المصدر/ ٢٥٩.

المبحث الثامن

شبهات حول الغيبة

شبهات حول الغَيبة

وروى الصدوق عن حماد بن عمرو عن الصادق عن آبائه عليهم السلام في حديث طويل في وصية النبي صلى الله عليه وآله يذكر فيها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي عليه السلام:

(يا علي! واعلم أن أعظم الناس يقينا قوم يكونون في آخر الزمان، لم يلحقوا النبي وحجب عنهم الحجة فآمنوا بسواد في بياض)[1].

وفي مستدرك النوري عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: (أي إيمان أعجب؟ قالوا: إيمان الملائكة.

قال: وأي عجب فيه، وينزل عليهم الوحي! قالوا: إيماننا.

قال صلى الله عليه وآله: وأي عجب فيه، وأنتم تروننني!

قالوا: فأي إيمان هو؟

قال: إيمان قوم في آخر الزمان بسواد على بياض)[2].

***توطئة**

على مدى الأحقاب والعصور لم يتصد خصوم المهدوية لتلك العقيدة بالمنطق والبرهان والعقلانية، بل كانت أكثر أنماط مواجهتهم تنحى نحو الحرب النفسية والهزيمة الروحية.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٢٨٨.

٢- مستدرك الوسائل، النوري١٧/ ٣٠٠.

ولا نبالغ في القول لو قلنا: إن خصوم الشيعة لا يمتلكون أدوات الحرب الفكرية، بل يعتمدون على منطق الاستهزاء والضغوط النفسانية.

واليوم وبعد توسع قنوات الاحتجاج وتبادل المعلومات ساد منطق الاستهزاء والسب والشتم بشكل ملحوظ وفج على صفحات القنوات الافتراضية.

ونتلمس هذا النوع من الحرب بنحو جلي في القضية المهدوية، فبدل أن تطرح الشبهات بطريقة منطقية عقلية يسود منطق الاستهزاء والضغوط النفسانية.

ومن باب المثال: لما وجدوا أن افتراض العمر الطويل ليس من المستحيلات لدى العقل، بل له نظائر في طول تاريخ البشرية، أشكلوا بلغة المستهزء ونسبوا للشيعة الاعتقاد بغيبة واختفاء الإمام عليه السلام في السرداب وأنه ما زال يسكن فيه.

وكم لهذا المنطق من الحرب النفسية من نظائر يُستهدف بها زعزعة العقيدة المهدوية في النفوس وزرع بذور التشكيك فيها.

وقد آتت هذه الحرب النفسانية أُكلها في نفوس بعض الناس، فزهدوا في الإيمان بالمهدوية بعد الانهيار النفسي أمام المستهزئين.

وقد نبه بعض المحققين إلى أن الانهزام النفسي والاستجابة للحرب الناعمة أخطر من الانهزام العقلي والفكري، لأن انهزام العقل يعني عدم وجدانه للدليل، وأما الانهزام النفسي فإنه يحول عقل المنهزم إلى منظر للمناهج المنحرفة ومنساق معها.

* الفرار الفكري

ويعتبر الانهزام في الحرب النفسانية من أجلى مصاديق الفرار الفكري في ساحة المواجهة العلمية.

وإذا حكم القرآن على الفرار البدني وتولية الأدبار حين المواجهة العسكرية بأنه معصية كبيرة، فنفس الحكم يسري على الانهزام في المواجهة الفكرية والمقارعة الروحية، فهو فرار عن المواجهة ومن المعاصي الكبيرة.

بل الفرار الفكري أكبر في المعصية من الفرار العسكري، وإذا كان القرآن يؤكد مغلظا وفي عدة مواضع منه على مسألة الفرار العسكري، كما في قوله تعالى: ﴿**فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ**﴾[١]، ويتوعد بقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[٢]، فلا شك أن التغليظ والمداينة أعظم في التولية الفكرية والانهزام النفساني.

وذلك لعدة أمور:

أولًا: إن الحرب العسكرية والمواجهة البدنية ليست دائمية، بل هي في مد وجزر، بينما المواجهة الروحية والفكرية قائمة دائمًا وأبدًا بين معسكر الحق ومعسكر الباطل.

ثانيًا: إن تولية الأدبار هو فرار بالأبدان، بينما الانهزام النفسي والتولية الفكرية رجوع عن الهوية، ونزول عن موقع التعزز بالمبادئ الدينية بفعل الركون لاستهزاء المستهزئين.

وتشير الدراسات إلى أن العامل النفسي يتكفل بالنصر أو الهزيمة بمقدار ثمانين بالمئة في الحروب والمواجهات في مقابل العوامل الأخرى، وبه يتأكد وجوب الإعداد الروحي والفكري وتقوية السلاح النفساني أكثر من إعداد أنواع السلاح الأخرى.

١- الأنفال/ ١٥.

٢- الأنفال/ ١٦.

ولنا عبرة عظيمة ودرس كبير في مسألة الغيبة، فبرغم طولها يتجلى الثبات الروحي عند الإمام الحجة عليه السلام على مدى الدهور وعدم استجابته للضغوط النفسانية.

بل إن ثباته الروحي دليل من دلائل إمامته عليه السلام، فمع طول عهد غيابه وكونه شريدًا غريبًا طريدًا إلا أنه في ثبات نفساني لا نظير له بأمل الوصول إلى يوم الظهور.

وقد قال أهل المعرفة إن أحد أسباب موت كبار السن هو غياب أصدقائهم ورحيل الجيل الذي عاشوا فيه، إذ يترك ذلك فيهم وحشة نفسانية من الحياة ويزهدهم في البقاء الدنيوي، فيكون العامل النفساني من أقوى أسباب رحيلهم.

وهنا يكمن إعجاز الحجة عليه السلام، فإنه بطول عمره يعاشر ويفارق أجيالًا كثيرة بلا أن تدخل عليه أيّ وحشة أو انهزام نفسي، بل يعايش كل جيل يمر عليه بنفس المواصفات الروحية العالية.

وفي ذلك عبرة عظيمة ينشط بها ثبات أرواح المؤمنين مهما تقادم عصر الغيبة.

*شبهتان

يعتقد الشيعة الإمامية بقيام وفعلية دولة صاحب العصر والزمان عجل الله فرجه الشريف الآن وقبل ظهوره للعيان.

فلو سألت أي شيعي وقلت: من هو إمامك الآن؟

لقال أمامي حي حاضر قائم، ولن يقول إمامي سيقوم بعد ذلك.

لذا سُمّي بالقائم، وورد في زيارته: (السلام على السيف الشاهر)[1].

١- المزار، المشهدي ٥٩٠.

وهو تعبير عن فعلية دولته ومجابهته وحربه ولو في الخفاء، إذ إحدى معاني السيف الشاهر هو فعلية المواجهة لا أنه سيشهر بعد ذلك.

كما يعتقد الشيعة أن المهدوية مدد إلهي عظيم محكوم بقواعد المدد والنصر القرآني، والمدد بحسب القرآن لا يُعطى بالمجان، بل هو مشروط بالتمهيد والإعداد والاستعداد، ومحكوم بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[1]، فبقدر السعي والانتصار يكون النصر من الله تعالى.

■ **الشبهة الأولى: جدلية اللطف والغيبة**

تعرضنا لجدلية اللطف والغيبة فيما سبق، وهنا نشير إلى زاوية أخرى غير ما مر.

قال بعض: إن المساهمة في تقويم اعوجاج الأمة تقتضي حضور الإمام والقائد، فوجوده مع غيبته يقوض اللطف المتوقع منه عليه السلام.

والإجابة في نقاط:

● **النقطة الأولى: مراتب اللطف في الإمامة**

أشار المحققون إلى أن اللطف الإلهي المترتب على جعل الإمام عليه السلام ينحل إلى مرتبتين.

الأولى: لطف في وجوده.

الثانية: لطف في ظهوره.

والاولى من فعل الله تعالى وهي غير متوقفة على اختيار الناس.

١- محمد/ ٧.

بينما الثانية هي من فعل الله تعالى مشروطة بإعداد واستعداد الأمة، ولما قصّرت الأمة في الإعداد، بل ساهمت في حصول الغيبة والاستتار بسوء اختيارها، تحقق منه تعالى لطف المرتبة الأولى وتعلّق لطف المرتبة الثانية.

وعليه فوجوده مع غيبته فيه موازنة بين استمرار اللطف من الله (بإيجاده) ومنع اللطف من قبل البشر (بالتسبيب لغيبته)، أو موازنة بين إرادة الله واختيار البشر.

فمن قواعد القرآن قوله تعالى: ﴿**أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾[1]، فكيف يُجبر الله الأمة على الانتفاع ببركات ظهور الإمام عليه السلام وهي كارهة لذلك وغير مستعدة ولا مستحقة!!

فإذا كانت الأمة لا تقيم وزنا للدولة الإلهية ولا تعتقد بترتب العزة عليها، فلا محيص من إبقائها في مستوى دولة الملك الروحي والتكويني من غير ظهور وبروز.

لذا أجمع علماؤنا المتقدمون والمتأخرون على هذا القالب: (وجود الإمام عليه السلام لطف تصرف أو لم يتصرف).

وهي قاعدة مستنبطة من قول أمير المؤمنين عليه السلام:

(اللَّهُمَّ بَلَى لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ للهِ بِحُجَّةٍ ظَاهِرٍ مَشْهُورٍ أَوْ خَافٍ مَغْمُورٍ لِئَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللهِ وبَيِّنَاتُهُ) [2].

قال العلامة المجلسي في مرآة العقول:

(وتوضيحه ما أورده الشيخ البهائي قدس سره في شرح الأربعين:

١- هود/ ٢٨.

٢- كمال الدين/ ٢٩٤.

حيث قال: استقامة ما دل عليه هذا الحديث من عدم خلو الأرض من إمام موصوف بتلك الصفات ، وكذا ما يفيده الحديث المتفق عليه بين الخاصة والعامة من قوله: (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية)، ظاهرة على ما ذهب إليه الإمامية من أن إمام زماننا هذا هو مولانا الإمام الحجة بن الحسن المهدي عليه السلام، ومخالفوهم من أهل السنة يشنعون عليهم بأنه إذا لم يمكن التوصل إليه ولا أخذ المسائل الدينية عنه فأي ثمرة تترتب على مجرد معرفته حتى يكون من مات وليس عارفا به فقد مات ميتة جاهلية، والإمامية يقولون: ليست الثمرة منحصرة في مشاهدته وأخذ المسائل عنه.

بل نفس التصديق بوجوده عليه السلام وأنه خليفة الله في الأرض أمر مطلوب لذاته، وركن من أركان الإيمان كتصديق من كان في عصر النبي صلى الله عليه وآله بوجوده ونبوته) [1].

● **النقطة الثانية: مناهج الأئمة**

إن مناهج المعصومين من أهل البيت عليهم السلام مقررة من الله تعالى بشهادة الروايات، وهي تتنوع تبعًا للظروف والمصالح، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة مناهج.

الأول: هو منهج التقية والهدنة والتغيير في الخفاء ومن وراء الأضواء، وقد سلكه أكثر الأئمة عليهم السلام، فقد ابتلوا بسيرة التقية واضطروا للهدنة.

وابتلاء أكثرهم به أدى إلى اشتباه بعض المؤمنين في تحديد المنهج الأصيل في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فاعتبر التقية أصل في المناهج.

١- مرآة العقول، المجلسي ٤/ ٢٧.

الثاني: المنهج الذي تلون بلون التقية والهدنة في حقبة تاريخية، ونحى منحى المواجهة والتغيير العلني في حقبة أخرى.

وقد برز هذا المسلك في منهاج الحسين عليه السلام، فقد سلك منهاج الهدنة والمسالمة في ظرف وسلك حماس المواجهة والحرب في ظرف آخر.

الثالث: منهج المصادمة والمواجهة والمقاطعة بلا سبق هدنة في أي مرحلة من المراحل.

وأول من سلك هذا المنهج بعد عصر النبوة بجلاء ووضوح هي البضعة النبوية فاطمة عليها السلام.

فلم يُشرّع في حق الزهراء عليها السلام الهدنة مع الباطل وإن شُرّعت في حق أمير المؤمنين عليه السلام.

وبتعبير أحد الأكابر: كان منهاج الزهراء عليها السلام هو نهج البراءة المطلقة من الفاسدين ومن أول الأمر، فبمجرد رحيل النبي الأعظم صلى الله عليه وآله اعترضت وجأرت بالمعارضة.

وقد كلّفها ذلك المنهج الإقصاء المبكر والتصفية السريعة من قبل الظالمين.

ومنهج المصادمة والبراءة المطلقة هو الذي شُرّع في حق الغائب عليه السلام، أي أنه مُكلّف بمقاطعة كل مشاريع الجور، ولم يُشرّع في حقه أي هدنة أو مداراة.

وهذا هو التفسير الآخر لما ورد في زيارته: (السلام على السيف الشاهر)[1]، أيّ أنه مكلّف بإقامة معالم الحق بلا خضوع لمقتضيات التقية.

١- المزار، المشهدي٥٩٠.

وهنا نتساءل: ما هي الحالة المُثلى التي ينبغي أن يكون الإمام عليه السلام عليها لإنجاز منهج المقاطعة والبراءة التامة من الفساد؟

لو اتخذ حالة الظهور من أول الأمر مع رفض الهدنة لكان مصيره هو التصفية المبكرة من قبل أهل الجور كما حصل لأمه فاطمة عليها السلام.

ولو تأملنا في كل الخيارات المتاحة والممكنة فلن نجد أمثل وأحكم من وضع الغيبة للمحافظة على حياته عليه السلام من التصفية المبكرة وتفعيل منهج المقاطعة والبراءة التامة.

وقد أُشير لذلك في روايات عديدة وردت كجواب من الأئمة عليهم السلام عن السؤال عن علة الغيبة، فمرة عللوا الغيبة بخوف القتل، وأخرى بأن لا تكون في عنقه بيعة لظالم.

ولا تناقض بين الجوابين، بل بينهما تكامل، ومحصلتهما هو أن الوضع الأمثل لاستمرار وجوده الطاهر مع اعتماده منهج البراءة المطلقة هو الغيبة والاستتار.

فغيبته تخطئة لكل ما هو قائم، ومقاطعة لكل اعوجاج، وبهما تتأكد البراءة من المشاريع الفاسدة القائمة في الأرض أو الممزوجة بالضلال.

وهو نحو من الأثر والتأثير.

- **النقطة الثالثة: اللطف لا ينتفي بالتقية**

لقد أجاب أهل العلم عن إشكالية بقاء اللطف مع الغيبة بجواب نقضيّ، فبينوا أن أكثر من نبي من الأنبياء لم يكونوا قادرين على زجر الفاسدين عن قبائحهم، ولم يتمكنوا من التبليغ بحرية.

ومع ذلك كان وجودهم لطفًا إلهيًّا، ولم تبطل نبوتهم بعدم القدرة والمكنة.

فقد أخربنا الله في قرآنه أن نوحًا وهودًا ولوطًا لم يقدروا على الزجر ولا على إنفاذ الأحكام الإلهية.

ولا أوضح في هذا المجال من المسيح عليه السلام، إذ لم يكتفِ قومه بعصيانه، بل تعدوا إلى محاولة قتله وصلبه.

والخلاصة إن كثيرا من الأنبياء لم يكونوا في مكنة من زجر أقوامهم أو تطبيق الأحكام إما بنحو دائم أو في أغلب الأحوال، ومع ذلك كان وجودهم لطفًا ونبوتهم قائمة.

فما قيل في حق الأنبياء عليهم السلام يقال في حق الإمام الغائب عليه السلام بلا فرق، فلا يُشكل على إمامته بعدم قدرته ومكنته على الأمر والنهي والزجر.

■ **الشبهة الثانية: اختلاف المسلمين في العقيدة المهدوية**

قال بعض المخالفين:

إننا لا نتلمس أي فرق بين الشيعة والسنة في العقيدة المهدوية من حيث الآثار المترتبة عليها والبركات المتوقعة منها، لأن الأثر المنعكس واحد، ويتساوى فيه من يعتقد بوجوده وغيبته ومن يؤمن بإيجاده زمان ظهوره!!

وللتقريب يطرح هذا المثال فيقال:

كما ينزجر الناس عن المخالفة اذا علموا بوجود حاكم مختفٍ في قرية من قِبل السلطان، كذلك ينزجروا عن المخالفة خوفًا من حاكم علموا أن السلطان سيُرسله بعد ذلك.

فلا فرق بناءً على هذا بين مذهب الشيعة والذي مفاده أن الله خلقه وأمره بالاختفاء، وبين مذهب السنة والذي مفاده أن الله سيخلقه في أوان إرساله.

والجواب في مستويات:

- **المستوى الأول: لا يتساوى الوجود والعدم**

وهو جواب نقضي:

فيقال لو كان وجود الشيء وعدمه متساويين في الأثر، فلِمَ لم يكتفِ الله بالوعد بخلق الجنة والنار أوان الحساب، ولِمَ هما مخلوقتان الآن!!

إذ من الواضح أن العلم بوجود الشيء بالفعل أكثر تأثيرا في النفس وأدعى للاستقامة من إيجاده بعد ذلك.

ولا يشك بصير في أن أثر المعدوم الموعود بوجوده في النفوس لا يقارن ولا يقابل بأثر الشيء الموجود فعلا وإن كان غير مشهود.

- **المستوى الثاني: المغالطة في المثال**

إن المثال الذي طرحه المخالفون لا يصح التمثيل به لما نحن فيه، فإن أثر الحاكم المبعوث من قبل السلطان والمختفي في المدينة عن الأنظار لو شابه أثر الحاكم الذي سيرسله السلطان بعد ذلك، فإن سبب المشابهة هو وجود الحاكمين فعلا مع فارق بسيط، وهو أن أحدهما مختفٍ والآخر سيُرسل بعد ذلك.

بينما الذي نحن فيه هو تقابل نظريتين متناقضتين، ويفترض أصحاب النظرية الأولى أثرا للإمام في النفوس مع وجوده واختفائه، ويفترض أصحاب النظرية الثانية أثرا له مع عدمه بالكلية.

ويفرق العقلاء بلا شك بين الخوف الحاصل من الموجود المترقب والخوف الحاصل من المعدوم من رأس.

● **المستوى الثالث: أثر وجود الحاكم الغائب**

إن الفرق جلي بين الخوف الناتج من الإحساس بوجود حاكم حاضر مطّلع على أفعال الرعية وإن كان غير معروف بعينه، والخوف الحاصل من حاكم لا علم له بما وقع من الرعية لعدم وجوده وقت حصول الوقائع.

وعليه فالانزجار عن القبائح للعلم بوجود حاكم عالم مطّلع لا يساوى بالانزجار لمجرد الوعد بوجوده بعد ذلك وعلمه.

هذا مضافا إلى أن للإمامة في العالم أثرين، أثر في التكوين وأثر في الهداية.

ولو سلمنا بانتفاء أثر هداية العباد بالغيبة، فهو مما منع عنه الظالمون بسوء اختيارهم، فلو اختار الله عدم وجوده لعدم مكنته من الهداية فسوف ينتفي مع ذلك أثره التكويني، وسينتسب ذلك لفعل الله لا إلى فعل الظالمين، والله لا يفعل ما فيه فساد التكوين.

● **المستوى الرابع: أثر الإمامة في الهداية الخفية**

لقد نوه القرآن الكريم بنوعين من أنواع الإمامة:

الأول: إمامة ظاهرة، فقال تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾[1]، وبرنامجها علني وأثرها مشهود.

١- البقرة/ ١٢٤.

الثاني: إمامة خفية ذات برنامج سري، نظير إمامة الخضر عليه السلام، وفيها لا يقبل من الرعية حتى الابتداء بالسؤال، قال تعالى: ﴿**قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا**﴾[1].

وبهذا التمييز بين نوعي الإمامة يتبين أن الغيبة والخفاء لو أعاقا الهداية الظاهرة للإمامة، فإنهما لا يمنعان من الهداية الخفية لها.

وبعبارة أخرى: إن الذي يفوت بغيبته إنما هو مصالح الإمامة الظاهرة وليس مصالح الإمامة الخفية، والإمام ينجز التدبير في وجود الأمة مرة بإمامته الظاهرة ومرة بإمامته الخفية.

وفي نهاية المطاف نشير إلى أن الأسئلة والشبهات التي طرحها المخالفون على المهدوية والغيبة بحسب اعتقادات الشيعة إنما هي وليدة قصور عام لديهم في مباحث الإمامة في القرآن والروايات وعلم الكلام.

وقد قرر أهل المعقول أن المسافة بين الشيعة والمخالفين في مستوى البحث الكلامي تساوي بعد ما بين المشرقين، ويحتاج المخالفون إلى دهور متطاولة في البحث المعرفي الدؤوب لكي يبلغوا بعض مراقي بحوث الإمامة لدى الشيعة.

*بشارة نبوية

روى الصفار في بصائر الدرجات:

عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:

(قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم وعنده جماعة من أصحابه: اللهم لقني إخواني مرتين.

١- الكهف/ ٧٠.

فقال من حوله من أصحابه: أما نحن إخوانك يا رسول الله؟

فقال: لا، إنكم أصحابي، وإخواني قوم في آخر الزمان آمنوا بي ولم يروني، لقد عرفنيهم الله بأسمائهم وأسماء آبائهم، من قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، لأحدهم أشد بقية على دينه من خرط القتاد في الليلة الظلماء، أو كالقابض على جمر الغضا، أولئك مصابيح الدجى، ينجيهم الله من كل فتنة غبراء مظلمة)[1].

١- بصائر الدرجات، الصفار/ ١٠٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني ٦/ ٩٠٤.

المبحث التاسع

حتمية الإمامة والغيبة

حتمية الإمامة والغيبة

روى الكليني في الكافي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: (إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل)[1].

***تمهيد**

لقد رفض أهل المذاهب الأخرى حتمية وجود الإمامة الغائبة في هذه الأعصار رغم اعترافهم بأصل الفكرة المهدوية، وعقيدة المنجي، وحتمية المخلص.

وربما يظن المنكر لذلك أنه في سعة من أمره، وأنه ليس مطالبا ببرهان وتصور معقول يفلسف إنكاره ما دام لا يرى الإمام بعين المشاهدة، وهذا خطأ كبير.

فكما أن المؤمن بفعلية الإمامة الآن وفي طور الغيبة مطالب ببرهان وفلسفة معقولة، فالشأن في المنكر كذلك.

وذلك لأن الإنكار بنفسه صياغة لمعتقد معين، وهو اعتراض على سنن إلهية وحتميات ربانية.

فما هو البرهان الذي ساق أهل الإنكار لمعتقدهم ذاك!!

وما هو جوابهم حين المداينة والسؤال من الله تعالى؟

١- الكافي١، الكليني/ ١٧٨.

وبعبارة أخرى: إن ثمة معضلات عقائدية واشتباهات معرفية تترتب على إنكار الإمامة الغائبة، والمنكر ملزم بالتخلص عنها ولو بدليل معقول بالنسبة إليه.

ولا يكفي في العذر والاعتذار صرف غرابة الإمامة المقرونة بالغيبة لدى المنكرين، بل لا بد من فلسفة برهانية ولو لم تتعدَّ في مدى إقناعها غير أصحابها من غير تعصب ولا مكابرة.

*أدلة حتمية الإمامة ولو في صورة الغيبة

إن الأدلة على حتمية وجود الإمامة ولو في السر والاستتار متنوعة وكثيرة:

■ الدليل القرآني

دل القرآن الكريم في عدة آيات على حتمية وجود إمام في كل زمان، منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [١]

روى القمي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (جعل الله النجوم أمانا لأهل السماء وجعل أهل بيتي أمانا لأهل الأرض) [٢]

وفي الصواعق عن مسند أحمد أنه صلى الله عليه وآله قال: (فإذا ذهب النجوم ذهب أهل السماء وإذا ذهب أهل بيتي ذهب أهل الأرض) [٣]

ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [٤].

١- الأنفال/ ٣٣.
٢- تفسير علي بن إبراهيم٢/ ٨٨.
٣- الصواعق المحرقة، ابن حجر الهيتمي/ ١٥٢.
٤- الإسراء/ ٧١.

جاء في تفسير العياشي عن الفضيل قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال:

(يجيء رسول الله صلى الله عليه وآله في قومه، وعلي عليه السلام في قومه، والحسن عليه السلام في قومه، والحسين عليه السلام في قومه، وكل من مات بين ظهراني إمام جاء معه) [١]

وروى في عيون أخبار الرضا، قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾.

قال: (يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم) [٢]

■ **الدليل الروائي**

إن الأدلة الروائية التي يتمسك بها المثبت لوجود إمامة غائبة تتنوع إلى قسمين:

١ – دليل ناظرة لحاجة الناس للإمام.

٢ – دليل ناظر لجهة نسبة الإمامة في الأرض لله تعالى وما تقتضيه الصفات الإلهية.

والأدلة الناظرة لحاجة البشر على طائفتين:

الأولى: طائفة تربط وجود الأرض تكوينا بنصب الإمام وجعله، وهي نصوص كثيرة، منها:

ما أخرجه الكليني عن أبي جعفر عليه السلام قال: (لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله)[٣].

١- تفسير العياشي٢/ ٣٠٢.

٢- عيون اخبار الرضا، الصدوق٢/ ٣٧.

٣- الكافي، الكليني ١/ ١٧٩.

والثانية: طائفة تربط وجود الدين الذي يدير حياة البشر بوجود الإمام، وهو مفاد الأخبار المتفق على روايتها بين الفريقين من أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

(لا يزال الدين قائما حتى تقوم الساعة ويكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش)[١].

ولأن الدين خاتم لا يفنى ولا يزول فالإمامة باقية وفعلية ولو كانت غائبة.

هذا هو القسم الأول – بنوعيه – من الأدلة الناظرة لجهة البشر وهو يفرض حتمية وجود إمامة ولو في الخفاء لارتباط أمن الناس التكويني وأمنهم الديني به.

وأما القسم الثاني فهو الدليل الموجب للإمامة لجهة ما تقتضيه الصفات الإلهية، ومن رواياته ما عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام)[٢].

وينبغي ملاحظة هذه الرواية بدقة، فهي تشير إلى أن إنكار وجود إمام ولو غائبا إنكار لجلال وعظمة الله تعالى، أي أنه من صميم جلاله وعظمته ومن مقتضيات صفاته حتمية وجود إمام بغض النظر عن حاجة الخلق إليه.

إن وجود الإمام فرض تقتضيه صفات الله، فلو رفع أحد يده عن القول بالإمامة وقع في إنكار لوازم صفات الله وأسمائه وسنخه الوجودي.

وببيان آخر:

إن أدلة وجود الإمام ولزوم سفارته على حذو أدلة وجود الأنبياء ولزوم سفارتهم، فقسم من الأدلة ترتبط بحاجة الناس ورفع اللغوية عن وجودهم والهرج والمرج بينهم.

١- الخصال، الصدوق/ ٤٧٣. صحيح مسلم٦، النيسابوري/ ٤.

٢- بصائر الدرجات، الصفار/ ٥٠٥.

وقسم آخر من الأدلة مرتبط بنسبة الأنبياء لله تعالى وتمثيلهم لخلافته وما تقتضيه أسماؤه.

وقد نوه على الدليل الذي يفرض النبوة والإمامة في كل وقت وحال في رواية الكليني عن الصادق عليه السلام أنه قال: (الحجة قبل الخلق ومع الخلق وبعد الخلق)[1].

فقبل الخلق وبعده لا وجود للبشر، إلا أن الحجة والإمام ضرورة مع ذلك، لأنها حينئذ مرتبطة ومنسوبة لله، أي مما تقتضيه الأسماء والصفات الإلهية.

والخلاصة: يواجه منكر الإمامة ولو في الغيبة معضلتان:

الأولى: كيف سوغ لنفسه أن يعتقد بإمكان بقاء البشر تكوينا وبقاء دينهم بلا إمام!!

الثانية: كيف جوز له عقله القول بتعطيل لوازم الصفات الإلهية، إذ إن عدم وجود الإمام يخدش الجلال والعظمة.

هذا بحسب الدليل النقلي.

ونتابع بعد ذلك بذكر دليلين برهانيين على ضرورة استمرار الإمامة ولو في الغيبة.

■ الدليل العقلي

تتولد من إنكار الإمامة مع الغيبة المهدوية نتائج واحتمالات فاسدة:

١- الكافي، الكليني ١/ ١٧٧.

● **الاحتمال الأول**

إن الله تعالى لم ينصب إماما في عصر الغيبة - بعد كل جهود الأنبياء والأئمة عليهم السلام - لأنه تنازل عن هدفه!!

وهذا احتمال ساقط لما فيه من إبطال للحكمة الإلهية.

● **الاحتمال الثاني**

إنه تعالى لم يتنازل عن الغاية من بعث الرسل وتواتر الأئمة لكنه بعدم نصبه للإمام في الغيبة لا يريد للغاية أن تتفعل خارجا على نحو الجزم والحتم!!

وهذا احتمال باطل، إذ لا يعقل التفكيك بين إرادة الغاية وعدم الجزم بتحققها، إذ تكون الإرادة بذلك لغوية.

● **الاحتمال الثالث**

إنه تعالى يريد الغاية، غير أنه لم ينصب إماما هاديا لعلمه بتحققها تلقائيا!!

وهو باطل كذلك، لأن الغاية التي لم تتحقق مع وجود الرائد الإلهي في كل مرحلة إلا في القلة من البشر يستحيل تحققها لوحدها وفي ظل انعدام القيادة من أساس.

مضافا إلى أن تماهي البشرية أكثر فأكثر مع الفساد يكذب إمكانية تحقق الغاية من الخلق دون قيادة إلهية وبنحو تلقائي.

● **الاحتمال الرابع**

إن المشيئة الإلهية تعلقت بالغاية، وإن القيادة الإلهية هي السبيل لإنجازها، إلا أنه لا يشترط في القيادة من السمات والشرائط ما يشترطه الشيعة في المهدي عليه السلام!!

وهذا احتمال باطل كذلك، لأن القرآن نوه صريحا - وتؤيد العقول منطقه - بأن غير المهدي لا يهدي، وغير الناجي لا ينجي، وغير المعصوم لا يعصم.

والنتيجة الحتمية:

هي لا بدية الإيمان والإيقان بالمهدوية الغائبة وبالسمات التي حددها القرآن وبينها علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام في علم الكلام والحديث والتفسير.

■ **الدليل العرفاني**

وفي نهاية المطاف نقرر دليلا عرفانيا على ضرورة الإمامة.

ونصيغ الدليل على هيئة البرهان ومقدماته.

أولا: إن الله تعالى كامل بالكمال المطلق، فقد ورد في دعاء السحر:

(اللهم إني أسألك من كمالك بأكمله، وكل كمالك كامل، اللهم إني أسألك بكمالك كله)[1].

ثانيا: وكماله تعالى بالأثر الأتم لا بأي أثر كان وكيفما اتفق.

كما أن كماله باستدامة الأثر التام واستمرار الخلافة الحقة من غير أن يرتبط ذلك بالبشر وحاجاتهم.

ثالثا: إن افتراض عدم وجود الإمام ولو غائبا يساوق انعدام الأثر الأتم واستمرار الخليفة المتجلي في صفاته عنه تعالى.

والنتيجة حتمية وجود الإمام بمواصفات خاصة بحسب ما يقرره أهل العرفان.

١- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٧٦٠.

وللإمام الغائب عليه السلام كأثر تام وأتم - بحسب اعتقاد الشيعة - نظير في القرآن، وهو وجود الخضر - العبد الصالح - الغائب عن أعين الناس والمتواري عن معرفتهم الشخصية.

فكون الإمام معلولا وأثرا أتم مع الغيبة ليس بدعا من القول وليس عديم النظير.

فإن التخطيط الإلهي الحكيم للأثر الأتم ووجوده المستمر لا ينحصر في الأثر المشاهد للعيان، بل هناك تخطيط كذلك للأثر الأتم غير الواقع في حيز المعاينة، وإن كانت آثاره مشهودة وبركاته موجودة.

وإذا أثبت الدليل حتمية الإمامة فلا يجوز رفع اليد عنها مهما تعددت الشبهات وحتى لو عجز المثبت عن حلها.

فلو رفع عنها اليد لإشكالية طول العمر مثلا أو إشكالية عدم انتفاع الناس ظاهرا بها، لكان من باب رفع اليقين بالشك وهو لا يجوز لا دينا ولا عقلا.

ولأجل هذه الحتمية وجهت الروايات عدسة البيان نحو التفسير الصحيح للغيبة، وأنها تعني التواري عن الأعين لا عدم الحضور بين الناس، فالغيبة عدم الظهور لا عدم الحضور.

فقد جاء في التوقيع الشريف إلى السمري: (فقد وقعت الغيبة الثانية فلا ظهور)[1].

فلاحظ كلمة (لا ظهور) فهي قيد احترازي وتفسير للغيبة، وأنها خفاء عن مرمى الأعين والنظر لا أكثر من ذلك.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٥١٦.

وفي كمال الدين عن الصيرفي عن الصادق عليه السلام: (فما تنكر هذه الأمة أن يكون الله عز وجل يفعل بحجته ما فعل بيوسف، أن يكون يسير فيما بينهم ويمشي في أسواقهم ويطأ بسطهم وهم لا يعرفونه)[1].

وكذا التوقيع الشريف الخارج من الناحية للشيخ المفيد:

(نحن وإن كنا ثاوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين حسب الذي أراناه الله لنا من الصلاح، ولشيعتنا المؤمنين في ذلك ما دامت دولة الدنيا للفاسقين، فإنا نحيط علما بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعا، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وإنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء...)[2].

فكل هذه النصوص شرح تفسيري لمعنى الغيبة حتى لا يرفع الناس يدهم عن الاعتقاد بالإمام عليه السلام فيقعون في المعضلات العقائدية، وينكرون السنن الكبرى الجارية في السيرة البشرية، والسنن التي هي من مقتضيات الصفات الإلهية.

*تنوع أسلوب الإمامة

قد يقال:

إن مجموعة من العناصر والأسباب الرئيسة التي أدت إلى الانتقال بالإمامة من وضع العلن والمشاهدة إلى وضع الخفاء والتواري متحققة في كل مراحل الإمامة السابقة على المرحلة المهدوية كعنصر خوف القتل وعنصر عدم استعداد الأمة للقبول بالمشروع.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ١٤٥.

٢- الخرائج والجرائح، الراوندي٢/ ٩٠٣.

فلم لم يقدر للإمامة في المراحل كلها أن تكون قيادة فاعلة في الخفاء؟

ولم لمن تكن الإمامة العلوية أو الحسنية أو الحسينية خفية متوارية عن الأنظار لعدم قبول الناس لها وتعرض رموزها للتصفية والقتل؟

*الجواب في نقاط:

■ **النقطة الأولى: الأئمة عليهم السلام تعدد ذوات لمسيرة واحدة**

صدر مؤخراً كتاب يضم محاضرات لآية الله السيد الخامنئي (حفظه الله) تحت عنوان (أهل البيت إنسان بعمر ٢٥٠ عاما).

ويشير العنوان إلى مفهوم دقيق للغاية، وهو أن الأئمة عليهم السلام عاشوا مراحل وحلقات مترابطة، وكل حلقة متصلة بالأخرى، فالسابقة مقدمة للاحقة واللاحقة غاية للسابقة.

وإذا جمعت كل الحلقات والمراحل وجدتها متناسقة متناغمة متدرجة، وكأن رجلا واحدا بعمر طويل يخطط لكل تلك المراحل بحنكة ودهاء وتراتبية.

وهذا التصور المنتزع من واقع مسيرة أهل البيت عليهم السلام يمثل جوابا أساسيا على السؤال المطروح، فنقول:

لو ابتدأت الإمامة الأولى بالغيبة والتواري وتواصلت باقي الحلقات على نفس النهج لكانت كلها حلقة ذات صفة واحدة، غير متفاعلة مع المتغيرات وغير منسجمة مع متطلبات الواقع وغير متدرجة في الخطوات.

كما أنها لو ابتدأت بوضع الخفاء لما تعقل أحد وجودها وحضورها بالفعل في الظل.

فلا بد أن تبدأ حلقات كثيرة منها بالظهور، ثم يتخلل بين الحلقات خفاء واستتار، إما بسبب التقية أو الغيبة في السجن، ثم يتلو ذلك غيبة صغرى، وفي نهاية الحلقات يأتي دور حلقة الغيبة الكبرى، فيكون تعقل غيبة الإمامة سلسا ومهضوما ومستساغا.

■ **النقطة الثانية: الإمامة العلنية ووحي الدستور**

ومضافا لما مر، فلو بدأت الإمامة الأولى في منظومة مراحلها بالغيبة والتواري لكانت الأزمة مضاعفة، أولها أزمة دستورية، وثانيها أزمة قيادة وتدبير.

بينما بظهور الأئمة عليهم السلام في الحلقات الأولى للعلن وبثهم العلوم العقائدية والأخلاقية والفقهية أدى ذلك إلى نهضة دستورية عظيمة ومتكاملة، وبها تمكن المؤمنون من اجتياز مراحل غيبة الإمامة الأخيرة بلا ضلال وحيرة، وبها حفظوا حقيقة انتمائهم بتطبيق الدستور والسير على منهاجه.

فبوجود الأئمة عليهم السلام في العلن تبلور المنهج والدستور.

وقد روى الصدوق في كمال الدين عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال: (ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني، ومن كذبه فقد كذبني، ومن صدقه فقد صدقني)[1].

ولن يكون لتصديق الناس حافز لو لم ينهض الأئمة عليهم السلام بعد سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بمشروعه وكتابة دستور تفصيلي.

ولقد كانت المراحل العلنية من الإمامة هي المدبر الأول لحركة الأمة علما ومنهاجا وسيرة، فلو ابتدأت محجوبة متوارية لما كان ثمة منهاج وشريعة واضحة ومنتشرة بين الناس.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤١١.

وبعد ظهور القائم عليه السلام سيبث علوم وحقائق المنهج بعد أن يرفع عن الأمة نقص الاستعداد.

لذا قال الرسول صلى الله عليه وآله: (القائم من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي، يقيم الناس على ملتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي عز وجل)[1].

■ **النقطة الثالثة: الإمامة الظاهرة تبرر الانتقال للإمامة الغائبة**

إن ابتداء الإمامة بالظهور العلني وفي أحد عشر مرحلة - مع عدم قبول الأمة بمشروع الأئمة عليهم السلام وعدم حفظها لشخوصهم - برر وفلسف الانتقال للإمامة الخفية، وإيقاع الأمة في البلاء والامتحان.

وكأن مفاد لسان حال التخطيط الإلهي: (إذا لم تجدِ الإمامة الظاهرة في استقامة الأمة واقلاعها عن التمرد فلا بد من إيقاعها في أهوال بلاء الغيبة والاستتار.

وإذا لم يجدِ أسلوب الإمامة الظاهرة بالرفق واللين والتقية نفعا، فهو يبرر الانتقال لأسلوب السيف والاجتثاث والتطهير الجذري).

ولن تكون أكثر فئات الأمة على قناعة وتعقل لأسلوب ومنهجية الإمام القائم عليه السلام - من قيامه بالسيف وقطع دابر المنكر وأهله - لو لم تمر بمراحل كثيرة من الإمامة العلنية وتشهد النتائج والمخرجات التي آلت إليها.

وهذا شبيه بالتدرج في تربية النشأ، فأولا يستعمل طول النفس في الإرشاد والنصح والمتاركة، ثم تصل النوبة لأسلوب التأديب بغية معالجة التمرد والجحود.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤١١.

وشبيه كذلك بانتقال الطبيب من المعالجة بالمسكنات إلى عمليات الاستئصال والبتر.

لو قيل: إن كل ما تقدم من أساليب ومخرجات للإمامة الظاهرة لم يقنع كثيرا من أطياف الأمة بضرورة الانتقال للإمامة الخفية، إذ لا تزال فئات كثيرة تنكر وجودها ولا تتعقل غيبيتها؟

فجوابه: إن هذا الإنكار بعد كل ما تقدم من مراحل ومعاناة إنكار مع قيام الحجة على المنكر كما مر بيانه.

*تساؤلات حول حكمة الغيبة

من الحكم الروائية للغيبة والاستتار حفظ وجود الإمام عليه السلام أمنيا، إذ في التواري والخفاء تأمين لحياته عن القتل.

فقد روى الصدوق في العلل عن أبان وغيره عن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال:

(قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا بد للغلام من غيبة).

فقيل له ولم يا رسول الله؟ قال: (يخاف القتل) [1]..

وتترتب على هذه الحكمة سلسلة من الأسئلة نذكر بعضا منها:

■ السؤال الأول: الظهور مع الحفظ الإعجازي

إذا كانت الحكمة من الغيبة هي حفظه عن القتل فلم لا تكون إمامته في وضع الظهور والعلن مع تصدي الإعجاز الإلهي لحفظه، ومنع أيدي الظالمين من أن تصل إليه بالتدبير الرباني؟

١- علل الشرائع، الصدوق١/ ٢٤٣.

● **الجواب**

إن حفظه عليه السلام بطريق الإعجاز ينافي سنة الامتحان من جهتين:

الأولى: امتحان أعدائه

فلو منعهم عن قتله منعا إعجازيا لم تظهر فعلياتهم في المعصية، ولم يبلغوا الدركات السفلى التي يريدونها باختيارهم.

وهو خلاف حديث: (كل ميسر لما خلق له) [1]..

الثانية: امتحان أمته

فلو ظهر بالإعجاز حظيت الأمة ببركات وجوده بالمجان، ودون عمل وجهد وسعي، وهو خلف سنن القرآن الكريم.

وحينئذ فالغيبة منعت عن قتله بتدبيره، ويبقى الظالمون في أمنيات قتله ويعاقبون على نواياهم، لأن النية تقوم مقام العمل.

وتبقى الأمة محرومة من ألطاف ظهوره لتقصيرها في حفظه، وتخاذلها عن السعي نحو مشروع الظهور.

■ **السؤال الثاني: الظهور مع التقية**

وقيل: لم لا ينتقل إلى أسلوب الإمامة الظاهرة مع أخذه بمنهج التقية ليحفظ وجوده، ويمنع أيدي الظالمين عن الوصول إليه؟

١- صحيح مسلم٨/ ٤٨.

● **وجوابه من وجوه**

الأول: إن منهج التقية الذي اعتمده الأئمة عليهم السلام لم يمنع من وصل القتل إليهم، لأن وجودهم سنخ وجود متألق في الفضائل والكمالات دائما ولو في وضع السكوت والتقية، لذا كانت فكرة التخلص منهم تراود الظلمة في كل زمان.

الثاني: إن أسلوب التقية علاج سطحي توليفي يعمل فيه بالموازنات المتاحة، وبمثله لا تبنى الحضارة الإيمانية المتكاملة شكلا ومضمونا وبالنحو الذي يليق بخاتم الحجج عليه السلام.

الثالث: إن الدور الذي أراده الله منه لا يتأتى بأسلوب التقية، إذ المطلوب منه استئصال حلقات الجور وقلع جذور الفساد واجتثاث أصول المنكر.

فقد ورد في دعاء الندبة ما هذا نصه:

(أين المعد لقطع دابر الظلمة...أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان...أين قاصم شوكة المعتدين، أين هادم أبنية الشرك والنفاق، أين مبيد أهل الفسق والعصيان...)[1].

وهذه الأدوار تقتضي القيام بالسيف والمواجهة المسلحة والمصادمة الصريحة.

فلو ظهر للعلن بأسلوب المواجهة وبعد لم تكتمل أنصاره وتتهيأ ظروف ظهوره لقتل مبكرا وقبل قيام مشروعه، وبذلك ينتقض الغرض الإلهي من قيامه.

١- المزار، المشهدي/ ٥٧٩.

■ **السؤال الثالث: الظهور لخصوص الشيعة**

إذا كان أحد علل الاختفاء والتواري منع وصول القتل إليه، فلم لا تختص الغيبة بالمخالفين والظالمين دون الشيعة والموالين وفي كل الأعصار.

فيجمع بذلك بين المنع من قتله وهداية شيعته بأمره ونهيه وتسديده وقيادته؟!

● **الجواب في مستويات**

○ **المستوى الأول**

إن الحجة عليه السلام غائب نازح عن الجميع إلا أن بركات حضوره تعم كل شيعته، والتشرف به ممكن لمن جمع الشرائط من الطهارة والتقوى والأمانة والعلم.

لذا خرج التوقيع الشريف الشهير بقوله: (وأما وجه الانتفاع في غيبتي فكالانتفاع بالشمس إذا غيبتها عن الأبصار السحاب، وإني لأمان أهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء) [1]..

○ **المستوى الثاني**

لو تقرر ظهوره على عموم شيعته لفشا ذلك لعموم الناس.

فالتاريخ يحدثنا عن قلة الأمن والتدبير لدى عموم الشيعة وإذاعتهم للأسرار، مما كلفهم الكثير من الاضطهاد، ومنه تعطل الفرج.

١- الغيبة، الطوسي/ ٢٩٢.

ولقد صرح في روايات عديدة بأن الله تعالى قدر النصر والفرج في حياة عدة من الأئمة عليهم السلام كالإمام الصادق عليه السلام لكنه تأجل لإذاعة الأسرار من قبل الشيعة.

○ المستوى الثالث

لو بنينا – فرضا – على أمانة عموم الشيعة فإن وسائل المدنية الحديثة وطبيعة الحياة تقتضي اطلاع الناس على الخصائص العقائدية لبعضهم البعض مما يستحيل معه خفاء أمر الإمام عليه السلام بل يقتضي وقوعه في المحظور.

○ المستوى الرابع

لغيبته عليه السلام حكم، والتأمين على حياته أحدها، وهناك حكمة أخرى تختص بشيعته، وهي امتحان جدية انتمائهم للمشروع المهدوي، فالغيبة عقوبة لهم لعدم أهليتهم ولتماديهم في التقصير.

فقد روى الصدوق في العلل عن مروان الأنباري قال:

خرج من أبى جعفر عليه السلام: (إن الله إذا كره لنا جوار قوم نزعنا من بين أظهرهم) [1].

○ المستوى الخامس

لو فرضنا صلاح عموم شيعته وفرضنا أنهم لن يدلوا عليه متعمدين لو ظهر عليهم، إلا أن خبر التقائه بهم سيعلم ولو بالتدريج، ومنه سيقع الضرر الشديد على شيعته من أعدائهم.

١- علل الشرائع، الصدوق١/ ٢٤٤.

قال الطبرسي: (إن غيبته عن أعدائه للتقية منهم، وغيبته عن أوليائه للتقية عليهم والإشفاق من إيقاع الضرر بهم)[١].

■ **السؤال الرابع: سبب انقطاع الغيبة الصغرى**

قد يقال: سلمنا معكم بحكم غيبته، فلم لا تكون غيبته على صورة واحدة وهي الغيبة الصغرى، حيث تتشرف به الشيعة كثيرا وله نواب خاصون يلتقون به ويوصلون توقيعاته الشريفة لعموم الناس؟

وبعبارة أخرى: إن للغيبة الصغرى بركات، ويترتب عليها قيمة إضافية في الهداية والاسترشاد والاستضاءة بالقائم عليه السلام، كما أن فاعلية الإمامة فيها أوضح، فلم لم تمتد إلى هذه اللحظة؟

● **الجواب في أمور**

أولا: إنما احتيج للغيبة الصغرى لأجل إثبات ولادته بوقوف جماعات كثيرة على ذلك، وظهور معارف يقينية عنه بتوقيعاته، وقد تم ذلك في فترة السفراء الأربعة على أكمل وأتم وجه ببركتهم وبركة وكلائهم المنتشرين في أرجاء البلاد الإسلامية.

فما هو الموجب لاستمرار الغيبة الصغرى بعد ذلك!!

ثانيا: كما أن الظهور نعمة مضاعفة ويتوقف على استحقاق وأهلية الأمة، كذلك استدامة الغيبة الصغرى نعمة تتوقف على توفيق خاص للأمة.

١- إعلام الورى بأعلام الهدى٢، الطبرسي/ ٣٠٣.

ولما ابتعدت الأمة بمرور الزمان أكثر فأكثر عن التحضير لمشروع الظهور وعن إقامة الدين ككل تراجعت في الاستحقاق، فانقلبت الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى، وبها زاد الامتحان والاختبار أكثر لزيادة الحيرة والاضطراب.

ثالثا: إن النيابة الخاصة فيها اتصال مباشر من قبل النواب، ويطلع على عمل النواب خواص كثيرون، ومع مرور الوقت صار ذلك خطرا على النواب ووكلائهم لاحتمال الانكشاف.

رابعا: ولو فقدت الأمة بانتهاء فترة الغيبة الصغرى خصوصية الاتصال بالنواب، وصارت الغيبة تامة فلا ظهور للعامة إلا بتشرف خاص لا يناله إلا الأوحدي من الناس، لكن الأمة مع ذلك تنعم بوجود الفقهاء ووكلائهم، وهم امتداد تشريعي للإمام الموعود عليه السلام.

فهو القائل: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم)[1].

وفي الاقتداء بالرواة والمرجعيات خيريات وسعادات دنيوية وأخروية لا توصف.

■ السؤال الخامس: الفقهاء وإشكالية طاعة غير المعصوم

ويحسن أن أختم بجواب عن سؤال يراود البعض، ولا يتردد جماعات مغررة بالثقافات الجديدة من طرحه بحماس.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤٨٤.

قالوا: إنكم تشترطون العصمة في الأئمة عليهم السلام وتنفونها عن الفقهاء والمراجع، لكنكم تدعون لطاعة الفقهاء على حد دعوتكم لطاعة المعصومين عليهم السلام، وترون لهم حرمة ومكانة شبيهة بمكانة أهل العصمة، فكيف يستقيم ذلك؟

● **الجواب من وجوه**

أولا: نطرح مثالا عرفيا:

ألا يعتبر الجنود والشرطة اليوم ممثلين لهيبة الدولة وعظمتها، فإذا اعتدى أحد على رجل الأمن كأنه مس أكبر رأس في الدولة!!

والفقهاء جنود الإمام عليه السلام ويتجلببون بهالة قداسته، فالتجاوز عليهم تجاوز عليه.

ثانيا: صحيح أننا ندعو – تنظيرا – إلى طاعة فتاوى الفقهاء مطلقا مع الإقرار بأنهم يخطئون ويشتبهون، لأن الفقيه ربما حاز الواقع وربما تجاوزه.

وذلك لأن الطاعة ليس مأخوذا فيها على المكلف التثبت من الواقع وإحرازه، بل مأخوذ عليه فيها اتباع الدليل والحجة.

أي مطلوب منه تأمين الحجة الشرعية في التقليد لا تأمين الواقع، لأن إحراز الواقع في كل شيء من غير المعصوم مستحيل على المكلف، لذا صار مطالبا بالسير وراء الحجة والدليل فحسب.

وسر التعبد بقول الفقهاء وطاعتهم هو أن قولهم عن حجة ودليل لا لأنه مطابق للواقع.

والخلاصة: إن مساحة واسعة من نشاط الدولة المهدوية في عصر الغيبة الصغرى كان بالسفراء المحمودين والوكلاء الممدوحين.

ونشاطها الآن بالأخذ بمرجعية الفقهاء (أهل الحديث وحملة القرآن) وبهم وحدهم نرضي صاحب العصر والزمان عليه السلام ونسير في طريق التمهيد لظهوره.

بينما الحياد عنهم بحجة وبأخرى عزوف عن الدولة المهدوية، وتجميد لنشاطها فينا، وعمل على تأخير الظهور.

ومن ضحالة الفكر أن يظن الجيل الجديد أن الإشكال على وصاية الفقهاء وليدة شبهة علمية لدى الدوائر الغربية أو الشرقية التي تؤثر عليهم.

بل الصحيح هو أنهم بمكائدهم يسعون لتحجيم وصاية الفقهاء، ومصادرة نشاط الدولة المهدوية وقطع طريق الممهدين، والاستفراد بالشباب المسلم كفريسة سهلة المنال خارج دائرة حماة الدين وحملة مشاعله.

فالوصية للطلائع المؤمنة أن يلتزموا آراء المراجع، وأن يدوروا في فلك الفقيه المأمون، فهم من قاد المسيرة بتضلعهم وإلمامهم العلمي وبتسديد الله لهم طوال عصر الغيبة.

ولن يرضى إمام زماننا عليه السلام عنا إلا إذا سلمنا القياد بطوعانية لمراجعنا.

ورد في مقبولة عمر أبن حنظلة: (فإذا حكم بحكمنا فلم يقبل منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا رد)[1].

وهذا بيان لطريق النجاة في خضم هذه الحياة، وهو بالرجوع إلى رواة حديثهم، مما يدلل على أن في أحاديثهم ورواياتهم حلًّا لكل مشكل عقائدي أو شرعي أو سياسي.

١- الكافي، الكليني ١/ ٦٧.

فلا يصعب على من ألهم أحاديثهم وفقهها أن يقود المسيرة إلى بر الأمان.

وأتعجب بعد كل ذلك من بعض الشباب المؤمن كيف يستقي قناعاته من أهل السياسة أو الحداثة ويهجر آراء المرجعيات الرشيدة.

وأكثر ما يدعو للأسف أن يصرح بعضهم قائلا: للمرجع رأي ولي رأي، وللفقيه نظر ولي نظر، وللمفسر قول ولي قول!!

حتى بات التطاول على مقام المرجعية وخلافة المعصوم عليه السلام أمرًا مستساغا بذريعة حرية الرأي.

إن الأحرى بشبابنا أن يكونوا أكثر رشدًا ووعيا، فإن المرجعية لم تعطَ ذلك الدور إلا لتوافرها على جميع الخصائص النفسية والمؤهلات العلمية والواقعية.

وكل مرجع ديني لم يصل إلى ذلك المقام إلا بعد مراقبات روحية شاقة ومجاهدات لسنين طويلة، وخوض غمار العلم والمعرفة بكل أبعادها، إلى إن تأهل أن يكون مرجعًا دينيًّا.

فهل يجيز العقل والحال هذا أن يتطاول العامة على مقامه بذرائع واهية ومغالطات سمجة!!

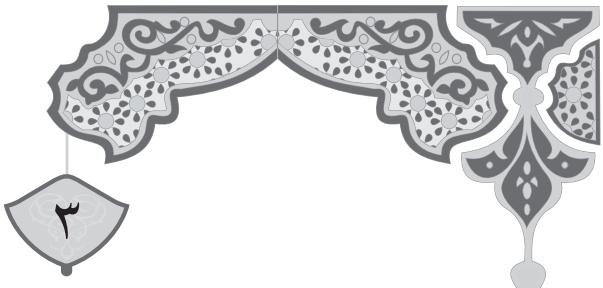

٣

الفصل الثالث

المنجي في عصر الغيبة

- المبحث الأول: إشكالية تعمير المنجي عليه السلام
- المبحث الثاني: الإمامة الغائبة وإشكالية المشاهدة
- المبحث الثالث: حكم وأسرار الغيبة
- المبحث الرابع: جدليات مهدوية (١)
- المبحث الخامس: جدليات مهدوية (٢)
- المبحث السادس: الغيبة سياسة تدبير الإصلاح
- المبحث السابع: نشاطات الإمام الغائب عليه السلام
- المبحث الثامن: الإمامة إدارة كفؤة

المبحث الأول

إشكالية تعمير المنجي عليه السلام

إشكالية تعمير المنجي عليه السلام

روى الصدوق في كمال الدين عن الحسن بن محمد بن صالح البزاز قال: سمعت الحسن بن علي العسكري عليه السلام يقول:

(إن ابني هو القائم من بعدي وهو الذي يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام بالتعمير والغيبة حتى تقسو القلوب لطول الأمد فلا يثبت على القول به إلا من كتب الله عز وجل في قلبه الإيمان وأيده بروح منه)[1].

***تقديم وتمهيد**

لقد جرت العادة بطرح المسائل الاعتقادية في مناسباتها السنوية ومواسمها المخصوصة، ولذا تطرق بحوث المهدوية والغيبة في مناسبة المولد الميمون.

فهل هذه العادة كافية وتتأتى بها المنفعة، أم أن الصحيح هو أن نشتغل بالعقائد في كل وقت، وأن تكون هموما في يوميات المؤمنين؟

ربما تواجهنا اتجاهات في الجواب:

١- يتجه البعض للقول إن الحديث المتكرر حول بعض المسائل العقدية في غير المناسبات يفضي إلى نوع من التشبع والامتلاء من تلك المسائل، وعندها تكون النتائج عكسية فيتضاءل التفاعل معها والانفعال بها!

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق / ٥٢٤.

٢- وربما يقول آخر: إن تكرر طرح الاعتقادات في سائر الأيام من الأمور الزائدة والفضْلة وليس لها من موجب يوجبها!

٣- بينما يتجه آخرون لعكس ما قيل في التصورين السابقين، فيرون الإحياء المتكرر للمسائل الاعتقادية مهما كثر لا يراوح التقصير في حقها، لأنها تمثل القواعد التي تدور عليها الفروع وتأمن الاستقامة على طول الخط.

وما أكثر الآراء والتوجهات التي - في حقيقتها - هي نُذُر جهل ووليدة بساطة تقييم وضحالة معرفة.

فمن يرى تكرر طرق مسائل المعارف مبعث ملال وتشبع وامتلاء أو أنها أمور زائدة فضلة يغفل أو يجهل مطالب عديدة:

***أولا: تدارس المعارف ودوام برهانية العقل**

إن استمرار البحث في العقائد يصب في تعهدها وتذكرها بنحو دائم، وبه تتألق المعرفة وتشرق العقيدة في الروح والعقل.

وقد ماثل أهل المعرفة بين تعهد المعارف وانعكاسه على العقل، وبين التمارين العضلية وأثرها على الجسم، فالرياضي الذي لا يتعاهد عضلات جسمه بالحركات المتكررة والتمارين المعروفة تضمر عضلاته وتذبل، وكذلك هو شأن الاعتقادات في العقل، فإن المؤمن إذا لم يتعهد المعرفة جنح عقله للخرافة والبساطة والسطحية.

ولا يخفى أن الممارسين للرياضة البدنية يداومون على فعل نفس الحركات والتمارين اليومية لإبقاء أجسامهم بنفس القوة والشكل المطلوبَين.

فكذلك لو تكرر على الروح والعقل تذكر ذات المعارف والمطالب، ففيهما تغذية دائمة، فما ظنك بأثر الترقي في مدارج المعرفة وطبقات العقائد..

*ثانيًا: المعارف على طبقات

إن وصف تكرر الإحياء بالفضلة، أو تخيل أنه مبعث ملال وتشبع جهل بمراتب الحقائق الدينية، وكونها ذات طبقات، إذ أنه كلما بلغ الباحث منها مرتبة وصعد منها درجة انفتح أمامه باب لمعارف أوسع وأعلى.

فالمعارف كالبحر المحيط الذي يسبح فيه العقل بقدر طاقته ويستخرج منه الجواهر بقدر وسعه من غير أن يهيمن عليه ويحيط به.

*ثالثًا: القرب من العناوين والبعد عن المعنونات

هل وصل المؤمنون بعد الإحياء المتكرر لمعارف أهل البيت عليهم السلام طوال هذه القرون إلى الاقتراب المعنوي المطلوب منهم، أم أن قرب أهل الإيمان من المعصومين عليهم السلام مشوب بجهات عديدة من البعد؟ أي أنهم قريبون من العناوين وبعيدون عن المعنونات؟

لا شك ان القرب النهائي من المعنونات مستحيل، فمهما اقتربنا منهم بالعناوين فهم بعيدون عنا بذواتهم وشخوصهم ومواقعهم.

لقد شرع الله تعالى الصلاة والصوم وسائر العبادات باستمرار بهدف ترسيخ الحالة المعنوية والسير بالسالكين إلى أقرب نقطة قربية ممكنة منه تعالى.

وهذا هو الشأن في الإحياء الفكري والعاطفي لمعارف أهل البيت عليهم السلام.

فهدفها حفظ المعنويات المكتسبة وتتابع الخطوات في السفر القربي إلى إليهم عليهم السلام.

ولأنه يستحيل طي كل مراحل الطريق بين سائر المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام فلا بد من الاستمرار في إحياء مناسباتهم وطرق أبواب معارفهم بغية القرب منهم بحسب القدرة والطاقة.

وأثمن نصيحة نقدمها للمؤمنين في هذا المجال هي التريث وعم الاستعجال قبل تكوين تصور سطحي يخص مباحث الاعتقادات، فضلا عن تسويقه للآخرين.

فما أكثر الاستنتاجات التي نعتبرها أفكارا ناهضة وآراء رصينة غير أنها وليدة قصور وتقصير في الفهم والتعقل المطلوبين في باب المعارف.

*إيجابيات الفتنة العقائدية

لا شك أن الشبهات المثارة حول معارف الدين تثير القلق لدى عموم المهتمين، خوفا على مستقبل الدين وحرصا على مآل المؤمنين، فيجيبون عليها بحماس لأجل حميتهم وغيرتهم الدينية.

وفي قبال ذلك رأينا بعض أعلامنا المعاصرين يتميز بروحية خاصة في مواجهة الشبهات اكتسبها من تعاليم روايات أهل البيت عليهم السلام، وخلاصة نظرته:

١ - إن الفتن المعرفية تولد لمعات جديدة للحق، وتنبه على إشراقات للدين بحسب زمان الشبهة.

٢ - كما أنها باب لأدلة مستجدة تؤكد على ضرورة الدين، وإن كان أصحابها يرون فيها نقضًا وإبطالا له.

٣ - يرجع سبب الشبهات في كثير من وجوهها إلى العطش الفكري والنبض الوجداني الحي في أصحابها، وهم يعبرون عن ذلك النبض الفكري بصيغة التساؤل والإشكال.

فشبهات الملحدين - على سبيل المثال - تشتمل على أدلة عصرية على ضرورة وجود صاحب العصر والزمان عليه السلام من حيث لا يشعرون، ويبرزون بها ضرورة وجود سبب متصل وغوث حي للبشر يوصل الأرض بالسماء، وإن كانوا غير ملتفتين لذلك.

وفي دعاء الندبة فقرات روحية عديدة هي عبارة عن ترجمان لنبض الفطرة ولغتها.

فقوله عليه السلام: (أين المعد لقطع دابر الظلمة، أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج، أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان، أين المدخر لتجديد الفرائض والسنن، أين المتخير لإعادة الملة والشريعة، أين المؤمل لإحياء الكتاب وحدوده، أين محيي معالم الدين وأهله، أين قاصم شوكة المعتدين، أين هادم أبنية الشرك والنفاق، أين مبيد أهل الفسق والعصيان، أين حاصد فروع الغي والشقاق، أين طامس آثار الزيغ والأهواء، أين قاطع حبائل الكذب والافتراء، أين مبيد أهل العناد والمردة، أين معز الأولياء ومذل الأعداء، أين جامع الكلمة على التقوى، أين باب الله الذي منه يؤتي، أين وجه الله الذي إليه تتوجه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء)[1].

ترجمة وإبراز لأماني وأمنيات بشرية عامة صادرة عن نبض فطرتهم وإشعاعات وجدانهم، وهي أعظم دليل على وجود محقق ومنجز لتلك الأمنيات على خلاف ما هو منعكس من الظروف والأحداث.

---

١ - المزار، المشهدي ٥٧٩.

وهاهنا لا بد من إثارة نقطة مهمة فيما يخص نبض الفطرة، فإن لدى البعض تناقضًا وتهافتًا بين ما تنبض به فطرتهم وبين ما يحررونه بالقلم والفكر، فإن إشكالاتهم وتساؤلاتهم تقود إلى شيء بحسب الفطرة بينما يستنتجون بفكرهم وأقلامهم نقيض الشيء وخلافه، وهذه معضلة كبيرة.

ونحن ندعي أن من مميزات الشيعة احرازهم التطابق بين لغة الفطرة واستنتاجات الفكر وتحريرات الأقلام.

فكل المسلمين وسائر البشر يهتفون بلسان فطرتهم: (أين صاحب يوم الفتح وناشر راية الهدى، أين مؤلف شمل الصلاح والرضا)[1].

ويصدحون بلغة وجدانهم: (يا ابن العلوم الكاملة، يا ابن السنن المشهورة، يا ابن المعالم المأثورة، يا ابن المعجزات الموجودة، يا ابن الدلائل المشهورة.. يا ابن الآيات البينات، يا ابن الدلائل الظاهرات، يا ابن البراهين الباهرات، يا ابن الحجج البالغات)[2].

فإذا قيل لهم إن ترجمان نبض فطرتكم يكمن في الحجة والمهدي والمنجي عليه السلام أجابوا بمنطق لسانهم أو بكتابات أقلامهم واصفين العقيدة المهدوية بالخرافة والأسطورة، أو أشكلوا على ذلك التطبيق بجوانب أخرى كعقيدة الغيبة أو طول الخفاء أو غيرها من الإشكالات.

وكان عليهم - بدل أن يكونوا في موقع التشكيك الفكري - أن يتلمسوا التطابق بين نبض فطرتهم وما نوهت به النصوص الدينية من إمامة الغائب الحجة عليه السلام.

١- المزار، المشهدي ٥٧٩.

٢- المصدر السابق.

وأن يكونوا في موقع الباحث عن الأجوبة للتساؤلات حول العقيدة المهدوية بدل أن يحرروا باستعجال ولا مبالاة رفضهم لمعادلات تلك العقيدة.

فإن من أشكل المشكلات وأعضل المعضلات افتراق مقتضيات نبض الفطرة عن إدراكات العقول وكتابات الأقلام.

إن نبض الفطرة حاكم بضرورة وجود إنسان نموذجي وقائد استثنائي، وفي كل حقبة من وجود البشر كان لهيب عطش الوجدان إلى قيادة إنسان كامل شاهد بوجوده وحضوره.

وأحكام الفطرة لا يسكتها إشكاليات عارضة كطول عمر ذلك الإنسان الكامل، ولا استعظام أمور خارجة عن المألوف نسبت له.

والذي يطفئ نور فطرته لمجرد استصعاب أمور أو استحسان أخرى فهو جاهل وخاسر وضائع.

ونوضح ذلك بهذا التحرير:

يرفض النظام العالمي حكومة الدين والمتدينين وقيادة رجال الغيب الذين يربطون الأرض بالسماء، فهذا ما تصوروه بعقولهم وكتبوه بأقلامهم.

بينما يلزمهم نبض فطرتهم بحتمية وجود دين وقانون محرر ومكتوب، ويلح عليهم بضرورة وجود قيادات فاعلة – على مستوى ناحية خاصة من القطر أو على مستوى الدولة عموما – لتلزم الناس بالوفاء بمقررات القانون.

لذا أقرت البشرية تشكيل منظمات وهيئات وجمعيات للحقوق والأخلاق والقوانين.

وغفلوا عن أن الوصف الذي ينطبق على تلك الهيئات والمنظمات هو أنها مؤسسات دينية وتشريعية ولو أنها بشرية.

وجعلوا لبعض القيادات العالمية حق القرار الأوحد وحكومة النظام العالمي وتدبير شؤون العالم في الحرب والسلم، وهم بذلك يعبرون عن فطرة الإيمان بقيادة ومرجعية.

وما كانت نصوص الدين – من الكتاب والسنة – مخطِّئة لأصل ميلهم ونبض وجدانهم وإنما ملفتة لهم على خطئهم في التطبيق والممارسة.

إن النصوص الوحيانية تنبه البشرية على أن نبض فطرتهم الدال على ضرورة وجود حاكم وقائد ومخلص ومنجي ومدبر ومهدي لا ينطبق على القيادة العالمية بالمواصفات والشرائط المعمول بها لدى البشر، وليس ترجمته الواقعية هي العالم الذي تزيد مساحات جهله على مساحات علمه، وإنما تنطبق على إمام معصوم ذي مواصفات خاصة.

والشيعة يؤمنون بنحو قاطع بأن ما تقتضيه فطرة البشر في القيادة الهادية المهدية ليس له تجلٍّ مطابق إلا أهل البيت عليهم السلام، العارفون ببواطن وخفايا القرآن، والمعصومون من كافة الجهات.

وإن الإشكالات والشبهات المثارة على تلك العقيدة لا تلغي انطباق الفطرة عليها، لاهتداء أهل العلم وببركة تعاليم أهل البيت عليهم السلام لأجوبة كل المسائل العويصة والشبهات الشائكة المطروحة في هذا المجال.

*سؤال البحث

طرح أهل المذاهب أو المثقفون أسئلة عديدة وتشكيكات كثيرة حول المهدوية، وليس بالضرورة أن تكون تلك الأسئلة وليدة أهداف مغرضة أو غايات مضللة.

ومن حق قضية المصلح العالمي أن يدور حولها التساؤل من أجل التوثق من صحتها والوثوق من حتميتها، لأنها قضية مصير إنساني، وقيامة صغرى يصنف فيها البشر إلى معسكرين وجهتين.

وفي هذا البحث نعرض سؤالا طرح على علماء الإمامية قديما وحديثا، لعلنا نساهم في زيادة منسوب الوعي بجوابه.

*كيف نثبت إمكانية طول عمر القائم عليه السلام؟

من معالم الإيمان بالحجة الغائب عليه السلام - في العقيدة الشيعية - الاعتقاد بوجوده في الخفاء والاستتار مدة طويلة، فمنذ بداية الغيبة الكبرى وإلى الآن مضى ما يقارب ألف ومئة سنة أو أكثر.

فكيف نتعقل بقاءه كل تلك السنين من دون أن يصاب بالشيخوخة، وبالتالي بالفناء والموت؟

ولقد صدر هذا السؤال من جهات مختلفة حتى من بعض الجهات المؤمنة بحتمية وجود مصلح عالمي، فبرغم إيمانها بأصل الفكرة استصعبت واستثقلت طول غيابه وبقائه إلى هذه اللحظة.

ونكتفي في جوابه ببيان ثلاث نقاط:

■ **النقطة الأولى: المشابهة بين الحجة عليه السلام والأنبياء عليهم السلام**

لقد أفرد الشيخ الصدوق رحمه الله في كتابه - كمال الدين - بابا تحت عنوان (باب ما جاء في التعمير) [١].

وكان الهدف من عقد ذلك الباب بيان أن ما تحقق في المهدي المنتظر عليه السلام ليس بدعا من الأمر.

وليس من خوارق الإعجاز التي لم تتحقق إلا فيه، وإنما للتعمير أمثلة عريضة في سير وسنن الأنبياء والأولياء عليهم السلام، وكذلك للغياب والاستتار مثيلات في تاريخهم.

ولو قيل: كيف تصح المقارنة بين المهدي عليه السلام والأنبياء، والحال أن الأنبياء عليهم السلام لمكان نبوتهم قد تكون لهم أحكام وقوانين خاصة؟

فنجيب: إن المقارنة بينه وبينهم عليهم السلام باعتبار أن المهدي عليه السلام وارث الأنبياء بكل أنحاء الوراثة، فهو وارثهم المقامي ووارثهم العيني.

وهذه بعض الروايات الدالة على ذلك:

١- ما عن النعماني بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إذا ظهر القائم عليه السلام ظهر براية رسول الله صلى الله عليه وآله وخاتم سليمان وحجر موسى وعصاه...)[٢].

٢- وفي المزار للمشهدي في وصف الحجة عليه السلام: (المنتهى إليه مواريث الأنبياء، ولديه موجودة آثار الأصفياء، السلام على المؤتمن على السر..)[٣].

ولأنه وارثهم فقد ورث سننهم وسيرهم، بل واجتمعت فيه كل سننهم.

١- كمال الدين/ ٥٢٣.

٢- الغيبة، النعماني/ ٢٤٤.

٣- المزار، محمد بن المشهدي/ ٥٩٠.

٣ - وروى الصدوق بسنده عن السجاد عليه السلام أنه قال: (في القائم منا سنن من سنن الأنبياء عليهم السلام سنة من آدم وسنة من نوح وسنة من إبراهيم وسنة من موسى وسنة من عيسى وسنة من أيوب وسنة من محمد صلى الله عليه وآله.

فأما من آدم ومن نوح فطول العمر، وأما من إبراهيم فخفاء الولادة واعتزال الناس، وأما من موسى فالخوف والغيبة، وأما من عيسى فاختلاف الناس فيه، وأما من أيوب فالفرج بعد البلوى، وأما من محمد صلى الله عليه وآله فالخروج بالسيف)[١].

٤- وعن سَدير الصيرفي الكوفي عن الصادق عليه السلام أنه قال:

(إن للقائم منا غيبة يطول أمدها. فقلت له: يا ابن رسول الله ولِمَ ذلك؟

قال: (لأن الله أبى إلا أن تجري فيه سنن الأنبياء في غيباتهم)[٢].

٥- وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

(إن سنن الأنبياء عليهم السلام بما وقع بهم من الغيبات حادثة في القائم منا أهل البيت حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة)[٣].

٦- وفيه عن العسكري عليه السلام أنه قال: (إن ابني هو القائم من بعدي وهو الذي يجري فيه سنن الأنبياء عليهم السلام بالتعمير والغيبة)[٤].

٧- وروى الصدوق عن الصادق عليه السلام أنه قال: (وأما العبد الصالح - أعني الخضر عليه السلام - فإن الله تبارك وتعالى ما طول عمره لنبوة قدرها له، ولا لكتاب ينزله عليه، ولا لشريعة ينسخ بها شريعة من كان قبله من الأنبياء، ولا لإمامة يلزم عباده الاقتداء بها، ولا لطاعة يفرضها له.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٢.
٢- نفس المصدر/ ٤٨٠ .
٣- نفس المصدر/ ٣٤٥.
٤- نفس المصدر/ ٥٢٤.

بلى إن الله تبارك وتعالى لما كان في سابق علمه أن يقدر من عمر القائم عليه السلام في أيام غيبته ما يقدر، وعلم ما يكون من إنكار عباده بمقدار ذلك العمر في الطول، طول عمر العبد الصالح في غير سبب يوجب ذلك إلا لعلة الاستدلال به على عمر القائم عليه السلام، وليقطع بذلك حجة المعاندين لئلا يكون للناس على الله حجة) [1].

ومن هنا فلا أعظم من أن يقال إن الحديث عن صاحب الأمر عليه السلام حديث عن سائر الرسالات والمرسلين وسائر الكتب الإلهية.

فهو مشروع الله تعالى الذي اختصر فيه الأنبياء والأولياء عليهم السلام - في معاجزهم ومبادئهم وعلومهم وأهدافهم ومواريثهم - فالحديث عنه استحضار لحضارات الأنبياء على كرور أيام الدنيا، وإحياء لقوافل الأولياء من سالف الأزمان وغابرها.

ولا عجب في ذلك، لكون الحجة عليه السلام مظهر الجلال والجمال الإلهي، والغوث والرحمة الواسعة، والمبعوث لتحقيق آمال المرسلين وأخذ الثارات وتقويم الاعوجاج.

*استدلال أعلام الطائفة

واليك طرفا من استدلال أعلام الطائفة على ما نحن فيه :

١ - قال الشيخ الصدوق:

(قال مصنف هذا الكتاب رضي الله عنه: إن أكثر المخالفين يسلمون لنا حديث الخضر عليه السلام، ويعتقدون فيه أنه حي غائب عن الأبصار.. ولا ينكرون

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٥٧.

طول حياته، ولا يحملون حديثه على عقولهم، ويدفعون كون القائم عليه السلام وطول حياته في غيبته، وعندهم أن قدرة الله عز وجل تتناول إبقاءه إلى يوم النفخ في الصور، وإبقاء إبليس مع لعنته إلى (يوم الوقت المعلوم) في غيبته، وأنها لا تتناول إبقاء حجة الله على عباده مدة طويلة في غيبته مع ورود الأخبار الصحيحة بالنص عليه بعينه واسمه ونسبه عن الله تبارك وتعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الأئمة عليهم السلام)[1].

وعن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام قال: (عاش نوح عليه السلام ألفي سنة وخمسمائة سنة.

منها ثمانمائة وخمسون سنة قبل أن يبعث، وألف سنة إلا خمسين عاما وهو في قومه يدعوهم، وسبعمائة عام بعد ما نزل من السفينة..)[2].

وعن سعيد بن جبير قال: سمعت سيد العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول: (في القائم سنن من الأنبياء.. فأما من آدم ونوح عليهما السلام فطول العمر)[3].

٢- وقال الشيخ المفيد:

(فصل: والذي تخيله الخصوم هو:

فساد قول الإمامية بدعواهم لصاحبهم طول العمر، وتكامل أدواته فيه، وبقائه إلى يومنا هذا وإلى وقت ظهوره بالأمة، على حال الشبيبة، ووفارة العقل والقوة والمعارف بأحوال الدين والدنيا.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٣٩٢.
٢- نفس المصدر/ ٥٢٣.
٣- نفس المصدر / ٣٢٢.

وإن خرج عما نعهده نحن الآن من أحوال البشر، فليس بخارج عن عادات سلفت لشركائه في البشرية وأمثالهم في الإنسانية.

وما جرت به عادة في بعض الأزمان لم يمتنع وجوده في غيرها، وكان حكم مستقبلها كحكم ماضيها على البيان.

ولو لم تجر عادة بذلك جملة لكانت الأدلة على أن الله تعالى قادر على فعل ذلك تبطل توهم المخالفين للحق فساد القول به وتكذبهم في دعواهم.

وقد أطلق العلماء من أهل الملل وغيرهم أن آدم أبا البشر عليه السلام عمر نحو الألف، لم يتغير له خلق، ولا انتقل من طفولية إلى شبيبة، ولا عنها إلى هرم، ولا عن قوة إلى عجز، ولا عن علم إلى جهل، وأنه لم يزل على صورة واحدة إلى أن قبضه الله عز وجل إليه...

والأخبار متناصرة بامتداد أيام المعمرين من العرب والعجم والهند، وأصناف البشر أحوالهم التي كانوا عليها مع ذلك، والمحفوظ من حكمهم مع تطاول أعمارهم، والمأثور من تفصيل قصّاتهم من أهل أعصارهم وخطبهم وأشعارهم، لا يختلف أهل النقل في صحة الأخبار عنهم بما ذكرناه...

وأنا أثبت من ذكر بعضهم هاهنا جملة تقنع، وإن كان الوقوف على أخبار كافتهم أنجع فيما نؤمه بذكر البعض إن شاء الله.

فمنهم: لقمان بن عاد الكبير. وكان أطول الناس عمرا بعد الخضر عليه السلام، ولذلك إنه عاش على رواية العلماء بالأخبار ثلاثة آلاف سنة وخمسمائة سنة، وقيل: إنه عاش عمر سبعة أنسر، وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في الجبل فيعيش النسر منها ما عاش، فإذا مات أخذ آخر فرباه..)[1].

١- المسائل العشر في الغيبة، الشيخ المفيد / ٩١ وما بعد.

(وقد اختلفوا في عمر النسر، ففيهم من قال: ألف سنة، وفيهم من قال: خمس مائة سنة، وأقل ما روي: أن عمر سبعة الأنسر الذي عاشه لقمان ألف وخمسون ومائة سنة.. [١]

٣- قال المحقق الحلي:

(وأما استبعاد الخصم بقاءه عليه هذه المدة، فإنما نشأ من ضعف البصيرة، وإلا فكيف يقال ذلك مع العلم بقدرة الله وقيام الدلالة على إمكان فعل الكرامات للأولياء، غاية ما في الباب أن يقال: هو خرق العادة، ونحن نمنع ذلك أولا ثم نسلم ونجعل ذلك معجزا له عليه السلام.

واعلم أن تطاول الأعمار أضعاف عمر القائم عليه السلام وقع وقوعا مستمرا حتى حصل ذلك لجماعة من الملوك والجبابرة.

فلا يكون ذلك خرقا للعادة، بل مما جرت به العوائد)[٢].

٤- قال أبو الصلاح الحلبي:

(وأما طول العمر وبقاء الشباب مع كونه خلافا للعادات، فلا قدح به، لكونه مقدورا للقديم سبحانه وشائعا في حكمه.

وإنما يفعل منه من طول وقصر وشيخوخة وتبقية شباب ما يقتضي المصلحة فعله، لكون ذلك موقوفا على مقدوره تعالى المعلوم حسن جميعه وتعلقه بمقدوره تعالى بغير شبهة على موحد.

١- تقريب المعارف، أبو الصلاح الحلبي/ ٤٤٩.

٢- المسلك في أصول الدين، المحقق الحلي ٢٨٣.

وإنما استبعد ذلك ملحد يضيف التأثيرات إلى الطبائع أو الكواكب، فأما من أثبت صانعا قادرا لنفسه فشبهته في ذلك ساقطة، ولم يبق إلا استبعاده في العادة مع المنع من خرق العادات لغير الأنبياء عليهم السلام، وكلا الأمرين ساقط: أما استبعاده في العادة، فالمعلوم خلافه... وإذا كان ما ذكرناه من أعمار هؤلاء معلوما لكل سامع للأخبار، وفيهم أنبياء صالحون وكفار معاندون وفساق معلنون، سقط دعوى خصومنا كون عمر الغائب خارقا العادة، لثبوت أضعاف ما انتهى إليه من المدة لأبرار وفجار.

على أن خرق العادة على غير الأنبياء عليهم السلام إنما يمنع منه المعتزلة وإخوانها الخوارج.. فلو سلمنا أن طول عمر الغائب عليه السلام المدة التي بلغها أحد من ذكرناه من المعمرين وأضعافها خارقا للعادة على ما اقترح علينا، وأنه من قبيل الإعجاز، لم يقدح ذلك في شيء مما قدمناه، لجواز ظهور المعجز عندنا على الأبرار، فضلا عن الحجج والصالحين..)[1]

بل وذكر في التأريخ اعتمادا على المصادر والوثائق أخبار المعمرين الذين فاق عمرهم عمر الإمام عليه السلام من أنبياء وغير أنبياء، فقد ذكروا أن ذا القرنين كان عمره ثلاثة آلف سنة، وأن لقمان الحكيم كان عمره ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وأن عوج بن عناق كان عمره ثلاثة آلاف وستمائة سنة.

ومنه يتبين أن طول العمر واقع بنحو متكرر في التأريخ البشري.

■ **النقطة الثانية: كفاءة الأجساد ضد الموت طبيا**

قيل إن الأطباء وعلماء الأحياء توصلوا أخيرا إلى أن الأنسجة والخلايا الرئيسة في جسم الكائن الحي قابلة للاستمرار في العمل إذا لم يعرض عليها ما يقطع

١- تقريب المعارف، أبو الصلاح الحلبي/ ٤٤٨ و٤٥٥ و٤٥٦.

الحياة، فما دام قد توفر المناخ الملائم والغذاء المناسب ومنعت العوارض الطارئة، فإن كل الأنسجة قابلة وقادرة على العمل باستمرار.

بل وقد تحول السؤال عندهم هذه الأيام عما كان عليه سابقا، فلا يسأل الآن كيف يطول عمر بعض الناس؟

وإنما يسأل كيف يموت الكائن الحي ولا يطول عمره، والحال أن خلاياه قابلة للعمل باستمرار وإلى أمد بعيد!!

وعلى ذلك فالعلم البيولوجي يدعم فكرة طول العمر ويقطع التعجب من استمراره طويلا.

وقالوا: ثمة خلايا تتجدد كل عدة من الساعات، وخلايا تتجدد كل عدة أيام، ومنها ما يتجدد كل شهر، وفي كل عدد معين من السنوات يتجدد كل شيء في الإنسان إلا بعض المواضع.

■ **النقطة الثالثة: كفاءة جسد المعصوم عليه السلام**

يرى أهل المعرفة أن بدن المعصوم عليه السلام - وببركة علمه بتفاصيل الأمور- يكتسب نحوا من الكفاءة والاستعداد بحيث لا يكون قابلا للموت الطبيعي.

لأن الموت والارتحال عن الدنيا على ثلاث صور:

الأولى: الموت الطبيعي.

الثانية: الموت الإرادي والاختياري.

الثالثة: الموت الاخترامي.

فأما الموت الطبيعي: فهو الموت الذي يعرض على المزاج الإنساني حينما يفقد حالة الاعتدال، مما يجعل الروح غير قادرة على الاستقرار في البدن، فتفارقه ويتحقق الموت والانتقال عن هذه النشأة.

وأما الموت الإرادي: فهو الموت والارتحال من خلال طلب وإرادة من الشخص من دون أن ترفض الروح العلاقة بالبدن لسوء مزاجه.

وأما الموت الاختراميّ: فهو الموت الذي يصيب الإنسان معتدل المزاج والذي تقبل روحه بدنه، إلا أنه يعرض عليه عنصر خارجي من قتل أو سم فيخرم الحياة ويعطلها ويرتحل الإنسان عن الدنيا.

ومنه يتبين أن لجسد المعصوم عليه السلام كفاءة ضد الموت الطبيعي لخصوصية في علمه بالأشياء ومنافعها ومضارها، فهو لا يقدم على تناول الأشياء التي تؤدي إلى تعكر وفساد المزاج البدني، فيكون دائما معتدل المزاج مما يفرض إمكانية أن يطول عمره الشريف بشكل كبير جدًا.

وإذا كان الاعتدال طبيعة دائمة فيه يكون طول العمر بالنسبة إليه حالة طبيعية، ويكون الارتحال والموت أمر عارضي بسبب خارجي.

وبناء على ذلك لا يرتحل الإمام عليه السلام بطول العمر، وإنما من خلال أحد نوعي الموت الآخرين، فإما أن يختار الموت والرجوع إلى الله فيكون موته اختياريا إراديا، وإما أن يعرض عليه عارض قهري من سم أو قتل فيكون موته اختراميا قهريا.

والإمام الحجة الغائب عليه السلام لما كان واسطة الفيض، وعمود خيمة الوجود، وشرط بقاء هذا العالم، فإن وجوده هو الطبيعة المستمرة إلا أن يعرض عليها مفاجئ خارجي.

وهذا تفسير ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (ما منا إلا مقتول أو مسموم)[١].

بمعنى أنه لو لم يوجد عارض خارجي من سم أو قتل، فإن الموت الطبيعي لا يعرض أبدانهم لكفاءتها واستعدادها للبقاء.

وبناء على هذه الحقيقة نصل إلى الحل العلمي لمسألة طول بقاء الإمام الحجة عليه السلام، فلو افترضنا بقاءه ملايين السنين، فإن ذلك الفرض لا يكون غريبا بعد كون جسمه معتدل المزاج عقليا ونفسيا وبدنيا، وبعد تحقق الكفاءة والاستعداد فيه، إلا أن يأتيه عارض خارجي بعد ظهوره بين الناس.

١- كفاية الأثر، القمي/ ١٦٢.

المبحث الثاني

الإمامة الغائبة وإشكالية المشاهدة

الإمامة الغائبة وإشكالية المشاهدة

قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن لصاحب هذا الأمر غيبة، فليتق الله عبد وليتمسك بدينه)[1].

*إشكالية متكررة

كيف نجمع بين انتساب الإمامة للإمام الغائب عليه السلام وغيبته وانقطاعه عن الناس؟

فهل الإمامة إلا منصب لممارسة المهام المختلفة في الواقع من التقنين والتنفيذ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟

ولعل أكثر من ركز على هذا الإشكال وتفنن في طرحه هو ابن تيمية، وله مقاطع وتعليقات كثيرة في ذلك، منها قوله:

(إذا كان مبدأ الإمامة هو أهم المطالب في الدين، فالإمامية أخسر الناس صفقة في الدين، لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا)[2].

وقال: (صاحب الزمان الذي يدعون إليه لا سبيل إلى معرفته ولا معرفة ما يأمر به وما ينهى عنه، فالتكليف به من قبيل التكليف بما لا يطاق)[3]

١- الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٣٣٥، ٣٣٦.
٢- منهاج السنة، ابن تيمية ١ / ٥٠.
٣- نفس المصدر ١ / ٥٥.

وقال: (إن هذا المنتظر الغائب المفقود لم يحصل به شيء من المصلحة واللطف، وكذلك أجداده المتقدمون لم يحصل بهم شيء من المصلحة واللطف الحاصلة من إمام معصوم ذي سلطان) [1].

ولا عجب من كثرة إشكالات ابن تيمية وبصياغات مختلفة على عقيدتي الإمامة والغيبة، فماذا ينتظر ممن لم يتعرف على مقام الإمامة من بينات القرآن حق المعرفة، ولم يتعرف على شؤون الإمامة الخاصة من النصوص الشريفة وواقع الأئمة عليهم السلام، إلا الإنكار!!

فمثله لا ينتظر منه إلا أن يفسر الإمامة تفسيرا خاطئا، ومن ثم ينفيها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين لم يتمكنوا من الحكم والملك ظاهرا في الغالب، هذا فضلا عن الإمام المنتظر عليه السلام الذي يختص بالغيبة التامة.

*الغيبة وضع اضطراري

إن الوضع الطبيعي للقائم بوظائف الإمامة والخلافة هو الظهور والوضوح، وسهولة تواصل أمته معه.

وعلى هذا الأساس نتفطن إلى أن اختيار الغيبة من الإمام عليه السلام ليس أمرا كيفيا ومزاجيا، وإنما هو وضع اضطراري دعت الضرورة إلى الصيرورة إليه.

والروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في بيان السبب الاضطراري للغيبة على طائفتين:

١- منهاج السنة، ابن تيمية ١/ ٥٥.

الأولى: تشير إلى عدم الإذن الإلهي لهم في كشف السبب لنا.

فعن عبدالله بن الفضل الهاشمي قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: (إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل.

فقلت له ولم جعلت فداك؟

قال: (لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم) [١].

الثانية: روايات عديدة تشير إلى أسباب متنوعة:

١ - خوف القتل.

٢ - حتى لا يكون في عنقه بيعة.

٣ - إن الله أجرى فيه سنن الأنبياء عليهم السلام.

٤ - سببية قبح أعمال الخلق.

وعليه فالضرورة جوزت حصول الغيبة والاختفاء لمن أسند الله له مقام الإمامة.

ولذا قسم أمير المؤمنين عليه السلام الأولياء إلى قسمين: قسم ظاهر مشهور، وقسم غائب مغمور، فقال عليه السلام: (اللهم بلى، لا يخلو الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهرا مشهورا أو خائفا مغمورا) [٢].

١- علل الشرائع، الشيخ الصدوق ١ / ٢٤٦.

٢- تحف العقول، ابن شعبة الحراني/ ١٧٠.

*جواب بعض الأسئلة

■ **السؤال الأول: الغيبة والتكليف**

هل معنى الغيبة انقطاع التواصل بين الأمة والإمام عليه السلام، فيكون التكليف به نظير التكليف بما لا يطاق، كما صوره ابن تيمية؟

يمكن أن يقسم التواصل بين الإمام الغائب عليه السلام والأمة إلى نحوين:

● **النحو الأول: التواصل بالواسطة**

فحيث افترضنا أن الظهور خلاف ما تقتضيه الضرورة فلا بد أن يغيب، وأن يمارس وظائف إمامته في الخفاء، وهذا ما عمد إليه القائم الغائب عليه السلام.

ففي الغيبة الصغرى كان يحكم الأمة ويتواصل معها عبر أربعة وكلاء بالتراتب، وكانوا يقضون حوائج الناس، ويوصلون رسائلهم للإمام عليه السلام، ويحلون مشاكلهم بمراجعته.

ولا شك أن هذا تواصل وإن كان عبر الواسطة.

وأما في الغيبة الكبرى فقد نصب وكلاء عنه على الأمة بالنصب العام، فبين خصائص وشرائط إذا ما توافرت في شخص فهو منصوب من قبله على الأمة.

فقد خرج توقيعه الشريف من الناحية بهذا النص: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم)[1].

فجعل لهم الولاية والمرجعية على الأمة بذلك.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٤٨٤.

● **النحو الثاني: التواصل المباشر**

ذهب أهل التحقيق إلى أن المسلّم من معنى الغيبة التامة هو عدم التقاء عموم الناس بالإمام عليه السلام، وأما التقاء خواص الخواص به فهو أمر ممكن.

وقال بعض أكابر الطائفة: من غير الممتنع أن يتواصل الإمام عليه السلام مع بعض أوليائه ممن لا يخشى من جهته شيئا من أسباب الخوف.

هذا وقد اختلفت الأقوال في إمكان الالتقاء الشخصي بالإمام عليه السلام في عصر الغيبة التامة وعدمه.

ووقع الكلام بين علماء الطائفة في حصول الالتقاء وفي كيفيته.

ومحور هذا الاختلاف تفسير ما خرج من الناحية المقدسة للسفير الرابع، فقد جاء في رسالة الإمام عليه السلام هذا النص:

(فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بعد إذن الله تعالى ذكره، وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورا.

وسيأتي شيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذاب مفتر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[1].

*الأقوال في هذه المسألة

■ **القول الأول: إنكار إمكانية المشاهدات**

ذهب شخص معاصر إلى أن التوقيع الشريف دال على عدم إمكانية المشاهدة والالتقاء.

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ٣٩٥.

بحمل عبارة (لا ظهور) على ذلك لاشتمالها على لام الجنس، فهي تفيد انتفاء الظهور عاما وخاصا، فلا يلتقي به أي أحد، فضلا عن أنه يقضي له حاجة، أو يحل له مسألة، أو يستنقذه من معضلة.

وتؤكد الفقرة التالية وهي قوله عليه السلام: (فمن ادعى المشاهدة) نفي وقوع أي لقاء واتصال به فضلا عن ادعاء السفارة.

وإذا قلت لهذا القائل: فما نفعل بما نقله كبار مراجع الطائفة - كالسيد بحر العلوم - مما يفيد وقوع المشاهدة واللقاء؟

يجيب: إن أعلام الطائفة لم يقولوا أنهم رأوا شخصا وأنه الحجة عليه السلام، وإنما نقلوا مشاهدات بمشخصات معينة، ومن جاء بعدهم قال إنهم التقوا وشاهدوا.

ثم حتى لو قال بعض الأعلام أنه رأى والتقى به عليه السلام فيترتب على نقلهم شبهة مصداقية.

فهم لا يعرفونه من الأول ولم يعيشوا معه، فلما يلتقوا بشخص بوصف معين فمن أين لهم أن يتيقنوا أنه هو الإمام عليه السلام!

■ **القول الثاني: إمكان بل وقوع التشرفات**

ذهب بعض الأعلام إلى أن ما نقل - كثيرا - عن أعلام الطائفة من حصول الالتقاء والمشاهدة بصاحب الأمر عليه السلام ليس فيه ما يعارض ما خرج به التوقيع الشريف.

فإن قلت: فما معنى: (فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة فهو كذاب مفتر)؟

قلنا: إن النافي للمشاهدة بكل أنحائها وقع في لبس واشتباه بين ادعاء المشاهدة المقرونة بدعوى السفارة والنيابة والبابية وبين المشاهدة المجردة عن الادعاء.

وقد ضرب بعض الأعلام مثالا لذلك وهو:

إن لكل دولة سفيراً خاصاً يقوم بمهام السفارة بشكل رسمي، ولا ينافي ذلك أن تبعث الدولة أحد مواطنيها باعتبار معين ليوصل رسالة خاصة، لأن منصب السفير هو منصب التمثيل الرسمي الدائم للدولة، بخلاف المنتدب لإيصال رسالة خاصة، فليس له أي مقام ومنصب.

وما نقل من تشرف عدة من أهل العلم بالإمام عليه السلام في الغيبة واحتضائهم بالمحضر المبارك هو من قبيل الانتداب لرسالة خاصة، وليس هو مشاهدة لأجل السفارة والنيابة الخاصة.

ومما يدل على إرادة هذا المعنى من النص – أي تكذيب مدعي المشاهدة لأجل السفارة – أمور:

أولا: إن التوقيع ورد بمناسبة قرب رحيل السفير الرابع.

ثانيا: نهى الإمام عليه السلام نائبه عن الوصاية لأحد من بعده، ثم عقب بالحديث عن مدعي المشاهدة، فيفهم منه نفي المشاهدة التي يترتب عليها آثار المنصب والمقام والوساطة.

وقد نبه أصحاب هذا القول على أن إمكانية التشرف بالمشاهدة والرؤية لا يعقبها أي شيء خاص في المتشرف.

فلا يترتب عليها منصب رسمي له، ولا حجية في النقل.

نعم، يمكن أن يستفيد المشاهد شخصيا، بأن يُعلّم بدليل على مسألة، وحجيته بدليله لا بمجرد أن ينقل أن الإمام عليه السلام قال له كذا.

■ **القول الثالث: الغيبة خفاء عنواني**

نوه بعض الأعلام بأن الحكم في مسألة إمكانية المشاهدة تعتمد أولا على التحقيق في نمط الغيبة، فهل هي بنحو خفاء الشخص (المعنون) أم أنها بنحو خفاء العنوان؟

فلو بنينا على النمط الأول تنتفي إمكانية الالتقاء والمشاهدة إلا في الحالات القصوى التي تترتب عليها مصلحة شديدة.

ولو بنينا على النمط الثاني - وهو ما يقول به المحققون - من أن الغيبة تعني خفاء العنوان، بمعنى أنه حاضر مع الناس دون أن يعرفوا عنوانه، تتحقق إمكانية الالتقاء.

ويبقى هذا السؤال: كيف تتم المشاهدة؟

بناء على نظرية خفاء العنوان يمكن حصول الالتقاء بين الشخص والإمام عليه السلام لإنجاز مطلوب ما من غير أن يلتفت الرائي إلى أنه هو الصاحب عليه السلام إلا بعد المفارقة.

وفي بعض الروايات بُين حصول ذلك حتى على الفرض الأول.

ويمكن أن تحصل المعرفة بشخص الإمام عليه السلام حال المقابلة والالتقاء.

وقد ذهب البعض إلى أن المشاهدة المنفية هي أن يشاهده ويعرفه، أما مجرد رؤيته من دون أن يعرفه حال المشاهدة له فهو أمر لا إشكال فيه.

قال السيد محمد الصدر في موسوعته:

(إن الروايات الدالة على مشاهدة الحجة عليه السلام في الغيبة الكبرى عددها ضخم يفوق حد التواتر بكثير، وهي وإن كانت على حدة قابلة للمناقشة ولكن باجتماعها يحصل الاطمئنان بعدم كذب مفادها جميعا). [1]

*أهداف المشاهدات والتشرفات

بحسب المشاهدات المحكية يمكن تقسيم الهدف منها إلى قسمين:

■ القسم الأول: هدف عام

إنجاز هدف عام كإنقاذ شعب مسلم من التنكيل على أيدي الظلمة، كما حصل لأهل البحرين في قصة الرمانة، وخلاصة الحادثة:

أن بعض النواصب قام بعملية أراد من خلالها مطاردة الشيعة من قبل الوالي، الذي بدوره ينصب العداء للشيعة - السكان الأصليين والأكثرية في هذه البلاد - فجاء أحدهم برمانة مكتوب عليها لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله.

وجعل الوالي يصدق بأنها حجة قوية تلزم الشيعة بمذهب أهل السنة، وإلا يدفعوا الجزية كما يدفعها اليهود والنصارى والمجوس إلى غير ذلك من شروط التنكيل.

ولما لم يجد الشيعة مخرجا من هذه الأزمة خرج أحدهم إلى الصحراء مستغيثا بالإمام المهدي عليه السلام، وفي الأثناء التقى به الإمام عليه السلام وعرفه أن الرجل قد احتال على الوالي بجعله قالبا فيه تلك الكلمات وجعلها على الرمانة وهي

١- تاريخ الغيبة - السيد محمد الصدر ٢ / الفصل الرابع/ ٨٩.

في الشجرة، وكلما تنمو الرمانة يضغط هذا القالب على قشرها الرقيق فتطبع الكلمات ويظهر ما ظهر على الرمانة، ثم أعلمه بمكان الكيس الذي فيه القالب ليريه إلى الوالي ويفضح أكذوبته، فضلا على أن هذا الرمان إذا فتحه لا يجد فيه إلا الرماد والدخان كما أعلمه الإمام عليه السلام.

وخلاصة الأمر أن الولي حينما علم بالحقيقة اعتذر إلى أهل البحرين، وأمر بقتل الرجل المحتال، وبذلك أنجى الإمام عليه السلام الشيعة في البحرين من القتل والتنكيل[1].

■ **القسم الثاني: هدف خاص**

تحقيق هدف خاص - كرد أسئلة المقدس الأردبيلي -.

ونقل هذا الخبر عن المولى المجلسي تلميذه السيد نعمة الله الجزائري في كتابه «الأنوار النعمانية».

فقال: حدثني أوثق مشايخي علما وعملا: أن لهذا الرجل وهو المولى الأردبيلي تلميذا من أهل تفرش اسمه: مير علام، وقد كان بمكان من الفضل والورع.

قال ذلك التلميذ: كانت لي حجرة في المدرسة المحيطة بالقبة الشريفة، فاتفق أني فرغت من مطالعتي وقد مضى جانب كثير من الليل، فخرجت من الحجرة أنظر في صحن الحضرة، وكانت الليلة شديدة الظلام، فرأيت رجلا مقبلا على الحضرة الشريفة، فقلت:

لعل هذا سارق جاء ليسرق شيئا من القناديل، فنزلت وأتيت إلى قربه فرأيته وهو لا يراني، فمضى إلى الباب ووقف، فرأيت القفل قد سقط وفتح له الباب

١- الأصول التمهيدية في المعارف المهدوية، محمد الحلو/ ١٠٠.

الثاني (الرواق) والثالث (الحرم) على هذا الحال، فأشرف على القبر ورد السلام فعرفت صوته.

فإذا هو يتكلم مع الإمام عليه السلام في مسألة علمية! ثم خرج من البلد متوجها إلى مسجد الكوفة، فخرجت خلفه وهو لا يراني، فلما وصل إلى محراب المسجد سمعته يتكلم مع رجل آخر بتلك المسألة.

ثم رجع ورجعت خلفه.

فلما بلغ إلى باب البلد أضاء الصبح فأعلنت له نفسي وقلت له: يا مولانا كنت معك من الأول إلى الآخر.

فأعلمني من كال الرجل الأول الذي كلمته في القبة؟

ومن الرجل الآخر الذي كلمك في مسجد الكوفة؟

فأخذ علي المواثيق أني لا أخبر أحدا بسره حتى يموت، ثم قال لي:

يا ولدي إن بعض المسائل تشتبه علي فربما خرجت في بعض الليل إلى قبر مولانا أمير المؤمنين عليه السلام وكلمته في المسألة وسمعت الجواب.

وفي هذه الليلة أحالني على مولانا صاحب الزمان عليه السلام وقال لي: إن ولدنا المهدي هذه الليلة في مسجد الكوفة فامض إليه وسله عن هذه المسألة، فكان ذلك الرجل هو المهدي عليه السلام [1].

١- الأنوار النعمانية، الجزائري٢/ ٢٠٨.

*السؤال الثاني: أثره عليه السلام في الغيبة والتقية

لعل البعض يرى هذه المشاهدات المروية هي المخرج من الإشكال، والذي مفاده: كيف تنسبون الإمامة لشخص غائب لا تسمعون منه أمرا ولا تسألون منه مسألة؟

فلو بنى أحد على أن هذه المشاهدات مجرد قصص وحكايات، ولا تفيد أكثر من الظن، وأنها كانت في أزمنة قديمة ولا نسمع بمثيلاتها الآن، فهل ثمة مخرج من الإشكال؟

■ الجواب: تعدد سنخ الدور

ذكرنا غير مرة أن أدوار المعصومين عليهم السلام لا تنحصر بظرف الظهور والتمكن، بل لهم أدوار ومهمات عظيمة يؤدونها في ظروف الغيبة والتقية.

لذا فتعريف الإمامة برئاسة اجتماعية وسياسية هو المتسبب في الإشكالية، والإمامة بتعريف القرآن والروايات تنفي أصل الإشكالية.

فبمقتضى الإمامة القرآنية تنتسب للإمام أدوار تكوينية وكونية ووساطة وجودية، فهو الممثل للأسماء والصفات الإلهية، وبذلك ترتفع الإشكالية والحيرة.

فالإمام عليه السلام قائم فاعل وولي ناجز التأثير حتى لو كان غائبا أو معزولا ما دامت الأرض والسماء محفوظة به، وما دام ممثلا ومظهرا لله تعالى.

لذا كان أحد معاني اسم القائم هو الفاعل والمؤثر، فلو كانت الغيبة تنافي وتمانع الأدوار لكان الأولى أن يعبر عنه بالقاعد والساكت.

والحال إن الاسم اللصيق به هو اسم القائم، وهو ما يشير إلى دوام فعله وفيضه وبركاته، وتعطل بعض الأدوار لا ينفي الدور الأهم والأكبر وهو الوساطة الوجودية.

المبحث الثالث

حكم وأسرار الغيبة

حكم وأسرار الغيبة

روى الصدوق في كمال الدين عن الإمام السجاد عليه السلام: (إن للقائم منا غيبتين، إحداهما أطول من الأخرى، فلا يثبت عليه إلا من قوي يقينه وصحت معرفته)[1].

***توطئة**

أفادت الأخبار أن الحجة عليه السلام يوافق رسول الله صلى الله عليه وآله جسما وصفة وسيرة، وتجري فيه سنن النبيين عليهم السلام.

روى الكليني في الكافي عن الصادق عليه السلام: (ولقد لبس أبي درع رسول الله صلى الله عليه وآله فخطت على الأرض خطيطا، ولبستها أنا فكانت وكانت.

وقائمنا من إذا لبسها ملاها إن شاء الله)[2].

قال المازندراني: (وهذا كناية عن طولها وعدم توافقها لقامته المقدسة، وذلك لأن الله تعالى جعل توافقها علامة على وجوب إظهار الإمامة على عامة الخلق والخروج بالسيف حتى أنه يمكن أن يقال:

إنها لا توافق قامة الصاحب المنتظر عليه السلام في زمان الغيبة، فإذا وافقها دل على وجوب ظهوره وإظهار إمامته على رؤوس الخلائق.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٤.
٢- الكافي، الكليني ١/ ٢٣٣.

وقال: قوله (فكانت وكانت) أي فكانت لي وكانت لأبي سواء أو فكانت لي كما كانت لأبي وكانت لأبي كما كانت لي، أو كانت فضلة لي وكانت فضلة لمن بعدي، وهكذا تندرج في الفضل حتى تبلغ أهلها فتوافقه)[١].

وعن حنان بن سَدير عن أبيه عن الصادق عليه السلام أيضا قال: (إن للقائم منا غيبة يطول أمدها). فقلت له: يا ابن رسول الله ولِمَ ذلك؟ قال: (لأن الله أبى إلا أن تجري فيه سنن الأنبياء في غيباتهم)[٢].

فتفيد هذه الأخبار وغيرها أن البحث في القائم عليه السلام من الخطورة بمكان في نظام الشرائع السماوية.

ولذا تكاثرت الاستفهامات والإشكالات حول غيبته الشريفة.

ومنها السؤال عن سر الغيبة، ولم يغيب وقد أوكل إليه عليه السلام أخطر الأدوار، وأسند إليه تحقيق أعظم الآمال في الوجود؟

*السؤال الأول: علل الغيبة

ما هي العلل والأسباب والظروف التي حتمت المصير إلى الاستتار وممارسة أدوار الإمامة في الخفاء بخلاف ما هو متعارف ومعهود من حضور وظهور القيادات والنبوات الإلهية مع الأمم عبر التاريخ؟

لقد نثر أئمة أهل البيت عليهم السلام في روايات مختلفة أسباب وعلل كثيرة ومتفاوتة في التأثير والسببية للغيبة، ونكتفي بذكر أربعة أسباب بحسب درجاتها في الأهمية.

١- شرح أصول الكافي، مولي محمد صالح المازندراني ٥ / ٣٢٥.
٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤٨١.

■ **السبب الأول: أمني واقعي**

ويدل على هذا السبب روايات بينة الدلالة، كرواية الكليني عن زرارة قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

(إن للقائم عليه السلام غيبة قبل أن يقوم، قلت: ولم؟

قال: إنه يخاف - وأومأ بيده إلى بطنه - يعني القتل)[١].

وفي رواية أخرى أنه عليه السلام: (وأشار بيده إلى بطنه وعنقه)[٢].

فتفيد الروايتان - وغيرهما - أن من العلل التي أوجبت الغيبة عن الأمة هو توقع التصفية الجسدية له عليه السلام وبنفس الأسلوب الذي كان يغتال به آباؤه وأجداده عليهم السلام وهو القتل إما بالسيف أو بالسم.

فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (ما منا إلا مقتول أو مسموم)[٣].

وهذا هو المعنى الذي أراده الإمام الصادق عليه السلام بالإشارة إلى بطنه وعنقه، ولو لم يكن إلا هذا السبب لكان كافيا في إخفائه وتغييبه.

ولو قيل لم لا يبقيه الله ظاهرا ويحفظ وجوده من القتل بالطرق الإعجازية؟

قلنا: إن زمان تفعيل إمامته بالطرق الإعجازية لم يكن مؤاتيا في تلك الظروف، لعدم استعداد الأمة لمشروعه الإلهي المظفر، فكان لا بد من إخفائه مع حفظه لزمان تتحقق فيه جميع شرائط دولته المباركة، وبعدها تتدخل القوة الإعجازية لتأييده ونصره.

١- الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٣٣٨.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٣٤٦.

٣- كفاية الأثر، القمي/ ١٦٢.

وإخفاؤه مع حفظه هو الطريق الوحيد لإبقائه حيا، ولمنع الظلمة من التمكن منه، ولانتظار تحقق جميع شرائط خروجه المبارك.

■ **السبب الثاني: منع كل أشكال البيعة**

ويدل على تأثير هذا السبب في فعلية غيبة الإمام عليه السلام من النصوص ما يلي:

١ – عن إبراهيم بن عمر اليماني عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: (لا يقوم القائم ولأحد في عنقه بيعة)[١].

٢ – وعن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (يقوم القائم عليه السلام وليس لأحد في عنقه عقد ولا عهد ولا بيعة)[٢].

وللبيعة معاني ومراتب ودرجات، أولها بيعة عقائدية، وثانيها بيعة سياسية، وثالثها بيعة ظاهرية اعتبارية.

وقد مارس أهل البيت عليهم السلام رفض البيعة العقائدية والبيعة السياسية للظلمة، وأمروا أصحابهم بنحو مؤكد ولازم برفض التولي العقائدي والتحاكم السياسي لدول الجور في كل الأزمنة.

إلا أن غير واحد من أئمة أهل البيت عليهم السلام وفي ظروف التقية سكتوا عن القيام والثورة، بل ربما اضطر بعضهم لمد يد البيعة الشكلية لخلفاء الجور، مما اعتبر في تلك الأنظمة أنه بيعة رغم أنها في حقيقة الأمر شكلية مفرغة من محتوى البيعة، لفقدان خلفاء الجور لشرائط الإمامة، وللقهر الذي حتم على أهل البيت عليهم السلام السكوت، وعدم الإفصاح بالرفض والممانعة.

---

١ – كتاب الغيبة، النعماني / ١٧١

٢ – نفس المصدر.

إذا عرفت ذلك: تتفطن أن من موجبات الغيبة وفقا لروايات أهل البيت عليهم السلام السابقة هو منع ودرأ أي شكل من أشكال المبايعة من قبل الحجة عليه السلام حتى المبايعة التي هي بمعنى السكوت والمسالمة والعيش في ظل تلك الحكومات، ولا يكون ذلك إلا باستتاره حتى لا يضطر إلى ذلك دفعا لغائلة الظالمين عن نفسه الشريفة.

وتفيد الرواية الثانية بلطائف ألفاظها إلى أن الخفاء والغيبة مانعان عن تحقق أي مستوى من مستويات الرضا أو التبعية أو المعايشة بالنسبة للإمام عليه السلام في ظل دول الجور، ويظهر ذلك من نفي العقد والعهد والبيعة.

وبهذا الأسلوب من الخفاء الذي يعدم أي صلة ظاهرية له بالمجتمعات والدول لن يمن أحد على الإمام عليه السلام بأنه ضمه أو ألجأه أو تعاون معه أو أي دعوى من هذا القبيل.

ولن يتمكن أحد من أن يعترض عند ظهور الإمام عليه السلام وثورته فيصفه بالخروج على الوطنية أو على إجماع المسلمين.

كما يمن حكام الجور اليوم في اتهامهم أهل الإيمان - إذا ما ثاروا في وجه الظلم والجور والتحلل واغتصاب الحقوق - بالقول أنهم خارجون على وطنيتهم، أو تابعون لدولة أجنبية، أو أنهم خارقون لإجماع أهل القبلة، وغير ذلك من الدعاوى السياسية الكيدية.

فللغيبة غايات وبركات من هذه الناحية، وبها يظهر الإمام عليه السلام كثائر من عالم آخر لا صلة له بأحد.

■ **السبب الثالث: التمحيص والتمييز**

وقد دلت عليه روايات متفاوتة في الوضوح:

١ - منها ما في الكافي عن الكاظم عليه السلام أنه قال: (إنّه لا بد لصاحب الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر مَنْ كان يقول به، إنّما هي فتنة من الله عزّ وجلّ امتحن بها خلقه)[١].

٢ - وعنه عليه السلام أيضا قال: (إن للقائم غيبة قبل أن يقوم، إن الله عزّ وجلّ يحبّ أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون)[٢].

٣- وعن زرارة بن أعين قال: سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: (.. وهو المنتظر الذي يشك الناس في ولادته فمنهم من يقول: إذا مات أبوه مات ولا عقب له، ومنهم من يقول: قد ولد قبل وفاة أبيه بسنتين، لأن الله عز وجل يحب أن يمتحن خلقه فعند ذلك يرتاب المبطلون)[٣].

٤ - وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: (والله لا يكون ما تمدون إليه أعينكم حتى تمحصوا وتميزوا، وحتى لا يبقى منكم إلا الأندر فالأندر)[٤].

فيستفاد من كل الروايات السابقة أن أحد حِكم الغيبة هو التمحيص والامتحان من أجل امتياز أهل الحق من غيرهم.

فحيث إن الله تعالى قدر للحجة عليه السلام مشروعا إلهيا رائدا وخاتما لكل النبوات فلا بد من تمحيص البشرية لتحديد القابليات، وبالتالي يمتاز من يكون معه عمّن يكون ضده.

١- الكافي، الكليني ١ / ٣٣٦ .
٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٣٤٢ .
٣- بحار الأنوار، المجلسي ٥٢ / ٩٥ . الغيبة، للطوسي / ٣٣٤.
٤- كتاب الغيبة، النعماني / ٢١٦ .

فبالغيبة والاحتجاب يتبين القابلون للتكامل في درجات الإيمان، والمنحدرون للتسافل في دركات العصيان.

وبظهوره يتفعل التكامل في المستعدين، ويتفعل التسافل في المنحدرين، بالانتماء لمشروعه أو رفضه والاستكبار عليه.

فالغيبة طريق الامتياز والاختبار وإظهار المعادن، والظهور الشريف طريق فعلية التصاعد أو التسافل.

■ **السبب الرابع: سبب إلهي غيبي**

ويدل على هذا السبب الغيبي ما رواه عبدالله بن الفضل الهاشمي قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: (إن لصاحب هذا الأمر غيبة.. فقلت ولم جعلت فداك؟

قال لأمر لم يؤذن لنا في كشفه لكم.

قلت فما وجه الحكمة في غيبته؟

فقال.. إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره..

ثم قال: يا ابن الفضل: إن هذا الأمر أمر من أمر الله وسر من سر الله وغيب من غيب الله ومتى علمنا أنه عز وجل حكيم صدقنا بأن أفعاله كلها حكمة وإن كان وجهها غير منكشف لنا)[1].

ونوه المحققون أنه ينكشف بهذه الرواية أن ما مر من علل وأسرار إنما هي حكم إجمالية، وأما ما هو أبعد من ذلك من التفاسير والأسرار فهي في علم الله وغيبه وأمره، ولا تنكشف إلا لمن أطلع على علوم الأمر الإلهي، ولم يؤذن لهم أن يبثوا شيئا منه، لكنه ينكشف بعضه بعد ظهوره الشريف.

١- علل الشرائع، الصدوق ١ / ٢٤٦ .

وخفاء السر الأبعد في غيبته لا يسوغ لأحد الكفر به أو التخلي عن بيعته، فما دام أمره إلهيا فليس لنا إلا التسليم والتصديق والإذعان.

*السؤال الثاني: حول إشكالية سلبيات الغيبة

قد يقول قائل: تبين فيما سبق أسباب حتمية غيبته، وتبين بعض إيجابيات تلك الغيبة، لكن الاستشكال والاستفهام يبقى على الجانب الآخر وهو السلبي منها.

فإن غياب القائد عن قاعدته والسلطان عن رعيته يرتب أثراً سلبيا عليهم، فبغيبة الإمام عليه السلام يخاف على الأمة من الارتياب، وعلى مشروع الأنبياء من الضمور جراء طول الاستتار، فكيف تتفادى الأمة سلبيات الغيبة؟؟!

■ الجواب: خصائص المؤمنين في عصر الغيبة

إن السؤال عن زوال بركات ظهوره ذو شقين، سؤال عن زوالها عن العصاة، وسؤال عن زوالها عن المؤمنين:

فأما بالنسبة للعصاة والظالمين فهو بسبب سوء اختيارهم، لأن احتجابه مسبب عن معاصيهم وانحرافهم.

ويدل على ذلك ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (واعلموا أن الأرض لا تخلو من حجة لله عز وجل، ولكن الله سيعمي خلقه عنها بظلمهم وجورهم وإسرافهم على أنفسهم)[1].

وأما بالنسبة للأولياء الصالحين من أتباعه وشيعته:

١- الغيبة، النعماني/ ١٤٤.

فأولا: لن يرتابوا فيه – لو كانوا أهل علم وبصيرة – لوجود نواب عنه بينهم كما ذكر ذلك في الروايات.

وثانيا: مضافا إلى أن اللطف بهم من قبل الله غير منقطع، بل لهم خصوصية فيه.

ففي الحديث عن عمار الساباطي قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: (أيهما أفضل: العبادة في السر مع الإمام منكم المستتر في دولة الباطل، أو العبادة في ظهور الحق ودولته مع الإمام منكم الظاهر؟

فقال: يا عمار الصدقة في السر والله أفضل من الصدقة في العلانية، وكذلك والله عبادتكم في السر مع المستتر في دولة الباطل وتخوفكم من عدوكم في دولة الباطل وحال الهدنة أفضل ممن يعبدالله عز وجل ذكره في ظهور الحق مع إمام الحق الظاهر في دولة الحق، وليست العبادة مع الخوف في دولة الباطل مثل العبادة والأمن في دولة الحق)[1].

وثالثا: إن ألطاف الإمام الغائب عليه السلام في حال الغيبة غير مقطوعة عن المؤمنين به والمنتظرين له.

ودل عليه ما عن الإمام السجاد عليه السلام:

(يا أبا خالد: إن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل أهل كل زمان، لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف)[2].

١- الكافي، الكليني ١/ ٣٣٣.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٠.

المبحث الرابع

جدليات في العقيدة المهدوية (١)

جدليات في العقيدة المهدوية (١)

روى الطوسي في مصباح المتهجد في زيارة الأربعين بالإسناد عن الصادق عليه السلام: (ونصرتي لكم معدة حتى يأذن الله لكم)[1].

***تمهيد**

تكرر هذا المقطع وبنفس الألفاظ في الزيارات، مما يفيد مزيد العناية بمعناه ومضمونه، وسوق المؤمنين لتمثل شرائط النصرة الحقيقية.

ولا شك أن إعداد مقدمات النصرة مسؤولية عظمى أوكلت على عاتق المؤمنين في زمان الغيبة.

ولا نبالغ بالقول بأن تكرر هذا المقطع في الزيارات يهدف إلى جعله شعارا من شعارات المؤمنين، يلهجون به دائما، فيلهمهم التمهيد والانتظار الإيجابي، ويلزمهم بطقوس خاصة بمثابة لوازم منطقية للاستعداد.

ومن الإجحاف تفسير هذا المقطع الشريف والشعار العظيم في بعد واحد، بل له تجليات في معاني متراتبة وأبعاد منتظمة.

وقد أشار إليها الأعلام في طيات أبحاثهم، وكلها مضامين مرادة وليس بينها اختلاف وتهافت.

ويمكن أن نتوسع في بيان المقطع في أبعاد أربعة:

١- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٧٨٩.

*البعد الأول: سعة متطلبات جهاد التبيين

يشير قوله عليه السلام: (ونصرتي لكم معدة) إلى وجوب تسلح المؤمن بالبينات العقائدية والحجج الفكرية لكي يذود ويذب عن حياض الدين، ويبطل إشكال المشكلين واستفهام المستفهمين.

ونطلق على هذا البعد عنوان إعداد النصرة الفكرية والعقائدية.

وأراني عند هذه النقطة مضطرا لبيان معنى ما أطلقه آية الله السيد الخامنئي (حفظه الله) في أكثر من مناسبة، وسماه (جهاد التبيين) في أمور:

١ - إن البيان والتبيان الفكري يستحق أن يطلق عليه اسم (الجهاد) بجدارة، لان المناورات الفكرية ضد الخصوم الفكريين تتطلب جهودا مضنية وملاحقات متتابعة، فالتعب والسهر ولوازم جهاد السيف أمور لازمة لجهاد الكلمة وحرب الأفكار.

٢ - إن عنوان (جهاد التبيين) يبدأ من بيان مسائل الفقه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكن ذلك لا يمثل كل مساحات التبيين، ولا يلامس أهم مساحاته، لأن أهم مساحات جهاد البيان هو شرح مراتب العقائد وطبقات المعارف للناس، والآن يتوقف حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على معرفة عقائدية رصينة، لأن المنحرفين في باب المعروف والمنكر يجيدون خلط الأوراق ويستعملون المغالطة في المفاهيم، فيصوروا القبيح حسنا ويلبسوا الحسن ثياب القبيح.

فما عليه جملة من المؤمنين وطلاب العلم من تخيل انحصار جهاد التبيين في بث ونشر مسائل الفقه أو مجرد الأمر والنهي خطأ محض.

*البعد الثاني: النصرة العملية

وثاني تجليات قوله عليه السلام: (ونصرتي لكم معدة) هو الثبات على الطاعات، والانتهاء عن المحرمات، والارتفاع عن التقصيرات، وتدارك ما فات من الانحرافات، تأسيا واقتداء بالسيرة الصالحة التي كان عليها أهل البيت عليهم السلام وهذه نصرة عملية لهم.

وهذا المضمون وردت به روايات كثيرة، منها:

١ - ما رواه الكليني عن أبي أسامة قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

(عليك بتقوى الله والورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الخلق وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم، وكونوا زينا ولا تكونوا شينا، وعليكم بطول الركوع والسجود..) [١].

٢ - ومنها ما عن هشام الكندي قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إياكم أن تعملوا عملا يعيرونا به، فإن ولد السوء يعير والده بعمله، وكونوا لمن انقطعتم إليه زينا ولا تكونوا عليه شينا..) [٢].

٣ - ومنها ما رواه الصدوق في الاعتقادات قال: وقال علي عليه السلام: (رحم الله عبدا حببنا إلى الناس، ولم يبغضنا إليهم) [٣].

فما أعظم النسبة بين الشيعة وأهل البيت عليهم السلام، فالمشاكلة العملية بينهم وبين المعصومين بعد أصل العلاقة فيه لمعان واشراق لمنهجهم في عقول وقلوب سائر الناس، وانتفاء المشاكلة يساهم في خفاء وضمور المنهج.

١- الكافي، الكليني ٢/ ٧٧.

٢- نفس المصدر ٢/ ٢١٩.

٣- الاعتقادات، الصدوق/ ١٠٩.

*البعد الثالث: تحصيل تمام اعتقاداتهم

من موارد نصرتهم الاعتقاد بقائمهم ومهديهم، وأنه سيخرج ليملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، وهذا بعد معرفي ونصرة اعتقادية لواحدة من أهم عقائدهم القرآنية.

خصوصا مع التنبه إلى أن القائم عليه السلام هو مجمع مقاماتهم وأعظم تعريف لهم في الوقت المعاصر.

وفي الاعتقاد به بقاء لهم بنحو حقيقي وفاعل ومؤثر.

ففي كمال الدين عن أبي بصير قال: (قال الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام: طوبي لمن تمسك بأمرنا في غيبة قائمنا فلم يزغ قلبه بعد الهداية، فقلت له جعلت فداك وما طوبى؟

قال: شجرة في الجنة أصلها في دار علي بن أبي طالب عليه السلام وليس من مؤمن إلا وفي داره غصن من أغصانها، وذلك قول الله عز وجل «طوبى لهم وحسن مآب»)[1].

وفيه عن يونس بن عبدالرحمن قال: دخلت على موسى بن جعفر عليهما السلام فقلت له: يا ابن رسول الله أنت القائم بالحق؟

فقال: (أنا القائم بالحق ولكن القائم الذي يطهر الأرض من أعداء الله عز وجل ويملأها عدلا كما ملئت جورا وظلما هو الخامس من ولدي له غيبة يطول أمدها خوفا على نفسه، يرتد فيها أقوام ويثبت فيها آخرون.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٥٨.

ثم قال: طوبى لشيعتنا، المتمسكين بحبلنا في غيبة قائمنا، الثابتين على موالاتنا والبراءة من أعدائنا، أولئك منا ونحن منهم، قد رضوا بنا أئمة، ورضينا بهم شيعة، فطوبى لهم، ثم طوبى لهم، وهم والله معنا في درجاتنا يوم القيامة) [١].

*البعد الرابع: مقامات ما بعد الظهور

ومن أهم أبعاد نصرتهم الاذعان برجعتهم وكرتهم لبناء دولتهم العظمى وتشييد أركان حكومتهم الكبرى.

وهذه نصرة عقائدية لعقيدة أكبر من الظهور، وهي عقيدة الرجعة والتي تعني خروج المهديين جميعا لبناء الحضارة الكبرى في وجود البشر.

ومما يدل على أن الرجعة هي أحد تفاسير قوله: (ونصرتي لكم معدة) ورود هذا المقطع في ثنايا الزيارة الجامعة بين مقاطع تتحدث عن بعثهم وكرتهم ورجعتهم.

وقد عقد الحر العاملي في كتاب - الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة - فصلا في المقاطع الدالة على الرجعة من الزيارات وعبارات الزيارة الجامعة، وأشار إلى أن مقطع (ونصرتي لكم معدة) هو أحد الأدلة. [٢]

فيتلخص من كل ذلك أن شعار (ونصرتي لكم معدة) لا بد أن يتجلى في حياة المؤمن في كافة الأبعاد، فكرية، عملية، عقائدية وباختلاف درجاتها.

ومن يحصر إعداد النصرة في بعد واحد فحسب فقد غفل عن بقية الأبعاد الأخرى، وفي ذلك خسارة كبيرة.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٦١.

٢- الإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة، الحر العاملي/ ٣٠٨.

*الذود عن العقيدة المهدوية

مر بنا أن من الأبعاد المهمة في إعداد النصرة لهم هو الذود العقائدي عن العقيدة المهدوية، والإعداد العملي بالانتظار الإيجابي كما ينبغي.

وإن من أهم المباحث الكلامية لدى الشيعة هو بحث العقيدة المهدوية، لأن موضوعه يساهم في إنجاز المسؤولية الكبرى القائمة الآن.

وفي عرف البشر جميعا لا تكون المسيرة صحيحة ومنتظمة ما لم تكن برعاية ووصاية قيادة حكيمة.

وتزداد المسؤولية بشكل أكبر في عصر الغيبة، لأن التعرف على الإمام والقائد فيها يتطلب جهدا عقائديا مضاعفا عن التعرف على الإمام الحاضر المشاهد.

كما أن الثبات والاستمرار على إمامة الغائب عليه السلام يتطلب دفع التشكيكات وعلامات الاستفهام التي يثيرها الآخرون، مضافا إلى القوة النفسانية اتجاه سخرية الآخرين بالعقائد والاعتقادات كما هو حاصل هذه الأيام.

لذا عبر في الروايات المأثورة عن الغائب عليه السلام مرة بالقائم، ليتوثق أتباعه من وجوده الحقيقي وقيامه الفعلي بالدور والمسؤولية.

كما عبر عنه في كلمات الأعلام - بالمنجي والمخلص -، وقد غرس في فطرة البشر التطلع والترقب والانتظار للمنجي والمخلص من الكوارث والأمراض والجهالات وغيرها من الابتلاءات التي تواجه البشر، وهذا يعمق مسؤولية الاعتقاد به والانتظار له بنحو أكبر.

وهنا نستعرض بعض الجدليات القائمة والحوارات الجارية فيما يخص العقيدة المهدوية، والتي تسببت في ظهور علامات استفهام حولها، وازدراء بعض المذاهب لها، بل أثارت جوا من الضبابية حول بعض مسائلها.

*إشكالية الشرور والمهدوية

استمعت لحوار سياسي شامل جرى مؤخرا، وقد أقحمت فيه العقيدة المهدوية بحسب رؤى الشيعة إقحاما متعمدا، وخلص الحوار إلى تسويق مفهوم خاطئ عنها خدمة لرؤى وأجندة معينة.

فقال المحاور: إنه لا مجال للتوحد أو التحاور مع الشيعة - ثقافيا وفكريا وعمليا - لإيمانهم بعقيدة المهدي عليه السلام!!

وهذا يدعو للاستغراب من عدة جهات:

١ - إن روايات الفريقين تتفق على إسلامية الفكرة المهدوية، وأن الاختلاف بين المذاهب فيها يكمن في بعض التفاصيل.

٢ - روج في ذلك الحوار إلى أن عقيدة الشيعة في المهدي عليه السلام خاصة، وأن إيمانهم بها من موجبات التحارب والتصادم!! وهو خلف اسلاميتها واتفاق المذاهب فيها.

٣ - ومبررهم في تبني الفكرة الآنفة هو إيمان الشيعة بتزامن خروج المهدي عليه السلام مع امتلاء الأرض بالظلم والجور والكوارث وسفك الدماء، ولأنهم يرومون استعجال خروجه لذا يتوغل الشيعة في سفك الدماء ونشر الجور والظلم.

٤ - وعلى هذا الأساس يستحيل التقارب بين المذاهب الإسلامية ومذهب الشيعة لقيام حياتهم العملية والسياسية على عقيدة تلهمهم سفك الدماء وظلم البشر.

■ **الجواب**

قرر أعلام الشيعة قاطبة – خلافا للتصور السابق – أن المطلوب من المؤمنين في زمان الغيبة هو مواجهة الفساد بكل أشكاله، ونشر الخير والعدل بين البشر قدر الوسع والطاقة.

ولم يتوهم أحد من الشيعة أن مؤدى اقتران خروجه بوقت امتلاء الأرض بالفساد والظلم والجور ضرورة مساهمة الشيعة في مشروع الفساد، إلا بعض الحمقى في عصور الجهل.

وأما جوابنا على ما طرحه – جهلة السياسيين في ذلك الحوار – ففي نقاط:

● **الأولى: الشيعة أهل سلم**

إن المقارنة بين واقع الشيعة في مختلف البلدان والمناطق وواقع غيرهم يكذب ما روّج له أولئك، فإن الشيعة في كل أمصارهم هم أهل سلم ورفق وصبر على الضيم واحترام لحقوق الآخرين، وفاقا لتعاليم أئمتهم عليهم السلام.

ومنه ما روي عن الصادق عليه السلام أنه قال:

(أما علمت أن إمارة بني أمية كانت بالسيف والعسف والجور، وإن إمارتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد)[1].

وفي المقابل يشهد القاصي والداني وبشهادة الحقائق الثابتة إعلاميا والموثقة صوتا وصورة أن خصوم الشيعة هم أوغل الخلق في الدماء والشرور، وأجرأهم على إفساد حياة البشرية بالكوارث.

١- الخصال، الصدوق/ ٣٥٥.

وهذا الواقع العملي خير شاهد على أن العقيدة المهدوية مصدر إلهام الخير والعدل والبركات.

ومن عجائب تقديرات الله في خلقه أن يأتي يوم يفتضح فيه ذلك المحاور على رؤوس الأشهاد فضيحة عالمية غير مسبوقة في سفك الدماء ونشر الأجساد بالمنشار.

فغدى عدو الفكرة المهدوية بحجة أنها تلهم المعتقدين بها شرورا وظلما هو أجرأ الخلق على الشر والظلم في زمن الفضيحة الإعلامية المدوية.

● **الثانية: التفسير العقائدي المنكوس**

إن نسبة الشرور وسفك الدماء للفكرة المهدوية في العقائد الشيعة – من قبل بعض السياسيين المناوئين – مصداق للمثل الشهير: (رمتني بدائها ونسلت).

وفي أحسن الأحوال فتلك النسبة وليدة التفسير المنكوس لمؤدى العقائد الشيعية، حيث يفسرونها بالمقلوب وعلى خلاف سياقها، ويترتبون على التفسير الخاطئ وصفا ظالما للشيعة.

وأولئك الخصوم على طائفتين:

فطائفة تنسب التفسير الخاطئ للشيعة جهلا، وأخرى تمارس عملية التحوير والتحريف للعقائد الشيعية عن عمد وسبق إصرار خدمة لمن وظفهم سياسيا أو مذهبيا.

وفي الغالب تلصق تلك التهمة بالشيعة عن تعمد وقصد، وإلا فها هو تأريخ الشيعة ببابك، فمن جهة الاعتقادات لا يضاهيهم أحد في اعتماد البرهان والتزام الحجة، ومن ناحية السيرة العلمية لا نظير لهم وداعة ومسالمة.

● **الثالثة: عقيدة الانتظار مشعة للبركات**

إن الروايات الواردة في بيان مسائل الغيبة والظهور لم تهمل جانبا منهما إلا وتوسعت في شرح معناه، وحتى في أدق التفاصيل.

لذا فتبرع البعض بشرح ملابسات ولوازم تلك العقيدة من غير رجوع إلى نصوص الشيعة جريمة وخطيئة كبرى.

والروايات على طوائف:

١ - فطائفة من تلك الروايات بينت أوصاف البيئة التي سيخرج فيها المنجي عليه السلام وتكاليف الممهدين له، ولم يكن فيها أي دعوة للمشاركة في نشر الظلم أو استعمال البطش وسفك الدماء!!

٢ - وطائفة نعتت المنتظرين له بقوة الإيمان واليقين على مستوى الاعتقاد ووصفتهم بالسلم والانقياد والطاعة والعبادة على مستوى العمل، وأنهم لم يعرفوا إلا بإقامة الصلوات وقراءة القرآن.

٣ - كما أن الروايات التي أوجبت الإعداد لظهوره لم تهمل بيان نمط الإعداد، بل رسمت مساره في التزام خط ومنهج القائم عليه السلام وهو منهاج العدل والخير.

وكيف يكون الغائب المنجي عليه السلام مذخورا لمحو الظلم وتقويض الجور بينما يكون المنتظر له سفاكا للدماء ومعينا للظلمة.

وليس بين الاعتقادات الدينية عقيدة تلهم البشر حب الخير واشعاع البركة ونشر الصلاح كعقيدتي الانتظار والرجعة.

إذ إنهما عقيدتان مبشرتان بحكومة أهل الطهارة والقداسة والمبدئية، والمؤمن بهما لا بد أن يسانخ أهل تلك العوالم طهرا ومبدئية.

المبحث الخامس

جدليات في العقيدة المهدوية (٢)

جدليات في العقيدة المهدوية (٢)

ورد في دعاء الندبة للإمام الحجة عليه السلام قوله: (أين الطالب بدم المقتول بكربلاء)[1].

***تمهيد**

إن دعاء الندبة من الأدعية الشهيرة المنتشرة في أوساط عموم المؤمنين، لكنه لا يزال مجهولا في قيمته المعرفية وأبعاده الدلالية.

بل ظهرت محاولات للتشكيك في قوة سنده، إلا أن المحققين من الأعلام تصدوا لتلك المحاولات وأثبتوا بشواهد وأدلة عديدة صحة سنده وسلامة متنه.

ولصميم العلاقة بين هذا الدعاء والدولة الموعودة يتوجب الإطلالة على بعض الأمور اللصيقة به ولو اختصارا:

١ - لدعاء الندبة حيثيات، فهو دعاء وزيارة ومناجاة للمعصوم عليه السلام، أي أن لمحتواه هذه الأبعاد جميعا، وهو مشتمل على قواعد ملفات الإمامة والولاية، كما أنه بمثابة دورة علمية معرفية في صميم العقيدة قبل أن يكون عبارات روحية عبادية.

١- المزار، المشهدي/ ٥٧٩.

٢ – ولقد جذر علماؤنا دعاء الندبة عبر الأجيال لتعلقه وارتباطه بإمامة صاحب العصر والزمان عليه السلام وشرحه لمشروع القيادة المستقبلية للأمة، ولأنه مناجاة مع الإمام المسؤول عن قيادة هذا العصر.

٣ – إن دعاء الندبة بيان تفصيلي ومنشور مبسوط لمشروع المهدوية، وهو شرح عريض للهدف السامي الذي سينجز على يدي القائم عليه السلام، أي بيان لخطوات إنجاز ما رواه المسلمون عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حق الموعود من أنه (يملأ الأرض قسطا وعدلا).

والخوض في بيان التفاصيل المهدوية ليس للعلم المجرد أو الانتظار السلبي بل لحث المؤمنين على السعي بكل اقتدار لإنجاز الأهداف وتحقيق الغايات، ولو بالمستوى الأولي والابتدائي.

٤ – ودعاء الندبة دورة تمرينية تدريبية على العيش في أجواء المشروع المهدوي، وهو مؤتمر تحضيري يخطط لما ينبغي أن ينجزه المؤمنون من وظائف ومسؤوليات.

٥ – ليس الهدف من قراءة هذا الدعاء مجرد دخول المؤمنين في حالة روحية عابرة أو ندبة مؤقتة، وليس هو ذكر خاص بيوم من أيام الأسبوع للاستجمام الروحي في يوم إجازة، بل هو غذاء فكري وروحي لضبط وقع الفكر ومسار السلوك في كل نواحي الحياة.

وعليه فالتزام المؤمنين بهذا الدعاء لن يؤتي أكله ويرتقي لأهدافه إلا إذا تحولت مقاطعه إلى فقرات عملية، وإلى بنود لمشاريع دينية فاعلة.

لذا حذر كبار الأعلام من بقاء دعاء الندبة في مستوى لا يراوح فيه الأذكار اللسانية أو أن يتعداها إلى الأحوال الروحية العابرة فحسب.

ويوم أن يتحول إلى مشروع فكري وسيرة تطبيقية باستقامة العقول على المعرفة والعقيدة فهو المطلوب والمؤمل.

أما حين يكثر بيننا المتحولون في العقائد والمتبدلون في أنماط السلوك والمتلونون في المذاهب الفكرية فهو المؤشر على عدم فاعلية الدعاء في الاتجاه الصحيح.

فهذا الدعاء وجد لتبقى الروحانية متألقة، وليظل الفكر ثابتا واليقين قويا، ومصائب أهل البيت عليهم السلام حية ملتهبة.

فيوم أن يخبوا فينا وهج الروح، وتسكن دموع الندبة، وتضمحل بصيرة المعرفة، فلسنا بأهل لهذا الدعاء ولا جنودا في المشروع المهدوي.

إن دعاء الندبة هو البيئة الروحية التي توصل الروحانيين بالحسينيين الثائرين وبالقرآنيين الواعين، فلا تغيب فيهم جنبة على حساب أخرى ولا تنتكس راية العقيدة في عقولهم وأرواحهم ومسيرتهم.

ويشتمل دعاء الندبة على فقرات عظيمة المضمون غزيرة المعطى منها المقطع الذي توجنا به البحث وهو قول الزائر الداعي: (أين الطالب بدم المقتول بكربلاء).

* دعاء الندبة والقرآن

من أعظم الشواهد على سلامة متن دعاء الندبة موازاة فقراته لآيات القرآن، فيكون القرآن حينئذ هو الحجة على صحة فقراته.

والمقطع الشريف الذي توجنا به البحث له ما يوازيه ويعادله من آيات القرآن.

وعدله في القرآن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾[1].

١- سورة الإسراء/ ٣٣.

فقد أشارت الروايات إلى أن الحجة عليه السلام هو المعني الأول بالآية.

فعن محمد بن سنان عن رجل قال: سألت عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾؟

قال: (ذلك قائم آل محمد، يخرج فيقتل بدم الحسين عليه السلام، فلو قتل أهل الأرض لم يكن مسرفا، وقوله: (فلا يسرف في القتل) لم يكن ليصنع شيئا يكون سرفا)[1].

وعلى هذا الأساس يكون المقطع الشريف: (أين الطالب بدم المقتول بكربلاء) قرآني، أي له معادل ومواز في آيات القرآن.

وعليه لا ينبغي أن يستوحش أحد من إطلاق عنوان الثائر على المهدي المنتظر عليه السلام، بحجة أن الثأر من المفاهيم المنبوذة في العالم المتحضر.

ومما يستفاد من المقطع الشريف في دعاء الندبة:

١ - إذا صح أن الحجة عليه السلام هو الطالب بالثأر الحسيني، فهذا يشهد على صحة ما نقلته الروايات من أن أعظم شعارات الثورة المهدوية هو شعار: (يا لثارات الحسين) بل هو شعار ملكوتي.

فعن الريان بن شبيب، قال: دخلت على الرضا عليه السلام في أول يوم من المحرم، فقال لي.. يا بن شبيب، إن كنت باكيا لشيء، فابك للحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه ذبح كما يذبح الكبش، وقتل معه من أهل بيته ثمانية عشر رجلا ما لهم في الأرض شبيه، ولقد بكت السماوات السبع والأرضون لقتله، ولقد نزل إلى الأرض من الملائكة أربعة آلاف لنصره

١- كامل الزيارات، ابن قولويه/ ٦١و٦٢.

فوجدوه قد قتل، فهم عند قبره شعث قبر إلى أن يقوم القائم، فيكونون من أنصاره، وشعارهم: يا لثارات الحسين)[1].

فالأخذ بثأر الحسين عليه السلام من الأهداف العليا لدولة الموعود عليه السلام لأنه الثأر الذي لم يؤخذ إلى الآن.

٢ - يثبت بالمقطع الشريف امتداد الثورة المهدوية من الثورة الحسينية في كل أبعادها، وأن كربلاء هي جذر وقاعدة الدولة المنتظرة.

٣ - إن حضور كربلاء في يوم الظهور يمثل الوجه المستقبلي لها، فكربلاء بدأت في التأريخ ولها إشراق وبركات كبرى في المستقبل.

***تساؤل مهم**

لو قيل: من هو الناصر ومن هو المنصور، فهل الظهور ناصر لعاشوراء أم العكس؟

لقلنا: بالتناصر، أي كل منهما سينصر الآخر وينتصر به.

فمن جهة نصرت ثورة عاشوراء يوم الظهور نصرا مؤزرا ولا زالت، بتهيئة الأنصار وصناعة المنتظرين الحقيقيين.

فكل من تربى على المفاهيم الحسينية، واستلهم من مدرسته عليه السلام أعلى المضامين على مستوى وعي العقيدة وقوة الإيمان وصلابة اليقين وعلى مستوى استقامة الطبع والسلوك، وضرب أروع الأمثلة في الفداء والتضحية والدفاع عن الدين، كان من أنصار يوم الظهور، وصناع الملحمة المستقبلية الكبرى.

١- أمالي الصدوق/ ١٩٢.

ومن جهة أخرى سينصر الحجة عليه السلام في يوم الظهور جده الإمام الحسين عليه السلام بعملين:

١ - بتحقيق أهداف ثورته المباركة وإنجاز طموحاتها ورفع اسمها خفاقا.

٢ - وبالأخذ بثأره، والانتقام من قتلته، والراضين بسفك دمه، طبقا لمفاد عبارة (الطالب بدم المقتول).

ويدلنا هذا المقطع الشريف على أنماط أساليب التغيير والإصلاح التي سيأخذ بها الموعود عليه السلام.

فلن يكون الحوار هو اللغة الوحيدة في عالم الظهور، بل لعل أول منهج تغييري هو أخذ الثارات التاريخية والإجهاز على الباطل المؤسس له تاريخيا.

لذا خصصت مقاطع كثيرة من دعاء الندبة للإشارة لهذا البعد، وكان أحدها هذا النص (أين الطالب بدم المقتول بكربلاء) وهو من النصوص التي تحيي في الداعي الوعي وحس البراءة الثائرة في وجه الظالمين.

■ **دعاء الندبة وحرارة الوعي**

وفي دعاء الندبة كثير من الفقرات التي تضفي على المفاهيم العقائدية صبغة حارة وهائجة وتنفي عنها صبغة الجمود والبرود.

فلا يقبل من المؤمنين - بحسب دعاء الندبة - البرود في الولاء ولا الفتور في الاعتقاد.

ولتقريب الصورة أكثر لابد من التمعن في بقية فقرات دعاء الندبة بدقة، كقوله عليه السلام: (أين المعد لقطع دابر الظلمة، أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج، أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان، أين المدخر لتجديد الفرائض والسنن.. أين

قاصم شوكة المعتدين، أين هادم أبنية الشرك والنفاق، أين مبيد أهل الفسق والعصيان، أين مبيد أهل العناد والمردة، أين معز الأولياء ومذل الأعداء)[١].

فإن هذه المقاطع تنتقل بعقائد المؤمنين ومفاهيمهم من حالة السكون العقلي إلى حالة الهيجان الفكري، ونتيجته حياة الأفكار وحركية العقائد.

*المعنى الصحيح للترقب والانتظار

دار الجدل قديما ولا زال حول هذا السؤال:

هل معنى انتظار المنجي والمخلص عليه السلام هو معايشة الوضع الفاسد حتى تحين ساعة ظهوره؟

أو يكون بالسعي لخلق بيئة صالحة لخروجه؟

وبتعبير بعض الكتاب:

هل الترقب لدولته انتظار تكاملي إيجابي أم انتظار تراجعي سلبي؟[٢]

وقد انقسم المؤمنون بعقيدة المنجي عليه السلام إلى التالي:

١ - الانتظار اعتقاد جازم بظهور المنجي عليه السلام، ومعايشة ما هو قائم انتظارا ليوم الخلاص، واستدلوا بأدلة التقية.

٢ - الانتظار حركة تكاملية واعية، وهو ثورة في الفكر والعمل.

*حل الجدلية

وقد حلّ المحققون من الأعلام هذه الجدلية ببيان عدة نقاط:

١- المزار، المشهدي/ ٥٧٩ .

٢- الأصول التمهيدية في المعارف المهدوية، السيد محمد علي الحلو/ ١٠٧.

■ **النقطة الأولى: التقية حكم ثانوي**

إن التقية والاتقاء حكم ثانوي اضطراري شُرع للمؤمنين نتيجة ضيق الخناق بسبب العيش في دول الظلم والاضطهاد.

فعلى المؤمنين ألَّا يعايشوا حالات التقية بروحية تشبه روحيتهم في الوضع الطبيعي بل بروحية الاضطرار والحالة الثانوية.

■ **النقطة الثانية: التقية برنامج أمني**

إن تفسير الانتظار بنحو سلبي وليد فهم خاطئ، وهو خلاف مفاد آيات القرآن ونصوص أهل البيت عليهم السلام.

ومعناها الصحيح هو العمل على التغيير، والسعي في مكافحة الظلم والاضطهاد وفق برنامج أمني وبحذر شديد.

فالأخذ بالحكم الثانوي لا يعفي المؤمنين من العمل الجزئي في ظل احتياطات وتحرزات.

■ **الثالثة: وجوب رفع موضوع الأحكام الثانوية**

يجب على المكلفين في عصر الغيبة أمران:

الأول: ضرورة العمل بالتقية في موضعها وبيئتها.

الثاني: ضرورة السعي ولو بخطوات متدرجة وبطيئة لرفع الموضوع.

فليس معنى قول الصادق عليه السلام: (يا معلى إن التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له) [1].

١- المحاسن، البرقي/ ١، ٢٥٥ .

هو وجوب التقية والاتقاء في البيئات الخانقة والأوضاع الضاغطة فحسب، وإنما تترتب مسؤوليتان:

الأولى: استعمال التقية لفعلية موضوعها، مع الانتباه لكونها حكما اضطراريا.

الثانية: السعي لزعزعة ورفع موضوع التقية – وهو الوضع الذي اضطر فيه المؤمنون للتقية – ليصار للحالة الطبيعية والحكم الأولي والتغيير الجذري.

فلا بد من تخطيط دقيق وخارطة طريق مع الأخذ بكل الاحتياطات ولوازم الأمن.

وبعبارة أخرى: على المنتظرين الحقيقيين أن يجمعوا بين أداء واجبين:

الواجب الأول: التقية المدلول عليها بقول الصادق عليه السلام: (التقية ديني ودين آبائي).

الواجب الثاني: إعداد القوة ولو بالتدريج، والذي دل عليه قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ**﴾[1].

فإن الآية تفيد واجبا من الواجبات غير المقيدة بحال من الأحوال، بل هو واجب قائم في كل الحالات، والجمع بين هذين الواجبين يكون بالعمل الأمني والتحرك باحتياط شديد وذكي.

ولعل هذا الجمع هو مراد ما رواه الصدوق في كمال الدين عن الحسين بن خالد قال: قال علي بن موسى الرضا عليه السلام:

(لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له، إن أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية.

١- الانفال/ ٦٠.

فقيل له: يا ابن رسول الله إلى متى؟

قال: إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم خروج قائمنا أهل البيت، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا فليس منا.

فقيل له: يا ابن رسول الله ومن القائم منكم أهل البيت؟

قال الرابع من ولدي ابن – سيدة الإماء، يطهر الله به الأرض من كل جور، ويقدسها من كل ظلم، وهو الذي يشك الناس في ولادته، وهو صاحب الغيبة قبل خروجه، فإذا خرج أشرقت الأرض بنوره، ووضع ميزان العدل بين الناس فلا يظلم أحد أحدا، وهو الذي تطوي له الأرض..) [1].

فليس العمل الأمني خلف التقية في شيء، ومن لا يعرف منافيات التقية يقع في الشبهة.

*ابن قبة وتقية القلوب

ففي أجوبة ابن قبة عن شبهات بن زيد العلوي جاء:

(ويقال لهم لم استتر إمامكم عن مسترشده؟

فإن قالوا: تقية على نفسه، قيل لهم: فالمسترشد أيضا يجوز له أن يكون في تقية من طلبه، لا سيما إذا كان المسترشد يخاف ويرجو ولا يعلم ما يكون قبل كونه فهو في تقية، وإذا جازت التقية للإمام فهي للمأموم أجوز؟

أجاب ابن قبة:

١- كمال الدين/ ٣٧٢.

والجواب عما سأل: إن الامام لم يستتر عن مسترشده إنما استتر خوفا على نفسه من الظالمين.

فأما قوله: « فإذا جازت التقية للإمام فهي للمأموم أجوز » فيقال له:

إن كنت تريد أن المأموم يجوز له أن يتقي من الظالم ويهرب عنه متى خاف على نفسه كما جاز للإمام فهذا لعمري جائز، وإن كنت تريد أن المأموم يجوز له ألا يعتقد إمامة الامام للتقية فذلك لا يجوز إذا قرعت الاخبار سمعه وقطعت عذره، لان الخبر الصحيح يقوم مقام العيان، وليس على القلوب تقية، ولا يعلم ما فيها إلا الله) [1] .

فحفظ العقائد في القلب تقية أمنية، وهكذا العمل التغييري الصامت والخفي.

وعلى أساس ما مر: فالانتظار الصحيح للمنجي عليه السلام يكون بالعمل على تمهيد البيئة لنهضته وقيامه للتغيير الكلي وإحلال العدل محل الظلم والكرامة موضع الإذلال.

ومنه نعرف أن حقيقة الطلب بقوله عليه السلام: (أين المعد لقطع دابر الظلمة، أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج..)[2]. يكون بنشاط المؤمنين على كافة الأصعدة لإعداد أرضية خروجه مهما كانت الظروف والملابسات والأوضاع.

*درس كربلائي للمنتظرين

ومن الدروس العظيمة التي نستقيها – من الثورة الحسينية والحوادث المتقدمة عليها – بذل أقصى درجات الطاقة والنشاط في أداء الواجب.

١- كمال الدين، الصدوق/ ١١١- ١١٢.

٢- المزار، المشهدي/ ٥٧٩ .

فقد علمنا مسلم بن عقيل – وهو يدشن المراحل المتقدمة على الثورة الحسينية – وكل واحد من أنصار الحسين عليه السلام أن الواجب على المؤمنين المعتقدين بالقيادة الإلهية أمران أساسيان في مختلف المراحل:

■ **الأمر الأول: القيام بالواجب ولو منفردا**

وجوب التصدي للتغيير ورفع ذل المؤمنين وأسباب تقيتهم حتى لو كان المؤمن منفردا ووحيدا في هذا الطريق، أي وإن تخلت جموع الأمة وسائر فئاتها عن القيام بالمسؤولية، فليس للمؤمن الواحد الواعي بالمسؤولية أن يتخلى معتذرا بانعزال المجموع.

فإذا تخلت الأمة عن المسؤولية المجموعية فلا تسقط مسؤولية الفرد بحال.

لذا تصدى مسلم بن عقيل وهو يعد أرضية الثورة الحسينية للقيام بالمسؤولية رغم تخلي الأمة عنه.

■ **الأمر الثاني: ذروة النشاط في أداء المسؤولية**

يجب بذل ذروة النشاط في أداء المسؤولية، فالمؤمن ولو كان وحيدا في طريق الإعداد للحق عليه أن يفي بالمسؤولية بأعلى درجات النشاط والحيوية.

ولذا لم يكتفِ مسلم بن عقيل بالثبات على مبادئ الحسين عليه السلام والقول لأعدائه افعلوا ما تشاؤون، وإنما ثبت على المسؤولية رغم الوحدة وأدّاها بذروة نشاطه وحيويته.

وهذا ما شهد به الأعداء في حقه، ففي كتاب الفتوح:

(وبلغ ذلك عبيد الله بن زياد، فأرسل إلى محمد بن الأشعث وقال: سبحان الله يا عبدالله! بعثناك إلى رجل واحد تأتينا به فأثلم في أصحابي ثلمة عظيمة.

فأرسل إليه محمد بن الأشعث: أيها الأمير! أما تعلم أنك بعثتني إلى أسد ضرغام، وسيف حسام، في كف بطل همام، من آل خير الأنام. قال: فأرسل إليه عبيد الله بن زياد: أن أعطه الأمان، فإنك لن تقدر عليه إلا بالأمان.

فجعل محمد بن الأشعث يقول: ويحك يا بن عقيل! لا تقتل نفسك، لك الأمان!) [١].

فقد كانوا يجابهون جنديا منفردا لم يتخلَّ عن مسؤوليته، بل أدّاها بأعلى ما يقدر عليه من عنفوان وحيوية، فأخافهم وأعجزهم وأثلم فيهم ثلمة عظيمة، ورغم علمه بالمصير إلى الموت إلا أنه ما أدخر جهدا ولا طاقة.

وهذا الدرس - أي أداء المسؤولية رغم الوحدة بنشاط استثنائي - تجلى بوضوح في واقعة كربلاء.

ولذا ورد في زيارة العباس عليه السلام: (وأشهد أنك قد بالغت في النصيحة).

ووصف كذلك: (وأعطيت غاية المجهود)[٢].

وهذان النصان يشيران إلى الواجبين السابقين:

الأول: الثبات على المسؤولية مهما كانت.

الثاني: المبالغة في النشاط.

فلم يكن العباس عليه السلام ناصحا أو مقدما للمجهود، وإنما كان في أعلى درجات النشاط في النصيحة وأعلى درجات استفراغ الوسع في المجهود.

ونفس هذا الدرس نتعلمه بجلاء من إمام الثورة الحسينية، فقد ثبت على المسؤولية في وحدته وأدّاها بكامل نشاطه.

١- الفتوح، بن أعثم٥/ ٥٣.

٢- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٧٢٦.

لذا ورد عن حميد بن مسلم: (فوالله ما رأيت مكثورا قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ولا أمضى جنانا منه عليه السلام)[١].

وهذا من أوضح الشواهد على بذل النشاط بأعلى صوره في أداء الواجب رغم الوحدة وكثرة العدو.

وهنا ندرك حجم الخلل الذي وقع فيه مؤمنون رساليون كثيرون:

١ - فكثير منهم يتخلى عن أداء المسؤولية لتخلي أكثر الناس عنها، وهذا نكوص عن الواجب الأول.

٢ - وكثير منهم يؤدي الواجب في أقل وأدنى صور النشاط حتى يعذر ولا يلام ويقال عنه إنه أدى الواجب، وهذا لا يعفيه أيضا عن المسؤولية.

وهذا درس بالغ الأهمية لأبنائنا - العاملين في المآتم والمواكب والمحافل الثقافية وحلقات تعليم الصلاة والصناديق الخيرية والجمعيات التي ترعى الأيتام والمعوزين - أن عليهم أن يعلموا أن المطلوب منهم أولا الثبات على المسؤولية بلا ملاحظة قيام الآخرين بها، وبذل أعلى درجة من درجات الأداء بنشاط وحيوية مستمرة.

*ثواب النصرة الآن أعظم

ولذا يرد سؤال:

هل أن النشاط الذي تتطلبه نصرة المهدي عليه السلام قبل ظهوره أكبر من النشاط الذي تقتضيه نصرته بعد ظهوره؟

١- الإرشاد، المفيد ٢/ ١١١.

فقد يقول قائل سأدّخر النشاط والقوة والفتوة لأكون ناصرا له حال ظهوره، وأما الآن فيكفي في نصرته صرف انتظاره، أو أداء بعض المسؤوليات بشيء من النشاط!!

إن هذا التصور خطأ محض، لأن نصرة الإمام عليه السلام بعد الظهور ليست بأعظم من نصرته قبل الظهور، فلا أقل من التساوي بين النصرتين في الدرجة.

بل لعل ثواب النصرة الفكرية والعملية وأداء النشاط قبل الظهور أعظم، لقوله تعالى: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا**﴾[1].

أي يتوجب على سائر المؤمنين نصر الموعود عليه السلام والانتصار له الآن وبكل طاقة ممكنة، وأن يفعلوا شعار (نصرتي لكم معدة) وكأنهم يتوقعون الظهور غدا.

١- سورة الحديد/ ١٠.

المبحث السادس

الغيبة سياسة تدبير الإصلاح

الغيبة سياسة تدبير الاصلاح

روى الصدوق في كتاب كمال الدين عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول:

(إن سنن الأنبياء عليهم السلام بما وقع بهم من الغيبات حادثة في القائم منا أهل البيت حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة)[1].

تعتبر المقارنة بين الخصوصيات الواقعة في غيبة الحجة عليه السلام والسنن الجارية في الأنبياء عليهم السلام من أفضل الأدلة التي تقرب مسائل الإمامة والغيبة إلى الأذهان، وترفع عنها غشاء الغموض وتجيب عن التشكيكات والاستبعادات.

ولذا عمد الأئمة عليهم السلام في رواياتهم للتركيز على هذه المقارنة، وخصوصا في سنة الغيبة.

*رؤيا الصدوق رحمه الله

وقد حظي الشيخ الصدوق برؤيا صادقة ترشده إلى الاستدلال على غيبة المهدي المنتظر عليه السلام بالموازة بينها وبين غيبات الأنبياء عليهم السلام.

قال في مقدمة كتاب كمال الدين:

(غلبني النوم ذات ليلة فرأيت كأني بمكة أطوف حول بيت الله الحرام وأنا في الشوط السابع عند الحجر أستلمه وأقبله، وأقول:

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٣٤٥.

«أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته لتشهد لي بالموافاة» فأرى مولانا القائم صاحب الزمان عليه السلام – واقفا بباب الكعبة، فأدنو منه على شغل قلب وتقسم فكر.

فعلم عليه السلام ما في نفسي بتفرسه في وجهي، فسلمت عليه فرد علي السلام، ثم قال لي:

لم لا تصنف كتابا في الغيبة حتى تكفى ما قد همك؟

فقلت له: يا ابن رسول الله قد صنفت في الغيبة أشياء.

فقال عليه السلام: ليس على ذلك السبيل آمرك أن تصنف (ولكن صنف) الآن كتابا في الغيبة واذكر فيه غيبات الأنبياء عليهم السلام.

ثم مضى صلوات الله عليه، فانتبهت فزعا إلى الدعاء والبكاء والبث والشكوى إلى وقت طلوع الفجر، فلما أصبحت ابتدأت في تأليف هذا الكتاب ممتثلا لأمر ولي الله وحجته، مستعينا بالله ومتوكلا عليه ومستغفرا من التقصير، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) [1].

ويظل البعض مصرا على إنكار الغيبة والغائب عليه السلام! وما دامت المعرفة بأصل الإمامة ضحلة ومقطوعة عن المعرفة بأصلي النبوة والتوحيد سيبقى الإنكار قائما.

*استدلال أبدعه الإمام الصادق عليه السلام

وقد خط الإمام الصادق عليه السلام طريقا لمعرفة ضرورة الإمامة يختلف عن سائر الطرق.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٣، ٤.

لأنه إن استدل المستدل على ضرورة الإمامة بالحاجة الاجتماعية، فأشكل أحد قائلا إن العقل والعلم قد شقا للبشرية الطريق بعد التطور، فقد يصدق من اختار دليلية الحاجة الاجتماعية بانتفاء الحاجة للإمام عليه السلام الآن.

وإن قيل: إن الحاجة للإمام تشريعية، ثم أشكل مشكل بأن الإمام الغائب عليه السلام غير متمكن من التشريع، فقد تختل العقيدة عند من استدل بالحاجة التشريعية.

لذا خط لنا الإمام الصادق عليه السلام طريقا استدلاليا يفضي إلى القول بدوام وجود الإمام عليه السلام واستمرار الإمامة.

ففي مصباح المتهجد عنه عليه السلام أنه قال: (اللهم! عرفني نفسك فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم! عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم! عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني) [1].

ومن الواضح أن الطريق الذي أبدعه الإمام عليه السلام يختلف تماما عن طرق الاستدلال التي تبدأ من حاجة المجتمع أو من ضرورة التقنين، لأن مبدأ الاستدلال في النص معرفة (المستخلف عنه) وجعله دليلا لمعرفة (الخليفة) علما وعملا.

فإذا كان (المستخلف عنه) دائم الفيض والعطاء بواسطة الكمل من عباده فلا بد أن يكون له خليفة في كل وقت وزمان.

وعلى أساس الاستدلال بهذا الطريق لا يقبل العقل البرهاني رفع اليد عن ضرورة وجود الإمام عليه السلام لطول الغيبة أو خفاء شخصه أو غيرها من الذرائع.

١- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي/ ٤١١، ٤١٢.

وإذا كانت الإمامة خلافة عن النبوة فلا محيص من أن تجري سنن النبوة فيها، لوجود جهة اشتراك بينهما تستدعي الاشتراك في تلك السنن، والجهة هي تمثيل الله على الأرض، إلا السنن الخاصة بالنبوة بما هي نبوة، لأن النبوة جهة اختلاف.

* غيبة المعصومين عليهم السلام لا تمانع تأثيرهم

ثمة اتجاهات ثلاثة في مسألة إمكان التأثير مع الغيبة:

الاتجاه الأول: أنكر القائلون به أن يكون للحجة عليه السلام في عصر الغيبة أي تصرف سياسي أو إرشاد اجتماعي أو فائدة تشريعية.

الاتجاه الثاني: أثبت القائل به فائدة تشريعية للإمام عليه السلام في الغيبة بالنسبة للعوالم الأخرى.

قال آصف محسني: (بل يمكن أن يقال إنّ بوجوده فائدة تشريعية أيضاً لكن لا بالنسبة إلينا، بل بالنسبة إلى بقيّة الكرات حتّى من سائر المنظومات الشمسيّة.

فإنّا ذكرنا في المقصد السابق أنّ المستفاد من ظواهر بعض الأدلّة أنّ النبيّ الخاتم صلى الله عليه وآله كان مبعوثاً إلى جميع العالمين، من غير اختصاص بمن في الكرة الأرضيّة، وأئمتنا الكرام عليهم السلام أوصيائه صلى الله عليه وآله في حفظ شرعه فيكونون أئمة في جميع الكرات)[1].

الاتجاه الثالث: إن للإمام الغائب عليه السلام في غيبته أثرا وتصرفا وإرشادا في الأمة وإن كان خفيا ومن وراء مشاهدة الخلق له.

١- صراط الحق، آصف محسني ٣ / ٣٦٤.

ولنصير الدين الطوسي قول مختصر لطيف، قال:

(وجوده لطف، وتصرفه لطف آخر، وعدمه منا) [١]..

فوجود الإمام لطف: لأن وجوده يصحح العقيدة به، والاعتقاد به يولد حالة من الترقب له والانتظار والامتناع عن الفساد، لكون الأمور تحت نظره وعلمه ومعرفته.

وتصرفه لطف: أي تصرفه الخفي في أمور المسلمين من غير أن يعرفه أحد لطف آخر، لأنه يرفع ما هو فاسد ويقر ما هو صالح ولو في الجملة.

وعدمه منا: أي إن قلت فلم لا يكون تصرفه في ظهور ليكون أبلغ في التأثير؟

نقول: إن هذا النحو من التصرف انتفى بسبب عدم أهليتنا لظهوره وحضوره العلني.

قال العلامة الحلي في شرح تجريد الاعتقاد: (إن وجود الإمام نفسه لطف لوجوه: أحدها: أنه يحفظ الشرائع ويحرسها عن الزيادة والنقصان..

وثانيها: أن اعتقاد المكلفين لوجود الإمام وتجويز إنفاذ حكمه عليهم في كل وقت سبب لردعهم عن الفساد ولقربهم إلى الصلاح وهذا معلوم بالضرورة.

وثالثها: أن تصرفه لا شك أنه لطف ولا يتم إلا بوجوده فيكون وجوده نفسه لطفا وتصرفه لطفا آخر.

والتحقيق أن نقول لطف الإمامة يتم بأمور:

(منها) ما يجب على الله تعالى وهو خلق الإمام وتمكينه بالقدرة والعلم والنص عليه باسمه ونسبه وهذا قد فعله الله تعالى.

١- تجريد الاعتقاد، الخواجة نصير الدين الطوسي/ ٢٢١.

(ومنها) ما يجب على الإمام وهو تحمله للإمامة وقبوله لها. وهذا قد فعله الإمام.

(ومنها) ما يجب على الرعية وهو مساعدته والنصرة له وقبول أوامره وامتثال قوله وهذا لم تفعله الرعية، فكان منع اللطف الكامل منهم لا من الله تعالى ولا من الإمام) [1]..

*الفرق بين الغيبة والهجرة

ولإيضاح ما يقوم به الإمام عليه السلام من أدوار في الغيبة يحسن بنا أن نفرق بين مصطلحين، الأول الغيبة والثاني الهجرة.

إذ لا شك أن للأنبياء هجرات وغيبات، وقد بين بعض المحققين أن بين الهجرة والغيبة جهة اشتراك وجهات اختلاف.

فكلاهما هجرة للرجز والرجاسة، والبعد عن المواجهة العلنية، وإدارة الأمور بطريقة غير صريحة وغير علنية.

فكل من الهجرة والغيبة انسحاب من سطح العلن، لكن الفرق بينهما أن الهجرة - والتي تكررت لدى الأنبياء - ابتعاد جغرافي وفيزيائي بالبدن عن المجتمع وإدارة الأمور عن بعد وبوسائط.

وأما الغيبة فهي بعد عن الظاهر والمعرفة الشخصية مع الحضور والوجود الخفي، أي اختفاء العنوان بلا بعد جغرافي بدني، اختفاء عن علم وإحساس أفراد المجتمع مع الحضور والاتصال بلا معرفة.

وعلى هذا الأساس: الهجرة يقابلها الحضور.

١- شرح تجريد الاعتقاد، العلامة الحلي/ ٣٦٣ .

والغيبة يقابلها الظهور، بمعنى أن الغيبة تجتمع مع الحضور، أي هو حاضر ولكنه مختفٍ عن الأنظار والشعور.

وإذا قلنا إن الأنبياء عليهم السلام في هجراتهم لا ينقطع مددهم وتصرفهم في مجتمعاتهم، فهو تصرف ومدد من بعيد ومعالجة عن بعد.

وأما في الغيبة والخفاء فتواصل ومدد وعطاء وعلاج مباشر ومن قرب، وإن جهل مصدر ومنبع المدد والعلاج.

ولا شك أن التواصل والمدد والعلاج الاجتماعي عن قرب أكثر فاعلية وأعمق أثرا.

وعلى أساس ما مر إذا قبلنا هجرات الأنبياء عن مجتمعاتهم وتصديهم عن بعد لعلاج أممهم فكيف نستنكر تصدي الإمام عليه السلام للأمور وعطائه بالمباسرة ومن قرب مع خفائه!!

*موجبات العطاء الخفي

قد يقال: إن التأثير من وراء سحب الغيبة وضباب الاستتار يوجب قلة فيضه عليه السلام، واحتجاب شآبيب بركاته، وهطول مطر رحمته بقطرات لا تروي الظمآن لفيوض علمه؟

قلنا: لا شك أن الله تبارك وتعالى يريد بإرادته التشريعية صلاح البشر فوريا ودفعيا، لكنهم ارادوه تدريجيا.

فالإصلاح أخذ منحى تدريجيا وسياسة الخطوات المتتابعة والتدريجية تبعا لإرادتهم واستعدادهم.

لذا بعث الله أعظم مصلح بشري في آخر قائمة الأنبياء عليهم السلام لعدم استعداد البشر لتحمل فيض علمه.

وقد بين أهل المعرفة ثلاثة أنحاء من العلاقة بين الموجود المفيض والموجود المستفيض:

■ **الأول: الفيض الدفعي**

وهو مرهون بشروط في المفيض والمستفيض:

١ – فإذا كان المفيض قادرا وعالما وواجدا.

٢ – وكان الموجود المفاض عليه مستعدا وقابلا.

٣ – ألقى الفياض عليه الفيض دفعة.

ومن أمثلته إلقاء القرآن الكريم دفعة على قلب الخاتم صلى الله عليه وآله في ليلة القدر.

■ **الثاني: الفيض التدريجي لقصور في الجهتين**

١ – لو كان المفيض غير تام الإفاضة.

٢ – والقابل المستفيض غير مؤهل لتلقي الفيض دفعة.

٣ – فلا محالة من ترتب المنحة التدريجية.

ومثاله الأم المرضعة، فهي غير قادرة على أن تفيض جرعات الحليب دفعة على رضيعها، والرضيع غير مستعد لتناول كل الجرعات في يوم واحد، فلا محالة من التلقي تدريجيا.

■ **الثالث: التلقي التدريجي لقصور المستفيض**

١ – أن يكون الفياض تام القدرة والعلم والغنى.

٢ – والمستفيض غير قادر على التلقي الدفعي

٣ – فالنتيجة تدريجية نزول الفيض وحصول التكامل.

ومن أمثلته تمكن أستاذ الرياضيات من تقديم المعادلات اللازمة لحل كافة المسائل في لحظات (تسامحا) غير أن تلامذته غير مستعدين لذلك إلا عبر التعليم التدريجي، فلا يتكاملون في ذلك العلم إلا تدريجيا. [1].

ومثال النحو الثالث على نحو الدقة ما نحن فيه:

١ – فإن الله تعالى تام الفيض والإفاضة، وفي مقدوره إصلاح البشر دفعة واحدة، وحكم سبيله وواسطته وهو الإمام الحجة عليه السلام حكمه تعالى بإقداره.

٢ – إلا أن البشرية غير مستعدة لذلك، وغير مؤهلة لتقبل مشروعه دفعة.

٣ – فلا بد من زمان الغيبة، وهو سياسة لتدبير الإصلاح والفيض الروحي تدريجيا.

*استعصاء فئات من الأمة على الإصلاح المستقبلي

وبينت الروايات أن بعض فئات الأمة ستقاوم مشروعه الإصلاحي بعد خروجه أكثر من مقاومتها لمشروع رسول الله صلى الله عليه وآله أبان بعثته.

وسيلقى في حربه أكثر مما لقيه النبي صلى الله عليه وآله، لأن إصلاحه عليه السلام جذري وكبير، وقابلية البشرية على المناورة والإفساد أكبر مما كان.

---

١ – الإمام المهدي الموجود الموعود، آية الله الجوادي الآملي/ ١٤٦.

وقد عقد النعماني في الغيبة بابا تحت عنوان (باب ١٧ ما جاء فيما يلقى القائم عليه السلام ويستقبل من جاهلية الناس وما يلقاه قبل قيامه من أهل بيته)[١]..

١ – منها: ما عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهَّ عليه السلام يَقُولُ:

(إِنَّ قَائِمَنَا إِذَا قَامَ اسْتَقْبَلَ مِنْ جَهْلِ النَّاسِ أَشَدَّ مِمَّا اسْتَقْبَلَهُ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله مِنْ جُهَّالِ الْجَاهِلِيَّةِ قُلْتُ وَكَيْفَ ذَاكَ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وآله أَتَى النَّاسَ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْحِجَارَةَ وَالصُّخُورَ وَالْعِيدَانَ وَالْخُشُبَ الْمَنْحُوتَةَ.

وَإِنَّ قَائِمَنَا إِذَا قَامَ أَتَى النَّاسَ وَكُلُّهُمْ يَتَأَوَّلُ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهَّ يَحْتَجُّ عَلَيْهِ بِهِ ثُمَّ قَالَ أَمَا وَاللهَّ لَيَدْخُلَنَّ عَلَيْهِمْ عَدْلُهُ جَوْفَ بُيُوتِهِمْ كَمَا يَدْخُلُ الْحَرُّ وَالْقُرّ).

٢ – ومنها: ما عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام يَقُولُ:

(إِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْأَمْرِ لَوْ قَدْ ظَهَرَ لَقِيَ مِنَ النَّاسِ مِثْلَ مَا لَقِيَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله وأَكْثَرَ).

٣ – ومنها: ما عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهَّ عليه السلام قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ الْقَائِمُ عليه السلام يَلْقَى فِي حَرْبِهِ مَا لَمْ يَلْقَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله إِنَّ رَسُولَ اللهَّ صلى الله عليه وآله أَتَاهُمْ وَهُمْ يَعْبُدُونَ حِجَارَةً مَنْقُورَةً وَخُشُباً مَنْحُوتَةً وَإِنَّ الْقَائِمَ يَخْرُجُونَ عَلَيْهِ فَيَتَأَوَّلُونَ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهَّ وَيُقَاتِلُونَهُ عَلَيْهِ).

٤ – ومنها: ما عَنْ مَنْصُورِ بْنِ حَازِمٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهَّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ:

(إِذَا رُفِعَتْ رَايَةُ الْحَقِّ لَعَنَهَا أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قُلْتُ لَهُ مِمَّ ذَلِكَ قَالَ مِمَّا يَلْقَوْنَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ).

ولو قيل: لم تستعص هذه الفئة من الأمة على الإصلاح؟

---

١ – الغيبة، النعماني / ٢٩٦–٢٩٩.

قلنا: إن استعصاءها – على الإصلاح – ليس لمجرد عادة وطبع فيها يحرضها على رفض الإصلاح، وإنما لفكر منحل ومنطق معوج وقراءة ماكرة للدين.

قال محقق كتاب الغيبة للنعماني في الحاشية تعليقا على تلك الروايات:

(وذلك لان كل فرقة من الفرق المخالفة له عليه السلام و الذين كانوا يقولون بإمامته و لكن تحزبوا عن مشرب أهل البيت عليهم السلام تدريجا قد يتأولون القرآن في طول الزمان- بآرائهم الساقطة، وعقولهم القاصرة عن فهم الخطاب، وظنونهم البعيدة عن الصواب، وهم يزعمون أن ما توهموه من الآيات هو الحق الثابت المبين، وما وراءه باطل، وكذلك يبنون أسسهم الاعتقادية على أساطير مشمرجة، وأباطيل مموهة، فإذا قام القائم عليه السلام بالدعوة الإلهيّة، وصدع بالحق وأعلن دعوته، ودعا الناس إلى كتاب اللهّ و سنة نبيه صلى الله عليه وآله، يتلعثم هؤلاء قليلا في أمره و فيما دعاهم إليه فيجدونه مغايرا لما هم عليه من الدين، مخالفا لما اعتقدوه باليقين، بل يكون داحضا لأباطيلهم، ناقضا لما نسجوه على نول خيالهم، فجعلوا يعارضونه ويخالفونه، فيسلقونه أولا بألسنتهم ويكفرونه في أنديتهم، ويسخرون منه ويقدحون فيه، وبالآخرة يبارزونه ويقاتلونه، بل يدعون الناس إلى مقاتلته، كل ذلك دفاعا عن دينهم الباطل ورأيهم الكاسد الفاسد، حسبان أنّه حقّ ثابت والدفاع عنه فرض واجب، ويتقربون بذلك إلى اللهّ سبحانه.

وهذه الطائفة أشدّ نكالا عليه صلوات اللهّ وسلامه عليه.

ثم جبابرة الزمان ورؤساء الضلال وأعوانهم، حيث يقوم عليه السلام باستئصال دولتهم، وقطع دابرهم، واجتثاث أصولهم فانهم لا يتقاعدون عن محاربته ولا يفترون عن منازعته بل يقوم كل ذي صيصية بصيصيته.

مضافا إلى كل ذلك مخالفة المستأكلين بالدين بالباطل الذين يتظاهرون به ولا يكونون من أهله، فانهم يذهبون في اطفاء نوره كل مذهب ويعاندونه بكل وجه ممكن، وخطر هؤلاء أعظم عليه من الطائفتين الأوليين، ويأبى اللهّ إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وأمّا المشركون في عصر الدعوة النبويّة فجلهم بل كلهم معترفون في ذات أنفسهم بأن الذي اعتقدوه من عبادة الأصنام هو شيء اخترعوه ولا برهان له عقلا وإنما هو شيء وجدوا عليه آباءهم فهم على آثارهم مقتدون، فلذا ترى أكثرهم كانوا غير مصرين على أمرهم ذلك، وإنما صرفهم عن التصديق استكبارهم ونخوتهم واتباعهم الهوى ونزوعهم إلى الباطل فخالفوه صلى الله عليه وآله ابقاء لرئاستهم وانتصارا لخلاعتهم واستيحاشا من التكليف وما شابه ذلك، الفرق واضح بين، غير أن النبيّ صلى الله عليه وآله في بدء دعوته كان مأمورا بإنذار عشيرته الأقربين، ثمّ كلف بدعوة قريش، ثمّ بقية العرب، ثمّ جميع الناس كافة على التدريج.

لكن دعوته عليه السلام دعوة عالمية ولا تختص بإقليم دون إقليم وتكون في ساعة واحدة يسمعها جميع من في البسيطة) [1]..

١ - الغيبة، النعماني / ٢٩٧.

المبحث السابع

نشاطات الإمام الغائب عليه السلام

نشاطات الإمام الغائب عليه السلام

مما ورد في دعاء الندبة قوله عليه السلام: (بنفسي أنت من مغيب لم يخل منا، بنفسي أنت من نازح ما نزح عنا)[1].

نعقد هذا المبحث بهدف حلحلة إشكاليات عديدة مضافا على ما مر، على أنها قد تشترك مع أسئلة سابقة لبا وروحا وتختلف عنها في الصياغة أو بعض الجنبات.

*** السؤال الأول: الإمامة الصامتة**

قد يقال: يؤمن الشيعة الإمامية بوجود قائد عظيم في البسيطة ذي خصائص كثيرة، منها:

١ – حامل لوسام الإمامة الإلهية.

٢ – هو المسؤول الأول عن تكميل الخلق وتطهير الأرض.

٣ – لا تخلو منه الأمة في كل مواقعها، ولا هو غائب عنها في شيء من قضاياها.

وهو – مع ما يحمله من أوسمة – صامت عن الفساد الهائل والجور المتعاظم!!

هذا، وليس ثمة جانب من جوانب حياة البشر بمعزل عن الفساد والشرور، لا على المستوى الاقتصادي، ولا على المستوى الصحي، ولا على المستوى الأخلاقي، ولا على المستوى العقائدي.

والسؤال المنطقي بعد هذا البيان: كيف يُعالج هذا الواقع الفاسد بالإمامة الصامتة؟

١- المزار، المشهدي/ ٥٨١.

■ **مراتب الفساد**

قال أحد الأعلام المعاصرين (آية الله الشيخ السند):

إن هذا التساؤل والإشكال أشكل به الملائكة على رب العالمين بقولهم: (قالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)[1].

ويمكن أن نقرأ إشكال الملائكة بهذه الصياغة: إن جعل الخليفة عن الله تعالى - بعنوان الخليفة - يقتضي وجود خليقة ومستخلف فيهم.

والخليفة وإن كان مسددًا ومؤيدًا، لكن الخليقة البشرية - بما فيها من نوازع أرضية وشهوات نفسية - ليست مسددة وستجنح للفساد في الأرض وسفك الدماء.

فما هي الفائدة من وجود ذلك الخليفة؟

وما هو دوره إذا ما عم الفساد وسفك الدماء في الخليقة؟

قال أهل المعرفة: للفساد أقسام:

١ - فمنه فساد أكثري، يعم أكثر فئات الناس ويستوعب أكبر مساحات النظام، وحلوله يستأصل وجود البشرية بلا شك.

٢ - ومنه فساد أقلي، بأن يفسد ربع أو ثلث النظام البشري، والانحراف فيه عن الفطرة يطاول جزءا من حياة البشر.

وكان اعتراض الملائكة على القسم الأول (الفساد الأكثري)، أي الفساد الذي به تزول أكثر البشرية.

١- البقرة/ ٣٠.

ولو اعتقدوا أن الفساد الذي سيحل بالخليقة هو القسم الثاني (فساد أقلي) لما جاز لهم الاعتراض؛ إذ في مقابل ذلك الفساد خير كثير، يتمثل في صناعة الأولياء الكاملين فعلا، وحياد أكثر البشرية عن مشروع الفساد والإفساد.

فالذي وقع فيه الملائكة هو عدم الالتفات إلى دور الخليفة في صد الفساد الأكثري عن الأرض، وأنه لا يسمح بمرور ذلك بما آتاه الله من الشجاعة وحسن التدبير والعصمة.

وهذا هو أهم دور من أدوار الإمام الغائب عليه السلام في عصر الغيبة.

ونتلمس ذلك الدور بما نعايشه عيانًا، فإن الدول العظمى والمقتدرة على إفساد الأرض - في لحظات - هي تحت سلطة المفسدين والمتهورين وعبدة الشهوات، لكنهم لا يتمكنون من استعمال قدرتهم في الفساد الأكثري.

ولو سأل العاقل نفسه:

ما هو المؤمن والضامن لسلامة الخليقة في ظل وجود قدرات الإبادة بيد قوى ليس لها عقلانية دائمة، إذ تطرأ عليها حالات غير متوازنة من سكر أو غطرسة أو جنون عظمة!!

والواقع العالمي ببابك، فمن مدة ليست ببعيدة قال رئيس كوريا الشمالية:

إن زر النووي ماثل بين يدي؟

فرد عليه المعتوه ترامب - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - بالقول:

إن الزر الذي بين يدي أكبر.

فإذا كانت أزرار إبادة البشرية بين أيدي هؤلاء الحمقى، فلِمَ لا يقع المحذور؟

وما هو المانع من تحقق ما يتخوَّف منه كثير من العقلاء؟

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، لم لا تزال فطرة القيم تنبض في البشر رغم تكاثف جهود دوائر الفساد حول العالم ثقافيا وأخلاقيا؟

ولم لا يزال حس العدالة حي لا يموت في كافة الشعوب؟

إن دور الإمام الغائب عليه السلام - بما لديه من اقتدار تكويني ونفوذ وجودي - لا ينحصر في حفظ أكثرية الناس في الإطار الإسلامي، بل يعم كل مجتمعات البشرية.

إذ يقوم جهازه الإلهي الخفي بمنع حصول وانتشار الفساد الأكثري في البشر.

فإذا وصل الأمر إلى عدم قدرة الأبدال على تدبير مصالح البشرية في الخفاء فإنهم يظهرون بسلطان الله في العلن.

وهذا معنى خروجه عليه السلام إذا امتلأت الأرض ظلمًا وجورًا.

*تأثير الحجج عليهم السلام في الغيبة

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال للمفضّل: (يا مفضل، لو تدبّر القرآن شيعتنا لما شكوا في فضلنا)[1].

ويتجلى بهذه الرواية السبب الرئيسي في الحيرة عن جواب كثير من الإشكاليات، ومنها الإشكاليات الخاصة بغيبة صاحب العصر والزمان عليه السلام.

وفيها يحدد عليه السلام الطريق العلمي لكشف فضلهم وحقهم من نصوص القرآن الكريم، وهو التأمل والتدبر في الآيات التي تخص مواضع الإشكالات التي ترد علينا من أي جهة.

١- الهداية الكبرى، الخصيبي/ ٤١٩.

فلو أعملنا حس التدبر، وأعطينا النظر حقه في الآيات لألفينا القرآن الكريم خير معلّم ومبيِّن.

وفي موضع بحثنا - أي السؤال عن تأثير الغائب عليه السلام في البشرية وقيامه بالأدوار المنوطة به في ظل خفائه - تشهد آيات قرآنية عظيمة حاكية عن قصة تأريخية حقيقة بوجود تأثير عظيم للحجج الإلهية في ظل الغيبة والاستتار.

وهي قصة التقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح الخفي المغمور.

وهي قصة لم تُقرَأ إلى الآن في تأويلاتها العظيمة ومراميها البعيدة كما ينبغي، وذلك لبعد أكثر المتدبرين والمفسرين عن التفاسير الوحيانية لآيات القرآن الكريم.

ولم تكن آيات تلك القصة هي الآيات الوحيدة التي قصد بها الله تعالى إفهامنا حقيقة تأثير الأولياء عليهم السلام في ظل الغيبة وظروف الاستتار، لكننا نكتفي بها مثالا ونموذجا.

■ **أدوار العبد الصالح عليه السلام**

بينت آيات القرآن الكريم ثلاثة أدوار أداها العبد الصالح عليه السلام، وكان لها وقع مصيري في حياة البشر.

والخطأ الذي وقع فيه بعض المفسرين يكمن في قراءتهم لتلك الأدوار في الحدود الشخصية والزمانية لأصحابها، لذا لم يظفروا بالغايات البعيدة لتلك القصة.

وهنا نقدم بيانا مقتضبا لكل دور:

● **الدور الأول: دفع الظلم المعيشي**

تمثل الدور الأول في خرق السفينة.

وفيه قال تعالى: ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا**﴾ [١].

والآية – بنظرة ضيقة – قد يختصر مضمونها في قالب تاريخي، وفي الشخوص الذين كانوا أطرافا للحدث!

إلا أنها تشير – وفق النظرة البعيدة – إلى دور الأولياء المغمورين في الردع عن الظلم الاقتصادي والمعيشي، وقيامهم على إنجاز العدالة ولو بنسبة معينة، وخرق السفينة لحفظ ملكية أهلها هو نموذج في هذا المجال.

هذا، ويوكل إقامة العدالة الكلية في كافة الجوانب إلى عصر ظهور الحجج عليهم السلام ومكنتهم من التحكم في مقاليد الأمور.

● **الدور الثاني: حفظ عقائد الأجيال**

وإليه أشير في قوله تعالى: ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا**﴾ [٢].

وترجمان هذا الدور – وفق النظرة البعيدة – هو مسؤولية العبد الصالح عليه السلام عن حفظ المستقبل الاعتقادي للبشرية.

بينما قتل الصبي الكافر – وفق القراءة الساذجة – حادثة شخصية غايتها حفظ أسرة مؤمنة في إيمانها من طيش ابن كافر.

١- الكهف/ ٧١.

٢- الكهف/ ٧٤.

لكن تأويلها بمنطق روايات أهل البيت عليهم السلام أعظم بكثير من مجرد شأن شخصي، فلو قدر البقاء لذلك الغلام لحال دون ولادة سبعين نبيًّا.

فقد روى الكليني عن الحسين بن سعيد اللخمي قال:

ولد لرجل من أصحابنا جارية فدخل على أبي عبدالله عليه السلام فرآه متسخطا فقال له أبو عبدالله عليه السلام:

(أرأيت لو أن الله تبارك وتعالى أوحى إليك أن أختار لك أو تختار لنفسك ما كنت تقول؟

قال: كنت أقول: يا رب تختار لي.

قال: فإن الله قد اختار لك، قال: ثم قال: إن الغلام الذي قتله العالم الذي كان مع موسى عليه السلام وهو قول الله عز وجل: ﴿**فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا**﴾ أبدلهما الله به جارية ولدت سبعين نبيا)[1].

فكان لذلك الولي الخفي دور عظيم في حفظ عقائد أجيال كثيرة، وهذا انعكاس فعل واحد منه، فما ظنك بأثر أفعاله الأخرى!

وما هي أصداؤها على مستقبل الحياة!

- **الدور الثالث: تأمين الطبقات المحرومة**

ونص عليه في قوله تعالى: ﴿**فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**﴾[2].

١- الكافي، الكليني٦/ ٧.
٢- الكهف/ ٧٧.

وكانت الغاية من ترميم الجدار - حسب نص القرآن - حفظ كنز بعض الفقراء عن الضياع.

قال تعالى: ﴿أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [1].

وهو مثال عن دوره في حفظ أموال الطبقات المحرومة في مدى المستقبل، ويشير هذا الدور كذلك إلى كفالة الأيتام.

وهو الآخر دور عام محوري وليس دورًا شخصيًّا فرديًّا.

فكل هذه القضايا المذكورة في الآيات رموز لأدوار كبرى رائدة قام بها الخضر عليه السلام.

*المنكر للحجة عليه السلام جاهل بحقائق القرآن

ومن هنا فإنكار العقيدة المهدوية ووصفها بالخرافة دليل على البعد عن رموز القرآن وإشاراته.

قال محمود صالح سعيد: (قصة المهدي في كتب الشيعة قصة غريبة نسج الخيال خيوطها).

وقال: (المهدي ثابت بروايات السنة، لكننا نتحدث عن مهدي الشيعة)[2].

وهذا اعتراف منه أن المهدي عليه السلام ليس نسجًا من الخيال ولا أسطورة من الوهم.

١- الكهف/ ٨٢.

٢- الرد على تفسير الشيعة، محمود صالح سعيد/ ٧٣١و٧٣٦.

وما هو أسطوري – من عقائد الشيعة – في نظره إنما هو نتيجة الجهالة المعرفية والتفسير السطحي للقرآن الكريم.

وقال: يتناقض الشيعة بالقول بضرورة وجوده وغيبته وكونه قائدًا للأمة سياسيًّا ودينيًّا، ويستشهد لكلامه بقول ابن تيمية:

(الذي تدعيه الرافضة إما مفقود عندهم وإما معدوم عند العقلاء، وعلى التقديرين فلا منفعة به لا في دين ولا في دنيا)[١].

وبالتأمل في خصائص العبد الصالح المنصوص عليه في الآيات لا يكون استبعاد الخصائص الخاصة بالحجة عليه السلام مقبولا.

ومن تلك الخصائص:

١ – قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾[٢]. فلم يكن العبد الصالح نبيا ولا رسولا، وإنما ذو وسام إلهي قيادي آخر.

٢ – قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾[٣].

إن علم العبد الصالح ليس من أنباء الوحي والرسالة، لكنه قسم من أقسام العلم اللدني.

٣ – خفاء هويته على الناس، فلم يكن يعرفه الناس قبل موسى عليه السلام ولم يعرفوه بعده.

وتعرف موسى عليه السلام عليه وإن كان صدفة بحسب الظاهر، لكنه بحسب الواقع بتخطيط إلهي لغايات ومصالح كبرى.

١– منهاج السنة، ابن تيمية، ت (د/ محمد رشاد سالم) ٨/ ٢٦٢.
٢– الكهف/ ٦٥.
٣– الكهف/ ٦٥.

٤ – أدى أدوارًا فيها تمام المصلحة الكلية رغم مجهوليته وخفائه.

وتلك الأدوار التي قام بها الخضر عليه السلام هي أدوار شاهدها موسى عليه السلام، فلو لا لقاء موسى والخضر عليه السلام لما نقلت إلينا.

ولا تقتصر أدواره على ما نُقل، فمن المعلوم أن له أدوارًا قبل لقائه بموسى عليه السلام وأدوارا بعد فراقه له، ولا يضر بدوره العظيم ووظائفه الكبرى علم الناس بها أو عدم علمهم، ووقوفهم من قرب عليها وعدم وقوفهم.

ولقد كانت غاية الوجه الظاهري من لقائهما بيان أدب التبعية والمعية، غير أن الوجه الباطني – لأن القرآن نزل بالتعريض لا بالتصريح – بيان أدوار الحجج المغمورين في زمان حضور الأنبياء عليهم السلام، فضلا عن دورهم الريادي في زمان الفترة.

وعليه فالمنكر لأدوار الحجة عليه السلام في عصر الغيبة لم يتفطن لأهم مطالب قصة موسى والخضر عليهما السلام، ولم يستلهم أعظم عبرة منها.

■ **حكمة طول عمر الخضر عليه السلام**

بل نص في بعض الروايات على أن الله تعالى قد أطال عمر الخضر عليه السلام لرفع حجة المنكرين للقائم عليه السلام وغيبته، لا لحكمة أخرى.

فقد روى الصدوق عن الصادق عليه السلام: (وَأَمَّا الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَعْنِي الْخَضِرَ عليه السلام فَإِنَّ اللهَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا طَوَّلَ عُمُرَهُ لِنُبُوَّةٍ قَدَّرَهَا لَهُ، وَلَا لِكِتَابٍ يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ، وَلَا لِشَرِيعَةٍ يَنْسَخُ بِهَا شَرِيعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَلَا لِإِمَامَةٍ يُلْزِمُ عِبَادَهُ الِاقْتِدَاءَ بِهَا، وَلَا لِطَاعَةٍ يَفْرِضُهَا لَهُ.

بَلَى إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمَّا كَانَ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ أَنْ يُقَدِّرَ مِنْ عُمُرِ الْقَائِمِ عليه السلام فِي أَيَّامِ غَيْبَتِهِ مَا يُقَدِّرُ، وَعَلِمَ مَا يَكُونُ مِنْ إِنْكَارِ عِبَادِهِ بِمِقْدَارِ ذَلِكَ الْعُمُرِ فِي الطُّولِ طَوَّلَ عُمُرَ الْعَبْدِ الصَّالِحِ فِي غَيْرِ سَبَبٍ يُوجِبُ ذَلِكَ إِلَّا لِعِلَّةِ الِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى عُمُرِ الْقَائِمِ عليه السلام، وَلِيَقْطَعَ بِذَلِكَ حُجَّةَ الْمُعَانِدِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ) [1].

■ **يوم الظهور فتنة عظيمة**

ثم، هل يظن المتسائل عن أدوار الحجة عليه السلام أنه لو رآها عيانًا سيتعقل وجوه الحكمة منها؟

فهذا موسى عليه السلام وهو نبي من أولي العزم وعلى علم بصفة الخضر عليه السلام ووظيفته الإلهية، وله كامل اليقين بعلمه اللدُني، إلا أنه خفِيَ عليه وجه الحكمة في المواقف الثلاثة التي رآها جميعًا، واضطر للاعتراض والتساؤل عنها.

ولا يظن أحد أن أكبر الفتن الباعثة على الحيرة هي خفاء أدواره عليه السلام وعدم مشاهدتها في العيان، فإنها لن تكون في الفتنة بدرجة أدواره وأفعاله التي سيقوم بها في عصر الظهور، ومنها يُفتتن خلق كثير.

فإن الفتنة العقائدية تزداد صعوبة من مرحلة إلى أخرى، والمخلص منها هو تفطن العقل لمعارف القرآن، وأخذ العبرة من الآيات التي تحدثت عن أفعال وأحوال الأولياء، فكما أن وجه الحكمة في أحوالهم قد يخفى حتى على أولياء آخرين، فمن الطبيعي ان يخفى على سائر البشر.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٥٧.

ونحن على يقين أنه لو لم ينص القرآن على تفاصيل لقاء موسى بالخضر عليهما السلام وأدوار الأخير، لوُسِمت بكونها أسطورة وخيالا.

ويتلخص أن كل عقائد الشيعة المأخوذة من تعاليم أهل البيت عليهم السلام لها جذور قرآنية، وهي لا تقتنص وتستلهم وتُنال بمجرد العلاقة الصوتية بالقرآن، بل بالتدبر المستند لمنهجية معية الثقلين.

***السؤال الثاني: الاعتقاد بدوره عليه السلام وادعاء البابية**

بعد الاعتقاد بإمكانية الاتصال بالإمام الغائب عليه السلام وقيامه بالدور في ظروف غيبته يترتب هذا السؤال:

هل الأصلح للمؤمنين - عقائديًّا - أن يركزوا على آفاق ذلك الاتصال، ويزرعوا في نفوسهم الشوق له عليه السلام، أم أن الأصلح هو التركيز على الاعتقاد بإمامته والتخفيف من التطرق لبحث آفاق الاتصال به؟

إذ يترتب محذور على كلا الشقين والاحتمالين:

١ - فلو ركزنا على إمكانية الاتصال به وشوقنا النفوس لذلك، فالخشية تكمن في تولد دعاوى البابية، وظهور مدّعين للاتصال الخاص والسفارة المباشرة!!

٢ - وفي المقابل لو تغاضينا عن التأكيد على إمكانية التواصل واللقاء والاستفادة منه عليه السلام، فالخشية تكم في ضمور وخفوت العقيدة به، وعدم تحسس رقابته على الأمة، مما يضعف حالة الالتزام بالدين وتعاليمه!!

■ **التوازن هو الجادة الوسطى**

وجّه أهل الفقه والبصيرة العقائدية إلى الحذر من الإفراط والتفريط في مسألة الارتباط بصاحب العصر والزمان عليه السلام.

فأما الإفراط فحده ادّعاء اللقاء به والتشرف بحضرته، ثم دعوى التمثيل الرسمي له في الناس.

وأما التفريط فيكون بإنكار كل أنواع الاتصال بينه عليه السلام وبين الأمة.

والإفراط والتفريط بالنحو الذي بيناه منكران عند أعلام الشيعة، فمدعي اللقاء والصفة الرسمية والسفارة الخاصة في عصر الغيبة الكبرى محكوم عندهم بالخروج عن الجادة.

ومنكر كل نوافذ الاتصال والارتباط بالحجة عليه السلام فيها جاحد لشؤون إمامته، وجاهل بالمفهوم الصحيح عن الغيبة.

والجادة الوسطى تكون بالتأكيد على الارتباط به عليه السلام بلا إفراط ولا تفريط، بأن تتحسس الأمة وجوده وبركاته وأدواره ورقابته وألطافه.

فكما أن الملائكة موجودة وتتنزل على المؤمنين وتؤيدهم، فهو كذلك ذو بركات وخيرات لا تنقطع.

وهذا هو مغزى ما نُدب إليه في دعاء الندبة من نجوى ومناجاة الإمام عليه السلام لفظا وروحا وقلبا.

وكيف لا وهذه آفاق التواصل الروحي مع آبائه مفتوحة وهم في قبورهم، فكيف لا تكون نوافذ الاتصال معه كذلك وهو حي في دار الدنيا وإمامته فعلية!!

وليتيقن المؤمنون المناجون للحجة عليه السلام أن النجاة من وحي الأفكار السلبية والمشاريع الهدامة، وأن الإلهامات الصالحة كلها من بركات إيحاءاته وإلهاماته وتوفيقاته، ولا تنسد آفاق الاستفادة من النجوى معه إلا في ظل اقتراف المعاصي والآثام.

ودعاء الندبة الذي تحول إلى سيرة لدى المؤمنين هو من طرق فتح نوافذ الصلة والاتصال به عليه السلام ونيل بركاته الروحية والفكرية.

هذا، وقد أكدت طبقات من أجيال العلماء - على مدى عصور الغيبة - على باب من أبواب التواصل والاتصال به، وهو باب التشرف باللقاء بحضرته، بل تصدى غير واحد من الأعلام إلى تثبيت قصص التشرفات به اعتناءً بهذا الباب وتأكيد على كونه مفتوحًا على طول زمان الغيبة لمن يمتلك الأهلية.

لكنهم مع ذلك بيّنوا أمورًا ملحة حتى لا ينقلب التشرف واللقاء والاتصال إلى ادعاء بابية أو صفة رسمية عن الإمام عليه السلام:

منها: أن المعارف التي ينقلها المتشرف حجة عليه إذا قطع بها، لكنها ليست حجة على الناس.

ومنها: أن التشرف ليس بابًا في طول الأبواب التي يستقى منها معارف الدين، وهي الكتاب والسنة وبديهيات العقل، بل العمل العلمي يكون على تلك المصادر، وليس باب التشرف واحدا منها.

*سؤال حول عدم حجية نقولات المتشرف

لو قيل: كيف يقال من جهة بإمكانية التشرف بالصاحب عليه السلام في زمان الغيبة وأنه باب من أبواب بركاته على الأمة، ومن جهة أخرى تنفى الحجية الشرعية عن ما ينقله المتشرف؟

■ **الجواب**

إن الشارع لا يقبل بأنحاء من أبواب العلم والمعرفة كمصادر للتشريع، إلا أنه يصر على إبقائها مفتوحة، منها المكاشفات والرؤى الصادقة، فهي ليست من مصادر التشريع لكن بابها مفتوح غير مسدود.

والسر في ذلك هو قيمة تلك الأبواب في الإرشاد إلى الدليل والتنبيه على البراهين، فلو استطاع صاحب المكاشفة أو الرؤى الصادقة أن يبرهن ببرهان شرعي على ما انكشف له أو رآه في نومه اكتسب بذلك حجية شرعية.

لذا قيل إن الإبداع الذي قام به الملا صدرا هو تمكنه من صياغة البراهين الشرعية بعد المشاهدات القلبية، فارتقت مشاهداته من حالة اللا حجة إلى مستوى الحجية.

والكلام في التشرف بالإمام عليه السلام هو الكلام في المشاهدات، فهو باب إرشادي ينبه على الحقيقة، فإذا استطاع المتشرف الاهتداء لبرهان على ما تشرف به أو أُلهم البرهان في تشرفه وتمكّن من إيضاحه للآخرين بلغ بذلك إلى مدارج الحجية.

ففي التشرفات بركات اجتماعية وروحية ودينية للمتشرف، وإذا استطاع أن يوازن بين ما تشرف به وأدلة الكتاب والسنة انتفع الجميع بمحتوى تشرفه.

بل قد ينبه الإمام عليه السلام في التشرفات على الأدلة، ويشير إلى البراهين، ويفتح العقول على القواعد والبديهيات والمحكمات، أو يحذر من مسار عملي خاطئ.

المبحث الثامن

الإمامة إدارة كفؤة للمشروع المستقبلي

الإمامة إدارة كفؤة للمشروع المستقبلي

روى الكليني في الكافي عن عبدالعزيز بن مسلم: اجتَمَعنا فِي الجامِعِ يَومَ الجُمُعَةِ بِمَروَ، فَأَداروا أمرَ الإمامةِ وذَكَروا كَثرَةَ اختِلافِ النّاسِ فيها، فَدَخَلتُ عَلى سَيِّدي الرضا عليه السلام، فَأَعلَمتُهُ خَوضَ النّاسِ فيهِ، فَتَبَسَّمَ عليه السلام ثُمَّ قالَ:

(يا عَبدَ العَزيزِ.. إنَّ الإمامةَ أجَلُّ قَدرا، وأعظَمُ شَأنا، وأعلى مَكانا، وأمنَعُ جانِبا، وأَبعَدُ غَورا مِن أن يَبلُغَهَا النّاسُ بِعُقولِهم، أو يَنالوها بِآرائِهِم، أو يُقيموا إماما باختِيارِهِم.. الإمام واحِدُ دَهرِهِ، لا يُدانيهِ أحَدٌ، ولا يُعادِلُهُ عالِمٌ، ولا يُوجَدُ مِنهُ بَدَلٌ، ولا لَهُ مَثَلٌ ولا نَظيرٌ)[1].

تستهدف الأديان والمذاهب والمشارب الفكرية والفلسفات البشرية تقديم تصور أو فلسفة اجتماعية أو نظرية كونية عن الكون ومسيرة البشر.

وكل دين أو مذهب يدعي لأطروحته صفة الديمومة، وأنها صالحة لإدارة شؤون البشر على طول المسير.

*إشكالية

إن عمر أجيال البشرية طويل جدا، وقد مضى شطر كبير منه، وما زال له قابلية الاستمرار إلى أحقاب أطول.

١- الكافي، الكليني ١/ ١٩٩.

وهنا تنبثق إشكالية:

كيف يتسنى لنظرية اجتماعية ثابتة أو فلسفة كونية جامدة إدارة الحياة المستمرة بمقدار أسطوري وخيالي؟

ولو افترضنا لنظرية أو لفلسفة ما قدرة على إدارة شؤون البشر في مقطع زماني محدود، فأنى يكون لها نظر يحيط بالعمر الطويل للبشر؛ إذ لا طاقة لها على استيعاب المتغيرات في ذلك الزمان الطويل، كما أنها تقصر عن مسايرة الزمن الخيالي بكل تلاوينه ومتغيراته؟

■ **تصور الماديين**

بدأت الإشكالية من الماديين، لكنهم لم يتركوا إشكالهم من غير جواب وتخريج، فبعد افتراضهم عجز النظريات الاجتماعية والفلسفات الدينية عن التكفل بإدارة معيشة الإنسان على طولها وإسعاد البشر، جعلوا البديل الصالح عنها هو العلم والاكتشاف والاختراع.

وخلاصة اطروحتهم: إن مراقي ودرجات العلم لا تتوقف عن التجدد بحال، وفي نموه حلول لكل أزمات البشر، وبه تدخل البشرية روح العصر في كل وقت وأوان.

فالتقدم العلمي وحده ضامن لكمال وسعادة البشرية.

فلقد أنجز العلم الكثير لرفاه البشر:

١- قرب العلم المسافات بين البشر.

٢- طوّع المادة فجعلها في متناول رغبات الإنسان.

٣- غيّر وجه المدنية، وصعد بالبشر إلى أوج التحضر.

٤- أمكن الإنسان من التفاعل والتواصل مع الكواكب الأخرى.

٥- اختصر أتعابا ومشقات كانت تبذلها البشرية.

هذا والقفزات اليومية في مجال العلوم في توسع وتعاظم.

فالسعادة والرفاه والتكامل غايات منجزة باستمرار إذا ما تمسك الإنسان بالعلم واكتشافاته.

■ **تصور الإلهيين**

ولتقريب تصور المؤمنين - بقيادة الدين - نبسط الكلام في مستويين:

● **المستوى الأول**

هل أن افتراض طول عمر البشرية بنحو خيالي فرضية صحيحة؟

إن فرضية العمر الأسطوري والخيالي وليدة دراسات وشواهد قام بها بعض الباحثين الميدانيين في أزمنة سابقة.

والدراسات قابلة للتبدل والتغير، وبالتالي تقترب من الحقيقة أكثر فأكثر بطول التجربة.

بل طُرِح في وقتنا الحاضر فرضية انقراض البشر قريبًا، وهي احتمال قائم.

وقيل في الدراسات الحديثة إن احتمال انقراض الموجود البشري من خلال انقلاب في الطبيعة فرضية ضعيفة إلى درجة تقترب من الصفر، فلا يُحتمل ذلك بعوامل طبيعية كالنيازك والبراكين.

غير أن الدراسات تلك تقوي احتمال حصول الانقراض ولا تستبعده بواسطة العامل البشري الإنساني.

فقد أشار بعض الباحثين إلى أن انقراض البشرية في غضون مئة سنة موضوع قائم للنقاش وبحث لتبادل الآراء، والسبب هو تقدم العلم نفسه.

أي أن العلم الذي افتُرض فيه إمكانية إسعاد البشر بوحده، هو الذي يزرع الخوف ويقوي احتمال فناء البشرية قريبًا؛ لأن العلم بلا رقابة يقوي قدرة البشر على الإبادة الجماعية بالأسلحة النووية الفتاكة، أو عبر العبث بالمناخ، أو بواسطة التكنلوجيا الجديدة والتقنيات الحديثة.

إن لتلك الاكتشافات وجها مظلما شديد القتامة، وفيه إمكانية تقويض البشر وتقصير عمر الحياة.

كما طُرح عامل آخر بيد الإنسان، وبه يتمكن - بيسر وسهولة - من إفناء البشرية، وهو عامل تصنيع الوباء من خلال جمع خصوصيات فتاكة من أمراض مختلفة في وباء واحد ونشره في مجتمعات البشر.

وما الواقع الذي نعيشه اليوم - مع وباء كورونا - إلا مثالا لقدرة البشر بالأوبئة المصنعة على تقصير عمر البشرية.

وما قاله بعض من أن تصنيع الأوبئة ليس عنصرا حاسما في نسف البشرية لإمكان تدخل الآخرين في منع انتشار المرض، يكذبه الواقع المعاش لوضوح عجز البشرية - إلى هذه اللحظة - عن إيقاف مد الوباء.

ولا شك أن الأوبئة المصنعة المستخرجة من أمراض مختلفة هي نوع من التطور العلمي والتقدم في مجال الطب، وعلى هذا الأساس فما فرض - من كون العلم

هو العامل الوحيد الفاعل في إسعاد البشر – عاد سببا في الأزمة وبابا للمشكلة ومبعثا للقلق بحسب نتائج الدراسات الحديثة.

ففرضية ضمان العلم للمستقبل السعيد ساقطة جدًّا.

● **المستوى الثاني**

ولو غضضنا النظر عن أزمة العلم ووجهه المظلم وافترضنا أن للعلم وجهًا واحدًا مشرقًا وإيجابيًّا، فمع هذا الفرض كذلك ليس بيد العلم إلا إنجاز جانب مضيء جزئي من سعادة البشر؛ لأن العلم:

١ – لا يعوض دور القانون والنظم والأخلاق والفقه.

٢ – ولا يتكفل بتربية البشرية على العدل ورفض الظلم.

بل لتربية الإنسان وإشاعة الفضائل في حياته حقول علمية أخرى.

ونعود للقول:

لو سلمنا بطول عمر البشرية بمدى أسطوري، فعدم قدرة النظريات والفلسفات البشرية على مواكبة متغيرات العمر الطويل، وعدم إيفائها بالتخطيط وإنتاج الخريطة المهيمنة باستمرار على وجود الإنسان شيء، ونسبة الضعف والعجز للدين وعدم الوثوق بتخطيطه للمستقبل وانبساط قوانينه وعلوم أوليائه على العمر البشري شيء آخر.

ولا شك أن إشكالية – طول عمر البشرية وثبات الدين – ذات بريق وجانب مبهر، وقد تستوقف البعض وتزرع فيه الحيرة، فلا يمكنه التخلص منها بجواب شاف، لكن الانبهار بها وليد نقص المعرفة بما في حوزة أئمة الدين عليهم السلام من:

١ – هيمنة علمية ومدد معرفي ملكوتي.

٢ – اقتدار وإشراف على وجود البشر.

٣ – كفاءة إدارة لكل مسير عمر الإنسان بفكر ثابت وشريعة خاتمة.

*مميزات الإمامة بالمعنى الشيعي

وهنا نكتفي بطرح ميزتين من مميزات الإمامة الإلهية بحسب الفكر الشيعي:

■ **الميزة الأولى: الإمامة تفعيل عادل للطاقات**

من خصوصيات مذهب الشيعة اشتراط النص في الإمامة، فأما المعصوم عليه السلام فقد نص عليه صفة وشخصا.

وأما المرجع، والقاضي، وإمام الجماعة، فورد النص على صفاتهم.

وللنص على الشخص والصفات أو على الصفات فحسب غايات:

أولها: يحمي النص – في كل باب – موقع الإمامة من التلاعب، ويمنع تقليدها لمن لا جدارة له، وبالتالي يحفظ حوزة الدين عن الوقوع بيد المستغلين والمتسلقين.

ولذا لا يتمكن أحد أن يفرض إماما على الناس حتى في صلاة الجماعة، لأن الدليل نصَّ على الصفات، ولا بد أن تتوافر في الإمام بقناعة وتطبيق من قبل المكلفين.

وهكذا النص من الله على الإمام سد أبواب التلاعب بموقع الإمامة، فالمناعة للموقع حاصلة ببركة النص.

وبملاحظة ما آل إليه أمر الإمامة في المذاهب الأخرى – الناكرة للنص – من تفريغ موقع الإمامة من محتواه وتحوله إلى ألعوبة بيد المتنفذين يعرف قيمة النص وضرورته.

وثانيها: إن شروط الإمامة تقرر بما يناسب الأدوار والوظائف الموكلة إليها.

ومن هذا المنطلق تكون وظائف الإمام بنفسها دليلا وبرهانا على سنخ الإمامة فيه.

ومن باب المثال، يشترط – في الإمامة الإلهية – النص على الإمام من الله تعالى، وأن تتربع صفاته ومناقبه على قمة هرم الفضيلة البشرية.

فإن قلت: فلم التشدد والمبالغة في شرائط الإمامة؟

قلنا: إن الدور الموكل للإمامة يتطلب شروطا ومواصفات عالية وانتخاب إلهي، وإلا استحال إنجاز الدور على وجهه المطلوب.

ومن أعظم أدوار الإمام بسط العدل، ومن جهات عدله تفعيله للطاقات البشرية بنحو متكافئ، وخلقه الفرص لكل الرعية بالتساوي.

ولو قيل: أليس النص على الإمامة نحو من الدكتاتورية؟

لقلنا: إن الديمقراطية الحقيقية تنظيرا وتطبيقا، والتكافؤ في الفرص بعدل، وتفجير كل طاقات البشرية، مرهون بالإمامة المنصوصة.

والإمام المنصوص هو الراعي للأفراد، وهو الذي يخلق فرص تفعيل كل طاقاتهم بلا محسوبيات أو محاباة لأحد.

ولن يتحقق بالقيادات البديلة عن إمامة المعصوم إلا الظلم والعدوان، والتسبب في تجميد طاقات فئة من البشر.

إن الإدارة العادلة والكفؤة والناظمة والمنسقة بين الطاقات والحافظة للحقوق لا تكون إلا بالمعصوم المنصوص عليه وحده.

لذا قالت سيد النساء عليها السلام في خطبتها الشريفة: (إمامتنا نظاما للملة)[1].

● مستويات العدالة في عصر الظهور

ما هي مستويات العدالة التي سينشرها الإمام الموعود عليه السلام بعد بسط يده في عصر الظهور؟

قال الإمام الخميني:

إن العدل الذي ادخر له الإمام المهدي عليه السلام لم ينجح أي من الأنبياء العظام في إنجازه وتحقيقه، فحتى سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله في عصره لم يكتب له النجاح في بسط سنخ ذلك العدل.

ولا تظن أن العدل الذي سيتحقق على يدي الإمام الحجة عليه السلام هو العدل بمعناه المعهود، أي بسط العدل الاجتماعي لينعم البشر بالرفاهية..

بل سيحقق العدالة في كافة المراحل والدرجات الإنسانية، أي العدل الاجتماعي، والعدل الروحي، والعدل العقلي.

١ - فإذا استطاع تربية البشرية على رد الحقوق لأصحابها فقد تحقق على يديه العدل الاجتماعي، وارتفع به الانحراف العملي.

٢ - وإذا أرجع المنحرفين إلى جادة الصواب على المستوى الخلقي فقد تحقق على يديه العدل الروحي.

١- الاحتجاج، الطبرسي١/ ١٣٤.

٣ - وإذا رفع ما طرأ عليهم من انحراف عقائدي، وأقام اعوجاج معارفهم، وأزال السقيم من الأفكار، وعمل على إحلال المعارف الحقة، فقد بسط العدل العقلي.[١]

وهذا هو معنى النص النبوي: (يملأ الأرض قسطا وعدلا).

أي بسط العدل في كل ربوع الوجود، وعلى كافة مستويات الإنسان، الاجتماعية والروحية والعقلية.

وبيّن (قدس سره): وإذا فهمنا حدود العدالة التي سينجزها الإمام عليه السلام نعرف أن جميع النفوس تعاني من الانحراف أو بعض مستوياته، حتى نفوس المتكاملين ولو من حيث لا يعلمون، لأن زوال العدالة إما على صعيد الأعمال أو على صعيد الأخلاق أو على صعيد العقائد.

وأضاف: وهنا تكمن فلسفة الغيبة، فلما لم ينجح الأنبياء العظام والأولياء في بسط العدل لاستعصاء البشر عن ذلك، كانت غيبة الثاني عشر عليه السلام ضرورية وادخاره حتميًّا ليتنسى وقت اشتياق البشر للعدل بالمعنى الذي ذكرناه.

وإلا لو ظهر كما ظهروا لقتلوه ورحل عن الدنيا وبقيت مهمة العدل بدون منفذ ومنجز لها في البشر.

ولأجل أن الإمام عليه السلام هو منجز العدل في ربوع العالم وعلى كافة الأبعاد والمستويات لذلك يكون يوم مولده في شعبان أكبر أعياد الأمة والبشرية جمعاء، لأن الإمام سيضع حدا للظلم والانحراف في كافة المعمورة وفي معناه المطلق.

قال ما نصه: (إن هذه العدالة ليست كما نفهمها نحن ولا تقتصر على ايجاد حكومة عادلة خالية من الجور، بل تتعدى إلى ما هو أكثر من هذا المعنى.

١- صحيفة النور، الإمام الخميني١٢ / ٣٨٤.

معنى يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جوراً، هو أن الارض ملئت جورا وهي تزداد سوءاً، فجميع النفوس الموجودة تعاني من الانحراف، حتى نفوس الشخصيات المتكاملة تعاني من الانحراف ولو من حيث لا تعلم.

فالأخلاق يعتريها الانحراف، والعقائد يعتريها الانحراف والأعمال يعتريها الانحراف.

ولا يخفى الانحراف في الأعمال التي يقوم بها الإنسان.

إنه مأمورٌ بأن يعالج كل معوج وأن يعيد كل الانحرافات إلى جادة الاعتدال، ليصدق حقاً (يملأ الأرض عدلًا بعدما ملئت جوراً).

ومن هذا المنظار يعتبر هذا العيد عيداً للبشرية جمعاء، كما أنه يعد عيداً من أعياد المسلمين.

هذا العيد هو عيد الانسانية برمتها، حيث إنه سيهدي البشرية جمعاء إن شاء الله، ويضع حداً للظلم والجور في كافة المعمورة وفي معناه المطلق. ومن هذا المنطلق يعد هذا العيد عيداً كبيراً.

وبمعنى آخر إنه أكبر من عيد مولد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الذي يعد أكبر الأعياد). [1]

■ **الميزة الثانية: سعة إحاطة الإمام بالعلم**

يدور إشكال المستشكل حول إمكانية تصوير نظر معارف الدين للزمن الطويل، واستيعابها لإدارة عجلة الحياة المتحركة باستمرار؟

١- صحيفة النور، الإمام الخميني١٢ / ٣٨٥.

وقد عالج مذهب أهل البيت عليهم السلام تلك الإشكالية بشرطية العلم الخاص والإحاطة المعرفية في الإمام عليه السلام.

ومن المسلمات - بحسب أدلة الشيعة - إن شؤون وجهات كمالات علوم أهل البيت عليهم السلام لا تحصر في جهة ولا تحد في جانب.

وقد يستصعب البعض حتى من الوسط الداخلي قبول هذه الفكرة، ويمكن تقريبها وترجمتها بأمثلة عصرية:

● مثال (١)

إن للدول العظمى تقديرات مستقبلية وخطط واستراتيجيات ليست واقعة تحت علم واطلاع الدول الأخرى.

ويفرض ذلك كونها دولة عظمى، فمن الواقعية أن تكون ذات ملفات وخطط وخرائط وبرمجيات لا تحصى كثرة، وهي غير واقعة في مرمى نظر وعلم سائر الدول.

وإذا كان هذا هو شأن الدولة البشرية بمقتضى كونها عظمى وقوية، فكيف بالدولة الإلهية الخاتمة والتي لا تضاها عظمة وسؤددا وغاية.

ومما يؤسف له أن بعض الخاصة - الشيعة - ومن باب الفرار عن الغلو ونفي الارتفاع يجنح للسذاجة والبساطة في قراءة علم الأئمة عليهم السلام، فيقيس الدولة المهدوية بمقياس الدول البشرية علما ومعرفة، ومن هذه قراءته واعتقاده فقد صغر عظيما وعظم صغيرا.

والواقعية لا تتقزم وفق ضحالة القراءة، والذي يجهل واقعيات العصر لا يستطيع أن يفهم ما فوقها من معادلات.

ويقبح بأهل التفريط والمنغمسين في وحل التقصير اتهام أهل العقائد السليمة بالغلو والارتفاع.

إن المنطق العصري في الدول العظمى حاكم بتعدد أنظارها العلمية وتضخم ملفاتها المعرفية وكثرة احتمالاتها للمستقبل، ومن ينكر ذلك فهو يغرد خارج سرب العصرنة، فكيف بالدولة الإلهية التي نصب الله تعالى على رأسها خليفة ذا ولاية على الأرض وولاية على السماء.

وحاصل ما مر إن تعدد الملفات والبرمجيات والآليات والأهداف في دولة المعصوم عليه السلام حتمي، فقراءة دول المعصومين في ملف أو ملفين فحسب، سذاجة وجهالة وإن غلف بدعوى الواقعية والعصرنة.

● **أوصاف وخصائص الموعود عليه السلام**

من مسببات القراءة الخاطئة لدول أهل البيت عليهم السلام النظر إلى بعض صفات وأوصاف الأئمة عليهم السلام دون بقية الأوصاف.

ومن أوضح أمثلته قراءة تجربة الإمام السجاد عليه السلام بالنظر إلى وصف المرض الذي عانى منه الإمام عليه السلام مدة من الزمن واغفال سائر الأوصاف والخصائص، فقد أفرز تصورا مغلوطا عن تلك التجربة الرائدة.

ومثله الاقتصار في قراءة أوصاف الحجة عليه السلام على صفة الطريد والشريد والخائف، واغفال جهات القوة الأخرى نظير:

١ - فعلية قيام دولته الآن.

٢ - اجتماع أعوان وأبدال ووزراء وحجاب حوله في غيبته.

٣ - استمداده المدد من الله تعالى مباشرة.

٤ - ارتباط روحه بروح أجداده.

٥ - اتصاله بملكوت وغيوب القرآن.

فأي دولة كدولته، وأي إحاطة كإحاطته!!

وأشار بعض أهل المعرفة إلى أن لقاء أحد بالإمام عليه السلام أو حظوته ببركة من بركاته لا يعني بلوغه إلى درجة الإحاطة بجهات الملكوت الخاصة به.

فلو ادعى سلمان الفارسي - على ما له من شأن - الوقوف على كل أبعاد وملفات دولة أمير المؤمنين عليه السلام لانتفى عنه المقام الواقعي.

وهذا القرآن يخبرنا عن سؤال الملائكة المسبب عن النظر إلى زاوية أو زوايا وإغفال ما هو أعظم من شؤون خليفة الله، وفي ذلك أجلى العبر المبصرة بعظمة دول الله في الأرض.

وعلى هذا الأساس، فالبصيرة العقائدية والدخول في روح العصر يحتمان استعظام الدولة الإلهية الموعودة.

فمن صغرها وقاسها على غيرها فلا بصيرة له في عقيدة، وبعد لم يدخل إلى روح العصر، وهو يدعي العصرنة وليس له منها إلا القشور.

والحاصل، ثمة خصوصيتان أساسيتان في دول المعصومين عليهم السلام:

١ - العلم والتخطيط والإحاطة بأمور لا تحد ولا تحصر حتى من الملائكة فضلا عن سائر البشر.

ولو استصعب بعض المسلمين ما رواه الصفار عن أبى الصامت قال: سمعت ابا عبدالله عليه السلام يقول:

(إن من حديثنا ما لا يحتمله ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا عبد مؤمن. قلت: فمن يحتمله، قال: نحن نحتمله) [١].

فلمضمونها عدل في القرآن في قصة آدم، وبالأخص في آيات الموازنة بين علم آدم – خليفة الله – وعلم الملائكة، حيث يقول تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [٢]. وقال: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[٣]. فالآية تنص على عدم إحاطة الملائكة بفصول علم آدم، فملفات دولته كذلك ليست واقعة في مرمى علمهم.

٢ – أسرار دولهم في طي الكتمان والخفاء والسرية، والخفاء والغيبة عن السطح قوة لا ضعف.

● مثال (٢)

يشير أهل الاختصاص إلى أن أكثر البشر – وبنسبة خمسة وتسعين بالمئة – يتعاملون مع عشرين بالمئة من علم وبرمجيات جهاز الحاسوب.

بينما تتصرف المؤسسات المافيوية وأصحاب رؤوس الأموال – ويشكلون ثلاثة بالمئة من البشر – في أربعين بالمئة من برمجياته.

ويتفرد مؤسس جهاز الحاسوب – ونسبتهم تشكل اثنين بالمئة – بالتصرف في الأربعين بالمئة البقية، واختصاصهم بهذا المقدار مهيمن على الستين بالمئة السابقة.

١- بصائر الدرجات، الصفار/ ٤٣.

٢- البقرة/ ٣١.

٣- البقرة/ ٣٣.

فرغم أن جهاز الحاسوب صنع بشر محدود لكنه مصمم على تعدد مراتب العلم والخفاء والسرية، فكيف بفعل الله المهول في وجوده.

لذا فمن أعظم القواعد قاعدة: (دين الله لا يصاب بالعقول).

روى الصدوق عن عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام انه قال: (إِنَّ دِينَ اللهَّ عَزَّ وَجَلَ لَا يُصَابُ بِالْعُقُولِ النَّاقِصَةِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ وَالْمَقَايِيسِ الْفَاسِدَةِ، وَلَا يُصَابُ إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ.

فَمَنْ سَلَّمَ لَنَا سَلِمَ وَمَنِ اقْتَدَى بِنَا هُدِيَ وَمَنْ كَانَ يَعْمَلُ بِالْقِيَاسِ وَالرَّأْيِ هَلَكَ وَمَنْ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ شَيْئاً مِمَّا نَقُولُهُ أَوْ نَقْضِي بِهِ حَرَجاً كَفَرَ بِالَّذِي أَنْزَلَ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ) [1].

ومن أكبر الأخطاء ادعاء الإحاطة بكل شيء، ونسيان الموقع الخلقي الدوني.

فلا العقول البشرية ولا الآراء الوضعية ولا القياسات الفكرية قنوات لإصابة الحقيقة.

فلا تصاب إلا بالتسليم لأهل العلوم الوحيانية والمعارف الملكوتية.

وبما قررناه من تميز أهل البيت عليهم السلام بالعلم المحيط وخفاء الملفات تزداد الدولة الإلهية قدرة على التدبير، فالغيبة - من هذه الجهة - عنصر قوة ومنعة وليست عنصر ضعف.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٢٤.

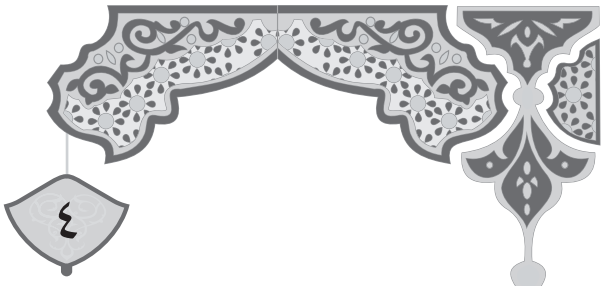

الفصل الرابع

الانتظار منظومة مسؤوليات

- المبحث الأول: لمحات تعريفية بعصر الغيبة
- المبحث الثاني: الدفاع عن عقيدة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف
- المبحث الثالث: مناشئ الانتظار السلبي
- المبحث الرابع: آفاق انتظار الفرج
- المبحث الخامس: الانتظار الواعي وتكاليف الغيبة

المبحث الأول

لمحات تعريفية بعصر الغيبة

لمحات تعريفية بعصر الغيبة

روى الشيخ الصدوق عَنِ الْأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ قَالَ: (أَتَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام فَوَجَدْتُهُ مُتَفَكِّراً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ.

فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا لِي أَرَاكَ مُتَفَكِّراً تَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ أَرَغِبْتَ فِيهَا؟

فَقَالَ لَا وَاللهِ مَا رَغِبْتُ فِيهَا وَلَا فِي الدُّنْيَا يَوْماً قَطُّ، وَلَكِنْ فَكَّرْتُ فِي مَوْلُودٍ يَكُونُ مِنْ ظَهْرِي الْحَادِيَ عَشَرَ مِنْ وُلْدِي هُوَ الْمَهْدِيُّ يَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْراً وَظُلْماً، تَكُونُ لَهُ حَيْرَةٌ وَغَيْبَةٌ يَضِلُّ فِيهَا أَقْوَامٌ وَيَهْتَدِي فِيهَا آخَرُونَ.

فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: وَإِنَّ هَذَا لَكَائِنٌ؟

فَقَالَ: نَعَمْ كَمَا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَأَنَّى لَكَ بِالْعِلْمِ بِهَذَا الْأَمْرِ يَا أَصْبَغُ، أُولَئِكَ خِيَارُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَعَ أَبْرَارِ هَذِهِ الْعِتْرَةِ.

قُلْتُ: وَمَا يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ؟

قَالَ: ثُمَ يَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ، فَإِنَّ لَهُ إِرَادَاتٍ وَغَايَاتٍ وَنِهَايَاتٍ)[1].

وفي رواية الكافي: (فَإِنَّ لَهُ بَدَاءَاتٍ إِرَادَاتٍ، وغَايَاتٍ ونِهَايَاتٍ) [2].

١- كمال الدين، الصدوق/ ٢٨٩.

٢- الكافي، الكليني٢/ ١٥٢.

***مقدمة**

لقد سبق الدور الذي نعيش فيه أدوار من التاريخ ومراحل من العوالم، وستلحقه أدوار ومراحل وعوالم.

ولا شك أن البصيرة المعرفية بالدين تتطلب الإحاطة بما سبقنا من أدوار وما سيتلوها من مراحل، وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال:

(رَحِمَ اللهُ امْرَأ عرف مِنْ أَيْنَ، وَفي أَيْنَ، وَإلى أَيْنَ)[1].

وتتأكد حاجتنا للإحاطة بشؤون وخصائص الدور الذي نعيش فيه لأنه الراهن وهو زمان ابتلائنا، كما أنه الحلقة الواصلة بين ما سبق وما هو آت.

ويسمى عصرنا الراهن – في الثقافة الشيعية – بعصر الغيبة، أي خفاء واستتار القيادة الإلهية والمرجعية الربانية عن أبصار البشر مع وجودها الحي وفاعليتها المستدامة.

ولعصر الغيبة خصائص غير مسبوقة، منها:

أولا: خفاء الإمام عليه السلام مدة مديدة.

ثانيا: إنه عصر امتلاء الأرض بالظلم والجور عبر مراحل متدرجة متتابعة.

ثالثا: إنه زمن التحولات والانقلابات على مستوى الأديان والمذاهب والولاءات الدينية، فضلا عن الانتماءات السياسية.

---

١ – الأسفار الأربعة٨، صدر المتألهين/ ٣٥٥، وعن الشيخ الري شهري: ولم نجد هذا الحديث المشهور في المصادر الحديثية/ موسوعة العقائد الإسلامية ج ٢/ هامش٣/ ٣٠٢.

وعصر هذه مميزاته يثير العقول ويستحث الألباب لأخذ التدابير والاحتياطات والتوصيات التي تحفظ المسار وتجنب السالك نكبات الطريق، وأعظمها النكبة في الدين.

*امتحان العقل أعظم الامتحانات

من الأسئلة التي توجه للشيعة الإمامية – وبصياغات متنوعة – لإيمانها بقيادة إمام غائب، هذا السؤال:

ما هو سر هذا الابتلاء الإلهي العظيم للأمة بغيبة الإمام والقائد كل هذه المدة المديدة؟

ألا تفضي غيبته إلى حالة الانهيار العقائدي والسقوط القيمي، وتسهل ضلال المؤمنين اغترارا بمشاريع أهل الأهواء والسلائق المنحرفة؟

وربما ينتهي هذا النوع من التساؤل بالبعض إلى القول بخرافية الإمامة الغائبة، لصعوبة قبول فكرة أن يمتحن الله الأمة بهكذا امتحان؟

ونزيد الإشكال تعميقًا ببيان أن الامتحانات على أقسام:

١ – امتحان الأبدان بالعبادات الشاقة والأعمال المتعبة.

٢ – امتحان النفوس بمكارم ومساوئ الأخلاق.

٣ – امتحان الغرائز بالشهوات الهائجة ذات الطلب من غير انقضاء.

٤ – امتحان العقول بالتصديقات الفكرية والمسائل الذهنية.

ولا شك أن امتحان العقل بالتصديق بأمور خارقة أو غير متعارفة أصعب بكثير من امتحان الأبدان في أفعالها، وامتحان النفوس في أخلاقها، وامتحان الغرائز في شهواتها.

وابتلاء الأمة بالإيمان أو عدم الإيمان بإمام غائب مدة مديدة من أقسام امتحانات العقول، فتتضاعف بذلك مشقته وكلفته، فيتأكد بذلك السؤال الآنف.

فيقال: كيف يمتحن الله الأمة بهذا الامتحان العقلي الشاق، والذي ستكون نتيجته سقوط عقائد أكثر أفراد الأمة، وتيههم الفكري عن نهج الله القويم؟

وجوابه:

إن سنة الله في البشر جارية على الافتتان والامتحان، وافتتان العقل أعظم أنواع الافتتان بلا أدنى شك، لكن السؤال الذي ينبغي أن يطرح هو:

هل اختص الله الأمة الإسلامية بامتحان العقول في الجانب العقيدي فحسب؟

أم أنه امتحن كافة أمم الأنبياء بامتحانات العقول؟

بل لا بد أن نتساءل في المرحلة اللاحقة عن الأمة التي اختصت بالامتحان العقلي الأكبر؟

فهل كانت الفتنة العقلية للأمم السابقة في عقائدها أعظم، أم فتنة الأمة الإسلامية الآن؟

*امتحان العقل في الأمم السابقة أصعب وأطول

بمراجعة سريعة للقرآن الكريم فيما يخبر به عن امتحانات الأمم السابقة في باب العقول نتلمس التالي:

١ - إن الامتحان العقلي لأمة الخاتم ﷺ - في مقامات الأولياء - ليس بدعًا من الأمم، بل له نظير في الأمم السابقة وبنحوٍ أعظم وأكثر حيرة للعقول.

فهذا القرآن يصرح بافتتان اليهود بنبوة عيسى عليه السلام، كما في قوله تعالى: **﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾**[1].

وهل لمثل هذا الامتحان من نظير فيما يحدثه للعقل من زلزال، بأن تبتلى البشرية بالإذعان بنبوة رضيعٍ في قماطه!!

وهل كل عقل يستوعب ذلك فيخرج من هذا الامتحان ناجِحًا!!

وأي امتحانٍ أعظم من أن تؤمر البشرية بالإيمان برضيعٍ في أيامه الأولى وتعتقد بأنه الإنسان الكامل!!

٢ - بل ابتلت تلك الأمة بامتحانٍ عقلي آخر في نبوة عيسى عليه السلام وهو امتحان التصديق بولادته من غير أبٍ، فأي امتحان أصعب من ذلك!

وعلى أساس ذلك فلا يقبل عذر لمن سقط في امتحان العقل في إمامة أهل البيت عليهم السلام لصغر سن بعضهم، أو لانزوائهم عن الإمامة الظاهرية، أو لتعرضهم للقتل، أو لغيبة بعضهم طويلًا.

١- مريم/ ٢٩، ٣٠.

وذلك لأن الأمم قبل هذه الأمة امتحنت وافتتنت بما هو أعظم.

فأيهما أصعب على العقل في التصديق؟

أن يصدِّق بنبي بلا أب، وبقيادته على الكرة الأرضية في سن الرضاعة، وإتيانه بشريعةٍ جديدة؟

أو أن يصدق ويذعن بإمامة قيادةٍ غائبة لمدةٍ طويلة لا يهيمن عليها الموت ولا يعتريها من الحوادث ما يعتري البشر؟

ونزيد الكلام تعميقًا بالقول:

إن الامتحان العقلي للمسيحية ولسائر المسلمين في عيسى عليه السلام لم يقتصر على ما مر، بل ولم ينتهِ إلى الآن؛ لأن الله امتحنهم بالإيمان بنبوته وحياته ورفعه إلى السماء، وعيشه في الملكوت.

وهذا امتحان جارٍ إلى هذه اللحظة.

ونتسأل، أيهما أصعب افتتانًا للعقل، أن يصدِّق بحياة نبي يعيش في الملكوت وليس في الأرض، وهو غائب عن الأبصار من زمن بدأ المسيحية وإلى هذه اللحظة، أو أن يصدق بغيبة إمام عن الناس في ظروف أرضية من سنة ثلاثمئة وتسع وعشرين وإلى هذه اللحظة؟

فلو وصف اليهود نبوة عيسى عليه السلام بعد الامتحانات العقلية الصعبة بها بالخرافة والأسطورة لكانوا أولى بالعذر ممن ينكِر إمامة إمام غائب؛ وذلك لأن الحجة عليه السلام لم يولد بلا أب، ولم تُجعل له القيادة في أوان الرضاعة، ولا يعيش خارج إطار الكرة الأرضية، ولا يروم إقرار ملة وشريعة جديدة بل إحياء ما اندثر من دين النبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

* لايعذر المسلمون في إنكار الإمام الغائب عليه السلام

إذا كان العقلاء من المسلمين - وبعد إخبار القرآن بنبوة رضيعٍ ذي شريعةٍ جديدة - صدقوا ولم يعتبر ذلك خرافة أو أسطورة، فأي صعوبةٍ بعد ذلك في اجتياز امتحان الإيمان بوجود إمام غائب مغمور فاعلٍ ومؤثرٍ ومعلم ومرشد؟!

فلو صدر الإنكار من العلمانيين والحداثويين الذين لا يعتقدون بالسنن الإلهية الجارية فهذا ممكن ومنسجم مع منهاجهم.

أما أن يصدر الإنكار ممن يتلو القرآن ويقف على أمثلة الامتحانات العقلية في الأمم السابقة على صعوبتها فهذا لا يمكن قبوله.

وقد أجاد بعض كبار الأعلام المعاصرين بقوله:

إن ما ورد في القرآن من قصص وحوادث في الأمم السابقة أمثلة لما ستكون عليه العقائد والأحداث في أمة الخاتم صلى الله عليه وآله.

فإذا قبل المسلم بالحالات الغريبة والمعاجز الخارقة وسائر ما جرى على الأنبياء السابقين - مع ثقلها على العقل -، فلا بد أن يصدق بما هو أقل ثقلًا على العقل مما أخبرت به النصوص في شأن الذين يحتلون مكانة أعظم من مكانة الأنبياء السابقين، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام.

فإن قول بعض المسلمين: وكيف نصدِّق بإمام غائب كل هذه القرون!! يماثل إلى حدٍّ كبير قول أحبار اليهود: (قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا).

وهو يدل على عدم أخذهم بالقاعدة القرآنية: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)[1].

١- يوسف/ ١١١.

ومن أعظم العبر أن نتعلم السبيل لاجتياز الامتحانات بنجاح، وخصوصًا امتحانات العقول بالاعتقادات.

هذا، وقد بينت الروايات أن المؤمنين الثابتين على الإمامة في عصر الغيبة هم أفضل أهل الإيمان رتبة، لنجاحهم في اجتياز الامتحان العقلي، لأن المقياس في الفضيلة هو الصبر في امتحان العقول.

فعن الإمام السجاد عليه السلام أنه قال: (إنّ أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته، والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة..)[1].

فعلل الإمام عليه السلام فضيلتهم بعلو مقدار عقولهم التي استوعبت الغيبة، بل جعلتها بمنزلة الشهود والمشاهدة.

*فوائد مهدوية من كلام الألباني

تواتر بين المسلمين سنة وشيعة حديث (يملأ الارض قسطًا وعدلا بعدما ملئت ظلمًا وجورا).

وعلق الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة على حديث (لتملأن الأرض جورًا وظلما، فإذا ملئت ظلمًا وجورا بعث الله رجلا مني اسمه اسمي فيملؤها قسطًا وعدلا كما ملئت جورًا وظلما) بتعليق رشيق فيه فوائد جمة، ويظهر بكلامه مدى التلاقي بين عقيدة المذهبين في المهدوية، فقال:

(خمسة من كبار أئمة الحديث قد صححوا أحاديث خروج المهدي، ومعهم أضعافهم من المتقدمين والمتأخرين.. بعد هذا كله أليس من العجيب حقا قول

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٠.

الشيخ الغزالي في « مشكلاته « التي صدرت عنه حديثا، ص١٣٩ : «من محفوظاتي وأنا طالب أنه لم يرد في المهدي حديث صريح، وما ورد صريحا فليس بصحيح»!

فمن هم الذين لقنوك هذا النفي وحفظوك إياه وأنت طالب؟

أليسوا هم علماء الكلام الذين لا علم عندهم بالحديث، ورجاله، وإلا فكيف يتفق ذلك مع شهادة علماء الحديث بإثبات ما نفوه؟!

أليس في ذلك ما يحملك على أن تعيد النظر فيما حفظته طالبا، لاسيما فيما يتعلق بالسنة والحديث تصحيحا وتضعيفا، وما بني على ذلك من الأحكام والآراء، ذلك خير من أن تشكك المسلمين في الأحاديث التي صححها العلماء لمجرد كونك لقنته طالبا، ومن غير أهل الاختصاص والعلم؟!

واعلم يا أخي المسلم أن كثير من المسلمين اليوم قد انحرفوا عن الصواب في هذا الموضوع، فمنهم من استقر في نفسه أن دولة الإسلام لن تقوم إلا بخروج المهدي! وهذه خرافة وضلالة ألقاها الشيطان في قلوب كثير من العامة، وبخاصة الصوفية منهم، وليس في شيء من أحاديث المهدي ما يشعر بذلك مطلقا، بل هي كلها لا تخرج عن أن النبي صلى الله عليه وسلم بشر المسلمين برجل من أهل بيته، ووصفه بصفات بارزة أهمها أنه يحكم بالإسلام وينشر العدل بين الأنام، فهو في الحقيقة من المجددين الذين يبعثهم الله في رأس كل مائة سنة كما صح عنه صلى الله عليه وسلم، فكما أن ذلك لا يستلزم ترك السعي وراء طلب العلم والعمل به لتجديد الدين.

فكذلك خروج المهدي لا يستلزم التواكل عليه وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله في الأرض، بل على العكس هو الصواب، فإن المهدي لن يكون أعظم سعيا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي ظل ثلاثة وعشرين عاما

وهو يعمل لتوطيد دعائم الإسلام، وإقامة دولته فماذا عسى أن يفعل المهدي لو خرج اليوم فوجد المسلمين شيعا وأحزابا، وعلماؤهم - إلا القليل منهم - اتخذهم الناس رؤوسا! لما استطاع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم ويجمعهم في صف واحد، وتحت راية واحدة، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مديد الله أعلم به، فالشرع والعقل معا يقتضيان أن يقوم بهذا الواجب المخلصون من المسلمين، حتى إذا خرج المهدي، لم يكن بحاجة إلا أن يقودهم إلى النصر، وإن لم يخرج فقد قاموا هم بواجبهم، والله يقول: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله».

ومنهم - وفيهم بعض الخاصة - من علم أن ما حكيناه عن العامة أنه خرافة ولكنه توهم أنها لازمة لعقيدة خروج المهدي، فبادر إلى إنكارها..

وطائفة منهم رأوا أن عقيدة المهدي قد استغلت عبر التاريخ الإسلامي استغلالا سيئا، فادعاها كثير من المغرضين، أو المهبولين، وجرت من جراء ذلك فتن مظلمة، كان من آخرها فتنة (مهدي جهيمان) السعودي في الحرم المكي، فرأوا أن قطع دابر هذه الفتن، إنما يكون بإنكار هذه العقيدة الصحيحة! وإلى ذلك يشير الشيخ الغزالي عقب كلامه السابق!

وما مثل هؤلاء إلا كمثل من ينكر عقيدة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان التي تواتر ذكرها في الأحاديث الصحيحة، لأن بعض الدجاجلة ادعاها، مثل ميرزا غلام أحمد القادياني، وقد أنكرها بعضهم فعلا صراحة، كالشيخ شلتوت، وأكاد أقطع أن كل من أنكر عقيدة المهدي ينكرها أيضا، وبعضهم يظهر ذلك من فلتات لسانه، وإن كان لا يبين.

وما مثل هؤلاء المنكرين جميعا عندي إلا كما لو أنكر رجل ألوهية الله عز وجل بدعوى أنه ادعاها بعض الفراعنة! فهل من مدكر).[١]

والمستفاد من كلامه أمور:

١ - لقد صحح أحاديث خروج المهدي عليه السلام وأنه من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله عدد لا يحصى من المتقدمين والمتأخرين، فهي عقيدة إسلامية حقة لا ريب فيها.

٢ - أعاب على المقلدة الذين توارثوا خرافة (إنكار المهدي) ولم يرجعوا للأحاديث المتواترة.

٣ - خطأ طائفة تواكلت على خروج المهدي عليه السلام وتركت السعي للعلم والإصلاح، ونوه إلى أن العقل والشرع يوجبان السعي، فإن خرج المهدي عليه السلام كان ذلك تمهيدا له لكي يأخذ بأيدي المسلمين إلى النصر، وإن لم يخرج فيكون الساعون ممن قام بأداء الواجب.

٤ - وخطأ طائفة أخرى سرّت وصف الخرافة (من خرافة انتظار المهدي عليه السلام يعني ترك السعي) إلى نفس عقيدة خروج المهدي عليه السلام فأنكرتها برمتها، فوقعت في تكذيب عقيدة حتمية متواترة.

٥ - وأخيرا حمل على طائفة ثالثة أنكرت العقيدة المهدوية إنكارا على من استغلها دجلا فادعى أنه المهدي، ونقض على ذلك بأنه لو جاز لجاز إنكار الألوهية لادعاء الفراعنة لها!!

وخلاصة المقام أن ما أفاده الألباني صحيح جزما عند الشيعة، فهو من المشتركات بين المذهبين.

وفي كلامه أنصاف علمي إلى أبعد الحدود.

١- سلسلة الاحاديث الصحيحة، محمد ناصر الألباني٤/ ٤١-٤٣.

*خيرية عصر الغيبة

قال المازندراني في شرحه على أصول الكافي تعليقاً على الرواية المشهورة: (القسط والعدل متقاربان وكذا الجور والظلم، فالعطف للتفسير.

والأخبار الدالة على خروج المهدي في آخر الزمان من نسل الحسين عليه السلام في طرق العامة والخاصة متواترة لا ينكره أحد من الأمة، إلا أن العامة يقولون إنه سيولد ونحن نقول إنه حي موجود، وبوجوده قامت السموات والأرضون)[١].

والسؤال: بعد التسليم بأن عصر الغيبة هو زمان الافتتان والغربلة والحيرة وامتلاء الأرض بالظلم والجور، فهل ينعدِم كل الخير في ذلك الزمان؟

وهل هو زمان ممقوت لا خير فيه؟

ورد في الروايات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام الإجابة عن هذا السؤال، ببيان أن كل الخير أودِع في ذلك العصر على رغم افتتان الأمة فيه أيما فتنة.

فقد أخرج النعماني في الغيبة عن عُميرة بنت نفيل قالت:

سمعت الحسين بن علي عليه السلام يقول: (لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضا.

فقلت له: ما في ذلك الزمان من خير؟

فقال الحسين عليه السلام: (الخير كله في ذلك الزمان، يقوم قائمنا ويدفع ذلك كله)[٢].

١- شرح أصول الكافي، المازندراني٦/ ٢٥٦.
٢- الغيبة، النعماني/ ٢١٣.

فيشير الحديث إلى أن الظلمة المتراكمة في عصر الغيبة لا تعدم خيريته، لأنه زمان التمهيد لظهور المشروع الإلهي الرائد.

وقد ورد في المأثور حكاية عن بعض الأعلام: (لا تخشوا الفتن فإن فيها البصيرة).

فمهما اشتدَّت الفتن وتراكمت الظلمات فإن للنور والحق لمعانا، وعلى المؤمن أن يتحرى مواضع النور ليستثمرها في الخروج من أتون الفتن بنجاح ونجاة.

* معنى امتلاء الأرض بالجور أو بالعدل

لعلَّ المعنى المتبادر للأذهان من حديث امتلاء الأرض في عصر الغيبة بالظلم هو أن تعم جهات وزوايا ذلك الزمان ظلمة حالكة، ولا يبقى بصيص فيها للنور والعدل!

كما أنه قد يتبادر من امتلاء الأرض في عصر الظهور بالعدل والقسط هو الانعدام الكلي لأي ظلمة وجور!

إن ذلك التفسير ليس بصحيح، إذ معنى امتلاء الأرض بالظلم والجور هو أن تكون الهيمنة والغلبة في النظام الكلي لدول الجور من غير أن يضمحل ويزول الخير والنور، بل تظل جهات النور والطهر رغم هيمنة الجور عليها تهيئ الأرضية لزمان الظهور.

وكذلك الأمر في معنى امتلاء الأرض بالقسط والعدل في زمان الظهور؛ فمعناه انتقال الهيمنة من يد النظام الجائر إلى يد النظام العادل، من غير أن تضمحل كل جهات الظلم والعناد.

قال بعض العلماء المعاصرين: (معنى الملء بالدقة هو الهيمنة، وليس ما يتبادر إلى الذهن من أنه شبيه بملء الكأس بالماء).

فمهما تعمّق وتنوع وتكاثر الظلم والجور في عصر الغيبة فإنه لا يزيح مواطن النور والخير.

وهذا هو معنى قول العقيلة عليها السلام في وجه يزيد: (فوالله لا تمحو ذكرنا)[1].

فلنور أهل البيت عليهم السلام وعدلهم حضور في كل زمان، وإن كانت الغلبة والهيمنة لدول الجور.

ولهذا المعنى أثر أساسي في وعي وسعي المسلمين في عصر الغيبة؛ إذ إن يقينهم ببقاء زوايا من النور والعدل وقابليتها للاستثمار للإعداد لدولة الظهور مشجع ودافع على شحذ الهمم وإبراز الطاقات على طريق الدعوة مهما اشتد أوار الظلم وهيمنة دوله.

والتنويه بأن أكبر غايات الإمام عليه السلام ملء الأرض بالقسط والعدل فيه إرشاد للأمة إلى سبل التمهيد للظهور.

فإذا ما أردنا إزاحة ستار الخفاء والتعجيل بالظهور فلا بد أن نساهم بكل طاقاتنا في تحقيق مناشئ الظهور وتجلية حقائق الدين.

وقد أشار أهل التحقيق إلى أن الإمام الموعود عليه السلام لا يبدأ في تقويم الاعوجاج في يوم الظهور من نقطة الصفر، وإنما يظهر بعد شروع البشرية في الارتقاء والتكامل في النور والخير، وما دوره إلا تحقيق إنجازات عظيمة ومعجزات باهرة في هذا الطريق.

١- مثير الأحزان، ابن نما الحلي/ ٨١.

■ **مساهمة المؤمنين والظالمين في استمرار الغيبة**

وللخواجة نصير الدين الطوسي كلمة عظيمة صارت شعارا لدى العلماء وهي قوله: (وغيبته منا)[١].

وقد تفسر بأن سبب طول الغيبة تمادي الظالمين والعصاة من الأمة في فسادهم.

ولها تفسر آخر وهو إسهام المؤمنين المدعين للانتظار في تأكيد حجاب الغيبة وتغليظ ستار الخفاء لعدم مثابرتهم في رفع شعارات الموعود عليه السلام.

ولا شطط إذا قلنا: إن مسؤولية التمهيد عينية على كل واحد من أفراد الأمة، خصوصًا مع الالتفات إلى أن عصر الغيبة هو عصر هيمنة الظلم، فلا يكفي في أداء المسؤولية ولا يفي ببناء وإعداد أرضية الظهور جهود بعض الصالحين من الأمة، بل لو بذل طوائف المؤمنين أقصى مراتب جهودهم لإعداد أرضية الظهور فلن يتحقق الإنجاز بالنحو المطلوب.

ولذا أُكِّد في النصوص على الإمداد الغيبي للتمهيد لدولة الظهور برجعة شخصيات تاريخية مرموقة، فجهود المؤمنين في عصر الغيبة مساهمة في إنجاز أدنى مراتب شروط الظهور.

والخلاصة: إن عصاة الأمة يساهمون في طول الغيبة بمعاصيهم، والمؤمنون من الأمة يساهمون في تعطيل الفرج لعدم قيامهم بالمسؤوليات العامة.

فالخلل في أداء المسؤولية والإخفاق في إقامة الواجبات العامة يولد الحرمان من بركات عصر الظهور.

بل الواجب على المؤمنين لتعجيل ظهور الإمام عليه السلام وجلاء الغيبة واجبان ومسؤوليتان:

١- تجريد الاعتقاد، خواجة نصير الدين الطوسي، المقصد الخامس (المسألة الأولى)/ ٢٢١.

الأول: الانبعاث الفردي للقيام بدور الإصلاح حتى لو لم يقم الآخرون.

الثاني: العمل على إنهاض الآخرين قدر الإمكان.

أي عليه أن ينهض وإن أحجم الآخرون لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[1].

كما يجب عليه أن يحرض الآخرين وينهض المؤمنين ليقوموا معه، لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ**﴾[2].

فبهذا الوعي الجامع لفهم مسؤولية الفرد اتجاه الدين والعقيدة ومسؤولية الفرد اتجاه أخوته في الإيمان تنهض الطائفة المؤمنة بالمسؤولية العامة ويُنجز الهدف.

*توصيات معرفية لعصر الغيبة

لو بحثنا بجد عن التوصيات الواردة في الروايات لمساعدة أهل زمان الغيبة في اجتياز امتحان الغيبة بنجاح لوجدناها كثيرة جدًّا، وهنا نؤكد على بعض التوصيات إجمالا.

■ التوصية الأولى: تعهد المعارف

أول توصية تتلخص في تقوية المعارف الدينية وبالأخص المعارف المتعلقة بالأصول، وعدم توقف المؤمنين عن البناء المعرفي عند حدٍّ.

فإن المعرفة تهرم لو لم تتعاهد، كما أنها لا تقوى على الصمود في وجه الشبهات إلا بالتعهد والتنمية والتكامل.

١- التوبة/ ٧٣.

٢- الأنفال/ ٦٥.

ومما يؤكد ذلك شيوع شبهات كثيرة في عصر الغيبة، وحصول الانقلابات في بعض الشخصيات – ذات الرمزية – عن مواقعها الإيمانية، وذلك لتوهج بهارج الدنيا كلما تقدم الزمن.

لذا ورد عن الصادق عليه السلام أنه قال:

(أما والله ليغيبن إمامكم سنين من دهركم ولتمحصن حتى يقال: مات قتل، هلك، بأي واد سلك؟ ولتدمعن عليه عيون المؤمنين..

فلا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه، وكتب في قلبه الايمان، وأيده بروح منه، ولترفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة، لا يدرى أي من أي. قَالَ فَبَكَيْتُ ثُمَّ قُلْتُ: فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى شَمْسٍ دَاخِلَةٍ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهَّ تَرَى هَذِهِ الشَّمْسَ قُلْتُ: نَعَمْ فَقَالَ وَاللهَّ لَأَمْرُنَا أَبْيَنُ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ)[1].

فتشير الرواية إلى عدد من الأمور الباعثة على الانهيار في أداء المسؤوليات والزلل عن الثبات في عالم المعارف والعقائد، منها طول الغيبة، ومنها تشكيك المشككين، ومنها تلاطم بحور الفتن، ومنها ارتفاع رايات الدجل التي تشتبه براية الحق.

ولم تغفل الرواية الحل الناجع من كل ذلك وهو الإيمان الثابت والتأييد بروحٍ من الله.

والتمسك بالبين من أمرهم وعدم نقض اليقين العقيدي بالشك المتولد من الشبهات.

وعن أبي بصير قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك متى الفرج؟

١- الكافي، الكليني١/ ٣٣٦.

فقال: (يا أبا بصير وأنت ممن يريد الدنيا؟ من عرف هذا الأمر فقد فُرِّج له لانتظاره)[1].

أي أن الفرج من امتحانات عصر الغيبة مرهون بسعة المعرفة وقوة البرهان.

■ **التوصية الثانية: مراقبات بركات الإمام عليه السلام**

ومن التوصيات تحسس حضور الإمام الغائب عليه السلام قلبًا وروحًا من قِبل شيعته، أي تلمس عظمته في القلوب وتحسس نظره ورقابته على الواقع.

وهذا أحد الآثار والمعطيات المرجوة من دعاء الندبة.

ولا شك أن أثر تحسس ومعايشة حضور الإمام عليه السلام عظيم في الاستقامة والدفع للنهوض بالمسؤولية.

وهذا الهدف النبيل هو أحد أسرار القيام عند ذكر القائم عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وقد أشار المحدث النوري إلى أن القيام تعظيمًا لسماع اسمه المبارك استقرت عليه سيرة الإمامية، وهذا كاشف عن مصدر وأصل لهذا العمل، ولو أني لم أعثر لحد الآن عليه. انتهى

وذكرت عدة أدلة كمصدرٍ لتلك السيرة في كتب متأخرة:

منها: ما حكاه النوري عن بعض العلماء أنه رأى خبرًا مفاده قيام الصادق عليه السلام تعظيمًا واحترامًا لما ذكِر اسم الحجة المبارك في مجلسه.

ومنها: ما ورد في إلزام الناصب أنه روي عن الرضا عليه السلام في مجلسٍ بخراسان أنه قام عند ذكر لفظة القائم، ووضع يديه على رأسه الشريف، وقال: (اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه).

١- الكافي، الكليني ١/ ٣٧١.

قال العلامة آية الله الجوادي:

(إن عدم إثبات صحة هذه الروايات لا يقدح في حسن هذه العادة المتبعة، فإن القيام لذكر الحجة عليه السلام يعده الجميع تعظيمًا وتوقيرًا وسببًا للتقرب منه.

فمن السهل إثبات حسن ذلك بالأصول الكلية الأخرى، علاوة على أن هذا القيام هو نحو إعلان للنصرة والتضحية والانطواء تحت رايته)[1].

إن من أهم آثار ذلك القيام التعظيمي تحسس واستشعار حضور الإمام عليه السلام ومعاينة مراقبته، وذلك الاستشعار منهج رائد لإعداد المنتظر الحقيقي.

وقال أحد الأعلام: التحسس لولي الله أعظم من التعهد لأمره.

وذلك لأن التعهد مجرد ممارسة لمعنى فكري معنوي، بينما التحسس من الحس، أي المعايشة الحضورية، وهي أعظم أثرا وتأثيرا في وجود المتحسس من التعهد.

قال الملكي التبريزي: (وقد كان لي أخ ولد بعد أبي وسمع بعد شعوره أنّ أباه مات، وكان يدعو ويتوقّع حياته، ويذكر في كلّ أمر صغير وكبير مجيئه، وأنّه يجيئ ويفعل كذا وكذا.

فلا يكون أبوك أحبّ إليك من إمامك وهو أبوك الرّوحانيّ الحقيقيّ، وعلَّة إيجاد روحك وجسمك ونعمك كلَّها، وخليفة ربّك.

وبالجملة فليظهر من حركاتك في أفعالك وأقوالك أنّك فاقد إمامك، منتظر ظهوره، ومتوقّع وصاله.

ويظهر من حقّ وفاء زمن غيبته ما يصدّق دعوى تعلَّقك به، فإنّ الكرام يظهرون من الوفاء في الغيبة ما لا يظهرونه في الحضور.

١- أدب فناء المقربين، الجوادي ٣ / ٣٦٠.

ولا يكن لك في تمنّي ظهوره وزيارته غيره من المقاصد، فإنّ زيارته وقربه المقصد الأسنى، وهو مقصد المقاصد، ومعرفته وقربه ورضاه غاية الغايات ونهاية الآمال)[1].

١- المراقبات، الملكي التبريزي/ ١٤٦.

المبحث الثاني

الدفاع عن عقيدة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

الدفاع عن عقيدة المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

أخرج مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[1].

***المقدمة**

هذا النص من المسلمات عند الفريقين.

(وقيل إنه صار سببا لتشيع بعض المخالفين من علمائهم، معللا بأن ميتة الجاهلية إنما تكون بفوات المعارف التي هي من أصول الدين، وذلك لا ينطبق إلا على رأي الشيعة في قولهم إن الإمامة من أصول المعارف والديانة)[2].

يستفاد من الحديث أمور:

الأول: وجوب معرفة الإمام عليه السلام، ويقع الوجوب على موضوعه في زمان الغيبة بالاعتقاد بالموعود عليه السلام، وقد ورد التطبيق عليه.

١ - فقد روى الصدوق عن الصادق عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله: (مَنْ أَنْكَرَ الْقَائِمَ مِنْ وُلْدِي فِي زَمَانِ غَيْبَتِهِ فَمَاتَ فَقَدْ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً)[3].

١- قال الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة٢/ ٥٥٧ (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية ". أخرجه مسلم (٦ / ٢٢) من حديث ابن عمر. وأخرجه الحاكم (١ / ٧٧ و١١٧ بلفظ: " من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتى يراجعه ومن مات وليس عليه إمامة وجماعة فإن موتته موتة جاهلية ". وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ". وافقه الذهبي.

٢- كشف الغطاء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء ١ / ٨.

٣- كمال الدين، الصدوق/ ٤١٣.

٢ – وعن مُحَمَّدَ بْنَ عُثْمَانَ الْعَمْرِيَّ قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ يَقُولُ:

سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سُئِلَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام وَأَنَا عِنْدَهُ عَنِ الْخَبَرِ الَّذِي رُوِيَ عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام:

(أَنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ للهِ عَلَى خَلْقِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَنَّ مَنْ مَاتَ ولَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً).

فَقَالَ عليه السلام: (إِنَّ هَذَا حَقٌّ كَمَا أَنَّ النَّهَارَ حَقٌّ).

فَقِيلَ لَهُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ: فَمَنِ الْحُجَّةُ وَالْإِمَامُ بَعْدَكَ؟

فَقَالَ: (ابْنِي مُحَمَّدٌ هُوَ الْإِمَامُ وَالْحُجَّةُ بَعْدِي مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَعْرِفْهُ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، أَمَا إِنَّ لَهُ غَيْبَةً يَحَارُ فِيهَا الْجَاهِلُونَ وَيَهْلِكُ فِيهَا الْمُبْطِلُونَ وَيَكْذِبُ فِيهَا الْوَقَّاتُونَ..) [١].

الثاني: إن الإمامة لا تكون محصورة في شخص بعينه على طول مسيرة الأمة، وإنما هي في أشخاص يتعاقبون زمانيا.

ففي كمال الدين.. إِنَّ سَلْمَانَ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّكَ قُلْتَ مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً مَنْ هَذَا الْإِمَامُ؟

قَالَ: (مِنْ أَوْصِيَائِي يَا سَلْمَانُ، فَمَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مِنْهُمْ يَعْرِفُهُ فَهِيَ مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ فَإِنْ جَهِلَهُ وَعَادَاهُ فَهُوَ مُشْرِكٌ وَإِنْ جَهِلَهُ ولَمْ يُعَادِهِ وَلَمْ يُوَالِ لَهُ عَدُوّاً فَهُوَ جَاهِلٌ وَلَيْسَ بِمُشْرِكٍ) [٢].

الثالث: إن الإمامة والإمام باقيان على الدوام حتى انقضاء التكليف، لأنهما يرفعان ميتة الجاهلية في كل زمان.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٤٠٩.

٢- نفس المصدر/ ٤١٤.

وقد ورد في الروايات تعريف ميتة الجاهلية.

فقد روى الصدوق عَنْ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهَّ عليه السلام قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: (مَنْ مَاتَ وَلَيْسَ لَهُ إِمَامٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، كُفْرٍ وَشِرْكٍ وَضَلَالَةٍ) [1].

الرابع: وجوب البيعة السياسية والطاعة للإمام عليه السلام والتوجه به إلى الله في كل زمان، ومن المعلوم أن البيعة والعهد لا يكونان إلا لموجود حي عاقل شاعر.

وللبيعة السياسية الدينية لوازم عديدة، منها: وجوب الدفاع عن الإمامة والولاية بكل ما أوتي المبايع والموالي من قوة.

وإن أهم درس يمكن أن نستوحيه من عموم تجارب أهل البيت عليهم السلام هو ضرورة أن ندافع بكل ما أوتينا من قوة عن حريم الولاية في كل زمان، فغصب الولاية الشرعية ابتدأ من بعد عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وما زال قائما إلى هذه اللحظة.

وقد اعترف بعض علماء العامة بأثر عزل أهل البيت عليهم السلام عن مقام الإمامة، على الفكر والعقيدة والسلوك.

فهل آن لنا أن نستهدي بجهادهم العظيم عليهم السلام فنصنع من فكرنا وروحنا ووجودنا دروعا فولاذية دفاعا عن مقدسات الولاية!

وهل نكون حراسا حقيقيين ساهرين على تأمين عقيدة المهدوية في فكر أجيالنا ببث المعارف العالية، حتى لا تأخذ بهم الشبهات إلى الضلال!

فقد روى الصدوق عن الباقر عليه السلام: (يَا عَبْدَ الْحَمِيدِ أَتَرَى مَنْ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى اللهَّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَجْعَلُ اللهُّ لَهُ مَخْرَجاً، بَلَى وَاللهَّ لَيَجْعَلَنَّ اللهُّ لَهُ مَخْرَجاً رَحِمَ اللهُّ عَبْداً حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَيْنَا رَحِمَ اللهُّ عَبْداً أَحْيَا أَمْرَنَا.

١- نفس المصدر/ ٤١٢.

قَالَ قُلْتُ: فَإِنْ مِتُّ قَبْلَ أَنْ أُدْرِكَ الْقَائِمَ؟

قَالَ: الْقَائِلُ مِنْكُمْ أَنْ لَوْ أَدْرَكْتُ قَائِمَ آلِ مُحَمَّدٍ نَصَرْتُهُ كَانَ كَالْمُقَارِعِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِسَيْفِهِ لَا بَلْ كَالشَّهِيدِ مَعَه) [1].

*أساليب الدفاع عن المهدوية

إن أثمن ما يمكن أن نرسخه في وجودنا ونحن نستعيد ذكراهم واحتفالاتهم هو مبدأ الدفاع عن الحق الشرعي للإمام الحجة عليه السلام، إذ إنه صاحب حق، وحقه هو الأعظم بين الحقوق الواجبة.

لقول أبي جعفر عليه السلام: (ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية)[2].

وعَنْ خَلَّادِ بْنِ الصَّفَّارِ قَالَ: سُئِلَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: هَلْ وُلِدَ الْقَائِمُ عليه السلام؟ فَقَالَ: (لَا وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ لَخَدَمْتُهُ أَيَّامَ حَيَاتِي.)[3].

فكيف لا نخدمه اقتداء بالصادق عليه السلام، بالدفاع عنه والذود عن قضيته بكل ما أوتينا من قوة!!

إن الواجب بالأصل أن يدفع صاحب الحق عن حقه، وباعتبار أنه عليه السلام محكوم بظروف الغيبة الكبرى فهو لا يقدر أن يدافع عن حقه ظاهرا، ولا أن يبين ظلامته، أو أن يحاور من أجل قضيته.

فإذا كنا ندعي التشيع لهم والتبعية له فمن الواجب أن نأخذ زمام المبادرة للدفاع عن الحق الأعظم الذي لا يقدر صاحبه أن يدافع عنه بالأصالة بحكم

١- كمال الدين، الصدوق/ ٦٤٤.

٢- الكافي، الكليني ٢/ ١٨.

٣- الغيبة، النعماني/ ٢٤٥ .

ظروف الغيبة، خصوصا وأننا طرف في ذلك الحق، وبركاته تعمنا بخير الدنيا والآخرة.

وثمة أساليب وطرق للدفاع عن حق الولاية في وقتنا المعاصر، منها:

■ **النحو الثقافي**

ويتبلور هذا الأسلوب في أشكال عديدة، من أهمها الاستدلال العلمي على ولاية أهل البيت عليهم السلام من طريق القرآن والرواية والعقل كلما سنحت الفرصة في المحافل الثقافية.

ومن الخطأ أن يقعدنا عن ذلك غزو الأفكار الخاطئة، من قبيل فكرة التقريب بين المذاهب ببعض معانيها المغلوطة، والتي تجمد القضايا الحقة بمغالطات واهية، فتصور التقريب في أمرين:

١. تغييب المفاهيم القرآنية الأصيلة من قبيل مفهومي التبري والتوسل.

٢. حذف النصوص الروائية الخاصة من متون الكتب الحديثية بحجة منع الخصم من الاستناد عليها في التشنيع على مذهبنا وعقائدنا.

والحق أن الجهاد الثقافي من أجل دعم موقف الإمامة في وقتنا المعاصر يستوجب المواجهة الفكرية لصنفين من الناس:

الأول: أطراف من المذاهب الأخرى، لم يعرفوا الإمامة حق معرفتها لا من نصوص القرآن ولا من دلالة الروايات فاعتبروها مقاما عاديا.

الثاني: فئات من داخل الإطار الشيعي، تجاهلوا دراسة العلوم العقلية والكلامية كفنون صناعية أساسية لحماية الفكر وتأمين العقيدة، مما حدا بهم

لقبول مغالطات بعض المنتفعين أو المثقفين، فساروا في ركبهم الثقافي وراحوا ينكرون المقامات ويناقشون كل نصوص العقائد العالية، مثل زيارة عاشوراء والزيارة الجامعة، معتذرين أن استبعاد هذه النصوص ضرورة من ضروريات التقريب والتوحيد.

بل نعد مناقشات بعض الشيعة – للعقائد المسلمة المتصلة بمقامات الإمامة بهدف شطبها تمهيدا لترسيخ الوحدة بين المذاهب – انقلابا على الإمامة الثابتة بالقرآن والروايات، وتضييعا لحقوق أهل البيت عليهم السلام.

■ **النحو العملي**

ولإيضاح معنى – الدفاع العملي عن المهدوية – نبين مقدمات ظهور الحجة عليه السلام للعيان، وهي كالتالي:

الأولى: استفحال الجور وانتشار الظلم.

الثانية: وجود دستور إلهي جامع لكل متطلبات سعادة البشر.

الثالثة: قبول الأمة بشرائط ولوازم العدالة.

وقد تحققت مقدمتان، فإن جميع أشكال الظلم وعلى كافة الأصعدة قد تحققت وتزداد مع مرور الوقت.

كما إن الرسالة الإلهية المشتملة على كل معالم سعادة البشر قد بُلِّغَت على يد رسول الله صلى الله عليه وآله والأوصياء من بعده عليهم السلام.

فتبقى المقدمة الأخيرة، ولم يتحقق حتى هذه اللحظة أدنى مستويات قبول وتشوق الأمة إلى العدالة التي سيرسيها الإمام عليه السلام عند ظهوره.

فالأمة إلى الآن لم تبلغ مستوى الرشد الثقافي والقناعة الفكرية والرغبة النفسانية بمبدأ العدالة مهما ترتب على تطبيقها وتفعيلها من مقدمات.

وبهذا التمهيد تنكشف متطلبات الجهاد من أجل الولاية في الناحية العملية، وتتبلور بأمرين:

١ - تفعيل الرفض النفساني لكل أشكال الظلم والجور.

٢ - تجذير أسس الشوق للعدالة والقسط مهما ترتب عليهما من ضياع للامتيازات الشخصية.

وهذا هو معنى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج)[1].

فإن الانتظار هو الإعداد والتمهيد للمنتظر عليه السلام، وانتظاره ترقب لشخص شريف يقصد الحلول ضيفا علينا، وهو يقتضي إعدادا واستعدادا على المستوى الذهني وعلى المستوى الواقعي.

■ **النحو الروحي**

ومن مهمات الأمور مواظبة أهل الإيمان - التائقين لرؤية إمام زمانهم ليمدوا له يد البيعة - على الدعاء بتعجيل فرج الموعود عليه السلام ليشيد أركان الدولة الكريمة.

ومن أهم شروط استجابة الدعاء هو اضطرار الداعي لله تعالى.

١- علل الشرائع، الصدوق١/ ٤.

١ - قال تعالى: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**﴾[١]

والآية وإن كانت تنطبق على كل مضطر، إلا أنها تشير إلى اضطرار الإمام الحجة عليه السلام بحسب الروايات.

وبقرينة قوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**﴾ يكون المهدي الموعود عليه السلام أبرز مصاديق المضطر.

٢ - وعن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: «أمن يجيب المضطر إذا دعاه « قال: نزلت في القائم)[٢]

٣ - وعن صالح بن عقبة عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام، هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا الله فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض، وهذا مما ذكرنا أن تأويله بعد تنزيله)[٣].

■ **وجوه اضطرار الحجة عليه السلام**

واضطراره عليه السلام من جهات:

أولا: هو الشريد الطريد الذي ليس له ملجأ يلجأ إليه.

ثانيا: لا يأمن على نفسه من القتل حتى عند عموم شيعته، ولو آوى إليهم ما وجد عندهم مأمنا وملجأ.

١- النمل/ ٦٢.

٢- كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني/ ٣١٤.

٣- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي، ٢ / ١٠٥.

وهذه الغربة نحو من اضطراره، لذا يجدر بنا استذكار ما هو فيه من اضطرار وخوف أمني.

فإذا قرأنا آية ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ فحري بنا أن نتحسس اضطراره أولا، لأنه هو المضطر الحقيقي، وذكره في دعائنا باستمرار سلاح روحي وإعانة معنوية له.

ثالثا: هو الإنسان الكامل الذي أغمض عينيه عن كل أسباب الوجود وتعلق بمسبب الأسباب.

ولشدة اتصاله الروحي بالله تعالى وهجرانه الأسباب المادية كان من جملة أسمائه اسم المضطر، ففي دعاء الندبة – المنسوب له عجل الله فرجه الشريف والذي يستحب قراءته في الأعياد الأربعة – ورد قوله عليه السلام: (أين المضطر الذي يجاب إذا دعا)[1].

فالاضطرار صفة علمية وروحية للإمام المنتظر عجل الله فرجه الشريف، تشير إلى بلوغه أعلى مراتب المعرفة بالله تعالى، وأرفع درجات اليقين به، ودوام التوجه إليه، بحيث إذا دعا فلا ترد له دعوة، ولا يخيب له رجاء.

فقد ورد عن أبي جعفر عليه السلام: (والله لكأني أنظر إليه وقد أسند ظهره إلى الحجر فينشد الله حقه ثم يقول:

يا أيها الناس من يحاجني في الله فأنا أولى الناس بالله، أيها الناس من يحاجني في آدم فأنا أولى الناس بآدم، أيها الناس من يحاجني في نوح فأنا أولى الناس بنوح، أيها الناس من يحاجني في إبراهيم فأنا أولى الناس بإبراهيم، أيها الناس من يحاجني في موسى فأنا أولى الناس بموسى، أيها الناس من يحاجني في عيسى فأنا أولى الناس بعيسى، أيها الناس من يحاجني في محمد فأنا أولى الناس بمحمد صلى الله عليه وآله،

١- المزار، المشهدي/ ٥٧٩.

أيها الناس من يحاجني في كتاب الله فأنا أولى الناس بكتاب الله، ثم ينتهي إلى المقام فيصلي عنده ركعتين وينشد الله حقه.

وهو والله المضطر الذي يقول الله فيه «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض» فيه نزلت وله)[1].

فبمجرد أن ينتهي من مسألته وتوجهه إلى الله تعالى تقضى حاجته ويتم ظهوره على ربوع الدنيا، لإنفاذ مشروع السماء وتحقيق آمال وطموح الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

ومن صفاته الروحية دوام دعائه لنفسه بالتأييد والاستخلاف.

فقد ورد في آخر فقرات دعاء الافتتاح الوارد عنه عجل الله فرجه أنه يدعو لنفسه ويقول: (اللهم صل على وليك أمر القائم المؤمل والعدل المنتظر وحفه بملائكتك المقربين، وأيده بروح القدس يا رب العالمين.

اللهم اجعله الداعي إلى كتابك والقائم بدينك استخلفه في الأرض كما استخلفت الذين من قبله.. أبدله من بعد خوفه أمنا..)[2].

*أسرار دعائه عليه السلام لنفسه

مما مر آنفا يتبادر للذهن سؤالان:

السؤال الأول: ما هو سر دعاء الإمام عليه السلام لنفسه بتعجيل الفرج؟

لدعائه عليه السلام لنفسه أسرار عديدة منها:

١- كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني/ ١٨٢.

٢- مصباح المتهجد، الطوسي٥٨١.

١ - إن دعاءه لنفسه الشريفة بالتأييد يعني دعاءه للدين بالتشييد، لأن الرسالة السماوية منطوية فيه، وهو مثالها الحي، وتمثالها الناطق.

وبظهوره يتم ظهورها على ربوع الأرض، وبتأخر ظهوره تضيع معالمها وتندرس آثارها.

فيكون صدى دعائه لنفسه على الدين في معنى ما نزل به الكتاب العزيز من جعل العترة والقربى جزاء لتبليغ الرسالة في قوله تعالى:

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1].

فإن مودة القربى ليست شيئا وراء إعزاز الرسالة وإقامة شعائرها الدينية، بل مودتهم تسوق النفوس نحو الدين عقيدة وعملا.

فدعاؤه لنفسه دعاء لإعزاز الدين وإظهار لشعائره وإقامة لمعالم شريعة سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله.

٢ - لم يلحظ في دعائه وجوده الشخصي فحسب، وإنما لحظ فيه وجوده الجمعي، فكأن الإمام عليه السلام يدعو بلسان المنتظرين من شيعته.

وهذا المعنى يحمل توجيها تربويا للشيعة بضرورة التزام الدعاء للحجة عليه السلام بتعجيل الفرج والظهور.

وهو من وسائل الدفاع عنه وكشف اضطراره.

١- الشورى/ ٢٣.

السؤال الثاني: إذا كانت غيبته عليه السلام غيبًا من غيب الله وسر من سر الله تعالى حسب ما جاء في منطوق الروايات، وكان ظهوره مرتبطًا بتقديرات إلهية محددة وشروط ومقدمات حتمية، فما وجه الدعاء له بتعجيل الفرج والظهور؟

وما هو قيمة الدعاء والحال أن القضاء الحتمي بيوم ظهور الإمام عليه السلام بيد الله تعالى؟

الجواب من وجوه:

١ - إن الدعاء يرتبط بروحية الداعي قبل ارتباطه بالنتيجة الواقعية، فإن الداعي بدعائه يبث شوقه للإمام الغائب عليه السلام، ويسجل اسمه في ديوان المنتظرين التائقين للعدالة الإلهية التي ستتحقق علي يديه.

٢ - إن تلك الأدعية بنفسها هي من مغيرات القضاء الإلهي، ومن محققات القدر الإلهي الجديد.

فقد ورد عن سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله: (لا يرد القضاء إلا الدعاء)[١]، لأن القضاء مربوط بأسبابه وأحدها الدعاء، فإذا ما دعا العبد تبدل القضاء المبرم إلى تقدير جديد.

وفي مجمع الزوائد: (وإن الدعاء ليلقى البلاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)[٢].

قال المحقق الداماد: (في النهاية الأثيرية أي يتصارعان.

وفي كتاب الفائق في غريب الحديث للزمخشري: أي يصطرعان ويتدافعان.[٣]

١- مكارم الأخلاق، الطبرسي/ ٣٨٨.

٢- مجمع الزوائد٧، الهيثمي/ ٢٠٩.

٣- كتاب الفائق في غريب الحديث، الزمخشري٣/ ٢١.

قلت: والدعاء يغلب البلاء، وربما يغلب البلاء إذا كان الدعاء أو الداعي ملحونا، أو لم يكن مستجمعا للشرائط والوظائف والآداب) [١].

كما تكرر في كتب أهل التحقيق هذا النص: (الدعاء من ضمن القدر).

وقال السيد الطباطبائي: (إن فرض تقدير وجود الشيء لا يوجب استغناؤه عن أسباب وجوده، والدعاء من أسباب وجود الشيء، فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه.

وهذا هو المراد بقولهم: إن الدعاء من القدر)[٢].

*** الإمام وجه الله**

فمن أراد حاجة منه تعالى وتوجه بالإمام عليه السلام إليه قضيت بشرط الإضرار إليه عليه السلام كما أنه مضطر لله تعالى.

وقد قال بعض أهل العلم: إن استجابة الدعاء يمكن أن تتحقق بالطلب من ما منه الوجود وهو (الله) أو من ما به الوجود وهو (الحجة).

وهو معنى كون أهل البيت عليهم السلام علة فاعلية، ومعنى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾[٣].

١- اثنا عشرة رسالة، المحقق الداماد٨/ ١٢.

٢- تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي ٢ / ٤١.

٣- المنافقون/ ٥.

وكيف لا تقضى حاجة من توجه إلى الله به عليه السلام وهو كعبة المستغيثين وقبلة المتحيرين، ففي دعاء الندبة: (أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء)[1].

ومن أهم علامات الاضطرار إلى الحجة عليه السلام الدفاع عنه بأنحاء المدافعة، والبيعة العقدية والسياسية له على يد نوابه بالنيابة العامة وهم الفقهاء العظام.

١- المزار، المشهدي/ ٥٧٩.

المبحث الثالث

مناشئ الانتظار السلبي

مناشئ الانتظار السلبي

في الزيارة الجامعة: (منتظر لأمركم مرتقب لدولتكم)[1].

***تمهيد**

ركز الإمام عليه السلام في الزيارة الجامعة على وظائف ومسؤوليات المؤمنين اتجاه الدين ككل، واتجاه التوحيد وإمامة أهل البيت عليهم السلام.

والوظائف التي نص عليها اتجاه أهل البيت عليهم السلام منها: وظائف تتعلق بالإيمان بما مضى منهم.

ومنها: مسؤوليات تخص ظهور وغيبة قائمهم عليه السلام.

ومنها: وظائف تخص رجعتهم وكرتهم عليه السلام.

والنص الذي ذكرناه يشير إلى أهم وظائف عصر الغيبة، وهو الانتظار والارتقاب.

ولهذين المصطلحين معاني لغوية:

١ - فالانتظار هو توقع حصول الشيء.

٢ - والترقب انتظار حصول شيء عن قريب.

---

١ - المزار، المشهدي/ ٥٣٠.

ومفهوم الانتظار مأخوذ فيه معان عديدة: المراقبة، الرجاء، الطمع، الأمل، التوقع، الترقب.

وليس من المهم – في بحثنا – التوقف عند المعاني اللغوية كثيرا، بل المهم معرفة المفهوم القرآني والروائي للانتظار.

فإن الأدلة التي أفادت مفهوم الانتظار لم تهمل بيان روح ذلك المفهوم وتطبيقاته الصحيحة، فلسنا بحاجة إلى التبرع وإعمال القرائح الخاصة لتفسير الانتظار.

وقد ساهم تحكيم القرائح الخاصة في شرح المفهوم من قبل البعض إلى ظهور معاني سلبية للانتظار.

وكان مؤداها انكفاءهم عن أداء المسؤوليات، والتواري عن الناس، وترك الدين غريبا يعبث به العابثون ويتراماه أهل البدع.

ودائما يفضي تحكيم القرائح الشخصية في التفسير والتطبيق إلى نتائج سلبية ومفاهيم سقيمة.

*المفاهيم السلبية للانتظار

برزت – عبر تاريخ الشيعة – مفاهيم وتطبيقات سلبية للانتظار، وهي كثيرة.

أهونها في الانحراف قول القائل: إن الانتظار على المستوى النفسي يتبلور بالأمل والطموح في خروج القائم عليه السلام.

وترجمانه على المستوى الروحي بالدعاء والتوسل لتعجيل الفرج.

وأما على المستوى العملي فيكون بالثبات الشخصي على تعاليم الدين، والصمت المطبق عن الفساد العام سواء كان أسريا أو اجتماعيا أو عالميا.

وأكثر المفاهيم شططا وتفريطا ما حاصله:

إن الانتظار يقتضي - بعد تعطيل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - انقلاب معادلتهما إلى فريضة الأمر بالمنكر والقبيح ومشاطرة المنحرفين في قبائحهم وظلمهم، حتى يمتلئ العالم بالمنكرات ويعم الجور والظلم فنحظى بالظهور والفرج.

ولا شك أن ثمة أسباب ساهمت في ولادة هذه المعاني السلبية، منها تفسير الانتظار بنحو ساذج.

ومنها إيحاءات دوائر التخريب والإفساد العالمي، فإنهم على يقين أن صياغة مشروعهم في قالب استدلالي وإلباسه لباس المفاهيم الدينية يسهل عملية الإقناع ويساهم في تكثير عدد المنفعلين به.

* مناشئ الانتظار السلبي

إن أسباب صناعة المفهوم السلبي للانتظار من قبل دوائر السياسيين والظالمين واضحة ومفهومة، والسؤال هنا عن أسباب تولد المفاهيم السلبية في أوساط المؤمنين، والتي قد تتعدى إلى صياغة قناعة لدى بعض النخبة!!

فما هي منابعها ومناشؤها؟ وكيف تتولد وتنبثق؟

يمكننا وضع اليد على مناشئ أربعة للمفاهيم السلبية عن انتظار الفرج وهي كالتالي:

■ **الأول: منشأ نفسي**

قد يجر ضعف الهمة النفسانية، والميل للتقاعس عن أداء المسؤولية لدى كثيرين إلى استحسان مفاهيم سلبية عن الانتظار.

فهم يسقطون طورهم النفسي على المفاهيم، فينحتون منها ما يخدم حالة الدعة والارتخاء التي تميل إليها أنفسهم.

وهذا المبدأ النفسي ليس نادر الحصول في الناس، بل هو متغلغل في نفوس كثيرين، وهو مبدأ خطير وذو عاقبة وخيمة، لأنه ينعكس بالتحريف على مفاهيم الدين والقرآن، خصوصا المفاهيم التي تتطلب دفع الأثمان والضرائب.

ولم تغفل روايات أهل البيت عليهم السلام هذه الحالة النفسانية من المعالجة، بل ركزت عليها تركيزا كبيرا.

١ - فقال أمير المؤمنين عليه السلام: (قدر الرجل على قدر همته)[١].

٢ - وقال عليه السلام: (من شرفت همته عظمت قيمته)[٢].

٣ - وعن الباقر عليه السلام: (لا شرف كبعد الهمة)[٣].

ومعنى الهمة هو العزيمة، وتطلق على العزيمة القوية، وبتعبير أهل المعنى همة الإرادة.

والمعنى الدقيق للهمة هي العزيمة على فعل شيء مع الشروع في إنجاز مقدماته.

١- نهج البلاغة، خطب الإمام علي ٤ عليه السلام/ ١٣.
٢- غرر الحكم/ ٦٠٩.
٣- بحار الأنوار٧٨، المجلسي/ ١٦٥.

وطالما دعا الأئمة عليهم السلام للهمم العالية، أي أقصى العزائم القوية والمبادرة لإنجاز مقدمات ما يعزم على فعله.

وبين أهل البيت عليهم السلام كذلك ثمرات وفوائد الهمم العالية:

١ - فعن علي عليه السلام أنه قال: (الكرم نتيجة علو الهمة)[١].

٢ - وعنه عليه السلام: (على قدر الهمة تكون الحمية)[٢].

٣ - وقال عليه السلام: (شجاعة الرجل على قدر همته)[٣].

وفي المقابل بين عليه السلام المساوئ المترتبة على قصر الهمة:

١ - فقال عليه السلام: (من صغرت همته بطلت فضيلته)[٤].

٢ - وقال الصادق عليه السلام: (ثلاث يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحيلة، وضعف الرأي)[٥].

ولا شك أن بعض المؤمنين المتعلقين بالمفاهيم السلبية للانتظار يعانون من ضعف الهمة، لأن قوة وعلو الهمة - خصوصا إذا كانت في الدين - تولد الشجاعة والجود بالنفوس، والحمية والغيرة على دين الله.

وهذه الثمرات تدفع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم التفريط في هذه الفريضة العظيمة.

١- عيون الحكم والمواعظ، الواسطي/ ٢٨.
٢- نفس المصدر.
٣- نفس المصدر.
٤- نفس المصدر/ ٤٣١.
٥- تحف العقول، الحراني/ ٣١٨.

■ **الثاني: منشأ فكري مادي**

لا شك أن الانخراط في المادة والانغماس في حسابات الدنيا يولد الميل لمفاهيم الدعة وأفكار السكون والجمود، خوفا على مكاسب الحياة وتعلقا ببهارجها.

كما أن التفكير المادي يحول دائما دون نصرة أفكار الغيب ومشروع السماء، لأنه يؤطر أصحابه في حيز الدنيا.

والأيدلوجية المادية عند بعض المؤمنين تحجبهم عن التمهيد والإعداد للظهور، وتؤدي بهم إلى هجران ومتاركة كل المسؤوليات الدينية.

وقد تحدث القرآن صراحة عن عالم بني إسرائيل الذي كان داعية في أول أمره، وكان ممن يحمل الآيات والمعتقدات والأفكار الحقة، لكنه راح ضحية الأيدلوجية المادية والفكر الحسي.

فقال تعالى: ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾[1].

وهو تعبير عن تعلقه - بكل مراتب فكره - وميله القلبي للماديات، وبقدر الميل للمادة ينسلخ المؤمن عن المعتقدات والمعارف الإلهية.

إن المسألة المهدوية وبشهادة القرآن والروايات غيب إلهي، والغيب لا يتناسب وحسابات الفكر المادي، لأن الغيب لا يدرك بالحواس ولا ينال بالعيان المادي.

ولأن المنجي عليه السلام يغيب عن الأبصار وعن ملامسته للأبدان فهو غيب.

فقد روى الصدوق عَنْ دَاوُدَ بْنِ كَثِيرٍ الرَّقِّيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَ: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» قَالَ: (مَنْ أَقَرَّ بِقِيَامِ الْقَائِمِ أَنَّهُ حَقٌّ.)[2].

١- الأعراف/ ١٧٦.

٢- كمال الدين، الصدوق/ ٣٤٠

وعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي الْقَاسِمِ قَالَ: سَأَلْتُ الصَّادِقَ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهَّ عَزَّ وَجَلَ: ﴿**الم ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ**﴾.

فَقَالَ الْمُتَّقُونَ شِيعَةُ عَلِيٍّ عليه السلام، وَالْغَيْبُ فَهُوَ الْحُجَّةُ الْغَائِبُ.)[1].

وعن الصادق عليه السلام أنه قال لعبدالله بن الفضل: (إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها يرتاب فيها كل مبطل...

يا ابن الفضل: إن هذا الأمر أمر من أمر الله تعالى وسر من سر الله، وغيب من غيب الله)[2].

ومواجهة الغيوب بفكر مسكون بالمادة والماديات يؤدي للكفر والجحود، فإذا اقتضى الفكر المادي ميل الماديين للمفهوم السلبي عن الانتظار في مرحلة، ففي مرحلة أخرى قد يؤدي إلى إنكار وجحود مشروع المهدوية برمته، والانسلاخ من أكبر آية دينية إلهية في هذه الأعصار.

وتحت آية: ﴿**واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناه آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَه الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ**﴾ قال أبو جعفر عليه السلام: الأصل في (ذلك) بلعم، ثم ضربه الله مثلا لكل مؤثر هواه على هدى الله من أهل القبلة)[3].

فحذاري من تغلغل الفكر العلماني المادي ولو في طرائق المعيشة والتعاملات الحياتية فإنه يناقض المفاهيم الحقة، وقد يسير بالفكر لدائرة الشك والريب في المسلمات الدينية التي عليها مسحة غيبية.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٤٠.

٢- نفس المصدر/ ٤٨٢.

٣- مجمع البيان، الطبرسي٤/ ٣٩٥.

■ **الثالث: منشأ تفسيري قاصر**

من مناشئ التفسير السلبي للانتظار هو التفسير الخاطئ لبعض روايات عصر الغيبة، ومن نماذج تلك الروايات:

ما في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: (كل راية ترفع قبل قيام القائم فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله عز وجل)[1].

وقد تمسك بهذه الرواية كمستند لتبرير القعود والسكون والجمود في الغيبة جماعات وفرق من الشيعة، وصاغوا بذلك مذهبا سياسيا خاصا.

وإلى هذه اللحظة يوجد بيننا من يستند لظاهر هذه الرواية وأمثالها لتفسير معنى الانتظار، ويرفض قيام أي دولة دينية شيعية قبل عصر الظهور.

وظاهر الرواية ونظائرها أن كل جماعة وتجمع يقوم بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومتطلباتها في عصر الغيبة فهو تجمع ضلال، ورمزه وقائده طاغوت.

وينقض على هذا الفهم المنكوس للانتظار بعدة أدلة:

● **الدليل الأول: صريح فرائض القرآن**

إن القرآن الكريم - وفي مجموعة من الآيات - هو أول من شرع حمل رايات فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذه الفريضة لا تقيد بحال، وإن كانت المناورة في أدائها مشروعة توخيا للتأثير وتغيير الواقع.

وكل فهم خاص للروايات يقوض به فريضة قرآنية مستمرة فهو فهم سقيم لا يؤخذ به ولا يعول عليه.

١- الكافي، الكليني٨/ ٢٩٥.

ولا شك أن أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له أنحاء، فمرة يكون في صورة فردية شخصية، وأخرى في صورة تجمع وتحت راية عالم موثوق وفقيه بصير.

وكل ذلك مندرج تحت تعاليم القرآن في تلك الفريضة الكبرى.

فنتحصل أن الفهم السلبي للانتظار يجمد نظام الإسلام ويعطل الفرائض والسنن.

● **الدليل الثاني: رايات الضلال في الروايات**

مضافاً للرواية السابقة التي استند عليها من أنكر القيام في عصر الغيبة هناك روايات أخرى فصلت صفة تلك الرايات الضالة المرفوعة على غير هدى، وبينها وبين الرواية السابقة طريق للجمع والمناسبة.

منها رواية المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام أنه قال: (ولترفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدرى أي من أي.

قال: فبكيت، فقال (لي): (ما يبكيك يا أبا عبدالله؟) قلت.. فكيف نصنع؟

قال: (والله لأمرنا أبين من هذه الشمس)[1].

فيستفاد من هذه الرواية أن رايات الضلال سترفع على أنها راية المهدي نفسه، لا أنها راية ممهدة له، لأن الإمام عليه السلام أشار إلى أن تلك الرايات واضحة الضلال في قابل أنوار راية المهدي عليه السلام، والتي هي في هداها أبين من الشمس.

وتوهم الحكم على كل راية ترفع قبل القائم عليه السلام بالضلال – حتى لو كانت تمهيدية وإعدادية – يرفعه ما رواه النعماني في الغيبة عنه عليه السلام أنه قال: (وليس في الرايات راية أهدى من راية اليماني، هي راية هدى، لأنه يدعو إلى صاحبكم)[2].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٤٧.

٢- الغيبة، النعماني/ ٢٦٤.

فراية اليماني راية تمهيد، وقد وصفت بأنها راية هدى.

ويؤكد تصويب أهل البيت عليهم السلام لرايات التمهيد ما في كشف الغمة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: («يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي» يعني سلطانه)[1].

وتلك الجماعة ذات راية وتنسيق وتجمع بنظم ونظام، وهي راية هدى لأنها موطئة وممهدة.

● **الدليل الثالث: قرائن الروايات**

يستفاد بقرينة قول الباقر عليه السلام: (فصاحبها طاغوت يعبد من دون الله عز وجل)[2] أن الرايات الممقوتة قائمة على خلفيات دنيوية، وتروم سلطان الدنيا وموقعا رئاسيا شخصيا، وتدعو لغير دين الله.

فإذا كانت الراية القائمة قبل الظهور تدعو لله ولمنهج أهل البيت عليهم السلام وأداء العبادات وتؤيد حركات التمهيد والاعداد فهي راية هدى ونور.

وخلص بعض الأعلام إلى أمرين:

١ - راية الضلال هي الراية الداعية إلى النفس في قبال الحق، وهي الراية الواقعة في قبال القائم لا في طريقه ومسيره وعلى منهجه، ولذا عبر عنها بالطاغوت.

٢ - إن الروايات الواردة بهذا اللسان (كل راية ترفع قبل راية القائم صاحبها طاغوت) ثلاث روايات وهي حجة لمن ينكر مشروعية الجهاد الابتدائي في زمان الغيبة، ولا يمكن رفع اليد عن الآيات المطلقة الواردة في وجوب الجهاد.

١- كشف الغمة في معرفة الأئمة، الإربلي٣/ ٢٧٨. سنن بن ماجه٢/ ١٣٦٨.

٢- الكافي، الكليني٨/ ٢٩٥.

■ **الرابع: منشأ عقائدي فاسد**

المنشأ الرابع لتفسير الانتظار بلغة خاطئة - تصادر الفرائض وتجمد المسؤوليات وتعطل التمهيد - هو الفهم العقائدي السقيم، وخلاصته:

إن الفرج باعتباره غيب وسر إلهي، فهو فعل الله وحده ولا دخل للمكلفين فيه!!

أو هو شأن خاص بالإمام عليه السلام وهو يقدر ساعته ووقته وظروفه وليس بيد الأمة شيء إلا الانتظار!!

وبناء على هذه الأفكار العقائدية الناقصة والفاسدة يتلخص معنى الانتظار في التالي:

١ - التزام البيوت واستعمال أقصى مراتب التقية.

٢ - دفن المؤمن نفسه وإخفات صوته ومتاركة المسؤوليات العامة.

٣ - انتظار المشيئة الإلهية تقرر ساعة الظهور وإزاحة أستار الغيب!!

● **وجوه خطأ المنشأ الاعتقادي**

وأخطأ هؤلاء - عقائديا - في عدة أمور:

أولا: إن نسبة الأفعال والأسباب لله تعالى لا تجمد دور وإرادة البشر، فنسبة الأفعال للإنسان طوليا هي العقيدة الحقة.

ولذا أكد الأئمة عليهم السلام على قاعدة: (أمر بين أمرين) [1].

أي أن الأفعال - ومنها الظهور والفرج - تنسب لله تعالى وللإمام عليه السلام بوجه، وتنتسب للأمة بوجه.

١ - الهداية، الصدوق/ ١٨.

والله تعالى والمعصومون عليهم السلام لا يلجئون الأمة لمصير معين، فللإرادة البشرية والعمل والتمهيد دور ونصيب في تقرير ساعة ووقت الفرج.

ثانيا: تغافل أصحاب التفسير السلبي للانتظار عن قواعد القرآن المحكمة في هذا المجال، من قبيل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾[2].

فهي قواعد مقررة بتشريع الله وإرادته ومشيئته، والعمل بها لا يخرج الله عن شيء من سلطانه العميم، كما أنه لا ينفي ما للأمة من نصيب في الفعل والإرادة.

ثالثا: لو كان جمود المسؤوليات وإهمال الفرائض ومتاركة المجتمع واغماض العين عن مشروع الفساد يبقي إيمان المؤمنين على ما هو عليه، ولا يفت في عزائمهم ولا يغير من اعتقاداتهم، ولا يعبث بسلوكهم ومحاسن أخلاقهم، لكان للانتظار بالمعنى السلبي وجه من الصحة.

أما مع اليقين بأن الانتظار بلغته السلبية يعبث بإيمان ومعارف واعتقادات المؤمنين، ويؤدي إلى ضمور الإيمان فيهم، والنقلة النوعية بذواتهم من موقع معنوي متقدم إلى موقع متأخر، فهذا انتظار يقلب المعادلات.

فلو خرج المنجي الموعود عليه السلام - وحالهم تلك - لعدهم غرباء عن المشروع، ولم يقبلهم جنودا فيه، أو ممن يعول عليهم في عملية التغيير والإصلاح العالمي.

١- الرعد/ ١١.

٢- محمد/ ٧.

المبحث الرابع

آفاق انتظار الفرج

آفاق انتظار الفرج

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك متى الفرج؟

فقال: (يا أبا بصير وأنت ممن يريد الدنيا؟

من عرف هذا الأمر فقد فرج عنه لانتظاره)[1].

لم يترك الأئمة عليهم السلام تفسير انتظار الفرج لقرائح الأمة ومستوى فهمها، بل تصدوا لبيان معانيه ولغاته وآفاقه ومختلف تطبيقاته.

ونقف في هذا البحث على آفاق ثلاثة لانتظار الفرج:

*الأول: التعمق في المعرفة

تشير رواية البحث إلى مستويين من انتظار الفرج، ثم تحدد المستوى اللائق بتطلعات المؤمنين!

فيحذر الإمام عليه السلام من تفسير الفرج في إطار المصاديق المادية، كالجاه الدنيوي العريض ورفاهية العيش، ويلفت إلى فرج العقول والقلوب بالمعرفة، وهي قنوات الفرج الأخروي.

فمن توسع في المعارف، ومنها معرفة أهل البيت عليهم السلام وشؤون الغيبة ودولة الظهور، وكان اعتقاده جازما ومعرفته يقينية، وعرف وظائفه اتجاه الأئمة عليهم السلام،

١- الكافي، الكليني١/ ٣٧١.

فقد أدرك الفرج، لأنه بذلك الانفتاح المعرفي بدد الحيرة والاضطراب والخوف من المستقبل، بل نفس انتظاره للظهور فرج معرفي وطاعة حقيقية.

فهذا هو الأفق الأول من آفاق انتظار الفرج.

وفي الخبر الصحيح قال الصادق عليه السلام لزرارة: (اعرف إمامك، فإنك إذا عرفت لم يضرك تقدم هذا الأمر أو تأخر)[1].

والمرابطة على المعرفة والتوسع فيها انتظار واع وفرج عقلي.

وأعظم ما ورد في هذا البعد من الفرج ما رواه الصدوق قال:

وقال علي بن الحسين عليه السلام: (انتظار الفرج من أعظم الفرج) [2].

وذلك لأن الانتظار وليد معرفة ويقين سابق، ويدل على المعرفة الثابتة واليقين الجازم.

وقد استرسلت نصوص أهل البيت عليهم السلام في بيان أزمة المعرفة التي سيقع فيها جماعات وأقوام في الغيبة، وبها يكثر أهل الشك والحيرة.

وما التأكيد منهم عليهم السلام على هذه الأزمة إلا لخطورتها ومديات أثرها في ذلك العصر.

وإليك طائفة من الروايات في ذلك:

١ - ما رواه الصدوق عن أبي بصير، عن الصادق جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقا وخلقا، تكون له غيبة وحيرة حتى

١- الكافي، الكليني١/ ٣٧١.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٣٢٠.

تضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب فيملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا) [١].

٢ - وروى عن جابر بن عبدالله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: (المهدي من ولدي.. تكون به غيبة وحيرة تضل فيها الأمم..) [٢].

٣ - وروى عن زين العابدين ع: (وإن للقائم منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى، أما الأولى فستة أيام، أو ستة أشهر، أو ستة سنين، وأما الأخرى فيطول أمدها حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر من يقول به.

فلا يثبت عليه إلا من قوي يقينه وصحت معرفته ولم يجد في نفسه حرجا مما قضينا، وسلم لنا أهل البيت) [٣]

٤ - وروى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن علي بن أبي طالب عليه السلام إمام أمتي وخليفتي عليها من بعدي، ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ الله به الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما، والذي بعثني بالحق بشيرا إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر.

فقام إليه جابر بن عبدالله الأنصاري فقال: يا رسول الله وللقائم من ولدك غيبة؟ قال: إي وربي، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، يا جابر إن هذا الأمر (أمر) من أمر الله وسر من سر الله، مطوي عن عباد الله، فإياك والشك فيه فإن الشك في أمر الله عز وجل كفر) [٤].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٢٨٧.
٢- المصدر السابق / ٢٨٦.
٣- المصدر السابق / ٣٢٤.
٤- المصدر السابق / ٢٨٨.

*الثاني: الانتظار اقتداء بأهل البيت عليهم السلام

ومن آفاق الانتظار بمعناه الصحيح اقتداء نهج الإمام الموعود عليه السلام صفة وعبادة وعملا.

فقد روى الصدوق في كمال الدين عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو مقتد به قبل قيامه، يأتم به وبأئمة الهدى من قبله، ويبرأ إلى الله عز وجل من عدوهم أولئك رفقائي وأكرم أمتي علي).[1]

وتشتمل هذه الرواية على أمور:

أولا: إن انتظار الفرج نشاط وهمة في اقتداء أوصاف وأخلاق الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وملاحظة مجموع سيرتهم، وتمثلهم في الواقع دون اغفال أحد منهم.

ولا معنى لتفسير أخذهم أسوة بالجمود والانكفاء وملازمة البيوت، بل هو نشاط في كل الاتجاهات كما كانوا في حياتهم لا يفترون من النشاط وأداء المسؤولية.

وقد التفت الشيخ الجوادي إلى نكتة مهمة في قول الرضا عليه السلام: (أفضل أعمال شيعتنا انتظار الفرج)[2].

فقال: (إن الرواية تتحدث عن الأعمال وتصف انتظار الفرج بأنه أفضل الأعمال، إن الانتظار حركة واعية غايتها تحقيق الوعد الإلهي) [3].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٢٨٧.

٢- المصدر السابق/ ٣٧٧.

٣- أدب فناء المقربين، الجوادي الأملي ٩/ ٢٩٢.

ثانيا: إن التولي والتبري من هوية الانتظار الصحيح، لأن المرء مع من أحب، فلا بد أن يتجلى في المنتظر الانجذاب لهم والنفور من أعدائهم بمختلف الصور في عصر الغيبة.

ثالثا: وصف الرسول الأكرم ﷺ المنتظرين الحقيقيين بالرفقاء، وهو وصف يلتقي مع ما ورد في رواية رواها الفريقان، من أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم: (يا ليتني قد لقيت إخواني)، فقال له أبو بكر وعمر: أولسنا إخوانك؟ آمنا بك وهاجرنا معك؟ قال ﷺ: قد آمنتم وهاجرتم ويا ليتني قد لقيت إخواني، فأعادا القول؟ فقال رسول الله ﷺ: أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين يأتون من بعدكم يؤمنون بي ويحبوني وينصروني ويصدقوني وما رأوني، فيا ليتني قد لقيت إخواني) [1].

ولو قال قائل: عنى بلفظ (إخواني) عموم من آمن به بعد عصر النبوة؟

لقلنا: ثمة رواية أخرى تخصص فئة من ذلك العموم وهم المنتظرون للحجة عليه السلام بحق وصدق.

فقد روى الصدوق عن حماد بن عمرو، عن الإمام جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي بن أبي طالب عليه السلام في حديث طويل يذكر فيها أن رسول الله ﷺ أوصاه فقال له:

(يَا عَلِيُّ أَعْجَبُ النَّاسِ إِيمَاناً وَأَعْظَمُهُمْ يَقِيناً قَوْمٌ يَكُونُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، لَمْ يَلْحَقُوا النَّبِيَّ وَحُجِبَ عَنْهُمُ الْحُجَّةُ فَآمَنُوا بِسَوَادٍ عَلَى بَيَاضٍ) [2].

فالمنتظرون المقتدون بأهل البيت عليهم السلام رفقاء النبي ﷺ وإخوانه وأكرم الناس عليه وأفضل الخلق.

١- أمالي المفيد/ ٦٣. ومسند أحمد٣/ ١٥٥.

٢- من لا يحضره الفقيه، الصدوق ٤/ ٣٦٦.

*الثالث: الانتظار جهاد أكبر

روى الصدوق في كمال الدين عن زين العابدين عليه السلام أنه قال: (من ثبت على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله عز وجل أجر ألف شهيد من شهداء بدر وأحد)[1].

إن الانتظار في أعظم آفاقه يكون بالجهاد والمرابطة، وللمرابطة نحوان:

مرابطة في الجهاد الأصغر ومرابطة في الجهاد الأكبر.

فليس من المعقول أن يقدر مجرد السكون والجلوس في البيوت بثمن أجر ألف شهيد، فنفس الثمن المجهول في الرواية يدل على أن هوية الانتظار تكون بالمجاهدة في كل الاتجاهات.

١ - فالانتظار عمل تغييري جذري وحركة تكاملية دؤوبة نحو السعادة والنور والطهر والتطهير.

٢ - والانتظار جهاد مسؤوليات، وجهاد مواساة للإمام عليه السلام، ونصب الموعود عليه السلام أمام ناظر العين والقلب، وتحسس وجوده وتوخي رضاه في كل الأحوال.

٣ - والانتظار فاعلية في المشاريع الدينية، وسمو وارتفاع عن الانفعال بالتغريب والتنوير والبدع الجديدة.

٤ - والانتظار هو تجنيد البدن والعقل والروح وكل القدرات في أنشطة الدعوة الدينية.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٣.

ولا تظن أن هذه المعاني والتفسيرات والتطبيقات للانتظار مجرد تصويرات من قريحة خاصة، بل عليها اتفاق أفهام المحققين من العلماء والمرابطين من الفقهاء قديما وحديثا.

فما كانوا إلا جنودا في كل الحقول - خدمة للدين - مهما كلفهم ذاك من ثمن.

ومنهم السيد الإمام الخميني - قدس سره - الذي أوجب مجاهدة الظلم والظالمين كمرحلة إعدادية للظهور.

فقال: (القوى الكبرى تروج لمعنى الانتظار الخاطئ، بأنه عليكم أن تتركوا السياسة لنا واذهبوا أنتم إلى مساجدكم.

إذا كان بمقدورنا التصدي للظلم يجب ألَّا نتهاون في ذلك... ويجب أن نمهد الطريق للإمام عليه السلام ونوفر الأسباب التي تعجل في ظهوره علينا، أن نعمل على تهيئة العالم لظهور الإمام الموعود)[1].

*أعظم أنماط انتظار الفرج

كيف ينقلب انتظار الإمام عليه السلام إلى فرج، بل إلى ما يشبه المعايشة الواقعية ليوم الظهور؟

وكيف يتحول مر الصبر والمعاناة جراء غيبة الإمام عليه السلام إلى حلاوة اللقاء والمشاهدة؟

لقد أفاض أهل المعرفة في شرح أعظم حالات وأطوار الانتظار والتي ينقلب فيها الغياب ظهورا والغيب شهادة.

١- صحيفة الإمام، الإمام الخميني ٢١/ ١٩ و ٢٠.

بل ودعوا إلى أنماط من التصرفات والإعدادات التي تجعل المؤمن في توقع الظهور ومرمى الفرج.

فقد عقد الأصفهاني في كتابه (مكيال المكارم) فصلا تحت عنوان: (الإعداد ومرابطة الخيل انتظارا لظهوره)[١].

وفيه استشهد برواية الكافي عن أبي الحسن عليه السلام: (أما علمت أن من ارتبط دابة متوقعا به أمرنا ويغيظ به عدونا وهو منسوب إلينا أدر الله رزقه، وشرح صدره، وبلغه أمله، وكان عونا على حوائجه)[٢].

وربط الفرس والدابة ليس إلا رمزا للاستعداد التام وتوقع الظهور، بل هو معايشة للدولة المهدوية.

وإذا كان من عادة الأوائل من الشيعة أنهم يخرجون للصحراء فيستغيثون به، وقد أعدوا دوابهم وأسرجوا خيولهم لنصرته كناية عن تمام الاستعداد وتحسس قيامه، فبالإمكان تحسس ذلك ومعايشته بالمعرفة وحركات القلوب والأرواح.

ويمكن أن تؤدى هذه الرمزية بما هو أعظم وهو مرابطة القلب في غيبته عليه السلام على حبه وتحسس وجوده وتلمس آثاره ومداومة ذكره.

■ الشهيد الصدر واستنزال العقليات إلى محسوسات

وما أروع ما كتبه السيد الشهيد الصدر رحمه الله في كتابه (أئمة أهل البيت ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية) تحت عنوان (استنزال القيم العقلية إلى مستوى المحسوسات)[٣].

١- مكيال المكارم، آية الله ميرزا محمد تقي الموسوي الأصفهاني ٢/ ٣٩٧.
٢- الكافي، الكليني٦/ ٥٣٥.
٣- أهل البيت عليهم السلام ودورهم في تحصين الرسالة الإسلامية/ ٤٥و٤٦.

وبين أنه لا ينبغي أن نكتفي بأفكار عقلية نؤمن بها ونركها في زاوية من عقولنا كما يفعل بعض الفلاسفة، بل يجب أن نستنزلها إلى أقصى درجة من الوضوح الحسي.

ووضوح العقليات في الذهن على درجات، ولا يمكن أن نصل إلى درجة الأنبياء، لكن علينا أن نكسب ما نقدر عليه من درجات الوضوح، وعلينا أن نشحن وجودنا بتلك القيم والمثل حتى تكون على مستوى المحسوسات.

وبين الشهيد أن أحد أهم أساليب استنزال الأفكار والقيم والمثل إلى مستوى المحسوسات هو إيحاء الإنسان بها إلى نفسه باستمرار.

فمثلا لو أوحيت إلى نفسك باستمرار بالعبودية وبوجود ثواب وعقاب وجنة ونار، فهذا الإيحاء المستمر سيصبح بالتدريج شبحا يكاد يكون محسوسا بعد أن كان نظريا وعقليا صرفا.

ثم طبق الشهيد هذا الاستنزال على العلاقة بالحجة عليه السلام، فبين أنه بالإمكان أن يعيش كل واحد منا لحظة لقاء الإمام الغائب عليه السلام من دون أن يلقاه ولو مرة واحدة، وهو أمر ممكن ويكمن في الإعداد والتهيئة والتحسس له، وبتكرار ذلك التحسس والمراقبة تكون معايشته في الغيبة كمعايشة المحسوس المشهود.

وهذه الحالة من استنزال القيم إلى عالم المحسوس هي الكفيلة بصيانة النفس من الوقوع في المعصية ومن الانهيار مع الأفكار والدعايات المغرضة.

ويطرح الشهيد هذا المثال:

تصور أن أحداً أتيح له شرف لقاء إمامه بأم عينه، وعاهده وجها لوجه على ألَّا يعصي ولا يخون الرسالة، فهل في الإمكان أن يسقط في وحل المخالفة بعد هذه المعاينة والمعاهدة ولو كان في أي مكان أو تحت أي ضغط!!

إذا تذكر ولي الأمر وهو يأخذ عليه البيعة فإن ذلك يحرسه عن الانحراف والسقوط.

والمحصلة: إن هذه المعاينة يمكن الاستعاضة عنها بالاستنزال لقيم ومعارف صاحب العصر والزمان عليه السلام إلى أفق المحسوس والملموس، وتكرار التحسس له في كل حين.

وتكرار هذا الاستنزال والتحسس تكون بيعة لإمام حاضر وموجود.

وعند ذلك تنسد طرق المعصية والمخالفة، ويحل محلها المراقبة الشديدة والاستعصام من الذنوب.

وهذا هو أعظم أنماط انتظار الفرج.

وكلام السيد الشهيد في غاية الدقة، ألا ترى أنه إذا اشتد فينا حب شيء أو الخوف من أمر نصل إلى درجة نحس معها أن شبح ذلك الشيء يرافقنا ويراقبنا في كل الحالات والأحوال!!

فلو فعلّنا هذا النمط من الحب والشوق للغائب الموعود عليه السلام لأحسسنا بوجوده معنا بلا مفارقة ولا مزايلة.

وما عناه الشهيد تحقق له نظير في تاريخ النبوة، فقد روى الكليني عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهَّ عليه السلام أنه قَالَ:

(اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله حَارِثَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ النُّعْمَانِ الْأَنْصَارِيَّ فَقَالَ لَهُ كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ مُؤْمِنٌ حَقًّا.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ صلى الله عليه وآله لِكُلِّ شيء حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرَتْ لَيْلِي وأَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى عَرْشِ

رَبِّي- وقَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إلى أهل الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ وكَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أهل النَّارِ فِي النَّارِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهَّ ﷺ عَبْدٌ نَوَّرَ اللهُّ قَلْبَهُ أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ.

فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ ادْعُ اللهَّ لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ.

فَقَالَ- اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى بَعَثَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ سَرِيَّةً- فَبَعَثَهُ فِيهَا فَقَاتَلَ فَقَتَلَ تِسْعَةً أو ثَمَانِيَةً ثُمَّ قُتِلَ) [١].

فبكثرة إيحاء حارثة الاعتقادات لنفسه صار لها أشباح تتمثل أمامه فتنفعل بها نفسه، فكان غيب الآخرة عنده شهوداً.

*الانتظار إصلاح وإعداد

ما هو الأمر الذي ينتظره الغائب الموعود عليه السلام لتشرق شمس ظهوره على ربوع الأرض؟

قد يظن بعض أن الإمام عليه السلام ينتظر استكمال حلقات الظلم والجور، لورود روايات متواترة من الفريقين بهذا المضمون.

منها ما رواه الكليني في الكافي عن الصادق عليه السلام: (هو المهدي الذي يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما)[٢].

بل جر ذلك بعض إلى القول:

ينبغي علينا في زمن الغيبة أن نلتزم معية معلمي الظلم والجور لا معلمي الأخلاق والسلوك حتى يتحقق شرط الظهور، وعلينا أن نشاطر القوى الفاسدة عملها كي يعم الفساد ويتعجل الفرج!!

١- الكافي، الكليني٢/ ٥٤.

٢- نفس المصدر ١/ ٣٣٨.

والنقض على هذا التصور في أمور:

أولاً: إن تلك الروايات الكثيرة المثبتة في كتب الفريقين تهدف إلى توصيف أوان ما قبل الظهور، لا أنها تدعو إلى مشاطرة الفاسدين في فسادهم.

وثمة طوائف من الروايات تدعو بصراحة للاستقامة، فقد أخرج الصدوق في كمال الدين عن زين العابدين عليه السلام أنه قال:

(وإن للقائم منا غيبتين إحداهما أطول من الأخرى...وأما الأخرى فيطول أمدها حتى يرجع عن هذا الأمر أكثر من يقول به فلا يثبت عليه إلا من قوي يقينه وصحت معرفته ولم يجد في نفسه حرجا مما قضينا، وسلم لنا أهل البيت)[1].

فما في رواية امتلاء الأرض بالظلم توصيف لأحوال أكثر الناس قبيل الظهور لا دعوة للانهيار عن القيم، لذا أشار الإمام زين العابدين عليه السلام في ذيل الرواية إلى الموجبات الروحية التي تفضي للاستقامة على الإمامة.

ثانيا: إن المشارك في الظلم والجور بتخيل التمهيد للفرج سيلبس ثوب الظلم وسينطبق عليه عنوان الظلمة، ومثله سيكون محلا للاقتصاص من قبل الإمام عليه السلام.

فقد ورد في دعاء الندبة: (أين المعد لقطع دابر الظلمة، أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج، أين المرتجى لإزالة الجور والعدوان، أين مبيد أهل الفسوق والعصيان والطغيان، أين مستأصل أهل العناد والتضليل والإلحاد)[2].

ثالثا: ذكر آية الله العظمى السيد الخامنئي (حفظه الله) في كتابه: (أهل البيت عليهم السلام إنسان بعمر ٢٥٠ عاما) مطلبا غاية في الأهمية، محصله:

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٤.

٢- إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس١/ ٥٠٩.

(بعد المراجعة للروايات في مختلف الأبواب وجدت أن كل الروايات واردة بهذا اللسان: (يملؤها عدلا كما ملئت ظلما وجورا)، ولم أجد هذا القالب: (بعدما ملئت ظلما وجورا)

والفرق بينهما كبير، إذ تفيد العبارة الثانية أن ظهور الإمام عليه السلام يكون بعد استفحال الظلم وامتلاء الدنيا بالجور.

بينما تشير العبارة الأولى إلى أن حجم ما سيقوم به الإمام عليه السلام في العدل والقسط هو بحجم وسعة ما حصل على مدى التاريخ وفي كل الأزمنة من امتلاء الدنيا بالظلم والجور.

فكما مرت أيام وأجيال عانت البشرية فيها من الظلم بكل صنوفه سيمر عليها أيام عدل وقسط بحجم مجموع ما جرى من الظلم في كل أدوار الدنيا.

فالمقارنة في المقدار والأنماط وليس في خصوص البعدية، فلا يمانع ذلك وجود الصالحين والممهدين).[1]

وكلامه غاية في الدقة، وبعد مراجعة الكتب المعتبرة وجدت الأمر كما قال، وإن كان في البحار رواية بهذا اللسان (بعدما ملئت) ولعله تصحيف.

*الإمام عليه السلام هو المنتظِر

وبعد سقوط التوهم السابق نعود للسؤال:

ماذا ينتظر المنجي الموعود عليه السلام؟

إنه ينتظر اجتماع الممهدين والأنصار والوزراء والأعوان، وقبول البشرية بنحو عام بمشروع العدالة.

١- إنسان بعمر ٢٥٠ عاما، السيد الخامنئي ٣٨٨، بتصرف.

فقد جاء في أحد أدعية قنوته عليه السلام: (يا من لا يخلف الميعاد أنجز لي ما وعدتني واجمع لي أصحابي وصبرهم وانصرني على أعدائك وأعداء رسولك ولا تخيب دعوتي)[1].

وانتظاره الأصحاب والأنصار على نحوين:

الأول: ينتظر صلاح واستعداد الموجودين.

الثاني: ينتظر ولادة من قدر لهم النصرة.

فقد ذكر في بعض الروايات مصطلح (التزيل) تبعا للقرآن.

فعن إبراهيم الكرخي قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام- أو قال له رجل -: أصلحك الله ألم يكن علي عليه السلام قويا في دين الله عز وجل؟ قال: بلى؟

قال: فكيف ظهر عليه القوم، وكيف لم يدفعهم وما يمنعه من ذلك؟

قال عليه السلام: (آية في كتاب الله عز وجل منعته؟

قال: قلت: وأية آية هي؟

قال: قوله عز وجل: «لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما».

إنه كان لله عز وجل ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، فلم يكن علي عليه السلام ليقتل الآباء حتى يخرج الودائع، فلما خرجت الودائع ظهر على من ظهر فقاتله.

وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتى تظهر ودائع الله عز وجل فإذا ظهرت ظهر على من يظهر فقتله)[2].

١- مهج الدعوات ومنهج العبادات، السيد ابن طاووس/ ٦٩.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٦٤٢ .

فإذا ظهر من في الأصلاب ورجع من في القبور، وكان في الأحياء من هم على أتم الجهوزية للنصرة والانتظار الإيجابي، عجل الإمام عليه السلام بالظهور والقيام.

■ **عصر الغيبة وصناعة الصالحين**

لو قيل: إن صناعة الصالحين مهمة كبرى، وإذا لم يتم صناعتهم في ظروف ظهور وحضور الأئمة عليهم السلام، فكيف يصنعون في زمن الغيبة والحيرة والفترة؟

يمكن الجواب بأمور:

أولا: إن الغيبة ظرف امتحانات ومحن مهولة ومزلزلة، وأجواء الامتحانات تخرج الكبار وتغير المعادلات، كما تفرز الفاشلين وعديمي الإرادة.

ثانيا: وصفت الروايات أهل الإيمان في آخر الزمان بأن الله حباهم مستوى من العقول والأفهام ما جعل عندهم الغيبة بمنزلة المشاهدة.

روى الصدوق عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: (يا أبا خالد إن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله بالسيف، أولئك المخلصون حقا وشيعتنا صدقا، والدعاة إلى دين الله عز وجل سرا وجهرا) [1].

ثالثا: دور الفطرة المتألقة والعقل اللا واعي.

أخطأت بعض المدارس المعاصرة في بنائها على فراغ الإنسان في داخله، وأنه مادة خام قابلة للتشكيل بالتربية كيفما يشاء المربي!!

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٢٠.

لأن القرآن الكريم ينقض تلك النظرية في قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**﴾[2]

ويؤكد أن محتوى الإنسان معجون بلون الفطرة التوحيدية ومختوم ببصمة الفضائل والمكارم الإلهية.

وهذه الفطرة تشكل العقل اللا واعي في البشر.

■ **الفطرة والعقل اللا واعي**

وقد اعترف أهل الدراسات الحديثة أن ثمانين بالمئة من مسارات الإنسان توجه من منطلق العقل اللا واعي.

ولو عبث بمقدرات ومخازن الفطرة - العقل اللا واعي - أمكن دفنها والتغطية عليها دون إعدامها وإفنائها بالكلية.

وبعبارة أخرى:

إن الأطروحة القرآنية لا تنكر دور التربية والبيئة في توجيه المسار، لكنها تؤكد أن الموجه الأكبر للإنسان ما هو مطوي في فطرته، وما هو مودع فيه منذ عوالمه وأدواره السابقة.

ولا شك أنه يترتب على سطحية النظرية البشرية ضياع رأس مال الإنسان، بينما يترتب على بعد نظر الأطروحة القرآنية رعاية ما أودع في باطن البشر من

١- الروم/ ٣٠.

٢- البقرة/ ١٣٨.

فطرة، لأنها توصل وجود الإنسان بما مر عليه من عوالم وبما هو آت من أدوار، فلا ينقطع مساره في رسم واقعه عن الماضي والمستقبل.

■ **الفطرة داعية دينية**

إن للدين دعاة، وأول دعاته هو الفطرة، وفي إمكان الإنسان أن يتكامل بتوجيه الفطرة له في المسار الصحيح بعد الأخذ بتعاليم الدين.

فمن دفن مخازن فطرته لا ينصقل ولا يتكامل وإن كان يعايش جسد المعصوم عليه السلام ويسمع منه.

ومن انفتح على ملفات فطرته، واعتقد بالمعصوم عليه السلام عقلا وروحا ولم يره، ثم أخذ بتعاليمه وإرشاداته تكامل إلى ما شاء الله في الدرجات العالية.

وقد دعتنا الروايات إلى التركيز على المعارف والعقائد في زمن الغيبة كما مر في المباحث السابقة، لأن دراسة العقائد تبرز دفائن العقل اللا واعي، وتفتق مطاوي وملفات الفطرة.

بينما الإرشادات الاجتماعية والمواعظ الأخلاقية توجه العقل الواعي، والتأثير على العقل اللا واعي أعظم في إصلاح البشر.

فالمنتظر الحقيقي إذا راعى شؤون الفطرة، ورابط على المعارف العقائدية، خطى خطوات سريعة وثابتة على طريق التمهيد والإعداد، ولا تزل له قدم مهما تراكمت سحب الضلال والظلام.

إن عصر الغيبة مزلة أقدام لفئات بشرية كثيرة، وهو محفز على التكامل ورافد إصلاح شامل لأهل البصائر.

المبحث الخامس

الانتظار الواعي وتكاليف الغيبة

الانتظار الواعي وتكاليف الغيبة

قال تعالى: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[1].

***المهدوية والقرآن**

صرح بعض الشيعة المتأثرين بالحداثة أن غيبة الإمام الموعود عليه السلام، وما تلاها من مسائل، كمسألة الانتظار، والفرج والظهور، والاعداد والتمهيد، وواجبات ظروف الغيبة، كلها مسائل روائية لا أثر لها في القرآن الكريم.

بل تصدى لمناقشة بعض الآيات التي يعتقد أعلام الشيعة بنزولها في الدولة المهدوية، وخلص إلى أنه لا أثر للمهدوية بالنمط الشيعي في آيات القرآن.

وهذا خطأ كبير للغاية.

وفي المقابل أوصل بعض المحققين الآيات التي تشير للمهدوية إلى أكثر من مئتين آية[2].

وقال بعض العلماء: هناك العشرات من الآيات البينات في القرآن نزلت -تفسيرا أو تأويلا أو تنزيلا أو تطبيقا أو تشبيها - في ثاني عشر أئمة اهل البيت عليهم السلام.

١- يونس/ ١٠٢.

٢- راجع معجم أحاديث المهدي٥، الشيخ علي الكوراني.

*الاجتهاد وفق الضوابط

ويجدر بنا الاشارة لمسألة – غاية في الأهمية – تعنى بتقييم أصحاب الأفكار الجديدة والاجتهادات غير المنضبطة والذين كثروا في وقتنا المعاصر، فما عاد حسن الظن وسعة المحتملات تحسن في التعامل مع اجتهاداتهم.

بل لا يشك كثير من أهل البصيرة أن بعض مدعي الاجتهاد الآن أجراء لمشروع تخريبي تدفع في سبيله أموال طائلة وتسخر لأجله الطاقات والتكنلوجيا ووسائل التأثير المختلفة.

فلقد أدرك أعداء مدرسة أهل البيت عليهم السلام صعوبة ذوبان الشيعة في المشاريع التغريبية واستحالة تماهيهم مع الأفكار الجديدة، لوجود المراجع العظام والشعائر الدينية، وهما حبل نجاة وخارطة طريق وصمام أمان كلما أثير غبار التشكيك وتراكمت سحب الأفكار الظلامية.

فوجدوا أن أفضل وسيلة هي اختراع المجتهدين والمفكرين ممن تلبس بثوب الشيعة، وتحريضهم على انتقاد الشعائر والطقوس، كالزيارات واحتفالات المواليد ومجالس ومآتم أهل البيت عليهم السلام.

فلقد انتقد رموز المذاهب الأخرى ردحا من الزمن شعائر الشيعة ومحافلهم – التي يتناول فيها معارف أهل البيت عليهم السلام، وتغذي الفكر بما يثبت الأرواح على ولايتهم – فما ازداد الموالون إلا ثباتا وإيقانا.

فلم تبق إلا وسيلة اصطناع المجتهدين من الشيعة ليكونوا بديلا عن الآخرين في محاربة المآتم والشعائر والأدعية الروحية وسائر محافل الأحياء بلغة العقل ووسائل التضعيف والتصحيح الأخرى.

واتجاه هذه الخديعة سيلتزم المتدينون – في أحسن الأحوال – موقف الصمت بذريعة أن الاجتهاد لا يواجه بالقمع ولا بالإرهاب، وبذلك تمرر الأفكار التخريبية والمفاهيم البائسة.

وفي الحقيقة لا ينطبق على تلك الاجتهادات مفهوم الاجتهاد بالمعنى المتوافق عليه، بل هي خديعة من صنيعة دوائر معادية لأهل البيت عليهم السلام، والمتبني لها أداة رخيصة مأجورة بيد أعداء التشيع، ليقوم بدور العبث الفكري في مسائل المذهب.

فما أحوجنا للتركيز على الموازين المنضبطة والمقاييس الموزونة التي يقاس عليها أفكار بعض الدخلاء، ليميز بين الاجتهاد القائم على الموازين والأفكار الخادعة، درأ للفساد الثقافي وحيلولة دون سقوط بعض المؤمنين في شراكهم الفكرية.

قال الشيخ الجوادي (حفظه الله):

(إن إقامة المراسيم أفضل ذخائر النظام الديني وثرواته، إذ به ستتسلح الأمة الإسلامية بسلاح الأنبياء وينتزع سلاح الأعداء، فهم يريدون إبقاء المسلمين على جهلهم فكانت محاولاتهم ولا زالت حتى وقتنا الراهن مستمرة بواسطة الإعلام والفضائيات.. خشية ان يصبح المسلمون عالمين عاملين) [1].

وقد سعى بعض أدعياء العلم للتشويش على المراسيم والاحتفالات الدينية بحجة عدم وجود دليل خاص عليها، وزعم أنه لا ينبغي أن ترسخ في الأذهان كبرنامج ديني!!

١- كوثر كربلاء، الشيخ الجوادي / ٣٢٧.

وقام آخر بالتشويش على المسألة المهدوية قرآنيا!

وانتقد ثالث استذكار المهدي عليه السلام في يوميات المؤمنين!!

ولا شك لدينا أن الغاية من الشبهات نزع أسلحتنا القوية ودروعنا الحصينة، وتركنا فريسة سهلة لغزو الأفكار التنويرية.

*انتظار الفرج في القرآن

في البداية نقدم لمحة عن مسائل الغيبة والانتظار في القرآن الكريم:

١ - اخرج العياشي في تفسيره عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: سألته عن شيء في الفرج، فقال: أوليس تعلم أن انتظار الفرج من الفرج، إن الله يقول: ﴿**فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾[١].

٢ - وروى الصدوق في كمال الدين عن الرضا عليه السلام أنه قال: (ما أحسن الصبر وانتظار الفرج أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ**﴾، ﴿**فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ**﴾.

فعليكم بالصبر فإنه إنما يجئ الفرج على اليأس، فقد كان الذين من قبلكم أصبر منكم)[٢].

إن غيبة الأولياء بحسب القرآن سنة امتحانية، وفي ظروفها تتحد أقدار ومراتب المؤمنين، فمن لم يفهم أسرار الغيبة ولم يقف على المعنى السليم لانتظار الفرج سقط في الامتحان وتهاوى عن ضفة النجاة.

١- تفسير العياشي، العياشي ٢/ ١٣٨.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٦٤٥.

ولقد بين القرآن عجائب غيبيات الأنبياء عليهم السلام، فبين غيبة في بطن حوت، وغيبة في الطور، وغيبة بمعنى السياحة في الأرض بخفاء العنوان كما في غيبة الخضر عليه السلام.

وبينت الآيات اشتباه أقوام في استيعاب غايات غيبة الأولياء، وسلوكهم طرقا معوجة على إثرها تنكبوا الطريق وفارقوا الحق.

وبسط ذلك في نقاط:

■ **الأولى: الغيبة امتحان**

قال الله تعالى: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ**﴾[1].

فكانت غيبة موسى عليه السلام في الميقات الإلهي فتنة وامتحان.

وروى الصدوق عن الصادق عليه السلام: (إن للغلام غيبة قبل أن يقوم ... لأن الله عز وجل يحب أن يمتحن خلقه فعند ذلك يرتاب المبطلون)[2].

وروى عن الكاظم عليه السلام: (إنه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به، إنما هي محنة من الله عز وجل امتحن بها خلقه)[3].

١- الاعراف/ ١٥٥.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٤٦.

٣- نفس المصدر / ٣٦٠.

فالغيبة وانتظار الفرج بيئة امتحانية، والمنتظرون فيها على أقسام، إما منتظرون بالمعنى الايجابي وإما منتظرون بالمعنى السلبي.

■ **ثانيا: الغيبة رافد تكامل للولي**

على خلاف ما يظنه البعض من أن الغيبة جمود وسكون من طرف الأنبياء والأولياء عليهم السلام، يصرح القرآن أنها معراج وعروج وصعود لصاحب الغيبة.

ودل على ذلك قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾**[1].

فموسى عليه السلام في غيبة الميقات كان سائحا في درجات القرب حتى الصعق والتوبة الصعودية، وكلها درجات ومعراج له في مدارج السماء.

وكذا قوله تعالى: **﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾**[2].

فدعاء يونس عليه السلام ومناجاته باستمرار في غيبته سلم لدرجات ومراتب الصعود.

وورد في أدعية قنوت القائم عليه السلام:

قوله عليه السلام: (اللهم صل على محمد وآل محمد وأكرم أولياءك بإنجاز وعدك)[3].

١- الاعراف/ ١٤٣.

٢- الصافات/ ١٤٢ ١٤٤.

٣- مهج الدعوات ومنهج العبادات، السيد ابن طاووس/ ٦٧.

وفي قنوات آخر: (يا من لا يخلف الميعاد أنجز لي ما وعدتني واجمع لي أصحابي وصبرهم وانصرني على أعدائك وأعداء رسولك ولا تخيب دعوتي)[١].

فالإمام عليه السلام في ظروف الغيبة مقيم على المناجاة والتوسل وسياحة العبادة وعروج الروح، ولا شك أن تكامله مع الله في ازدياد وتكامل بورود المحن الشديدة عليه.

■ **ثالثا: التفسير السلبي لغيبات الأنبياء عليهم السلام**

لقد انتهى تفسير الانتظار بنحو سلبي بقوم موسى عليه السلام للنكول والجحود والكفر بالله تعالى، ومتاركة طاعة وتبعية وصيه، وفي بيان هذه النتيجة يقول تعالى: ﴿**قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى**﴾[٢].

فبلغ بهم الانتظار السلبي إلى العكوف على عبادة العجل وهجران التوحيد، ولو فسروا الغيبة تفسيرا صحيحا لساقهم إلى اتباع هارون وتجاوز المحنة والفتنة بسلام.

والحاصل إن هذه الغيبات القرآنية بمعانيها وأسرارها ونتائجها هي أمثلة للغيبة العظمى لإمام الزمان عليه السلام.

فلو استفدنا من آيات الغيبة في القرآن مفاهيم صحيحة لتجاوزنا عصر الغيبة بكل نجاح تعقلا وممارسة.

١- مهج الدعوات ومنهج العبادات، السيد ابن طاووس/ ٦٩.
٢- طه/ ٩١.

● **تفسير الطوسي للانتظار الإيجابي**

للانتظار السلبي انعكاسات كثيرة، منها:

١- جحود المعتقدات وهجران الفرائض.

٢- إهمال ترويض النفس وصقل الذات وفق تعاليم الدين.

٣- ضمور مكارم الأخلاق والفضائل، والتماهي مع أخلاق الإنسان العصري.

فهل ينطبق عنوان المنتظر على من هذه حالهم!

وما اروع بيان الشيخ الطوسي في الغيبة[1]، وخلاصة كلامه في أمور:

١ - للإمام الحجة عليه السلام وجود وظهور، ووجوده لطف وظهوره لطف آخر.

٢ - إن جوده عليه السلام ليس في مقدورنا، فلو كلفنا به كان تكليفا بما لا يطاق وهو قبيح، وقد تكفل الله بوجوده وإيجاده.

٣ - إن ظهوره وبسط يده مقدور لله تعالى وحده، لكنه لو بسط يده قهرا كان إلجاء، والإلجاء خلاف مقتضيات الامتحان، وبه يسقط التكليف.

٤ - إن ظهوره وبسط يده وتقوية سلطانه رغم أنه مقدور لله بالاستقلال إلا أن الله لم يبسط يده، وهذا يدل على أنه غير واجب على الله بل واجب على الأمة.

فيجب على الأمة القيام بكل ما من شأنه بسط يد الإمام عليه السلام وظهور سلطانه على العالم، وإن لم تفعل كانت جانية على نفسها، والانتظار بمعنى العمل على بسط سلطانه وإطلاق يده ينفي كل معاني الانتظار السلبي.

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ١١.

*شروط نجاح الانتظار

وفي رواياتنا بيان لشرائط النجاح في مرحلة الانتظار، وأذكر منها شرطين:

■ الأول: شرط نفسي روحي

وأشير إليه كثيرا في الروايات، وهو مراعاة عدم حصول قسوة القلوب بطول الغيبة وانتظار الفرج.

فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (للقائم منا غيبة أمدها طويل..، ألا فمن ثبت منهم على دينه ولم يقس قلبه لطول أمد غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة)[1].

فعدم قسوة القلب شرط أخلاقي روحي للانتظار الناجح.

■ الثاني: شرط معرفي

روى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (التاسع من ولدك يا حسين هو القائم بالحق، المظهر للدين، والباسط للعدل ... فلا يثبت فيها على دينه إلا المخلصون المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ الله عز وجل ميثاقهم بولايتنا وكتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه)[2].

وعن السجاد عليه السلام انه قال: (فلا يثبت عليه إلا من قوى يقينه وصحت معرفته)[3].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق٣٠٣.
٢- نفس المصدر/ ٣٠٤ .
٣- نفس المصدر/ ٣٢٤.

فتفيد الروايات توصيات مهمة لتأمين الانتظار الإيجابي:

منها رعاية أحوال النفس ومستوى يقين الروح، ومنها رعاية لطائف اعتقادات الفكر.

*الانتظار فضيلة كبرى

ومما يدل على فضيلة انتظار الفرج ما أشير إليه في الروايات من أن الانتظار من المكارم والفضائل والعبادات.

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (وانتظار الفرج عبادة) [1]

لذا قال بعض المحققين: إن واحدة من أسرار إخفاء ساعة الظهور ويومه هو ادراك فضيلة الانتظار من عموم المؤمنين، إذ لو اطلع أكثر المؤمنين على يوم الظهور وكان بعيدا أوجب البعد دخول اليأس وفوات فضيلة الانتظار.

ومن الروايات الصريحة في الدلالة على فضيلة انتظار الفرج ما رواه الكليني عن ابي الجارود قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام يا ابن رسول الله:

هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إياكم؟ قال: فقال: نعم.

قال فقلت: فإني أسألك مسألة تجيبني فيها، فإني مكفوف البصر، قليل المشي، ولا أستطيع زيارتكم كل حين قال: هات حاجتك.

قلت: أخبرني بدينك الذي تدين الله عز وجل به أنت وأهل بيتك لأدين الله عز وجل به.

١- الامالي، الطوسي/ ٤٠٥.

قال عليه السلام: (إن كنت أقصرت الخطبة فقد أعظمت المسألة، والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عز وجل به، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله، والاقرار بما جاء به من عند الله، والولاية لولينا والبراءة من عدونا، والتسليم لأمرنا، وانتظار قائمنا والاجتهاد والورع)[1].

فجعل الإمام عليه السلام انتظار القائم عليه السلام جزءا من منظومة العقائد والفرائض التي يجب تعلمها والإقامة عليها، فهو دين يدان الله به، بل هو من أسس الدين لأنه انتظار للإمامة ظهورا وقياما، وينطوي على اعتقاد راسخ بها.

وعلى هذا الأساس ينبغي رعاية انتظار الفرج كما نرعى العقائد والمعارف، والتقصير في ذلك يدخل النقص في الدين والعقائد، بل قد يقوض الدين برمته.

*توصيات أهل المعرفة في عصر الانتظار

قال بعض أهل العلم: إن أحد أسباب تأخر ظهور القائم عليه السلام قلة تعلق المؤمنين به.

لذا ورد الحث على كثرة الدعاء له، وكثرة التصدق عنه، فإنه يجلب المحبة بين المتصدق والإمام عليه السلام، ويؤكد العلاقة الوطيدة به.

وثمة توصيات أخرى تصب في رعاية أحوال القلب وتصديقات العقل، فإن تذاكر المعارف وتقوية اليقين يصيغ شخصية المنتظر صياغة قويمة متماسكة.

واشترط الحجة عليه السلام في التوقيع الذي خرج عنه اجتماع القلوب على الوفاء لتعجيل الفرج وعدم تأخر اللقاء.

١- الكافي٢، الكليني/ ٢٢.

فقال عليه السلام: (ولو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع القلوب في الوفاء لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا)[١].

قال بعض العلماء: أعظم أنواع الوفاء وفاء العقائد والمعارف.[٢]

ومن التكاليف والتوصيات التي أفادها مؤلف كتاب (مكيال المكارم) - وهي أعظم توصية في عصر انتظار الفرج - تحصيل معرفة صفاته.

واستدل بوجهين على وجوب معرفة القائم عليه السلام، وبين نمط المعرفة به والتي تكون سببا للسلامة من شبهات الملحدين ونجاة من إضلال المفترين.[٣]

*تكاليف عصر الغيبة

تعرض الشيخ القمي في منتهى الآمال للتكاليف التي ينبغي للمكلفين أداؤها اتجاه المنجي عليه السلام.

فإذا كنت تعتقد أنه واسطة الفيض والنعمة عليك فثمة آداب للعبوديّة ورسوم للطاعة لا بد من إنجازها.

وذكر منها ثمانية تكاليف[٤]:

■ التكليف الأول

أن يكون مهموما مغموما لأجل الإمام عليه السلام في زمن الغيبة وذلك لأمور، منها:

١- الخرائج والجرائح، الراوندي٢/ ٩٠٣.
٢- الإمام المنتظر عليه السلام من ولادته إلى دولته/ ٣٠١.
٣- مكيال المكارم ٢ / ١٢٣و ١٢٥ و١٢٦.
٤- منتهى الآمال٢، الشيخ عباس القمي، الفصل السادس/ ٦٤١-٦٥٤ .

غيابه عليه السلام عنّا بحيث لا نتمكّن من الوصول إليه وإنارة أبصارنا بالنظر إلى جماله.

فقد روى الصدوق عن الامام الرضا عليه السلام أنّه قال: (بأبي وأمّي سميّ جدّي وشبيهي وشبيه موسى بن عمران عليه السلام.. كم من حرّى مؤمنة وكم من مؤمن متأسف حيران حزين عند فقدان الماء المعين)[1].

وفي دعاء الندبة: (عزيز عليّ أن تحيط بك دوني البلوى ولا ينالك منّي ضجيج ولا شكوى)[2].

ومنها: عدم تمكّنه عليه السلام من إجراء الأحكام والحقوق والحدود، ورؤيته أنّ حقّه في يد غيره، فقد روي عن الامام الباقر عليه السلام أنّه قال لعبدالله بن ظبيان:

قال: يا عبدالله ما من عيد للمسلمين أضحى ولا فطر إلّا وهو يتجدد فيه لآل محمد حزن، قلت: فلم؟ قال: لأنّهم يرون حقّهم في يد غيرهم)[3].

ومنها: ظهور جمع من لصوص الدين وقطاع طريق المذهب من كمينهم وبثّهم الشكوك والشبهات في أفكار العوام، بل والخواص من الناس حتى خرج الناس من الدين أفواجا، وعجز العلماء الحقيقيون عن إظهار علومهم، وتحقق ما وعد الصادقان عليهما السلام بوقوعه.

روى الشيخ النعماني عن عميرة بنت نفيل انّها قالت:

سمعت الحسين بن عليّ عليه السلام يقول: (لا يكون الأمر الذي تنتظرونه حتى يبرأ بعضكم من بعض، ويتفل بعضكم في وجوه بعض، ويشهد بعضكم على

١- كمال الدين وتمام الدين، الصدوق/ ٣٧١.
٢- المزار، المشهدي/ ٥٨١.
٣- الكافي، الكليني ٤/ ١٧٠.

بعض بالكفر، ويلعن بعضكم بعضا، فقلت له: ما في ذلك الزمان من خير، فقال الحسين عليه السلام: الخير كلّه في ذلك الزمان، يقوم قائمنا، ويدفع ذلك كلّه)[١].

ودل عليه كذلك رواية تحكي حالات أهل المأتم وكلام أهل العزاء الصادر من الصادق عليه السلام حتى قال له سدير: (لا أبكى الله يا ابن خير الورى عينيك من أيّة حادثة تستنزف دمعتك وتستمطر عبرتك؟ وأيّة حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: عليه السلام.. نظرت في كتاب الجفر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة..

وتأملت منه مولد قائمنا وغيبته وإبطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين في ذلك الزمان، وتولّد الشكوك في قلوبهم من طول غيبته وارتداد أكثرهم عن دينهم.. فأخذتني الرقّة واستولت عليّ الأحزان)[٢].

■ **التكليف الثاني**

ومن تكاليف العباد في أيام الغيبة انتظار فرج آل محمد صلى الله عليه وآله في كلّ آن ولحظة، وترقّب ظهور الدولة القاهرة والسلطنة الظاهرة لمهدي آل محمد عليهم السلام وامتلاء الأرض بالعدل والقسط، وغلبة الدين القويم على سائر الأديان.. فعن أمير المؤمنين عليه السلام انّه قال: (المنتظر لأمرنا كالمتشحّط بدمه في سبيل الله)[٣].

١- الغيبة، النعماني/ ٢١٣.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٥٣.

٣- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٦٤٥.

■ **التكليف الثالث**

ومن التكاليف، الدعاء لحفظ الإمام عليه السلام من شرّ شياطين الجنّ والإنس، ولتعجيل نصرته وغلبته على الكفار والملحدين والمنافقين.

فإنّ هذا قسم من أقسام إظهار المحبّة وكثرة الشوق، والأدعية في هذا الباب كثيرة.

منها ما روي عن يونس بن عبدالرحمن أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يأمر بالدعاء للقائم عليه السلام بهذا الدعاء: (اللهم ادفع عن وليك وخليفتك وحجتك...)[1].

■ **التكليف الرابع**

إعطاء الصدقة عنه عليه السلام لحفظه في أيّ وقت وبأيّ مقدار كانت.

ولا بد من استجلاب كلّ الوسائل والأسباب التي لها دخل في صحته عليه السلام وعافيته ودفع البلاء عنه، كالدعاء والتضرّع والتصدّق والتوسّل لعدم وجود نفس أعزّ ولا أكرم من نفس إمام العصر أرواحنا فداه.

بل لا بد أن تكون نفسه أعزّ وأحبّ إلينا من أنفسنا، وبخلافه يكون ضعفا ومنقصة في الدين وخللا في العقيدة، كما روي بأسانيد معتبرة عن رسول اللهّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: (لا يؤمن عبد حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وأهلي أحبّ إليه من أهله، وعترتي أحبّ إليه من عترته)[2].

١- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٤٠٩.
٢- الامالي، الصدوق/ ٤١٤.

■ **التكليف الخامس**

الحج عنه عليه السلام أو الاستنابة له، كما كان ذلك مرسوما عند الشيعة منذ القدم..

■ **التكليف السادس**

القيام عند سماع اسمه الكريم سيّما اسم (القائم)، كما كان ذلك سيرة جميع طبقات الاماميّة..

وهذا يدلّ على وجود مصدر وأصل لهذا العمل وإن لم ير هذا المصدر إلى الآن، لكن سمع عن بعض العلماء الخبراء بأنهم رأوا خبرا يدلّ عليه بأنّ بعض العلماء ذكر أنّ هذا المطلب قد سئل عنه العالم، المتبحّر، الجليل السيد عبدالله سبط المحدّث الجزائري، فأجاب رحمه الله عنه في بعض تصانيفه بأنّه رأى خبرا مضمونه: (إنّ اسم القائم عليه السلام ذكر يوما عند الامام الصادق عليه السلام فقام الإمام تعظيما واحتراما لاسمه).

■ **التكليف السابع**

من تكاليف العباد في ظلمات الغيبة، التضرّع إلى الله تعالى ومسألته أن يحفظ إيمانهم من تطرّق شبهات الشياطين وزنادقة المسلمين، وقراءة الأدعية الواردة في هذا الباب، مثل: (اللهم لا تمتني ميتة جاهلية ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني)[1].

■ **التكليف الثامن**

الاستغاثة والاستعانة به عليه السلام في الشدائد والأهوال والبلايا والأمراض وحلول الشبهات والفتن من مختلف الجوانب، وطلب حلّ المشاكل والشبهات

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٥١٢.

ورفع الكربات ودفع البلايا.. وهو بنفسه قال في التوقيع الذي خرج إلى الشيخ المفيد.

وخلاصة الحال إنّ صاحب الأمر عليه السلام حاضر بين العباد وناظر إلى أعمالهم وأحوالهم.. وإن شاء عليه السلام حلّ مشاكل القلوب من دون أيّ سعي وفعاليّة، وإن شاء شوّق قلب المضطر لكتاب أو لعالم عنده دواء دائه، أو يلهمه دعاء أو يعلّمه دواءه في المنام. انتهى كلام القمي.

أقول: ما ذكره الشيخ القمي بعنوان التكاليف يمكن أن نطلق عليه عنوان توصيات مؤكدة في عصر الغيبة، أو تمهيدات وإعدادات زمن الغيبة.

وكلها تصب في مصب واحد وهو إبقاء الإمام عليه السلام حيا حاضرا في واقعنا واحساسنا وعقائدنا.

وبذلك تحيا الصلة الوثيقة بمشروعه المستقبلي، ونكون جزءا فاعلا فيه.

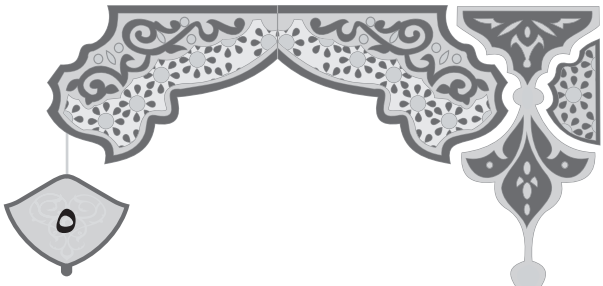

الفصل الخامس

هوية عصر الظهور

- المبحث الأول: الإسلام محمدي الوجود مهدوي الظهور
- المبحث الثاني: هيمنة الموعود على عالم الوجود
- المبحث الثالث: من طور الظهور إلى ملك ما بعد الظهور
- المبحث الرابع: المنجي ومشروع التجديد
- المبحث الخامس: ظواهر عصر الظهور
- المبحث السادس: رواد التغيير في آخر الزمان
- المبحث السابع: عصر عولمة العدالة
- المبحث الثامن: عقيدة ترقب العوالم الآتية
- المبحث التاسع: المهدوية والوراثة في الرجعة
- المبحث العاشر: عالم انتصار المشروع الحسيني

المبحث الأول

الإسلام محمدي الوجود
مهدوي الظهور

الإسلام محمدي الوجود مهدوي الظهور

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

تشتمل الآية الكريمة على مسائل عديدة.

***المسألة الأولى: شهادة القرآن بتحريف كتب الأنبياء عليهم السلام**

أنزل الله الكتب السماوية مشتملة على قسمين من التعاليم الإلهية:

١ - المعارف الدينية، وهي أمور ثابتة لا تتغير.

٢ - الشرائع التفصيلية، ومن طبيعتها أنها متغيرة تبعا لتغير الموضوعات والمناسبات.

ومن محكمات القرآن الكريم وحدة الدين الذي أنزل على الأنبياء عليهم السلام وثباته، لذا لم يعبر عما جاء به الأنبياء عليهم السلام في قسم المعارف الثابتة بالأديان، بينما سمى الجانب التفصيلي المتغير بتغير الزمان بالمناهج والشرائع، ليدلل على أن الدين في جانب أصوله ومقوماته نزل موحدا على سائر الأنبياء عليهم السلام.

ولو قيل: أخبرت آية البحث عن وعد إلهي بإظهار وإعلاء دين الخاتم صلى الله عليه وآله على كافة الأديان، وذلك لإفادة لام الاستغراق الداخلة على كلمة (دين) ذلك، مضافا لكلمة (كله)، فالمعنى إظهاره على سائر الأديان المختلفة.

١- التوبة/ ٣٣.

والمقصود بالأديان المقابلة لما أنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما يشمل التوراة والإنجيل.

وبالتالي تفيد الآية اختلاف الأنبياء والمرسلين عليهم السلام في الأديان والشرائع معا؟

لقلنا: ليس ثمة مورد في القرآن يدل على تعدد الأديان النازلة من السماء، بل الأمر على العكس.

فقد وصف الله تعالى – في أكثر من مورد – ما أنزل على الأنبياء بالدين الواحد.

كما في قوله تعالى صريحا: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ**﴾[1].

وقوله تعالى في رسالة عيسى عليه السلام: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [2]

وقوله في سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾ [3]

وتفيد الآيتان من سورة المائدة اشتراك الكتب السماوية في جانب ثابت، وهو الدين والأصول.

١- آل عمران / ١٩.

٢- المائدة/ ٤٦..

٣- المائدة/ ٤٨

بل نوه القرآن إلى وحدة الدين بين المؤمنين في الأرض والملائكة في الملكوت، فقال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**﴾[١].

ومن جانب آخر ألفت في أكثر من آية إلى المقابلة بين الدين المنزل على الخاتم ﷺ والأديان الباطلة الموضوعة، كما في قوله تعالى: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[٣].

وآية البحث من هذا القبيل، أي تناظر بين الدين الإلهي والأديان الفاسدة، ولا تقايس بين دين الخاتم ﷺ وما أنزل على سائر الأنبياء حقيقة.

والخلاصة هي أن الدين الإلهي واحد، والشرائع السماوية متعددة، وفي قبال الدين والشرائع النازلة من السماء أديان بشرية مخترعة.

والفائدة المتحصلة، أن الآية التي توجنا بها البحث وثيقة وشهادة قرآنية على أن التوراة والإنجيل في عصر نزول القرآن محرفان ومبدلان وموضوعان بنحو إجمالي من قبل البشر، لذا عبر عنهما بالأديان.

ولذا قيل: إن المشهور عند مؤرخي الأمم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد قد فقدت.

١- آل عمران/ ٨٣.
٢- الكافرون / ٦.
٣- يونس/ ١٠٤.

وقال بعض أهل الكتاب: إن الكتب السماوية ضاعت وانعدمت رأسا، فألهم عزرا أن يكتبها مرة أخرى) [١]

بينما انعقد اتفاق مؤرخي الأديان على أن القرآن الكريم متصل النسبة لسيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بالتواتر الموجب لليقين.

وقيل: إن فيلسوفا من الهنود درس الأديان بعين الإنصاف وحس البحث الموضوعي، فآمن بالإسلام المحمدي، معللا انتخابه بأسباب عديدة من بينها أنه الدين الوحيد الذي يتميز بتاريخ ثابت محفوظ [٢].

*المسألة الثانية: الظهور الكامل التام بظهور الموعود عليه السلام

قال بعض المحققين:

إن الوعد الإلهي المثبت في آية البحث ونظائرها، كقوله تعالى في سورة الفتح: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا﴾**[٣].

وقوله تعالى في سورة الصف: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**[٤] لم يتحقق إلى الآن.

لأن الدين الحق وإلى هذه اللحظة لم يغلب ولم يهيمن على جميع الأديان، وهذا القول هو الحق الذي نطقت به الروايات الشريفة كما سوف يتبين لاحقا.

١- تفسير المنار ١٠، رضا رشيد / ٢٩٢ و٢٩٣.
٢- نفس المصدر / ٣٣٨.
٣- الفتح / ٢٨ .
٤- الصف / ٩ .

*مذاهب تفسيرية ومناقشتها

■ مذهب الشافعي

ذهب الإمام الشافعي إلى تحقق ظهور دين النبي ﷺ على الأديان في عصر النبوة.

(فقد قهر رسول الله ﷺ دين الأميين حتى دانوا بالإسلام طوعا وكرها، وغلب أهل الكتاب حتى دان بعضهم بالإسلام، وأعطى بعض الجزية صاغرين)[1]

ويلاحظ عليه:

١ - إن الإظهار والإعلاء في الأشياء ليس على نسق واحد:

٢ - فالظهور والإظهار في الميادين العسكرية يحصل بمغالبة القوة والقدرة وتطويع الخصم كرها.

٣ - والإظهار في ميادين التجارة يحصل بجودة الصنائع، وكثرة استهلاكها، وثقة المشترين بها.

٤ - والظهور والإظهار في باب العقائد والأفكار بهيمنتها على الأفكار، وقناعة الناس بها ، وجريانهم وفق إيحاءاتها.

وبهذه النكتة يتضح أن الشافعي وازى بين معنى الظهور والإظهار في ميادين القتال وبين معنى الظهور والإظهار في ميادين المعتقدات والأفكار، وهو خلط واضح.

١- كتاب الأم، الإمام الشافعي٤ / ١٨٠.

فليس فرض الاعتقاد بالقوة أو إعطاء الجزية معاندة عن قبول الحق هو معنى ظهور الدين الحق بالمعنى الكلي التام.

ومع ذلك لا ننكر أن المغالبة العسكرية المؤدية إلى ضعة وضعف أهل الأديان من مقدمات ظهور وإظهار الدين كله، وفرق بين المقدمة والنتيجة.

وبهذه المناقشة يسقط تطبيق الآية على عصر رسول الله ﷺ، إذ لم يتحقق الظهور بالمعنى الذي قررناه في حياته ﷺ، وإن تحققت أنماط أخرى من الظهور.

■ **مذهب المفسر الشعراوي**

وللمفسر الكبير محمد متولي الشعراوي كلاما متناثرا في كتبه التفسيرية حول مسألة البحث.

وقد اختلف مذهب الشعراوي في تفسير الآية عن مذهب الشافعي في نقطتين:

النقطة الأولى: نفى تحقق الوعد الإلهي بظهور الإسلام على الأديان في عصر رسول الله ﷺ.

النقطة الثانية: ذهب إلى أنه ليس معنى الإظهار والإعلاء اختفاء الديانات البشرية من الأرض، وإنما معناه سطوع براهين وحجج الدين الحق.

ويتحقق ذلك بما آل وسيؤول إليه العالم بكل دياناته الفاسدة من الوقوع في مشكلات مبهمة وقضايا عويصة على صعيد التكوين، والاجتماع، والأحوال الشخصية، والاقتصاد، والقوانين، وسائر الأصعدة.

ولن يتوفر لهم الحل من تلك الأزمات إلا بالأخذ بأحكام وقوانين الإسلام.

لكنهم لن يأخذوها بعنوان أنها أحكام دينية إسلامية وبما أنهم مؤمنون بالرسالة المحمدية، وإنما كضرورات لا بد من إتباعها.

ومن أمثلة ذلك تبني الفاتيكان قانون الطلاق بعد أعوام من الإنكار والاستنكار على الإسلام لإباحته الطلاق.

وكذا رجوع الغرب وأروبا لسنة الرضاعة الطبيعية، بعد إنكارهم حكمها في الإسلام وتبنيهم الرضاعة الصناعية باللبن المجفف.

وحديثا دعا أسقف كانتربري (القس روان وليامز) إلى إدماج بعض أحكام الشريعة الإسلامية في النظام القانوني البريطاني.. وفي مقدمتها أحكام الأسرة وبعض المعاملات الاقتصادية.. مع تأكيده على ضرورة تعاضد جميع الجاليات من جميع الأديان على صيانة وتقوية العلاقة بين العقيدة واحترام القانون.

وزاد على ذلك قائلاً: « إن قضية اعتماد بعض أحكام الشريعة في القانون البريطاني أمر لا مفر منه.. أما على صعيد الواقع المعاش فإن هناك اعترافا واقعيا ببعض أحكام الشريعة في النظام القضائي والثقافي والاجتماعي البريطاني.

وسمعت من بعض الأخوة الذين درسوا في أمريكا قبل سنين أن مستشفياتهم كانت تضع الأولاد حديثي الولادة على صدورهم خلافا لتعاليم الإسلام، إلى أن أدركوا أن ثمانين بالمئة منهم كانوا يموتوا بسبب ضغط الصدر على القلب، والآن بدلوا هذه الطريقة وفقا لتعاليم الإسلام.

وإلى غيرها من الأمثلة الشاهدة على استمرارهم في الرجوع إلى الإسلام، والأخذ بقوانينه، إلا أنه ليس أخذ إيمان وانتماء، وإنما أخذ ضرورة، أي أنهم سيتبنون أحكامه وسيظهرونه ظهور إقرار واضطرار، لا ظهور إيمان وإذعان، وهو معنى التبعية مع الإكراه)[1]

١- تفسير الشعراوي، الشعراوي٢/ ٩٩٥.

ويشكل على كلامه:

بأن حمل ظهور الدين على ظهور إقرار دون ظهور إيمان حمل استحساني لا دليل عليه، مضافا إلى أن التبعية العملية دون الاعتقاد والإيمان ليس بظهور واستعلاء، إذ الشرط الحقيقي لم يتحقق، وهو الإيمان.

بل مقتضى الأخذ بإطلاق الظهور في الآية حمله على ظهور إيمان وإذعان مقارن لزوال المذاهب والأديان من الأرض، خصوصا مع الالتفات إلى أن إظهاره بزوال الأديان الفاسدة هو النصر والانتصار الحقيقي الذي وعد به المؤمنون.

فالظهور بناء على ما تقدم يستوعب الظهور المنطقي البرهاني، وظهور الهيمنة والحكومة.

* مذهب الشيعة وبعض العامة

نمهد لهذا المذهب بذكر كوكبة من الروايات:

١ - ما رواه في بصائر الدرجات، عن جابر بن يزيد، عن الباقر عليه السلام.. وقوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدى ودِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلَى الدِّينِ كُلِّه ولَوْ كَرِه الْمُشْرِكُونَ) (يظهره الله عز وجل في الرجعة)[1].

٢ - ومنها ما رواه الصدوق في كمال الدين عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام في قول الله عز وجل: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

فقال: (والله ما نزل تأويلها بعد، ولا ينزل تأويلها حتى يخرج القائم عليه السلام فإذا خرج القائم عليه السلام لم يبق كافر بالله العظيم ولا مشرك بالإمام إلا كره

١- مختصر بصائر الدرجات، باب الكرات وحالاتها،ح١/ ١٧.

خروجه حتى أن لو كان كافرا أو مشركا في بطن صخرة لقالت: يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله) [١] .

٣ – ما عن الطبرسي: قال أبو جعفر عليه السلام: (إن ذلك يكون عند خروج المهدي من آل محمد عليهم السلام، فلا يبقى أحد إلا أقر بمحمد صلى الله عليه وآله)[٢] .

٤ – ومنها ما رواه في تفسير علي بن إبراهيم: أنها نزلت في القائم من آل محمد صلى الله عليه وآله، وهو الذي ذكرناه مما تأويله بعد تنزيله) [٣] .

وقول بعضهم إن كل دين مقهور للإسلام الآن مكابرة على ضرورة قائمة، إذ لا تزال أديان عديدة يدين بها أهل الأرض ظاهرة وفاعلة.

فاليهودية ديانة قائمة وهي في اتساع، والنصرانية ديانة منتشرة على ربوع الأرض، ولعل أكثر أهل الأرض ينتمون إليها، بل إن قادة العالم المعاصر – وهم الآمرون والناهون والمتصرفون في القرار الدولي – هم من النصارى.

وبالاستهداء بالتفسير الروائي للآية نستنبط مفهوما دقيقا يخالف مذهب الشافعي في كلا شقيه، ويتفق مع مذهب الشعراوي في تحقق الظهور بعد عصر النبي صلى الله عليه وآله، ويختلف عنه في معنى ظهور الدين على الأديان.

ومفاد التفسير الروائي إن هدى محمد صلى الله عليه وآله ودينه الحق سيظهر ويستعلي على سائر الأديان بظهور الدولة الموعودة بقيادة المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف، فتزول جميع المعتقدات والأديان على يده.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق / ٦٧٠ .
٢- مجمع البيان٥، الطبرسي/ ٣٨.
٣- تفسير القمي١، علي بن إبراهيم/ ٢٨٩ .

ويتم ذلك المشروع بخطوتين:

الأولى: كشف الحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، والآيات الباهرة لديانة الإسلام.

الثانية: قتل أئمة الكفر، وتصفية أهل المكابرة والعناد.

٥ - عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: (ليظهره على الدين كله).

قال: (يظهره على جميع الأديان عند قيام القائم عليه السلام.

قلت: هذا تنزيل؟ قال: نعم أما هذا الحرف فتنزيل، وأما غيره فتأويل)[١].

ومن إشارات الرواية أن دولة المهدي عليه السلام مثبتة بالتنزيل، أي هي من النصوص التي نزل بها الوحي، لا لتكون جزءا من القرآن، وإنما جزء من الوحي والتنزيل، إذن إن التنزيل يشمل القرآن وغيره.

٦ - وفي تفسير القرطبي: وقال السدي: ذاك عند خروج المهدي، لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أدى الجزية.

وقيل: المهدي هو عيسى فقط، وهو غير صحيح لأن الأخبار الصحاح قد تواترت على أن المهدي من عترة رسول الله صلى الله عليه وآله، فلا يجوز حمله على عيسى. والحديث الذي ورد في أنه (لا مهدي إلا عيسى) غير صحيح.

قلت: قد ذكرنا هذا وزدناه بيانا في كتابنا (كتاب التذكرة) وذكرنا أخبار المهدي مستوفاة والحمد لله)[٢].

١- الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٤٣٢.

٢- تفسير القرطبي، القرطبي ٨ / ١٢١ و ١٢٢.

٧ - قال صاحب تفسير المنار: ومن العلماء من يقول أن بعض هذه البشارات لا يتم إلا في آخر الزمان عند ظهور المهدي، وما يتلوه من نزول عيسى)[١].

إلا أنه صرح قائلا: إن أحاديث المهدي عليه السلام لا يصح منها شيء، وإنها متعارضة متدافعة، وأن في مصدرها نزعة شيعة معروفة.

وغير خفي أنه بما قرر خالف أقوال المحققين من علماء السنة من أمثال الفخر الرازي والقرطبي، ونقض رواياتهم المثبتة في مسانيدهم وصحاحهم.

ولاحظ ما نقلناه عن الألباني سابقا.

ولم يتبع صاحب المنار في إنكاره لأحاديث المهدي عليه السلام إلا أفراد قلائل كأحمد أمين المصري، وبن خلدون، وشأنهم في الحديث معروف.

وإلا فالكتب السنية طافحة بذكر أخبار المهدي عليه السلام، كسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وابن ماجة، وابن عمرو الداني، ومسند أحمد، وأبو يعلى، والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعجما الطبراني» الكبير والمتوسط»، والدارقطني، وأبو نعيم في أخبار المهدي، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تأريخ دمشق، وغيرها.

وقد ألف العديد من أعلامهم كتبا ورسائل خاصة في إثبات المهدي عليه السلام، منهم:

١ - أبو نعيم في (أخبار المهدي).

٢ - وابن حجر الهيثمي في (القول المختصر في علامات المهدي المنتظر).

٣ - والشوكاني في (التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح).

٤ - وأبو العباس بن عبد المؤمن المغربي في كتاب (الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون).

١- تفسير المنار، رشيد رضا ١٠ / ٣٤٩.

*ظهور الدين بظهور خزائن القرآن

ما هي الوسيلة التي سيظهر بها الدين على كل الأديان؟

إن الأديان البشرية في أزماننا تفتخر بإنجازاتها الحضارية:

١ - فهي تفتخر بالأنظمة والقوانين العلمية التي قررت لأجل تنظيم حياة البشر.

٢ - وتفتخر بالنمو والتنوع الاقتصادي.

٣ - وتفتخر بحضارة العمران، والتقدم في مجالات التكنولوجيا، والطب، والهندسة، وغير ذلك.

ويشير بعض المفسرين إلى أن حضارة العمران والتقدم العلمي ونظم القانون التي تفتخر بها الدول الكبرى اليوم وفيما مضى، ليست وليدة لأديانهم وآرائهم، وإنما اقتبسوها من الحضارة الإسلامية عبر ترجمة كتب المسلمين، وقد اعترف بذلك أهل الإنصاف من علماء الغرب.

وما رجوع الأمم المتحدة إلى دستور علي عليه السلام في العدل، وإلى وثيقة زين العابدين عليه السلام في الحقوق، إلا شاهد على أن ما هم فيه من وجه مشرق للحضارة يعود لاستلهامهم واقتباسهم من حضارة الإسلام.

وما بنوه ببركة الاقتباس من الإسلام لا يقارن بما سوف يتحقق على يد الموعود عليه السلام من حضارة إلهية رائدة ومدينة دينية فاضلة تسود فيها كل ظواهر الخير، وتنعدم فيها كل ألوان الشر والرجعية.

إذ إن عصره بيئة تأويل وشرح وبسط معارف القرآن الذي هو تبيان لكل شيء، وبه سيغدو الإسلام ظاهرا وعال على كل دين، فتؤمن به سائر طبقات البشرية على أنه الدين الحق الصالح لكل زمان ومكان.

وإذا كان الظهور التام الكامل الشامل للدين الحق مرهون بظهور المهدي الموعود عليه السلام فيحق لنا أن نعبر عن دولته أنها دولة الأنبياء عليهم السلام، لأن على يده سيظهر الدين الذي قاتلوا وناضلوا لأجله.

وحُلم الأنبياء عليهم السلام في ظهور الدين التام الكامل تتكفل به جهود وأتعاب ثلاث حقب رئيسية:

١ - الحقبة النبوية، فكان محمدي الوجود والنشوء.

٢ - الحقبة الحسينية، فكان حسيني البقاء والاستمرار.

٣ - والحقبة المهدوية، فسيكون مهدي الظهور.

المبحث الثاني

هيمنة الموعود على عالم الوجود

هيمنة الموعود على عالم الوجود

عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

(إنه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى كل منخفض من الأرض، وخفض له كل مرتفع منها حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته)[1].

***توطئة**

وفقا لمفهوم الرواية المشهورة من أن الموعود عليه السلام: (يخرج فيملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما)[2]

نستنتج أن الظلم والجور لن يستثني دائرة بشرية إلا ويغطيها ويملؤها، سواء على صعيد المعارف والأفكار، أو على صعيد الصفات والسلوك، أو على صعيد المعاملات الاجتماعية.

وإذا كانت البشرية قد شهدت فيما سلف شتى أشكال الحيف والظلم في سائر التكسبات والمعاملات، وبعدها شهدت صنوفا مختلفة من الجور والتعدي الأخلاقي والسلوكي على هدي الإنسانية والديانات، فإنها اليوم تشهد أنحاء المروق والفسوق الفكري والثقافي، حتى أوشكت البشرية أن ترى المعادلات البديهية والمسلمات الضرورية معكوسة عن طبيعتها.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق / ٦٧٤ و٦٧٥.

٢- التوحيد، الصدوق/ ٨٣.

ولا عجب في ذلك بعد إخبارات أهل العصمة، فقد روى الصدوق عن الرضا عليه السلام أنه قال: (إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا)[١].

ولا مبالغة إذا قلنا: إن الفسوق الفكري الذي يتفشى بين مجتمعات البشرية في هذه الأعصار هو من أجلى مصاديق غربة الإسلام والذي هو دين الفطرة والعقل.

ولو سأل سائل: هل يتوقع للبشرية أن تزداد تراجعا وتقهقرا عن الهدى والعدل على كل الأصعدة؟

إن كل نكوص عن العدالة وتقهقر عن الهداية يستدعي الزيادة في الجور والحيف، طبقا لما هو مقرر في علم الأخلاق، من أن المساوئ يستتبع بعضها بعضا.

وكذا ما أخبر به في الروايات من ملاحم مستقبلية على يد الموعود عليه السلام من أنه: (يملأ الأرض قسطا وعدلا).

فإن من أقرب مفاهيمها أن البشرية في الأرض تصل إلى نهاية الانحدار والتسافل على كافة الأصعدة، وأنه بقدر ما مر عليها من الجور سيملؤها الإمام عليه السلام من القسط والعدل.

وبمقتضى المنطق فإن ملأ الأرض قسطا وعدلا يترتب عليه تبدل وانقلاب المعادلات والظواهر، لأن الظواهر التي تترتب على شيوع القسط والعدل في المجتمع تختلف عن الظواهر التي تنعكس إثر شيوع الظلم والجور، فالظلم والعدل سببان مختلفان في الجوهر، فلا بد أن يختلفا في الآثار والظواهر المترتبة عليهما.

١- عيون اخبار الرضا، الصدوق٢/ ٢١٨.

*ظواهر الظهور تنشدها البشرية جمعاء

إن الظواهر التي ستتحقق على ضوء شيوع القسط والعدل في دولة الموعود عليه السلام هي إنجاز لآمال وأمنيات تنشدها البشرية في مختلف حقبها.

وأعني بها تلك التطلعات الفطرية العادلة التي لم تتولد بفعل ثقافة بشرية خاصة، كما أنها ليست رغبات لفئة ذات لون خاص.

وإنما هي إفراز عن ما هو مغروس ومركوز في وجدان كل أفراد البشرية، نظير الأمل في تحقق النهايات السعيدة والتطلع للعيش في المدينة الفاضلة، وغيرها من الأمنيات والطموحات التي يتفق عليها كل أجيال البشرية.

وقد قال أهل المعرفة:

إن كل معشوق ومطلوب لفطرة ووجدان الإنسانية لا بد من تحققه وتفعله في واقعها ولو تعاقبت الأحقاب والأكوار.

وبناءا على ما مر يصدق ما قيل من أن طموحات الدولة المهدوية أقدم من الإسلام كدين خاتم، إذ هي عبارة عن رغبات وتطلعات فطرية عامة.

وينحصر دور الإسلام اتجاه تلك التطلعات في:

١ - تحديد مصاديقها وتفاصيلها، وترجمتها بشفافية ووضوح.

٢ - الكشف عن هوية القائد الذي سيأخذ بيد البشرية نحوها.

قال السيد محمد صادق الصدر: (إن المستقبل السعيد من القضايا القطعية التي لا نختلف فيها حتى مع الماركسية) [١].

١- اليوم الموعود، السيد محمد الصدر ٤/ ٦و٧.

بل إن التاريخ البشري والواقع المعاصر يشهدان على ميل البشرية نحو التوحد والالتقاء في المصالح والأمنيات والنظم، وما تشييد الأمم المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلا تحقيق لذلك الميل البشري، وكل ما يشيد تحت مسمى الأمن الدولي أو البنك الدولي شاهد كذلك على نزوع البشرية نحو التوحد.

قال الشيخ الأستاذ: (والنزوع إلى الوحدة في البشرية مطلب بشري عام يعد نزوعا بشريا فطريا نحو المهدوية وإرهاصات الظهور، وسوف يتحقق هذا المطلب في حكومة عالمية يقودها الإمام المهدي المنتظر عليه السلام)[1].

* وسائل التغيير في الدولة الموعودة

كثيرة هي التساؤلات التي استفهمت عن ماهية وسائل الإمام الموعود عليه السلام لإنجاز مهمته الكبرى، فقيل بصياغات متعددة:

١ - عبر أي وسيلة سيحقق مشروع المدينة الفاضلة؟

٢ - وما هي أدواته في حربه ضد النظام العالمي الجائر؟

٣ - وهل سيقوم بالسيف في مواجهة الأسلحة المتطورة؟

٤ - وهل سيواجه بالخيل دروع ومدافع الدبابات الحديثة؟

٥ - وبأي وسيلة سيصد غارات الطائرات ذات الصواريخ الدقيقة؟

٦ - وما هو نوع السلاح الذي سيصد به ضربات الأسلحة الكيماوية والنووية والجرثومية؟

٧ - وكيف سيواجه بالصفوة القليلة التي ستبعث معه جيوشا جرارة مجهزة بالأسلحة المتطورة ومحيطة بخبرات وتقنيات عالية؟

وقد أجيب عن هذه التساؤلات بعدة تصورات:

---

١ - الحداثة العولمة الإرهاب في ميزان النهضة الحسينية، محاضرات آية الله السند / ١٤٥ و ١٤٦ .

■ **التصور الأول: فساد التقنيات الحديثة**

يميل أصحاب التصور الأول للاعتقاد بفساد جميع التقنيات والأسلحة المتطورة التي بحوزة النظام العالمي الجائر أبان ظهور الموعود عليه السلام، وسيقوم هو بالسيف والخيل فيكتب الله له النصر والغلبة على أعدائه!!

وهذا تصور تبرعي احتمالي ذوقي لا شاهد عليه من الأدلة والاثباتات والشواهد.

مضافا لورود الإشكال عليه: إذ مع فرض قيامه بالسيف وكساد التقنيات الحربية الحديثة، فكيف سيواجه بأصحابه القلة جيوشا جرارة سيعدها الكفر العالمي والاستكبار الكوني!!

■ **التصور الثاني: لسنا مكلفين بالجواب**

قطع أصحاب التصور الثاني طريق التفكير في هذه الموضوعات من الأساس، متذرعين بترفية هذا النوع من الأسئلة، فهي سنخ أسئلة لا مكان لها في حيز تكليفنا حتى نبحث عن الإجابة عنها.

إذ نحن مسئولون عن الإيمان بظهور الإمام الموعود عليه السلام والارتقاب لدولته، وأما ما هو خارج هذه الدائرة فلسنا مكلفين بالإحاطة به حتى نتجشم عناء البحث والتنقيب عن جوابه وكشف أسراره!!

وفي ظني أن التصور الثاني فرار عن مسؤولية الجواب عن مسائل يؤثر وضوحها على العقيدة بالإمام الموعود عليه السلام ويدعم وظيفة الانتظار، ولو بطريق غير مباشر.

والفرار عن الجواب لعدم الاهتداء إليه شاهد على أن يوم الظهور ليس من المسائل الرياضية حتى نتوسل بالتفكير المجرد والاستنتاج العقلي لحل غموضها.

وإنما هي مسألة دينية تكفلت الروايات الشريفة بتوضيح أدق تفاصيلها لأجل إقناع الناس بضرورة الإيمان بها، فالوسيلة الوحيدة لسبر غورها وحلحلت إشكالاتها تكمن في التنقيب في رواياتها مشفوعا بالتحقيق العلمي الصناعي.

■ **التصور الثالث: هيمنة القائم عليه السلام على عالم التكوين**

لقد شرعنا البحث برواية مهمة تحمل بين سطورها جواباً عن إشكالية بحثنا، وهي ما رواه الصدوق عن أبي بصير قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

(إنه إذا تناهت الأمور إلى صاحب هذا الأمر رفع الله تبارك وتعالى كل منخفض من الأرض، وخفض له كل مرتفع منها حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته)[1].

فتشتمل الرواية على أجوبة قاطعة وحاسمة للكثير من المسائل المتعلقة بعصر الظهور، وفيها بيان لمباني عقدية وغيبية تقطع الطريق أمام العقول المسكونة بالتفسير المادي والمأنوسة بالطبيعة المشهودة.

وأهم مضامينها بيان السلطنة والهيمنة والإحاطة المعطاة لخاتمة الحجج عليه السلام كموهبة إلهية تكوينية يقتدر بها على إخضاع كل عالم التكوين، فيتصرف في مجاري الأمور وأسبابها.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق / ٦٧٤ و ٦٧٥.

وتلك الهيمنة التكوينية وإن كانت خفية وكامنة لدى أئمة أهل البيت عليهم السلام، ولم تستعمل في صراعهم مع القوى الظالمة، إلا أنها ستتجلى على يد القائم عليه السلام في عصر الظهور.

ومن ذلك تتبين ميزة مهمة من مميزات عصر الظهور، وهي إلهية الوسائل التي يتحرك بها الإمام عليه السلام لإنجاز دوره ومشروعه على أكمل وجه.

فلو فرض أن الوسائل التي بيده بشرية متعارفة لأمكن السؤال والإشكال بطريقة حسابية مادية، أما مع الاعتقاد بتجليات القدرة الإلهية فيه فلا مكان للحسابات بنمط المعادلات المادية.

وعليه، فلا يمكن أن تصمد قوى الشر - مهما كان عديدها وعدتها - أمام الصفوة المخلصة من أنصار الموعود عليه السلام، إذ لا قياس بين القدرة البشرية والقدرة الإلهية.

*اثباتات الهيمنة الوجودية

يشير الإمام الصادق عليه السلام في ذيل رواية البحث بقوله: (حتى تكون الدنيا عنده بمنزلة راحته) إلى الاقتدار الإعجازي الذي يفيضه الله تبارك وتعالى على الحجة عليه السلام، وهو فضيلة أخرى تختلف عن فضيلة الإحاطة العلمية والمعرفية، بل هو إحاطة تكوينية وهيمنة وجودية بها يقتدر الإمام عليه السلام على إدارة وتدبير عالم التكوين وفقا للمصلحة.

فكما يتصرف الفرد منا براحة يده كيف يشاء، كذلك يخضع عالم التكوين للإمام عليه السلام بإذن تكويني من الله ليكون بمنزلة راحة يده يقلبه كيف يشاء.

ولو أنكر أحد نسبة نمط هذه الهيمنة التكوينية للقائم عليه السلام قائلا:

إنه من المخلوقين وأنى للمخلوق أن يبلغ مبالغ تلك الهيمنة!!

لقلنا: إن نسبة الهيمنة التكوينية لهم عليهم السلام نظير ما هو منسوب لملك الموت من القدرة التكوينية الخارقة.

فقد روى الصدوق عن الصادق عليه السلام: (قيل لملك الموت: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟

فقال ملك الموت: (إن الدنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدنيا عندي كالدرهم في كف أحدكم يقلبه كيف يشاء)[1].

فإذا قبلنا نسبة هذا النمط من الإحاطة والهيمنة لملك الموت وهو من المخلوقين، فلم نستنكر ونستبعد أن يكون لأئمة أهل البيت عليهم السلام مثلها، والحال أن شرفهم عند الله أعلى من شرف الملائكة.

والروايات شاهدة على تفاضلهم على الملائكة في جوانب شتى، منها ما رواه الصدوق عن أبان بن تغلب قال: قال الصادق عليه السلام:

(أول من يبايع القائم جبرئيل)[2].

وتدل بيعة جبرئيل عليه السلام للإمام الموعود عليه السلام على كونه من جنوده.

وبيعة أهل الملكوت له عليه السلام شاهد إضافي على ما قلناه من إلهية الوسائل التي سينجز بها الحجة عليه السلام أهداف دولته المباركة.

١- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق/ ١ / ١٣٤.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٦٧١.

فلو كان للبشرية قوة تسليحية تمنع أو تقهر قدرة ملك الموت على قبض الأرواح لجاز لنا أن نتساءل عن الوسائل التي سينتصر بها الموعود عليه السلام على أعدائه.

*المدد الغيبي للحجة عليه السلام

أفادت روايات عديدة سعة المدد الإلهي للموعود عليه السلام وأنصاره، وما يعطى هو وأصحابه من قدرة تكوينية يدير بها الوجود.

١ - فعن علي عليه السلام أنه قال: (يخرج المهدي في اثني عشر ألفا إن قلوا، وخمسة عشر ألفا إن كثروا، ويسير الرعب بين يديه، لا يلقاه عدو إلا هزمهم بإذن الله..)[١].

٢ - وعنه عليه السلام - في وصف بعض معارك الحجة عليه السلام - أنه قال: (فيغضب الله على السفياني، ويغضب خلق الله لغضب الله تعالى، فترشقهم الطير بأجنحتها، والجبال بصخورها، والملائكة بأصواتها! ولا تكون ساعة حتى يهلك الله أصحاب السفياني كلهم..)[٢].

٣ - وروى مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله في وصف المعركة الحاسمة بين المسلمين واليهود في آخر الزمان، قال: (لا يقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر يا مسلم هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله)[٣].

١- الملاحم والفتن، السيد ابن طاووس / ١٣٨.
٢- المصدر السابق / ٢٩٦.
٣- صحيح مسلم، مسلم النيسابوري ٨ / ١٨٨ .

٤ - وعن أبي الربيع الشامي قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إن قائمنا إذا قام مد الله لشيعتنا في أسماعهم وأبصارهم حتى يكون بينهم وبين القائم عليه السلام بريد يكلمهم ويسمعون وينظرون إليه وهو في مكانه)[1].

وهل تنهض الأسباب المادية والوسائل الأرضية في قبال وسائل وأسباب الملكوت!!

١- مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي / ١١٧.

المبحث الثالث

من طور الظهور إلى ملك ما بعد الظهور

من طور الظهور إلى ملك ما بعد الظهور

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام يقول: (القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر، تطوي له الأرض، وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا قد عمر...)[2].

*** تمهيد**

على ضوء الآية والرواية المفسرة لها وطوائف أخرى من الروايات تولدت مسلّمات عند جميع فئات المسلمين.

من أهمها:

١ - إن دولة المهدي عليه السلام في عصر الظهور دولة عالمية تبسط أجنحتها على كل أرجاء الأرض.

١- سورة التوبة/ ٣٣.

٢- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٣٣١.

٢ - وأنها تنشر العدل والقسط بمديات لم تتحقق في الرسالات السماوية السابقة.

٣ - ولصاحب العصر والزمان عليه السلام ملك ومملكة لم تتسن على طول التاريخ لأحد قبله.

لكن هذه المسلّمات تعرضت لنوع من التشكيك والاستبعاد بسبب مدة ملكه القصيرة، فإن الوثائق الروائية حددت مدة بقائه في الحكم والملك بسنين قليلة.

وهي على طوائف:

١ - فمنها: ما دل على بقائه في الحكم عشر سنوات أو أقل.

٢ - ومنها: ما دل على بقائه في الحكم والملك فوق العشر سنين..

٣ - ومنها: ما دل على بقائه سبعين سنة، أي سبع سنين تطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة كعشر سنين فتكون سنو ملكه سبعين سنة.

٤ - وأكثر سني ملكه طبقا لروايات الشيعة أنه يملك ثلاثمائة وتسع سنين.

وقد ظهرت اتجاهات مختلفة في فهم مدة ملكه من الروايات، وذهب بعض العلماء إلى أن السبع سنين هو الأشهر، وأن الأخبار قد استفاضت بكثرة في أنه يحكم سبع سنين.

وقد عالجنا ذلك في بحث سابق تحت عنوان: (مبررات الدولة المهدوية) فراجع.

*إشكالية قصر حكمه ومتطلبات العدالة

أكثر أهل العلم على أن وفاة وارتحال الإمام الحجة عليه السلام سيكون عن طريق القتل والاستشهاد.

وحاول بعض الأعلام أن يناقش في ذلك قائلا:

بأن الخبر الوارد عن الصادق عليه السلام: (ما منا الا مقتول أو شهيد) خبر مرسل، ولذا فهو قاصر عن إثبات هذا النحو من الموت.

إلا أنه مضافا إلى الأخبار الكثيرة الناصة على اشتراكهم في كرامة الشهادة يمكن الاستدلال بخصوصية العصمة، فالذي أقدره على طول البقاء وعدم طروء الموت الطبيعي عليه بمرور الزمن يقدره كذلك على الاستمرار في الحياة إلى ما شاء الله.

إذ العصمة ملكة تكشف الأمور للإمام عليه السلام بوضوح تام، وبها يعرف ما يفسد البدن مما يقويه ويديم الصحة عليه، فلو لم يطرأ عامل خارجي من سم أو قتل بالسيف فلن تنخرم حياته بشكل طبيعي.

ويكفي هذا في إثبات حلول الشهادة والاستشهاد عليه.

هذا، ولكن الروايات السابقة منعقدة على التصريح بارتحاله بعد مدة قليلة من ملكه وحكمه، أي يرتحل مستشهدا بعد تلك المدة القصيرة.

وعلى ضوء ذلك أشكل بعض أعلام السنة والشيعة بإشكال موحد.

١ - فصرح بعض المحشين على البحار قائلا:

(كيف ينتظر الإسلام والمسلمون دهرا من الدهور ليخرج الحجة ويظهره على الدين كله ثم يكون ملكه سبع سنين أو سبعين سنة)[1].

١- بحار الأنوار، المجلسي ٥٣/ ١٤٥.

٢ – وقال البرزنجي: (اللائق بكرم الله أن تكون مدة العدل قدر ما ينسون فيه الظلم والفتن، والسبع والتسع أقل من ذلك، ثم إنه مكلف بفتح الدنيا كلها ولا شك أن مدة التسع فما دونها لا يمكن أن يساح فيها ربع أو خمس المعمورة)[1].

■ **الإشكال بصياغة أخرى**

ويمكن أن نصيغ الاشكالية بصياغة أخرى:

إن المدة المحددة لملك الحجة عليه السلام غير كافية لبسط العدل الكلي، وإنجاز السعادة المأمولة، وبناء العمران والمدنية المشار إليها في الروايات، فكيف سيتم ذلك؟

وهل بعد ملكه القصير ستتعاقب دول الظلم بعد دولة العدل، أم بانتهاء ملكه يبزغ فجر القيامة، أو هناك تصورات أخرى للمسألة؟

ولا يقال إن البحث في خصائص طور ما بعد الظهور ليس من تكليفنا لأن البيئة التي نعيش في ظلها وهي تكليفنا الراهن هي بيئة الغيبة، فلو تعمقنا في خصائص عصر الغيبة وارتباطها بعصر الظهور فلن نشذ عن حيز التكليف، وأما الدراسات المعمقة في خصائص ما بعد الظهور فهي غير واقعة في دائرة مسؤولياتنا!!

لو قيل ذلك لقلنا: إن النصوص لدا الفريقين تكاثرت في بيان خصائص كل الأطوار والعصور، من الغيبة إلى الظهور وإلى ما بعد الظهور، فعقد الدراسات الفكرية لفهم طبائع ما بعد الظهور عمل بتوجيهات وتعليمات الروايات.

---

١ – كتاب الإشاعة لأشراط الساعة، البرزنجي / ٢٠٦ و ٢٠٧.

كما أن ترك الغموض يلف حوادث ما بعد الظهور وعدم معقولية مدة ملكه وغيرها من المسائل يتسرب به الشك إلى كل العقيدة المهدوية من عصر الغيبة والى ما فوقها من الأطوار.

بينما تسلسل الفهم لكل الأطوار وانسجامه ومنطقيته يقوي المعرفة ويثبت اليقين بالعقيدة المهدوية برمتها.

* ملك الشخص أم ملك الدولة

إن التساؤل عن مدة ملك الحجة عليه السلام في طور ما بعد الظهور ينشعب إلى شعبتين:

١ - سؤال عن طول ملكه الشخصي.

٢ - وسؤال عن طول ملك دولته حتى مع افتراض وفاة شخصه.

فما هي التصورات حول هذه المسالة؟

■ التصور الأول: توقف السيد الحائري

قال السيد كاظم الحائري في كتابه أصول الدين:

إن الروايات الشيعية الواردة في تحديد مدة بقاء الحجة عليه السلام بعد الظهور منقسمة إلى ثلاثة طوائف:

الطائفة الأولى: تفيد طول عمره إلى ما قبل القيامة بأربعين يوما.

الطائفة الثانية: تشير إلى خلافة أولياء مهديين من أولاده له، وهم الذين يقومون بدور إكمال المشروع المهدوي.

الطائفة الثالثة: تقسم ملكه إلى قسمين، أحدهما ملكه وحكمه الشخصي، وثانيهما ملكه ضمن رجعة الائمة عليهم السلام من جديد واحدا بعد واحد.

وختم السيد الحائري بقوله تعالى: ﴿**اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾[1].

وبذلك يظهر أنه متوقف في هذه الطوائف، ولا ترجيح لديه لما سيكون بعد انتهاء عصر الظهور.

وهذا التصور لا يحتاج إلى مناقشة، لأن السيد (حفظه الله) طرح التصورات والاحتمالات المذكورة في الروايات للدولة والحكم بعد استشهاد الحجة عليه السلام من غير ترجيح لواحد من الاحتمالات.

وقد يكون عدم خوضه في تقوية أحدها هو انتفاء الأثر العملي والعلمي من هذه البحوث في اعتقاده.

وقد بيّنا آنفا ترابط هذه الأبحاث وتأثير بعضها على بعض في اشتداد العقيدة، وفي تعاظم الأمل والتعلق بدولة أهل البيت عليهم السلام في آخر الزمان.

■ **التصور الثاني: للشيخ الجوادي حفظه الله**

ذكر في كتابه (الإمام المهدي الموجود الموعود) اتصال فجر القيامة بعصر الظهور.

قال: (وحين يتمكن من لم تكن له أهلية الهداية من اغتيال آخر حامل للواء السعادة البشرية، يكون ذلك ايذانا بظهور أشراط الساعة ونهاية عالم الدنيا).

واستدل بقوله: (يظهر ارتباط القيامة باستشهاد إمام العصر عليه السلام بوضوح برواية شريفة عن علي عليه السلام أنه قال: (...الإسلام أس، والسلطان العادل

١- أصول الدين، السيد كاظم الحائري/ ٢٩٤.

حارس، وما لا أس له فمنهدم، وما لا حارس له فضايع، فلذلك إذا رحل قائمنا، لم يبق أثر من الاسلام، وإذا لم يبق أثر من الاسلام، لم يبق أثر من الدنيا)[١].

فحين يستشهد قائم آل محمد عليه السلام فلن يبقى للإسلام أثر مما يعني نهاية العالم وطلوع شمس صبح القيامة[٢].

فلعله بذلك يرجح الطائفة الأولى القائلة أن عمر الحجة عليه السلام يطول إلى ما قبل القيامة بأربعين يوما.

وقال الطبرسي في أعلام الورى: (وأكثر الروايات أنه لن يمضى عليه السلام من الدنيا إلا قبل القيامة بأربعين يوما، يكون فيها الهرج، وعلامة خروج الأموات، وقيام الساعة، والله أعلم)[٣].

وأما التعليق عليه[٤] فمن وجوه:

● **الوجه الأول**

إن الروايات التي ذكرت ارتفاع الحجة عليه السلام قبل أربعين يوما من القيامة بهذا النص ليست بالكثيرة، وعثرنا منها على هذه الرواية في كمال الدين وتمام النعمة، عن ابي عبدالله عليه السلام:

١- النجم الثاقب، ميرزا حسين النوري الطبرسي ١/ ٥١٨.

٢- الإمام المهدي الموجود الموعود، الشيخ الجوادي/ ٢٩٠.

٣- أعلام الورى، الطبرسي٢/ ٢٩٥.

٤- سؤال وجواب: قد يقال بالتعارض بين رواية ارتفاع الحجة قبل أربعين يوما قبل القيامة وبين الروايات الكثيرة التي صرحت بأنه لو كان في الدنيا رجلان لكان أحدهما الحجة وأن الحجة آخر من يموت!

وجوابه ان الطائفة الثانية محمولة على وجود التكليف أي يمتنع خلو الارض من الحجة الإلهية مع بقاء التكليف وامكانية قبول التوبة وأما الطائفة الاولى من الروايات فهي تنص على موت الحجة الالهية قبل أربعين يوما من القيامة وليس في تلك الأيام تكليف ولا قبول للتوبة.

(ولا ينقطع الحجة من الأرض إلا أربعين يوما قبل يوم القيامة، فإذا رفعت الحجة أغلق باب التوبة ولن ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أن ترفع الحجة أولئك شرار (من) خلق الله، وهم الذين تقوم عليهم القيامة)[1].

● الوجه الثاني

لو سلمنا أن المقصود من الحجة هو شخص المهدي عليه السلام أمكن حمل ذلك على أنه آخر من يرفع من الائمة الراجعين بعد الرجعة، فليس المقصود منها موته بعد الظهور، بل بعد الرجعة في الطور الثاني من الحياة الدينا.

● الوجه الثالث

قال غير واحد من الأعلام ليس المقصود من الحجة في نص الرواية شخص المهدي عليه السلام، وإنما المعني بها هو الحجة الإلهية، أي حتمية وجود الحجة المعصوم في الأرض عدا أربعين يوما قبل قيام القيامة الكبرى.

وهذا قول استاذنا الشيخ السند.

وقول الشهيد الصدر في اليوم الموعود.

قال: (لا يتعين ان يكون الحجة المشار إليه في الرواية هو الامام المهدي عليه السلام بل هو الحاكم الأعلى للدولة الاسلامية حينئذ)[2].

١- اكمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق/ ٢٢٩.

٢- موسوعة المهدي (اليوم الموعود)، الشهيد الصدر ٣/ ٦٥٨.

● **الوجه الرابع**

وأما الرواية التي استدل بها وهي قول علي عليه السلام: (إذا رحل قائمنا، لم يبق أثر من الاسلام) فيمكن فهمها بنحو آخر، فإما أنها تشير إلى عصر الغيبة وضرورة حياة الإمام عليه السلام في أثنائه، أو أن المقصود من القائم هو الحجة الإلهية مطلقا لا خصوص شخص صاحب العصر والزمان عليه السلام.

■ **التصور الثالث: للشهيد محمد صادق الصدر**

رجح السيد الصدر في موسوعته نظرية حكم الأولياء الصالحين، أو نظرية المهديين الاثني عشر غير المعصومين من أولاد الصاحب عليه السلام وأن بيدهم قيادة الأمة بعد المهدي عليه السلام.[1]

وحاول السيد الصدر أن يثبت هذا التصور بعدة نقاط:

أولا: أخبار الأولياء الصالحين مشهورة وعديدة.

ثانيا: سيتولى الإمام المهدي عليه السلام تربية وإعداد جماعة من الأولياء على الحكم الصالح، وسيرسخ في أذهان الأمة مكانتهم وخلافتهم له، مما يساعدهم على استدامة المشروع المهدوي، واستمرارية حكم أهل البيت عليهم السلام، وبهم ستستمر الدولة والنظام الذي دشنه عليه السلام.

فالإمام لن يهمل الأمة بلا قيادة نائبة عنه، وسيوليها تربية خاصة يقدرها على القيام بالمهام الجليلة.

ثالثا: عقد ابحاثا أخرى، فتساءل عن عدد الأولياء الصالحين ومدة حكمهم والأثر العظيم الذي سيتحقق على أيديهم.

والتعليق على ما أفاده في أمور:

١- موسوعة المهدي، الصدر٣/ ٦٣٩.

● **أولا: إشكالية القيادة المتنازلة**

قد كفانا جهد الرد والمناقشة نفس صاحب الاطروحة وهو الشهيد الصدر، فله رأيان والأحدث منهما ينقض ما مر.

فقد قوى في موسوعته أطروحة حكومة الصالحين من أولاد المهدي عليه السلام لكنه أشكل عليها في بحث له حول الرجعة كتبه في أواخر حياته، فقال:

(إن المجتمع يحتاج إلى قيادة يزداد عمقها ووزنها كلما مر الزمن، لا إلى قيادة متنازلة في المستوى، بل ولا إلى قيادة متساوية.

ومن الواضح لو قلنا بأطروحة حكومة الصالحين غير المعصومين لكانت القيادة متنازلة، لأن هؤلاء الحكام سيتولى المهدي عليه السلام تربيتهم في الجيل الأول، وهذا الجيل يربي الذي بعده، والتربية كلما تباعدت عن المصدر الرئيسي ضعفت، والبرهان قائم على تصاعد المجتمع وضرورة تربيته من قبل قائد جدير.

ومن الواضح أنه مع نزول المستوى سيكون ضرر الحاكم أكثر من نفعه.

إذن لابد من الرجوع إلى القيادة المعصومة المؤيدة بتأييد الله المباشر، وذلك لا يكون إلا بالرجعة، لعدم توفر معصومين سواهم، وبأئمتنا المعصومين ينتهي المجتمع إلى أوج تربيته وإيمانه)[1].

● **ثانيا: تعاظم الاختلافات**

ونضيف، إن الإشكالية لا تنحصر في القيادة المتنازلة بل تتعدى إلى ما هو أخطر من ذلك، فلو حكم بعد الحجة عليه السلام أولياء صالحون غير معصومين

١- بحث حول الرجعة، الشهيد الصدر، بتصرف.

لدب الخلاف والاختلاف بين أركان دولته بعده، ولرجع أمر الدولة والأمة إلى ما يشبه عصر الغيبة.

إذ من طبيعة غير المعصومين استدعاء الاختلافات وحصول التداعيات السلبية بينهم، ولو عن طريق كيد البؤر الفاسدة التي تتربص بدولة الحجة عليه السلام شرا.

فافتراض حكم الأولياء الصالحين يساوي انكسار النظام المهدوي ولو بعد حين، وتعاقب دول الشر من جديد.

● ثالثا: عدم دلالة الروايات

وأما الروايات التي استدل بها على حكومة الأولياء الصالحين فلا دلالة فيها على هذا المعنى بل تؤول وترجع إلى التصور الرابع وهو الرجعة.

وأهمها ما في الغيبة ومختصر بصائر الدرجات عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في الليلة التي كانت فيها وفاته...

(يا علي إنه سيكون بعدي اثنا عشر إماما، ومن بعدهم اثنا عشر مهديا... ثم ذكر الإمام الحادي عشر وقال: فاذا حضرته الوفاة فليسلمها لابنه محمد المستحفظ من آل محمد فذلك اثنا عشر إماما، ثم يكون من بعده اثنا عشر مهديا، فاذا حضرته الوفاة فليسلمها إلى ابنه أول المقربين، له ثلاثة أسماء، اسم كاسمي واسم أبي والاسم الثالث المهدي)[1].

واستدل الشهيد الصدر في موسوعته بهذه الرواية على حكم الصالحين دون المعصومين.

١- مختصر بصائر الدرجات، الحلي/ ٣٩.

وقد دفع الشيخ الاستاذ السند مغالطة في فهم الرواية، إذ توهم من قول النبي صلى الله عليه وآله: (فإذا حضرته الوفاة فليسلمها ابنه أول المهديين) ارجاع الضمير في (إذا حضرته) إلى الإمام الثاني عشر، وأنه هو الذي يسلم الوصية إلى ابن له وله ثلاثة أسماء.

ودفع التوهم بالقول: إن الضمير يرجع إلى الإمام الحادي عشر، أي الحسن العسكري عليه السلام، وأنه هو الذي يدفع الوصية إلى ابنه الذي له ثلاثة اسماء.

وقد دلت شواهد كثيرة على أن الذي له ثلاثة اسماء هو الثاني عشر من الائمة عليهم السلام.

فقد روى الشيخ في الغيبة عن حذيفة قال: سمعت رسول وذكر المهدي فقال: (يبايع بين الركن والمقام اسمه احمد وعبدالله والمهدي فهذه أسماؤه ثلاثتها)[1].

ونضيف كذلك أن الرواية دالة على تتابع الوصية، وأن الامام السابق إذا حضرته الوفاة يسلمها لابنه اللاحق، فلو كان معنى المقطع الأخير فإذا حضرته الوفاة فليسلمها لابنه، والابن ليس من المعصومين بل هو أول الحكام الصالحين، فكيف جاز أن يسلمه وصية المعصومين عليهم السلام!

لذا فالاثنا عشر مهديا هم أنفسهم الاثنا عشر إماما، وعنوان (الاثنا عشر إماما) هو تسميتهم بلحاظ النصف الأول من الدنيا، وعنوان (اثنا عشر مهديا) هو تسميتهم بلحاظ النصف الثاني من الدنيا.

فلا يبقى في الرواية دلالة على حكم الأولياء الصالحين بعد الحجة عليه السلام.

١- الغيبة، الطوسي/ ٤٥٤.

ودلت نصوص أخرى أنه ليس للإمام الثاني عشر عليه السلام عقب يورثهم.

منها: أنه دخل عليّ بن أبي حمزة على أبي الحسن الرضا عليه السلام: فقال له: أنت إمام؟ قال: نعم.

فقال له: إني سمعت جدّك جعفر بن محمّد يقول: (لا يكون الإمام إلَّا وله عقب).

فقال عليه السلام: (أنسيت يا شيخ، أم تناسيت؟ ليس هكذا قال جعفر: إنما قال جعفر: لا يكون الإمام إلَّا وله عقب إلَّا الإمام الَّذي يخرج عليه الحسين بن علي عليه السلام: فإنه لا عقب له، فقال له: صدقت جعلت فداك)[1].

■ **التصور الرابع: رجعة الائمة عليهم السلام**

وهو التصور المختار.

وخلاصته إن الحكم والملك بعد شهادة صاحب العصر والزمان عليه السلام بيد حكّام الرجعة وهم الأئمة الاثنا عشر عليه السلام، حيث نصت الأدلة الكثيرة على رجوعهم واحدا بعد واحد.

والذي يظهر من الروايات أن رجوعهم ليس مرتبا، وإنما بحسب المصالح وتقديرات الله تعالى.

قال صاحب البحار: (إني لا أظنك ترتاب.. في القول بالرجعة التي أجمعت الشيعة عليها في كل الأعصار واشتهرت بينهم كالشمس في رابعة النهار) [2].

١- دلائل الامامة، الطبري/ ٤٣٦.

٢- بحار الأنوار، العلامة المجلسي٥٣/ ١٢٢.

وبناء على هذه العقيدة تترتب أمور:

١ - بعد ملك الحجة عليه السلام لا ترجع دول الظلم ولا تتعاقب، بل يكون الحكم متداولا بين دول أهل العدل.

٢ - لا ينتهي على القول بالرجعة حكم الصاحب عليه السلام، بل يتحول من ملك شخصي إلى ملك الدولة والنظام.

ومن الأدلة على هذا الاستنتاج ما في كمال الدين عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله عن الله تعالى:

(ولأطهرن الأرض بآخرهم من أعدائي، ولأملكنه مشارق الأرض ومغاربها، ولأسخرن له الرياح، ولأذللن له الرقاب الصعاب ولأرقينه في الأسباب، ولأنصرنه بجندي، ولأمدنه بملائكتي حتى يعلن دعوتي ويجمع الخلق على توحيدي، ثم لأديمن ملكه ولأداولن الأيام بين أوليائي إلى يوم القيامة، والحمد لله رب العالمين، والصلاة على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما)[1].

فالجمع بين دوام ملكه ومداولة الأيام بين الأولياء يقتضي البناء على ملك الدولة واستمرارية النظام ولو عبر أشخاص متعاقبين من أهل العصمة.

ومما يدل كذلك على بقاء الملك دون الشخص ما عن سلمان الفارسي قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (ألاَ أبشركم أيها الناس بالمهدي؟ قالوا: بلى.

قال: فاعلموا أنّ الله يبعث إلى أمتي سلطاناً عادلا، وإماماً قاسطاً، يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً، وهو التاسع من ولد ولدي الحسين، اسمه

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٢٥٦.

اسمي، وكنيته كنيتي، ألاَ لا خير في الحياة بعده، ولا يكون انتهاء دولته الّا قبل القيامة بأربعين يوماً)[1].

إذ نُص في الرواية على بقاء الدولة وليس على بقاء الشخص، كما أن قوله: (لا خير في الحياة بعده) إشارة إلى موته بعد رجعته، وهو آخر الراجعين، لأن حكم آبائه سيلحق موته بعد ظهوره، وفي حكم الرجعة كل الخير.

وقد أشكل السيد الصدر في (موسوعته) على دلالة الآيات على الرجعة!

لكنه أجاب عن تلك الإشكالات في كتابه (بحث حول الرجعة)، وأثبت دلالة أهم الآيات على الرجعة.

وأشكل كذلك في (موسوعته) على مضمون الروايات الكثيرة الواردة في الرجعة!

وعاد في كتابه (بحث حول الرجعة) إلى فهمها فهما عرفيا، وخلص إلى أن أخبار الرجعة لا يضرب بعضها بعضا، ولا ينفي دليل أحدها دليل الآخر، إذ كل واحدة منها يدل على حيثية من الرجعة.

وختم بالقول: إن الرجعة هي الاطروحة الوحيدة التي يستمر بها الهدى الذي أوجده الامام المهدي عليه السلام بجهوده بعد ظهوره.

فالرجعة ضامنة للمشروع المهدوي، بل هي طفرة فيه، لأن في المهديين الراجعين من هو أعظم قدرا وعلما وتمكنا من الحجة عليه السلام.

١- النجم الثاقب، ميرزا حسين النوري الطبرسي ١/ ٥١٩.

فإذا كان صاحب العصر والزمان عليه السلام هو المهدي، فجده علي عليه السلام هو المهدي الأكبر، وملكهم في الرجعة ملكه بتكامل أسمى، ودولتهم في الرجعة استمرار لدولته بدرجات أعلى.

وفي نهاية المطاف نختم برواية عظيمة، فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال:

(دولتنا آخر الدول، ولن يبق أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا: إذا ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء.

وهو قول الله عز وجل: ﴿**والعاقبة للمتقين**﴾[1].

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ٤٧٣.

المبحث الرابع

المنجي عليه السلام ومشروع التجديد

المنجي عليه السلام ومشروع التجديد

عن أبي جعفر عليه السلام: (يقوم القائم.. يبايع الناس بأمر جديد وكتاب جديد، وسلطان جديد من السماء)[1].

وعنه عليه السلام: (يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد، على العرب شديد، ليس شأنه إلا السيف، ولا يستتيب أحدا، ولا تأخذه في الله لومة لائم)[2].

وعنه عليه السلام: (إذا خرج يقوم بأمر جديد، وكتاب جديد، وسنة جديدة، وقضاء جديد، على العرب شديد، وليس شأنه إلا القتل، لا يستبقي أحدا، ولا تأخذه في الله لومة لائم)[3].

***تمهيد**

بجولة سريعة في الآيات، والروايات، ونصوص الزيارات، والأدعية الخاصة بالدولة الموعودة نتفطن إلى منظومة مخرجات وإنجازات ستتحقق على يد الإمام عليه السلام بنحو جزمي لا لبس فيه ولا ارتياب.

ومن أهمها التجديد والتحديث وتغيير ما كان، والانقلاب على الأعراف السائدة والقوانين الحاكمة.

١- الغيبة، النعماني/ ٢٧٠.
٢- نفس المصدر/ ٢٣٨.
٣- نفس المصدر/ ٢٦٤.

إن طابع التجديد وبصمة التغيير في المشروع المهدوي أمر متيقن منه، وعلى كافة المشارب والمذاهب الإسلامية.

وقد تكفلت أهم النصوص بإثبات صفة المجدد للقائم عليه السلام، وهي على اختلاف ألفاظها وسياقاتها وموضوعاتها ينتزع منها العقل جامعا واحدا وهو معجزة التجديد والتغيير.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾[1].

فقد ورد تحتها روايات عديدة، منها ما رواه القمي قال: (بالقائم من آل محمد عليهم السلام حتى إذا خرج يظهره الله على الدين كله حتى لا يعبد غير الله وهو قوله « يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا)[2].

وليس لقلب الموازين الحاكمة في الأرض من معنى غير تجديد الأعراف والأصول الحاكمة.

وعملية التجديد وصف مشترك بين كافة الأنبياء عليهم السلام وعلى رأسهم النبي الأعظم صلى الله عليه وآله، فإن الطابع الذي يصبغ مسيرتهم هو طابع التجديد الجذري والتغيير الكلي والشامل.

ولما كان المنجي الموعود عليه السلام حاملا مشاعل الرسالات ومنجزا آمال الأنبياء عليهم السلام فهو بالتالي يطابقهم في الصفات وهوية المشروع.

١- سورة الصف/ ٨.

٢- تفسير القمي، علي ابن ابراهيم ٢/ ٣٦٥.

***بيان اشكالية: العلاقة بين سيرتي النبي صلى الله عليه وآله والقائم عليه السلام**

كيف نجمع بين الروايات الواردة في الموازاة بين سيرة القائم عليه السلام وسيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله مع اختلاف طوائفها في النفي والاثبات؟

فإن الطائفة الأولى منها تثبت التشابه بين السيرتين.

ومن روايات هذه الطائفة ما في غيبة النعماني عن أبي بصير قال:

سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: (في صاحب هذا الأمر سنة من أربعة أنبياء: سنة من موسى، وسنة من عيسى، وسنة من يوسف، وسنة من محمد صلى الله عليه وآله).. قلت: وما سنة محمد صلى الله عليه وآله ؟

قال: (إذا قام سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أنه يبين آثار محمد، ويضع السيف على عاتقه ثمانية أشهر هرجا مرجا حتى يرضي الله)[1].

وأما الطائفة الثانية فتنفي المشابهة بين السيرتين.

ومن أمثلتها ما رواه النعماني في الغيبة عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: (قلت له: صالح من الصالحين سمه لي - أريد القائم عليه السلام -، فقال: اسمه اسمي.

قلت: أيسير بسيرة محمد صلى الله عليه وآله ؟ قال: هيهات هيهات يا زرارة، ما يسير بسيرته.

قلت: جعلت فداك، لم؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله سار في أمته بالمن، كان يتألف الناس، والقائم يسير بالقتل، بذاك أمر في الكتاب الذي معه أن يسير بالقتل ولا يستتيب أحدا، ويل لمن ناواه)[2].

١- الغيبة، النعماني ١٦٨.

٢- الغيبة، النعماني/ ٢٣٧.

فالناظر في الطائفتين يحكم لأول وهلة بنوع من التناقض والتخالف بين مفادهما، وذلك يستدعي السؤال عن نوع السيرة التي سيسير بها القائم عليه السلام ومدى مطابقتها لسيرة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ؟

ولو اخترنا عدم المطابقة فكيف نوازي بين المشروعين والسيرتين؟

■ **معالجة الاشكالية**

لو راجعنا روايات الطائفتين بتأمل يسير لتنبهنا إلى حلحلة ما يظهر بدوا من الاختلاف بينهما، لأنها ميزت مواضع الاشتراك عن مواضع الاختلاف بين السيرتين، وبيانه:

لو قمنا بتحليل السيرة النبوية لوجدناها مشتملة على أمرين:

١ - أهداف وغايات (فضائل وقيم وهدى).
٢ - أساليب ومناهج (طرق التوصل للغايات).

والطائفة التي تخبر عن التوافق بين السيرتين تشير إلى الموافقة بينهما في الغايات، بينما الطائفة التي تخبر عن المخالفة تشير إلى تعدد الأسلوب والمنهج في الوصول إلى الغايات.

وبالتالي فمحتوى السيرتين وهويتهما متوافق بين سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وخاتم الحجج عليه السلام رغم تعدد منهاج الوصول لتلك الهوية.

ويدل على الاشتراك والاتحاد بينهما قوله عليه السلام: (إذا قام سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله)، بينما يدل على الاختلاق والافتراق قوله عليه السلام: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله سار في أمته بالمن، كان يتألف الناس والقائم يسير بالقتل)[1].

١- الغيبة، النعماني/ ٢٣٦.

فلو قلت: ثمة طائفة ثالثة من الروايات مضمونها اتحاد السيرتين حتى في اسلوب التغيير ومنهج القيام!!

منها ما رواه الطوسي في الغيبة عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (في صاحب هذا الأمر أربع سنن من أربعة أنبياء: سنة من موسى عليه السلام، وسنة من عيسى عليه السلام، وسنة من يوسف عليه السلام، وسنة من محمد صلى الله عليه وآله .... وأما سنة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم فالسيف)[1].

قلنا: إن الجمع بين الطوائف الثلاث سهل يسير، ولسنا مضطرين إلى طرح أي من تلك الطوائف.

وذلك يعرف بالمقارنة بين البيئة التي نهض فيها رسول الله صلى الله عليه وآله والبيئة التي سيقوم فيها الصاحب عليه السلام، فإن النبي صلى الله عليه وآله قد خرج على قوم يحكمهم الجهل، وتسود فيهم أعراف الجاهلية، فكانت الأصالة لأسلوب البيان ومنهج تآلف الناس وسيرة الرحمة بهم، وما كان أسلوب السيف والحرب إلا منهج استثنائي استخدمه النبي صلى الله عليه وآله لعلاج غطرسة بعض الفئات، وصدهم عن الكيد بالرسالة، واحباط مؤامراتهم وتخطيطاتهم.

وأما صاحب العصر والزمان عليه السلام فيقوم في بيئة يسود فيها العناد واللجاج، وقد طرق اسماعهم ظهور الإسلام والقرآن منذ قرون لكنهم واجهوه بالكبرياء والغطرسة، فبين من عرف تعاليمه وانحرف عنه، وبين من اشاح بوجهه عنه من أول الأمر عنادا وطغيانا، فيكون الحكم الأولي حينئذ لأسلوب السيف ومنهج الانتقام وسيرة الاستئصال، والاستثناء لأسلوب التآلف والعطف وسيكون ذلك لفئات مستضعفة فكريا ودينيا.

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ٤٢٤.

فتحصل أن الروايات التي تنفي سيرته بسيرة جده ناظرة إلى الاختلاف في أسلوب الانطلاقة، فالأسلوب الأولي للنبي صلى الله عليه وآله هو التآلف واستتابة الناس، بينما الأسلوب الأولي للقائم عليه السلام هو السيف والقتل ولا يستتيب أحدا.

وأما الروايات التي توازي بين السيرتين مع الاختلاف فتشير إلى أن هديه هدي النبي صلى الله عليه وآله وإن كان من طريق خاص لم يحتذ فيه مثالا سابقا عليه في سيرة آبائه وأجداده.

وتبقى الروايات التي تنص على أن سنته هي سنة النبي صلى الله عليه وآله وأن سنتهما السيف، فهي مجملة وتفصيلها ما بيناه من أن قيام النبي صلى الله عليه وآله بالسيف مخصوص بحالات الاضطرار، وقيام الصاحب عليه السلام بالسيف هو الأسلوب الأولي.

* تجديد الدين أم استحداث دين جديد

كثر التساؤل حول مضمون الروايات التي تصف القائم عليه السلام بالمجدد.

فقيل: هل يأتي عليه السلام في ظهوره بدين جديد؟ أليس في الدين السائد بين الناس فرائض واقعية وأحكام متسالم عليها، فكيف يصنع بها لو قام بدين جديد؟

جزم بعض كبار الفقهاء بعدم وجود رواية واحدة تنص على اتيان القائم عليه السلام بدين جديد.

وما ورد في السؤال ناشئ من استنباط السائل من الروايات التي نصت على أنه عليه السلام يأتي بأمر جديد.

ونشير ها هنا إلى أن أحد أسباب السؤال بذلك النص هو ورود تعبير (دين جديد) في كلمات وكتب بعض الأعلام.

فمثلا جاء في موسوعة السيد الخوئي ما هذا نصه:

(إنّ المصلحة الإلهَية قد اقتضت إخفاء عدّة من الأحكام إلى زمان ظهور المهدي (عجّل اللهَّ فرجه)، ولعل هذا المعنى هو المراد ممّا ورد في بعض الروايات من أنّه عليه السلام يأتي بدين جديد) [1].

فقوله قدس سره بورود هذه التعبير في بعض الروايات ليس بدقيق، بل الوارد أنه عليه السلام يقوم بأمر جديد وكتاب جديد وقضاء جديد.

وقد يقال: إن الجمع بين هذه العبارات الواردة في الروايات يرادف قيامه بدين جديد، أي ترجمته ذلك.

فحتى لو لم يرد بنفس النص الا أن مجموع ما ورد يؤدي إلى استثارة التساؤل بالمضمون.

وعلى ضوء ما اشارنا إليه فلابد أن يصاغ السؤال بهذه الصياغة: ما معنى أنه عليه السلام يقوم بأمر جديد، وكتاب جديد، وسنة جديدة، وقضاء جديد؟

هذا سؤال معقول وهو استفهام عن نص العبارات الواردة في روايات المعصومين عليهم السلام، وإلا فالدليل القطعي قائم على أن دين رسول الله صلى الله عليه وآله هو الدين الخاتم وكتابه آخر الكتب، وقد ختمت النبوة به فلا يبقى أي توهم بإتيان الحجة عليه السلام بدين جديد بذلك المعنى.

قال الشيخ الاستاذ السند:

(معنى عدم الغلو في الائمة عليهم السلام أن لا نعتقد أنهم يأتون بشريعة جديدة تناهض وترد على شريعة الرسول صلى الله عليه وآله).[2].

١- موسوعة السيد الخوئي٤٧/ ٣١٤.

٢- دعوى السفارة، الشيخ السند/ ٢، ٣٥٨.

وأما تفسير ما ورد في النص من أنه يأتي بأمر جديد وكتاب جديد وو، فيمكن فهمه على مستويات:

■ **المستوى الأول: رفع التحريفات والتفسيرات الباطلة**

مما لا شك فيه أن القائم عليه السلام يحيي شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله وكتابه وسننه من جديد، فبعد هجر الناس لها وتعاقبهم جيلا بعد جيل على الابتعاد عنها والجهل بها يُظهر ما يحييها للعيان وكأنه أمر جديد وسنة جديدة.

أو أنه عليه السلام يجرد دين رسول الله صلى الله عليه وآله من اضافات البشر وتحريفاتهم فيظهر بصورته الناصعة وبقالب لا يعرفونه.

قال الشيخ مكارم الشيرازي:

(ليس المعنى أنه يأتي بدين جديد، بل يخرج الإسلام من خضم ما علق به من أساطير وخرافات وتحريفات وتفاسير خاطئة، فيبدو وكأنه دين جديد وبيان حديث.

وكذلك يعيد القرآن إلى سابق عزه فيبدو كأنه كتاب جديد بعد أن يطرح عنه التحريفات المعنوية والتفسيرات المشبوهة)[1].

ويدل على هذا المستوى من الفهم روايات ونصوص كثيرة منها:

١ - حدثنا عبدالله بن عطاء المكي عن شيخ من الفقهاء - يعني أبا عبدالله عليه السلام - قال: سألته عن سيرة المهدي كيف سيرته؟

١- الحكومة العالمية الإمام المهدي، مكارم الشيرازي ١/ ٢٣٤.

فقال: يصنع كما صنع رسول الله ﷺ، يهدم ما كان قبله كما هدم رسول الله ﷺ أمر الجاهلية، ويستأنف الإسلام جديدا)[١].

ومعنى استئناف الإسلام هو قيامه بنشر نفس الدين غير أنه يجدد فيه بطرح ما علق به.

٢ - ما ورد في كمال الدين وتمام النعمة عن رسول الله ﷺ: (القائم من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي، يقيم الناس على ملتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي عز وجل)[٢].

٣ - ما عن رسول الله ﷺ أنه قال: (وإن الثاني عشر من ولدي يغيب حتى لا يرى، ويأتي على أمتي زمن لا يبقى من الاسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، فحينئذ يأذن الله له بالخروج فيظهر الإسلام ويجدد الدين)[٣].

والواضح من الرواية أن الظاهر على يديه هو الإسلام الناصع والدين الأصيل.

٤ - نص الدعاء: (اللهم جدد به ما محي من دينك وأحي به ما بدل من كتابك واظهر به ما غير من حكمك، حتى يعود دينك به وعلى يديه غضا جديدا خالصا مخلصا لا شك فيه ولا شبهة معه ولا باطل عنده ولا بدعة لديه)[٤].

ويدل هذا النص على:

١- الغيبة، النعماني / ٢٣٦.
٢- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٤١١.
٣- كفاية الأثر، الخزاز القمي/ ١٥.
٤- جمال الأسبوع، السيد ابن طاووس/ ٣٠٦ .

١- تجديد الإمام عليه السلام ما محي من الدين وما غيب من السنن.

٢- ورفعه التحريف المعنوي عن نصوص الكتاب العزيز.

٣- وتعديله الأحكام المغيرة المبدلة بفعل الاجتهاد الخاطئ أو بسبب التحريف المتعمد.

٤- إزالته الشكوك والشبهات عن الدين بإظهار البراهين والمستندات، حتى يعود الدين غضا جديدا خالصا.

■ **المستوى الثاني: إظهار بطون القرآن**

يظهر الإمام عليه السلام بقيامه تفسيرات أعمق وأبعاد أسمى لنصوص القرآن الكريم مناسبة لشؤون الزمان لم تتوصل لها العقول والأفهام من قبل.

وقد ورد في الروايات وصف القرآن بأنه يجري كما تجري الشمس والقمر، كما عن عبدالرحيم القصير عن أبي جعفر عليه السلام: (إن القرآن حي لا يموت، والآية حية لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين.

وقال عبدالرحيم: قال أبو عبدالله عليه السلام: (إن القرآن حي لم يمت، وانه يجرى ما يجرى الليل والنهار، وكما تجرى الشمس والقمر، ويجرى على آخرنا كما يجرى على أولنا) [1].

ولم يستفد منه الناس استفادة مناسبة لزمانهم.

وبعبارة أخرى: إن الإمام عليه السلام يأتي بنذارة جديدة وعلوم مستأثرة من غيوب الله تعالى، ويستخرج بطون القرآن السبعة، وتكون لديه القدرة العلمية والسعة

١- تفسير العياشي٢/ ٢٠٤.

والاحاطة بالقرآن كما كان لجده علي عليه السلام الذي قال: (لو شئت لأوقرت لكم ثمانين بعيرا من معنى الباء)[١].

ولا شك أن اتيانه بالوجوه والأبعاد الجديدة والبطون سيشكل أمرا جديدا مبهرا لعقول البشر، وسيرون الكتاب كذلك جديدا كأنه لم يقرأ من قبل ببركة الفهم الجديد.

ويدل عليه كذلك ما رواه علي ابن ابراهيم في تفسيره تحت قوله:

(هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله) فهو من الآيات التي تأويلها بعد تنزيلها، قال ذلك في القائم عليه السلام)[٢].

■ المستوى الثالث: تفعيل الأحكام الواقعية

تنقسم الأحكام إلى قسمين، واقعية وظاهرية، والفقهاء يبينون للمكلفين أحكام الله الواقعية، فإن لم يتبينوا دليلها تنزلوا إلى تحديد الوظائف العملية (الحكم الظاهري).

وأغلب الأحكام التي يستنبطها الفقهاء هي من صنف الأحكام الظاهرية وليست من صنف الأحكام الواقعية.

وتصنيف الفقهاء الأحكام الظاهرية في خانة الدين إشارة إلى تعذيرها وتنجيزها وتفريغها ذمة المكلف، وليس معناه أنها من الدين الواقعي بحسب علم الله تعالى.

١- مستدرك سفينة البحار، النمازي الشاهرودي١/ ٢٦٩ ، وفي فيض القدير للمناوي١/ ٦٩: (لو شئت لأوقرت لكم من تفسير سورة الفاتحة سبعين وقرا).

٢- تفسير القمي، علي ابن ابراهيم القمي١/ ٢٣٥و٢٣٦.

وما اضطرارهم لتحديد الوظيفة العملية بدل الحكم الواقعي إلا مسبب عن البعد عن عصر النص النبوي وغيبة إمام الزمان عليه السلام، فإذا ظهر رفع الأحكام الظاهرية وجعل محلها الأحكام الواقعية الثابتة في علم الله تعالى والمقررة بالأصل.

وغير خفي إن تبدل واقع المسلمين من عمل وفق الأحكام الظاهرية إلى عمل وفق الأحكام الواقعية انقلاب إلى أمر جديد وسنة جديدة وقضاء جديد.

ولا ريب أن استخراجه للواقعيات الثابتة في علم الله تعالى ليس تحولا عن هوية الدين الخاتم أو عن هوية الكتاب السماوي بل هو تفعيل لتلك الهويات بواقعية وجدية.

■ **المستوى الرابع: حل الأزمات المستجدات**

قال بعض الأعلام: إن الموضوعات التي استجدت على طول هذه القرون لا تحصى كثرة، بسبب التقدم في علم الطب وفي العمران الجديد وفي علم الفضاء وفي عالم الأسواق والمعاملات، بل في كافة وجوه العلاقة بين البشر والطبيعة، ولم يبين الشارع حكمه فيها لبعد زمان ظهورها عن عصر التشريع.

هذا مضافا إلى أن الله تعالى قد أخفى وحجب الكثير من الأحكام عن علم العباد ولأسباب عديدة.

فاذا اقتضت الحكمة الإلهية:

١ - ظهور ما خفي من الأحكام على يدي المهدي عليه السلام.

٢ - صدور الأحكام الواقعية على الموضوعات المستجدة.

رأى الناس وجوها جديدة من الدين والسنن والقضاء وأحكام الكتاب.

■ **المستوى الخامس: العلاج الأولي**

إن الأمة وعلى طول مسيرها لم تُعالج بالدين وتعاليمه علاجا كاملا، بل اضطر ائمة الدين عليهم السلام إلى سلوك العلاج الثانوي والاضطراري باستمرار.

ولا شك أن العلاج الطارئ لا يبرز حقائق الأحكام، وبالتالي لم ينعم المسلمون ببيئة دينية طاهرة من كل الجهات.

فإذا ظهرت الأحكام الأولية وطهرت البيئة من كافة الوجوه فكأنهم استقبلوا من الدين أمرا جديدا.

وأمرهم في الحالين شبيه بالفرق بين المريض الذي يعالج بالمسكنات والمهدئات، والآخر الذي يعالج بالعلاج الجذري بإزالة جذور المرض، فإن الأول لا يمكنه أن ينعم ويرفل في صحة جيدة، بل تتخلل آنات سكونه أوجاع وآلام واضطرابات، بخلاف المريض الذي عولج بالعلاج التام وازيل من جسمه بؤر وجذور الأمراض فإنه يستأنف الحياة بصحة كاملة ودون اضطرابات وأوجاع.

فإذا قام القائم عليه السلام وعالج الأمة بالعلاج الأولي الكامل وازاح كل بؤر الفساد والظلم ستنعم البشرية في بيئة قرآنية طاهرة، وسترى نتائج ذلك على كل نواحي الحياة وكأنها تعيش مع كتاب جديد ودين جديد وفي هدي سنن جديدة.

■ **المستوى السادس: خطاب عام لكل البشر**

التعجب من نسبة الروايات للإمام عليه السلام الاتيان بأمر جديد أو كتاب جديد ناشئ من قصر نظر الروايات إلى فئة من البشر، وهم الذين يؤمنون بالدين والقرآن.

فلو توسع في النظر إلى الشرائح والمجتمعات البشرية الأخرى لوجد النظام الحاكم فيها والقوانين والفلسفات كلها وضعية بشرية لم تستخرج من القرآن ولا تمت للقوانين والفلسفات الدينية بصلة.

هذا مضافا إلى أن المجتمعات غير الدينية تحكمها الدول العظمى وذات اليد الطولى، وهي كانت ولازالت تفرض تعميم القوانين الوضعية حتى على الدول والمجتمعات الإسلامية، وبسبب ذلك تقهقرت علاقة المسلمين بالدين والقرآن، إما بسوء اختيارهم أو بالفرض عليهم من جهات سياسية أو دولية.

والمتوقع أن يخرج الإمام عليه السلام في زمان قد ساد وطغى فيه القانون الوضعي والفلسفات البشرية على قوانين وفلسفات الدين حتى في بيئات المسلمين، فسيخرج وقد هجر الناس المساجد ودور العبادة.

ولعله سيخرج وقد خفي القانون الشرعي واستبدل به القانون المدني، بل طغت عولمة القوانين والطقوس والقيم الغربية على بلاد المسلمين.

فإذا كان مشروعه يستهدف رفع كل مرض فرض على المسلمين أو اختاروه بالتدريج وصار سيرة معتادة في حياتهم فقطعا سيكون ما يأتي به عليه السلام أمرا جديدا ودينا جديدا نظرا للتحولات العقيدية والقانونية والشعائرية التي جرت على الأمة.

فالاستغراب من قيام الإمام عليه السلام بأمر جديد ودين جديد مبني على افتراض خروجه في حال قد توثقت فيه علاقة الأمة بالقرآن والدين والأولياء.

وهذا افتراض خاطئ، بل سيخرج في زمان تلاشت فيه علاقة الأمة بدينها وقوانينه وفلسفاته وأوليائه، وسيكون إرجاعها إلى ما كان بمثابة الاتيان بدين جديد.

وخذ لك مثالا حيا من باب القضاء:

فهل لا زالت الأحكام القضائية الدينية فاعلة مفعلة في محاكم المسلمين أو أن التنازل عنها مستمر بتعاقب الأجيال، كما وتحل المحاكم المدنية محل المحاكم الدينية، والقضاة المدنيون يأخذون محل القضاة الدينين!!

فلو خرج الإمام عليه السلام والحال ذلك فحتما سيكون ما يأتي به هو قضاء جديد وسنة جديدة.

المبحث الخامس

ظواهر عصر الظهور

ظواهر عصر الظهور

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [1].

***تمهيد**

فُسر الزبور والذكر بتفاسير عديدة، منها: الزبور هو كتاب داوود عليه السلام، والذكر هو توراة موسى عليه السلام.

وعلى أي من التفاسير؛ يظهر من الآية الكريمة أن الوراثة المشار إليها محل عناية وتعظيم في المنظومة الإلهية، بحيث أثبتت في الكتب السماوية.

فلو قلنا: إن الوراثة ستتحقق في عصر ظهور المهدي الموعود عليه السلام، تثبت مسؤولية عقائدية على جميع أتباع الشرائع السماوية اتجاه قضيته، فلا يكون الإيمان بها مختصا بأتباع شريعة الخاتم صلى الله عليه وآله.

وعلى ضوء ذلك تكون الآية شاهدا على اعتقادية مسألة الظهور، وأنها ليست على وزان الفروع والتفاصيل.

وبمراجعة التفسير الروائي نتلمس معنى الآية بوضوح تام.

فقد روى القمي في تفسيره عن الباقر عليه السلام أنه قال: وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**﴾ قال: الكتب كلها ذكر.

١- الأنبياء/ ١٠٥.

و﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: القائم عليه السلام وأصحابه)[١].

والمعنى هو انتقال الأرض بما فيها من بركات وخيرات من قبضة سلطان المفسدين إلى حوزة سلطان الصالحين.

وقد نوه القرآن في مواقع كثيرة على حقائق تختص بالدولة الموعودة في آخر الزمان، منها:

١ - ففي بعض المواقع وصفها الله تعالى بدولة التمكين والأمن والنصر والخاتمة الحسنة والثأر بالحق.[٢]

٢ - وفي موقع آخر وصفها بدولة المنة الإلهية وجامعة الأئمة والأولياء.[٣]

٣ - وفي موقع ثالث وصفها بالظهور والاستعلاء على سائر الأديان.[٤]

٤ - وفي آية البحث وصفت بدولة وراثة الأرض.

*الظهور حضارة أم بداوة

ما هو مستوى التطور والعمران في تلك الدولة؟

وهل يرث الإمام الموعود عليه السلام الأرض على حال فقر، أم يرثها على حال غنى؟

وهل يكون سلطانا على حضارة أم ترجع دولته لعصور البداوة؟

وأي مستوى وأفق من الأمن والأمان سيظلل ربوع دولته؟

١- تفسير القمي، القمي٢/ ٧٧.
٢- القصص/ ٦.
٣- القصص/ ٥.
٤- التوبة/ ٣٣. الفتح / ٢٨. الصف/ ٩.

وبصياغة أخرى: هل سيرث الصالحون الأرض بعد أن يبيد أهلها وتعدم خيراتها بفعل الحروب والكوارث، أم ستكون وراثة للأرض على أفضل حالاتها الحضارية؟

قد يطرح تصور بصياغات متنوعة:

١ - قد يقال إن قيام المهدي عليه السلام لما كان قيام ثأر وانتقام، فسيترتب عليه انهدام الحضارات بفعل المواجهات العسكرية الطاحنة!!

٢ - أو ربما يتصور: أن حروبا عالمية ستنشب بين مختلف أقطاب البشرية، فتعود الأرض على إثرها إلى عصر البداوة وتخلف الحضارة، فيخرج المهدي المنتظر عليه السلام في ذلك الوقت ليرث أرضا منهكة وحضارة متلاشية.

٣ - أو يصاغ التصور بعبارة أخرى فيقال: إن فناء جزء كبير من البشرية كما هو مذكور في الروايات قبل ظهور الحجة عليه السلام أو بفعل ظهوره، سيحقق أمنا وتأمينا للصالحين في آخر الزمان، لفراغ الأرض من الخصوم والأعداء، لا لتدشين منظومة حضارية منيعة بجهد وجهاد الوارثين من المؤمنين.

■ الظهوروقيام المدينة الفاضلة

أفادت الأدلة والشواهد تحقق ظواهر متميزة ونهضة فريدة لم يحصل نظيرها في أي عصر، بظهور القائم عليه السلام.

لأن الله تعالى سيبث على يد الموعود عليه السلام خزائن معارف قرآنه، وبطون علومه، فيخرج وبيده وتحت سلطانه ما يبني به الحضارة الكبرى ويشيد به العمران، وما يترتب عليه الأمن والأمان لكل البشرية.

وقد ألمح لذلك في عدة آيات، كما في قوله تعالى: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**﴾[1].

ففي تفسير القمي: فهو من الآيات التي تأويلها بعد تنزيلها، قال ذلك في القائم عليه السلام، ويوم القيامة)[2].

والمعنى، هل ينتظر المنكرون للقرآن إلا ظهور حقائقه وبروز بطونه، وسيأتي يوم الظهور والتأويل على يد الموعود عليه السلام.

والآن نبسط البحث في بعض الظواهر التي ستتحقق على يد الإمام عليه السلام، وسيكون بها الدين مهيمنا وظاهرا على كل الأديان، وسيتحقق بها أمن القوة، والوراثة الغنية للأرض، والتمكين الحضاري.

❋ظواهر الدولة الموعودة

■ الظاهرة الأولى: ظاهرة شيوع العلوم

نوهت روايات عصر الظهور بوضوح عن تفتق كافة العلوم والمعارف وشيوعها في آخر الزمان بطرق طبيعية واعجازية.

وإليك كوكبة من الروايات:

١- الأعراف / ٥٣ .

٢- تفسير القمي، القمي١/ ٢٣٦.

● **علم المهدي عليه السلام**

عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إن العلم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وآله لينبت في قلب مهدينا كما ينبت الزرع على أحسن نباته، فمن بقي منكم حتى يراه فليقل حين يراه السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة والنبوة ومعدن العلم وموضع الرسالة)[١].

● **مقدارما يبثه الموعود عليه السلام من العلوم**

عن أبان عن أبي عبدالله عليه السلام قال: (العلم سبعة وعشرون حرفا، فجميع ما جاءت به الرسل حرفان، فلم يعرف الناس حتى اليوم غير الحرفين.

فإذا قام القائم عليه السلام أخرج الخمسة والعشرين حرفا فبثها في الناس وضم إليها الحرفين حتى يبثها سبعة وعشرين حرفا)[٢].

قال بعض أهل التخصص: (يظهر من الرواية أن نسبة ما يكون في أيدي الناس من العلوم إلى ما يعلمهم إياه الإمام المهدي عليه السلام، نسبة اثنين إلى خمس وعشرين)[٣].

ولن تقتصر تلك العلوم على الأبواب الدينية والفضائل الأخلاقية، وإنما تشمل علوم الطبيعة عامة، ونظم الحياة بكل مرافقها.

● **علم الناس في زمانه**

عن أبي جعفر عليه السلام قال: (إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم)[٤].

١- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق / ٦٥٣..
٢- مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي / ١١٧
٣- عصر الظهور، الشيخ علي الكوراني العاملي / ٣٢٧.
٤- الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٢٥.

وقيل في يده معان:

١ – المقصود جارحته الشريفة، وجعلها على الرؤوس يؤدي بطريق إعجازي لصب العلم في العقول.

٢ – وقيل ولايته المعنوية وسلطانه الروحي.

٣ – وقيل رحمته الناشئة من رحمة الله تعالى، فإنه عليه السلام الرحمة الواسعة والعَلم المنصوب والعِلم المصبوب.

ويحتمل في معنى (جمع العقول) احتمالان:

١ – وحدتها واتفاقها على الحق فيرتفع عنها الاختلاف، فإن أعلم وأعقل الناس من جمع علم الناس إلى علمه وعقل الناس إلى عقله، ومعناه بلوغهم التكامل العلمي والاجتماعي.

٢ – جمع عقل كل واحد منهم أي تكميله في العلم.

فبواسطة المعلم الإلهي وهو الإمام الموعود عليه السلام تتكامل الاستعدادات وتتفتق دقائق العلوم والمعارف لعموم أهل آخر الزمان.

قال بعض العرفاء: إذا كان هذا هو أثر وضع يده المباركة على رؤوس العباد، فما ظنك بأثر روحه وتعليمه الباطني.

وبهذه الظاهرة تترتب خصوصية فريدة لعصر الظهور، وهي أنه عصر الحضارة والرقي العلمي، لأن التخلف والرجعية من مناشئ الجهل، ولما كان الجهل بكل أشكاله سيرتفع ببركة المعلم الإلهي، فستزول تبعا لذلك كل آثاره ولوازمه.

فليس لفاقدي نهم العلم، والمتراخين عن تحمله، والعازفين عن تقبل آثاره ولوازمه، محل في دولة القائم عليه السلام.

ومضافا لما سيخرجه الإمام عليه السلام من كنوز العلم الخاص وما يبتكره مما لم يعرفه البشر فإنه سيتمم نقص المخرجات والنتائج العلمية التي أنتجوها سابقا، ويطور منها ويوصلها إلى مستوياتها العالية.

فلن يتصادم الإمام عليه السلام مع كل نتاج الفكر البشري حتى ما هو نافع وحضاري.

ويمكن استفادة هذا المعنى من بعض الروايات.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: (إنَّ المؤمن في زمان القائم وهو بالمشرق ليرى أخاه الذي في المغرب، وكذا الذي في المغرب يرى أخاه الذي في المشرق)[1].

وهذه تقنية حضارية قائمة - في بعض صورها - أبدعتها العقول البشرية في عالم الاتصالات، والإمام عليه السلام سيستعملها في حركته واتصالات دولته ويزيدها تطورا.

■ الظاهرة الثانية: نماء الحالة الاقتصادية

صرحت الآيات القرآنية أن وفرة خيرات الطبيعة في بيئة ما تتوقف على إيمان وعدالة أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ**﴾[2].

١- بحار الأنوار، المجلسي٥٢/ ٣٩١.
٢- الأعراف/ ٩٦ .

وقوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[1].

ولو قيل: إن ثمة مجتمعات معاصرة يشيع فيها الفساد الخلقي، ويعكف أهلها على الكفر، تنعم بخيرات طبيعة ونمو اقتصادي، وهو رقي هائل اجتمع مع الجحود!!

قلنا: إن تلك البركات والخيرات التي ينعمون بها - فعلا - لا تقاس ولا تقارن بالبركات والخيرات التي أعدت لهم على فرض إيمانهم وتقواهم.

مضافا إلى أن تراكم الخيرات الطبيعية مع الكفر والجحود من مقتضيات الامتحان الإلهي لقطع الحجة عنهم في عالم الجزاء.

وعليه، فالمفهوم القرآني القاضي بتوقف نزول بركات السماء ونبوع خيرات الأرض على الإيمان والتقوى ثابت ومحكم.

وإذا كانت العدالة بكل آفاقها ستشيع في الدولة الموعودة وتملأ كل مساحات الأرض، فاللازم أن تنعم بنمو اقتصادي عظيم بمقدار عدل وعدالة أهلها تحقيقا للوعد القرآني.

وفي المجاميع الروائية تنويه بظاهرة وفرة الخيرات في عصر الظهور، منها:

- **جُود الأرض والسماء**

روى الصدوق عن مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ الثَّقَفِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْبَاقِرَ عليه السلام يَقُولُ: (الْقَائِمُ مِنَّا مَنْصُورٌ بِالرُّعْبِ مُؤَيَّدٌ بِالنَّصْرِ تُطْوَى لَهُ الْأَرْضُ

١- الروم/ ٤١.

وَتَظْهَرُ لَهُ الْكُنُوزُ يَبْلُغُ سُلْطَانُهُ الْمَشْرِقَ وَ الْمَغْرِبَ وَ يُظْهِرُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بِهِ دَيْنَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ فَلَا يَبْقَى فِي الْأَرْضِ خَرَابٌ إِلَّا قَدْ عُمِرَ) [١].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها)[٢].

وورد: (وتخرج الأرض أفلاذ كبدها مثل الأسطوانات من الذهب.. ويخرج كنز الكعبة المدفون فيها فيقسمه في سبيل الله)[٣].

● **تفشي الغنى بين الناس**

عن المفضل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال: (إن قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربها، واستغنى الناس)[٤].

وفي البخاري عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: (ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب ثم لا يجد أحدا يأخذها منه)[٥].

ومضافا لدخالة عدل الحكم في استغناء الناس، فإن للتشريعات الأخلاقية والقوانين الاقتصادية دورا بارزا في حفظ الحقوق المالية للناس، وفي الدولة المهدوية العادلة ستدشن أكبر منظومة تشريعية في فقه الحلال والحرام ببيان حكم الله الواقعي في كل شيء، وستتبين الضوابط الشرعية في كل مسائل المعاملات، وستطبق القوانين بنافذ علم المعصوم عليه السلام وطواقم وزرائه وأعوانه.

١- كمال الدين، الصدوق/ ٣٣١.
٢- المستدرك، الحاكم النيسابوري ٤ / ٥٥٨، هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه.
٣- احقاق الحق٢٩، التستري/ ٣٤٢، كتاب لوامع الأنوار البهية، السفاريني٢/ ٧٧.
٤- غيبة الطوسي/ ٤٦٨.
٥- صحيح البخاري، البخاري ٢ / ١١٤.

■ **الظاهرة الثالثة: شيوع الأمن والأمان**

ودل على شيوع هذه الظاهرة في اليوم الموعود نصوص القرآن والحديث:

فأما من القرآن فقوله تعالى: ﴿**وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾[١] .

قال السيد العلامة: (والمراد من تبديل خوفهم أمنا انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدوا في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهرا أو مستخفيا على دينهم أو دنياهم)[٢].

وأما من الحديث فروايات عدة دلت على تحقق الأمن والوفاق العام بين البشر، وبين الإنسان والطبيعة من حوله، وبين سائر طبقات الموجودات.

فعن عبدالله بن عباس: (وأما المهدى الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وتأمن البهائم والسباع)[٣].

وعن الصادق عليه السلام: (ولو قد قام قائمنا لأنزلت السماء قطرها، ولا خرجت الأرض نباتها، ولذهب الشحناء من قلوب العباد، واصطلحت السباع والبهائم حتى تمشي المرأة بين العراق إلى الشام لا تضع قدميها إلا على النبات وعلى رأسها زينتها لا يهيجها سبع ولا تخافه)[٤].

■ **الظاهرة الرابعة: ذهاب الأسقام والعلل**

فعن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: (إذا قام القائم أذهب الله عن كل مؤمن العاهة، ورد إليه قوته)[٥].

١- النور / ٥٥ .
٢- الميزان، السيد محمد حسين الطباطبائي ١٥ / ١٥٥ .
٣- المستدرك على الصحيحين، الحاكم٤/ ٥٥٩. وعلى نسخة أخرى٤/ ٥١٤.
٤- الخصال، الشيخ الصدوق / ٦٢٦.
٥- كتاب الغيبة، محمد بن إبراهيم النعماني / ٣٣٢.

وعنه عليه السلام قال: (إذا قام قائمنا أذهب الله عز وجل عن شيعتنا العاهة، وجعل قلوبهم كزبر الحديد..)[١].

ويحتمل هنا احتمالان:

١ - شيوع هذه الظاهرة في دولة الموعود عليه السلام عن طريق الإعجاز الذي يؤيد به.

٢ - ويحتمل أن تكون عن الطريق الطبيعي، إذ إن الإمام عليه السلام عالم بخزائن العلوم ومفاتيح الغيوب، فمن الطبيعي أن يعلم الدواء لكل الأدواء.

■ **الظاهرة الخامسة: القوة البدنية والنفسية**

عن أبي عبدالله عليه السلام: (يكون من شيعتنا في دولة القائم سنام الأرض وحكامها، يعطى كل رجل منهم قوة أربعين رجلا)[٢].

وعنه عليه السلام: (إذا وقع أمرنا وجاء مهدينا كان الرجل أجرأ من ليث، وأمضى من سنان، يطأ عدونا برجليه ويضربه)[٣].

■ **الظاهرة السادسة: التكامل الروحي**

إن الظاهرة الأكثر أهمية من بين كل الظواهر والتي ستتحقق على يد الموعود عليه السلام في عصر الظهور هي ظاهرة التكامل الروحي.

ومعنى التكامل الروحي هو انقياد شعب القوى من الشهوية والغضبية والبهيمية للقوة العاقلة، فتبلغ النفس رتبة العدالة النفسية.

١- الخصال، الشيخ الصدوق / ٥٤١.

٢- الاختصاص، الشيخ المفيد / ٨.

٣- مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي / ١٢٣.

ويترتب على انقياد ومطاوعة كل قوى النفس للعقل صعود المؤمن لمدارج القرب الإلهي، إذ العقل في منطق الدين هو (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان)[١].

ولا شك أن التكامل الروحي هو غاية الغايات، إذ إن جميع الظواهر والخصائص الأخرى بمثابة الوسائل والمقدمات المؤدية له.

والأدلة وافرة بكثرة في إثبات تحقق التكامل في أعلى مراتبه في عصر ظهور الموعود عليه السلام.

منها ما عن ابي عبدالله عليه السلام: (إذا قام قائمنا وضع الله يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم)[٢].

وطبقا لمفاد الرواية فإنه عليه السلام واسطة تكامل البشرية، إذ هو المعلم الحسي المحاط بتسديد الله وتأييده، وبيده قنوات الاعجاز.

* وسائل التكامل في عصر الظهور

ما هي الوسائل والمناهج التي سيحقق به الإمام الموعود عليه السلام تكامل البشرية؟

إنه سيحقق التكامل بطريقين:

■ الطريق الأول: الجذبة المعنوية

أي يكامل البشر بالتجليات والاشراقات الربانية التي يترتب عليها الجذبة المعنوية لعالم الروحانيات.

١- معاني الأخبار، الصدوق/ ٣٤٠.
٢- الكافي، الكليني ١ / ٢٥.

وقد أشار غير واحد من أهل العرفان إلى هذا الطريق كواحد من وسائل تفعيل تكامل البشرية في آخر الزمان:

قال ابن عربي وتبعه المفسر الآلوسي تحت قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[١] .

للخلائق ثلاث برزات:

الأولى: برزة عند القيامة الصغرى بمفارقة الروح للجسد، فتبرز الروح من حجاب الجسد إلى عرصة الحساب.

الثانية: برزة عند القيامة الوسطى بالموت الإرادي عن حجاب النفس، فيبرز العقل إلى الفطرة.

الثالثة: برزة عند القيامة الكبرى بالفناء الكلي عن حجاب الانية إلى فضاء الوحدة الحقيقية.

وظهور هذه القيامة للكل، وبروز الجميع لله، وحدوث التقاول بين الضعفاء والمستكبرين يحصل بوجود المهدي القائم بالحق..)[٢].

وأشار العارف السبزواري إلى هذا الطريق في تفسيره بقوله:

(إن يوم ظهور الإمام المهدي عليه السلام هو أعظم أيام التجلي الربوبي، فيصدق عليه ما ورد في بعض الدعوات المعتبرة: (اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم)[٣].

ولا نحيد عن الحقيقة إذا فسرنا الظهور في اليوم الموعود بالتجلي، ولازم التجلي حصول الجذبة المعنوية، والتكامل الروحي، والصعق لله الواحد القهار.

١- إبراهيم / ٢١.

٢- تفسير ابن عربي، ابن عربي ١ / ٣٤٧.

٣- مواهب الرحمن، السيد عبدالأعلى السبزواري ٣ / ٢٢٩.

■ **الطريق الثاني: الاستكمال**

أي تكميل النفوس والعقول بالمسير الاستكمالي، إذ من المنطقي أن شيوع ظاهرتي العدل والعلم، واضمحلال المذاهب الضالة من الأرض، وفناء أهل الجور والمكابرة، وخلو البيئة الاجتماعية من مراكز الفساد وقنوات الإضلال يفضي إلى فتح طريق التكامل الروحي، وبلوغ مدارج القرب الإلهي.

ومن أدلة تيسر عملية التكامل في دولة الحجة عليه السلام بالسير الاستكمالي ما صرحت به بعض الروايات من قتل إبليس.

ففي تأويل الآيات الظاهرة عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا**﴾ [1].

قال: (يعني بهذه الآية إبليس اللعين خلقه وحيدا من غير أب ولا أم).

وقوله (وجعلت له مالا ممدودا - يعني هذه الدولة إلى يوم الوقت المعلوم، يوم يقوم القائم عليه السلام..) [2].

وإبليس هو العقبة الكبرى في طريق التكامل الروحي وفقا لحديث سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله: (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض)[3].

واحتمل السيد الشهيد محمد الصدر واحدة من أطروحتين لتفسير مقتل إبليس:

١- المدثر/ ١١.

٢- تأويل الآيات الظاهرة، السيد شرف الدين الاسترابادي٢/ ٧٣٤.

٣- قوت القلوب، أبو طالب المكي٢ / ١٦٤.

الأولى: تصفية الوجود الواقعي لإبليس، إذ أنه مخلوق محدد المعالم، أمهله الله تعالى مدة طويلة ليقوم بمهمته في الإضلال بعد أن دعا الله في الإنظار والإمهال.

غير أن الله حد استجابة دعائه بالوقت المعلوم، كما في قوله تعالى: ﴿**إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾.

وفسر الوقت المعلوم بيوم الظهور، وقيام دولة العدل، فيقوم المهدي عليه السلام بتخليص البشرية من إبليس مما يسهل ويسرع عملية التكامل.

ولو قيل من أين لكم إثبات معنى (الوقت المعلوم)؟

لأجبنا أن الخبر السابق قرينة على تحديد الوقت المعلوم بظهور المهدي الموعود عليه السلام، إلا إذا قيل إن الخبر لوحده غير كافي للإثبات.

الثانية: القتل الرمزي، أي اجتثاث كل دواعي الانحراف والضلال من نفوس البشرية، مما يعدم أثر وسوسة إبليس، فيكون ذلك قتل له.

وبعبارة أخرى: إن تأثير إبليس فاعل وناجز شريطة استعداد البشرية لذلك، فإذا ما انعدم الاستعداد بخلق ظروف روحانية وتربوية مؤمنة انعدم تأثيره وتهاوى سلطانه.

إذ أن نفوذ سلطانه محدود في القرآن بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[1].

ففي عصر الظهور يزول سلطانه بزوال أتباعه، وانعدام صفاتهم، واضمحلال البيئة الشيطانية، وبالتالي يكون ذلك قتلا رمزيا له.

فهو موجود لكنه منزوع التأثير والنفوذ.

١- الحجر / ٤٢ .

وقد أيد السيد الصدر الأطروحة الأولى، بدليل إن تطبيق العدالة الكاملة مشروط بزوال كل أدوات ووسائل الشر ودعاة الانحراف، ومن أقواها وجود الشيطان، فلا محيص عن قتله كخطوة أولى لإصلاح البشرية.[١]

*عوالم تجليات القيامة

ثمة ظاهرة تثير الانتباه في تفاسيرنا الروائية، حيث تفسر آية واحدة بعدة عوالم، أي أن لتلك الآية تجليات وتطبيقات في عدة عوالم.

■ قتل إبليس مثالا

قال تعالى: ﴿**رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ [٢].

فقد تعددت الروايات الواردة في تفسيرها، وكان التساؤل بالتحديد عن معنى (يوم الوقت المعلوم):

١ - أخرج الاسترابادي في تأويل الآيات مرفوعا إلى وهب بن جميع، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن إبليس وقوله (رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم) أي يوم هو؟

قال: يا وهب أتحسب أنه يوم يبعث الله الناس؟ لا ولكن الله عز وجل أنظره إلى يوم يبعث قائمنا فيأخذ بناصيته فيضرب عنقه، فذلك اليوم هو الوقت المعلوم) [٣].

١- تاريخ ما بعد الظهور ، السيد محمد الصدر ٥٧٥ - ٥٧٩ .

٢- الحجر/ ٣٦-٣٨ .

٣- الآيات الظاهرة، الاسترابادي٢/ ٥١٠.

٢ - وفي رواية أخرى ورد تحديد الوقت المعلوم بآخر كرة يكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

روى في مختصر بصائر الدرجات عن عبدالكريم بن عمر والخثعمي قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إن إبليس قال (فأنظرني إلى يوم يبعثون) فأبى الله ذلك عليه فقال (إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم).

فإذا كان يوم الوقت المعلوم ظهر إبليس لعنه الله في جميع أشياعه منذ خلق الله آدم إلى يوم الوقت المعلوم وهي آخر كرة يكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

فقلت وإنها لكرات. قال نعم إنها لكرات وكرات ما من إمام في قرن إلا ويكر البر والفاجر في دهره حتى يديل الله المؤمن الكافر.

فإذا كان يوم الوقت المعلوم كر أمير المؤمنين عليه السلام في أصحابه وجاء إبليس في أصحابه ويكون ميقاتهم في أرض من أراضي الفرات، يقال لها الروحا قريب من كوفتكم، فيقتتلون قتالا لم يقتتل مثله منذ خلق الله عز وجل العالمين، فكأني انظر إلى أصحاب علي أمير المؤمنين عليه السلام قد رجعوا إلى خلفهم القهقري مائة قدم، وكأني أنظر إليهم وقد وقعت بعض أرجلهم في الفرات.

فعند ذلك يهبط الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بيده حربة من نور فإذا نظر إليه إبليس رجع القهقري ناكصا على عقبيه، فيقولون له أصحابه أين تريد وقد ظفرت، فيقول إني أرى مالا ترون، إني أخاف الله رب العالمين، فيلحقه النبي صلى الله عليه وآله فيطعنه طعنة بين كتفيه فيكون هلاكه وهلاك جميع أشياعه.

فعند ذلك يعبدالله عز وجل ولا يشرك به شيئا..) [1]

١- مختصر بصائر الدرجات، حسن بن سليمان الحلي/ ٢٧.

٣ – وفي تفسير القمي عن محمد بن يونس عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى (فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم)

قال يوم الوقت المعلوم يوم يذبحه رسول الله صلى الله عليه وآله على الصخرة التي في بيت المقدس) [١].

٤ – وفي طائفة ثالثة إشارة للقيامة.

فقد روى الصدوق في العلل: عن يحيى بن أبي العلا الرازي أن رجلا دخل على أبي عبدالله عليه السلام فقال: جعلت فداك أخبرني.. قول الله عز وجل لإبليس (فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم)..

(قال ويوم الوقت المعلوم يوم ينفخ في الصور نفحة واحدة فيموت إبليس ما بين النفخة الأولى والثانية) [٢].

والتوفيق بينها بالقول بتعدد الانتقام الإلهي من إبليس، وأنه يتم في تلك العوالم جميعا، مضافا للانتقام الأعظم في يوم الفزع الأكبر.

١- تفسير القمي٢/ ٢٤٥.

٢- علل الشرائع، الصدوق٢/ ٤٠٢.

المبحث السادس

رواد التغيير في آخر الزمان

رواد التغيير في آخر الزمان

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

***المقدمة**

نوهت الآية الكريمة بالفرق بين حياة المعارف الحقة في الوجود وحياة حملتها.

فالحاملون لعقائد الدين يحيون بها حياة طيبة، ويساهمون في نشرها عبر الأجيال، فإذا ما انقلبوا عليها وتاركوها وهجروها، وتحولوا من الحياة الروحية إلى الموت المعنوي، تبقى المعارف حية لا تموت بموتهم، لأنها تمتلك عوامل الخلود والاستقرار بنفسها لحقانيتها، ثم تتجلى في آخرين آمنوا بها.

فبقاء المعارف غير مرهون بالحاملين لها من سائر المسلمين، وهي لا تموت بهويهم في سحيق الأفكار المناوئة أو بهارج الشهوات، بل تحمل في احشائها عناصر البقاء والاستمرار.

وبصياغة أخرى: للعقائد الدينية ميزة وخصوصية ليست في أفراد البشر، إذ البشر محكومون بقانون الموت والحياة، وربما اختاروا سوء الخاتمة، ويبقى الدين والمعارف الإلهية حية خالدة تتخطى العوالم والأدوار، وتتجاوز من تخلى عنها ولفظها.

١- المائدة/ ٥٤.

فلم يترك الله دينه وحقائق معارفه رهن تحولات البشر، وإنما يحفظه بواسطة التبديل والاستبدال، فإذا ما تخلى عنه من آثر الشقاء على السعادة، أو رحل جيل من الأجيال نهض آخرون لحمله والحياة به.

وقد أشار الله تعالى إلى الاستبدال بسبب الموت في قوله: ﴿**ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [١]. فرحيل الإمام عليه السلام الحامل للمعارف لا يميتها لأن الله يقيض لحملها آية أخرى.

ونوه تعالى إلى الاستبدال بعد الانحراف والارتداد في آية البحث: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [٢].

فآية البحث في مقام التوعية لأمير خطير، وكأن لها لسانا فصيحا يرن في الأسماع قائلا:

إن المؤمنين الحاملين للدين ليسوا قِواما أبديا له، فحتى لو كان الحامل له من حجج الإسلام في زمانه، فإذا انحني للاستكبار أو سقط أمام حبائل الشيطان، فإن سقوطه لا ينهي ظاهرة الدين الإلهي ولا يعدم وجود الشريعة الربانية.

بل قد يتجاوز الفرد المؤمن أو الجماعة المؤمنة مرحلة السقوط إلى ما هو أبعد من المراحل، بأن يكون محاربا للإسلام وباستخدام قنواته ووسائله، غير أن ذلك لا يزيد الدين إلا قوة وصموداً واستمرارا وتجذرا.

فرغم التسليم بأن الفكر يتحرك بحركة حامله ومطبقه غير أنه لا يتقوقع ولا ينحصر في حامل واحد أو جماعة معينة، فكلما رحل حامله أو تردى بالهوي فإن الدين يجد لنفسه حملة وحماة ومريدين، وذلك وعد إلهي لا يخلف.

١- البقرة/ ١٠٦.

٢- المائدة/ ٥٤ .

ونستثني من ذلك الإمام المعصوم عليه السلام فإنه هو الحجة التي يدور على محورها الدين، لكونه تجسيدا للدين في الواقع الخارجي الحقيقي، وبرحيله تنصب حجة إلهية أخرى.

ويبقى الدين عابرا للعوالم والأدوار، وهو الذي يحيينا ولسنا نحن من نحييه.

***البحث الأول: البحث التفسيري**

فَهِم أغلب المفسرين - سنة وشيعة - أن المقصود من الارتداد في الآية هو الارتداد الاصطلاحي، أي إنكار العقيدة الدينية والكفر بضروراتها ومسلماتها، وبالتالي عقدوا بحثا في بيان المصاديق المعنية في ذيل الآية، وطبقوا عليهم الصفات المذكورة فيها.

١ - قال الطبري في جامع الأحكام:

(وهذا من إعجاز القرآن والنبي صلى الله عليه وآله، إذ أخبر عن ارتدادهم ولم يكن ذلك في عهده وكان ذلك غيبا، فكان على ما أخبر بعد مدة، وأهل الردة كانوا بعد موته صلى الله عليه وآله.

قال ابن إسحاق: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ارتدت العرب إلا ثلاثة مساجد، مسجد المدينة، ومسجد مكة، ومسجد جؤاثى.

وكانوا في ردتهم على قسمين:

قسم نبذ الشريعة كلها وخرج عنها، وقسم نبذ وجوب الزكاة واعترف بوجوب غيرها، قالوا نصوم ونصلي ولا نزكي) [1].

١- الجامع لأحكام القرآن، الطبري٦/ ٢١٩ .

٢ – وقال الشعراوي في تفسيره:

(وقد حدثت في عهد أبي بكر سبع ردات، وظهروا سبعة أدعو النبوة... وفي عهد عمر لم تحصل إلا ردة واحدة) [١].

وبناءاً على هذا الأساس وضعوا روايات التطبيق، ففي وجهة النظر السنية أن المقصود بالقوم الذين يقوم الله بإعدادهم لمواجهة الردة هم أبو بكر وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، أو أمثالهم.

قال الحسن وقتادة وغيرهما: (نزلت في أبي بكر الصديق وأصحابه)

وقال السدي: (نزلت في الأنصار) [٢] .

وقال بعض أهل السنة: إنهم قوم أبي موسى الأشعري.

واعترض بعض المفسرين بالقول: إن مثل أبي موسى وقومه لا يرتقون إلى مثل الصفات المذكورة في الآية.

قال الشيخ مكارم شيرازي:

(إن الأمر الذي يثير الأسف في هذا المجال، هو تدخل العصبيات الطائفية والقومية في تفسير هذه الآية، والتي أدخلت أفرادا لا يمتلكون أي كفاءة ولا يتمتعون بأي من الصفات المذكورة ضمن مصاديق هذه الآية واعتبرتهم ممن نزلت الآية في شأنهم، ومن هؤلاء الأفراد « أبو موسى الأشعري» الذي ارتكب تلك الحماقة التأريخية المعروفة التي دفعت بالإسلام نحو هاوية السقوط، ووضعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في أحرج موقف)[٣].

١- تفسير الشعراوي٥، محمد متولي الشعراوي/ ٣٢١٩، ٣٢٢٠.

٢- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي٦/ ٢٢٠.

٣- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ مكارم شيرازي٤/ ٤٣.

٣ - وأما وجهة النظر الشيعية فتتلخص في طوائف من الروايات:

الأولى: روايات واردة من طرق السنة والشيعة تشير إلى أن هذه الآية نزلت في حق عليٍّ وأصحابه الذين قاتلوا طوائف الضلال.

الثانية: روايات تذكر أن الرسول ﷺ وضع يده على كتف سلمان، وقال: (هذا وأنصاره وبني قومه).

الثالثة: روايات ذكرت أن المقصود هو المهدي ﷺ وأصحابه الذين هم رواد التغيير الجذري والبناء الحضاري في آخر الزمان..

وقال الشيخ مكارم شيرازي: (ومما لا شك فيه أنه لا تناقض بين هذه الروايات الواردة في تفسير الآية الأخيرة، لأن الآية - جريا على أسلوب القرآن الكريم - تبين مفهوما كليا عاما، بحيث تعتبر «علي بن أبي طالب عليه السلام» أو «سلمان الفارسي» مصداقين مهمين ضمن هذا المفهوم الذي يشمل أفرادا آخرين يسيرون على نفس النهج، حتى لو لم تتطرق الروايات إلى أسمائهم)[1].

هذا خلاصة ما في تلك التفاسير.

٤ - ولكن الأمر في التفسير الكبير مختلف، حيث أخذ بالاستدلال، فعد عدد المرات التي حصلت فيها الردة من عصر الرسول ﷺ إلى عصر الخليفتين الأول والثاني.

وأشار إلى من ادعى النبوة كمسيلمة، والذي كتب إلى النبي ﷺ : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد فإن الأرض نصفها لي ونصفها لك.

فأجابه الرسول: (من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

١- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيخ مكارم شيرازي٤/ ٤٣.

وخلص الرازي إلى نتائج:

١ - فهب أن علياً حارب المرتدين، لكن محاربة أبي بكر للمرتدين كانت أعلى حالاً وأكثر موقعاً في الإسلام من محاربة علي مع من خالعه في الإمامة..

٢ - ومن ثم بين أن الصفات المذكورة في الآية تنطبق على أبي بكر أشد من انطباقها على غيره.

٣ - وقال في صفة الجهاد: أنه فضيلة مشترك بين أبي بكر وعلي عليه السلام، إلا أن حظ أبي بكر فيه أتم وأكمل.

وبيان ذلك من وجوه، أي أن جهاد الأول أكمل من جهاد علي عليه السلام:

الأول: أن جهاد أبي بكر كان متقدما زماناً على جهاد علي عليه السلام، لأنه كان في أول البعثة، وعلي شرع في الجهاد يوم بدر وأحد، والله يقول: ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[1].

الثاني: إن جهاد أبي بكر كان في وقت ضعف الرسول صلى الله عليه وآله، وجهاد علي كان في وقت القوة.[2]

■ **مناقشة الفخر الرازي**

إن الفخر الرازي قفز على البديهيات وتجاوز المسلَّمات التأريخية بمقارناته الآنفة.

ويكفي في رد أباطيله صدور مقولتين عظيمتين في حق علي عليه السلام:

١- الحديد/ ١٠.

٢- التفسير الكبير، الرازي فخر الدين ١١/ ١٩٤و١٩٥.

الأولى: ما رواه الحاكم عن سفيان الثوري عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: (لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة) [١]

الثانية: عنه ﷺ: (برز الإسلام أو الإيمان كله، إلى الشرك كله) [٢] ونسب في الروايتين كل خصال السؤدد للجهاد العلوي، والتي منها:

أولا: سعة ثواب جهاده.

ثانيا: الظروف الحرجة التي برزت فيها التضحية العلوية.

ثالثا: الأثر الإيجابي الممتد لجهاده على طول التأريخ.

رابعا: مشاركته عليه السلام لكل مكلف في ثواب الإيمان والإسلام.

* نقد الأنظار التفسيرية

يرتكز نقدنا للأنظار التفسيرية السابقة على ثلاث نقاط أساسية:

الأولى: كشف معنى الردة بدقة.

الثانية: في بيان أنها لا تشمل أناساً في عصر الرسول ﷺ.

الثالثة: التدقيق في الصفات المذكورة في الآية.

■ النقطة الأولى: الردة اصطلاحية وتنزيلية

هل تشير الآية بكلمة - يرتد - إلى المعنى الإصلاحي أو إلى المعنى التنزيلي؟!

بيان ذلك في أمور:

١- المستدرك٣، الحاكم النيسابوري/ ٣٢.

٢- شرح نهج البلاغة١٣، بن ابي الحديد/ ٢٦١.

● **أولاً: معنى الردة**

تختلف الرِدة بالكسر عن الرَدة بالفتح، فهما ليسا من باب واحد، وإنما من بابين، فأما بالفتح فمعناها العودة إلى الحقيقة، وأما بالكسر فهي الرجوع إلى الباطل من الحق.

فالفرق بينهما كالفرق بين الانهيار والانقلاب، إذ الأول هو حصول الرِدة والبعد عن طريق الحق إلى حضيض الباطل، والثاني: هو التحول والانتقال من حضيض الفساد إلى نور الصلاح والحق.

والآية موضع البحث تشير إلى تحقق حالة من حالات الانهيار عن الحق والتحول إلى الانحراف بعد الايمان، فهو ارتداد عن الحق.

● **ثانياً: الرِدة على قسمين**

القسم الأول: الارتداد الذي له حقيقة شرعية، وله شعبتان: الأولى ارتداد فطري، والثانية ارتداد ملي.

وهما جميعا بمعنى الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن العقيدة إلى اللا عقيدة.

والقسم الثاني: هو الارتداد بالمعنى التنزيلي، وهو لا يعني التحول من الاعتقاد إلى عدم الاعتقاد، وإنما هو انحراف في التطبيق، وعصيان للأمر والنهي، وتخلٍ عن الوظائف الشرعية عملا، ولكنه لا يشتمل على إنكار لأصل الشريعة وأصلً المعتقد.

● **ثالثاً: الردة التنزيلية**

هل المقصود من الآية الردة الاصطلاحية والحقيقة الشرعية، أم المراد الردة التنزيلية؟

من خلال التأمل في سياق الآيات والقرائن الداخلية في الآية يتبين أن المراد هو الردة تنزيلا.

وذلك بلحاظ قرينتين داخلية وخارجية:

فأما القرينة الداخلية، فلو كان الغرض بيان الارتداد الاصطلاحي لاحتاج المقام إلى الإخبار عن إتيان الله بقومٍ لا يرتدون عن دينه بحكم المقابلة.

وأما الوعد بإتيانه قوما من صفاتهم الحب الحقيقي لله تعالى، وأنهم أذلة على المؤمنين، ومتميزون بقممية الالتزام والايمان والاعتقاد، فإنه بحكم المقابلة يقتضي خلو المرتدين عن تلك الصفات الرفيعة والعظيمة.

وهذا معناه أن الطبقة المستبدلة كانت على العقيدة والإيمان الظاهري غير أنها فاقدة للتطبيق الصادق وغير سالكة في مراتب القرب الإلهي.

وأما القرينة من خارج الآية فهي مذكورة في الآيات السابقة، لأنها تتحدث عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء من غير كفر بالعقيدة.

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[1].

وهذا اللسان القرآني المشتمل على التحذير وتوصيف ما تؤول إليه مولاتهم لا يناسب أن يخاطب به من يترك الشريعة رأساً، أو يكفر ببعض أصولها المقررة، وإنما يناسب من يعتقدها كأصل ظاهري ويعمل سياسيا واجتماعيا تحت ولاية الظالمين.

ثم يخاطبهم الله بقوله: ﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا**

١- المائدة/ ٥١.

﴿أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾[1] وهو خطاب مناسب للحريصين على الدنيا، ومن تسرب المرض لقلوبهم، وهم مسلمون في الظاهر.

ويؤيد ما قلناه ارتباط الآيات في المعنى بالمقابلة، ففي الآيات السابقة كان الكلام عن محبة اليهود واتخاذهم أولياء، والآية موضع البحث واردة في محبة الله تعالى وتعلق القلب به دون غيره.

وعلى هذا الأساس يتضح خطأ المصاديق التي طرحها بعض المفسرين، لأنها من مصاديق الردة الاصطلاحية، وجو الآية بعيد عن المعنى الاصطلاحي إلى المعنى التنزيلي.

■ **النقطة الثانية: الردة بعد عصر النبي صلى الله عليه وآله**

من الواضح أن الآية تشير إلى ما بعد عصر الرسول صلى الله عليه وآله، لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ﴾

والموعودون وإن كانوا اتباعا للرسول صلى الله عليه وآله في الهدف والغاية، ومماثلين له في الصفات إلا أنهم مختلفون عنه عصرا وزمانا، ويتلخص دورهم في:

١ - إنقاذ الدين من غربته.

٢ - وانتشال البشرية من وحل السقوط.

٣ - وملأ الحياة بالعدل في جميع الدوائر والشؤون.

٤ - وجعل الدين حاكما في كل المستويات.

١- المائدة/ ٥٢.

ومن هنا انبرى بعض المفسرين – ومن باب فرض ما يتصوره من معنى على الآية قهرا– إلى القول أن أبا بكر قاتل أهل الردة بقوم لم يكونوا موجودين في عصر الرسول ﷺ، وفيه ما فيه.

وفي المناقب عن علي عليه السلام أنه قال يوم البصرة: (والله ما قوتل أهل هذه الآية حتى اليوم، وتلا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ**﴾[1].

■ **النقطة الثالثة: نظر السيد الطباطبائي**

قال في الميزان: (وقد تشتت ما ورد من أسباب النزول وليست إلا أنظار المفسرين من السلف كغالب أسباب النزول المنقولة في الآيات، وهذا الاختلاف الفاحش أيضا مما يشوش الذهن في تفهم المعنى، أضف إلى ذلك كله مخالطة التعصبات المذهبية الانظار القاضية فيها كما سيمر بك شواهد تشهد على ذلك من الروايات وأقوال المفسرين من السلف والخلف.

والذي يعطيه التدبر في الآيات: أن هذه الآيات الأربع على ما نقلناها متصلة الأجزاء منقطعة عما قبلها وما بعدها، وأن الآية الرابعة من متممات الغرض المقصود بيانه فيها غير أنه يجب التحرز في فهم معناها عن المساهلات والمسامحات التي جوزتها أنظار الباحثين من المفسرين في الآيات وخاصة فيما ذكر فيها من الأوصاف والنعوت على ما سيجيئ.

وإجمال ما يتحصل من الآيات أن الله سبحانه يحذر المؤمنين فيها اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ويهددهم في ذلك أشد التهديد، ويشير في ملحمة قرآنية إلى ما يؤول إليه أمر هذه الموالاة من انهدام بنية السيرة الدينية وأن الله سيبعث قوما يقومون بالأمر ويعيدون بينة الدين إلى عمارتها الأصلية)[2].

١- الشافي في الإمامة، الشريف المرتضى٤/ ٤٣. مناقب آل ابي طالب، ابن شهر اشوب٢/ ٣٣٤

٢- الميزان، السيد الطباطبائي ٥/ ٣٦٧ و ٣٦٨.

وخلاصة كلامه أن المفسرين فهموا المعنى الإجمالي للآية، لكنهم لم يدققوا في المفردات التي لها دخالة أساسية في إعطاء الصورة الواقعية للآية معنى وتطبيقاً.

* لامسامحات في ألفاظ القرآن

ونشير لمجموعة أمور لزيادة البيان:

أولا: سائر كلام الناس مبني على المسامحات وعدم الدقة، فقد يعبرون عن النادر بكلمة المعدوم، وهو كثير في الكلام الجاري.

وهذا التسامح البشري غير موجود في كلام الله تعالى، لأنه محيط بكل شيء، ومدرك لكل شتات الحقيقة، وقد وصف كلامه بأحسن الحديث، وأنه لقول فصل، فما يطرح في آيات القرآن يمثل الواقعية بدقة.

ثانيا: إن الشاعر في شعره يبني مدائحه على الخيال والمبالغات في التوصيف، وليس لذلك أي وجود في القرآن.

ولم المبالغة والقرآن كلام صادر من المحيط بكل شي والعارف بكل التفاصيل والشؤون!

ومن هنا يتبين الخطأ الذي وقع فيه المفسرون في تفسير آية البحث ونظائرها، وهو عدم الالتفات إلى الشأن الخاص الحاكم على تعابير القرآن، وعدم إعطائهم كل مفردة حقها بحسب الحقيقة.

وللأسف فقد تسرب منهج المسامحات والمجازات بكثرة في تفسير بعض المفسرين، ومن الواضح أن ذلك المنهج يغطي حقائق القرآن ويشوش عليها.

ولذا لم يحملوا قوله تعالى في الآية: ﴿بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ – من غير تخصيصه بحال دون حال، أو إرفاقه بقيد، أو استثناء – على الإطلاق.

بينما النظر الدقيق يقتضي حملها على الحب المطلق، فتفيد أنه تعالى لا يكره منهم أي شيء، وأنهم يعبرون عن إرادته ومراده مطلقا، وبالتالي هم أهل عصمة وانقياد كلي.

وكذا سائر ألفاظ الآية لو حملت على معانيها الدقيقة لأفرزت المعنيين بالمراد الجدي دون تخبط وارتجال.

*البحث الثاني: مناقشة التطبيقات على ضوء ما تقدم

بعد أن انتهينا من الأنظار التفسيرية مع بعض مناقشاتها نصل الآن إلى الأقوال التطبيقية الواردة في تفاسير الشيعة والسنة.

الأول: المقصود بالقوم هم عليّ عليه السلام وأصحابه، وثمة مؤيدات لذلك كحديث الراية.

وعلي عليه السلام وإن كان مصداقا بارزا للصفات المذكورة في الآية، بل هو المصداق الأول، لكن وجه الإشكال يحصل بملاحظة التالي:

١ - قوله تعالى: ﴿**قَوْمٍ**﴾ إذ يدل على الجمع.

٢ - ثم الإتيان بكل الأوصاف بصيغة الجمع، وهذا يُفهم أن المأتي بهم ليس رجلاً واحدا، وإنما هم جماعة ملتفون حول هدف واحد، ومتماثلون في أوصاف واحدة، وبهم سينتصر الله لدينه في الأرض.

٣ - ومن جهة أخرى، فإن الخطاب في الآية إنباء للمؤمنين بورود قوم في المستقبل يمثلون المجتمع الإلهي القويم في الأرض، وذلك الخطاب ليس موجها للقوم المنتصر بهم، لأنهم مخبر عنهم، وهذا يعني أنهم قوم في آخر مطاف الحياة، وفي نهاية زمانها.

٤ - وعلي عليه السلام وإن كان أهلا للصفات المذكورة في الآية، وكان مشمولا للخطاب لما فيه من العصمة، إلا أن أصحابه ليسوا كذلك، فهم غير محبوبين لله على الإطلاق، ومنهم من انهار عن الخط القويم بعد ذلك.

والكلام عينه في رواية ضرب النبي صلى الله عليه وآله بيده على عاتق سلمان وقوله: (هذا وذووه) لأن التدقيق في مقتضى الأوصاف المذكورة في الآية ينفي ذلك.

ونفس الملاحظات ترد على رواية العامة المعينة لهم في (قوم أبي موسى الأشعري) المعروف بمواقف جرت الويلات على الإسلام.

الثاني: المقصود بالآية أبو بكر وعصابة معه.

وهو غير صحيح من وجوه:

١ - إن الردة الواقعة في عصر أبي بكر كانت ردة بالمعنى الحقيقي لا التنزيلي - بالحد الأدنى في فئة من المرتدين -، وقد بينا أن الآية نازلة في الردة التنزيلية.

٢ - المعنيون حسب سبب النزول هذا لا يرتقون إلى مستوى الصفات المذكورة في الآية وبشهادة أهل السنة، لاعتقادهم بعدم عصمة الصحابة.

٣ - وقد شارك في تلك المعارك جماعة من أهل المظالم والمثالب، فكيف تنطبق عليهم الأوصاف المذكورة في الآية!!

٤ - بل هم مخاطبون بالآية ومهددون بها، لا أنهم هم القوم الموعود بهم كرواد وحماة للدين.

٥ – الآية صريحة في أن المأتي بهم هم جماعة غير موجودين في أوان النزول، والمقاتلون لأهل الردة في عصر أبي بكر موجودون في زمان نزولها، فهم مخاطبون لا أنهم موعود بهم.

٦ – روى النعماني في الغيبة عن سليمان بن هارون البجلي، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إن صاحب هذا الأمر محفوظة له أصحابه لو ذهب الناس جميعا أتى الله له بأصحابه، وهم الذين قال الله عز وجل: (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين). وهم الذين قال الله فيهم: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين)[1].

وبتطبيق الآية على صاحب هذا الأمر تسقط جميع الإشكالات والملاحظات السابقة، لأن الروايات الكثيرة بينت صفات آخر الزمان، وما سيحصل فيه من ردة تنزيلية بتتابع الأيام.

والواقع شاهد على ذلك، فكلما تقدم الزمان تتأكد رسمية الإسلام من جهة، ويتراجع الناس عن واقع تطبيق تعاليمه وامتثال عباداته من جهة أخرى.

وخلاصة الكلام: إن المهدي المنتظر عليه السلام وأصحابه وخصوصاً على القول بالرجعة هم المعنيون بالآية، فهم الذين سيتمثلون بحقائق الإيمان، وهم من ستشرق بسيرتهم سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم الأبدال الذين يرجعون في آخر الزمان فيؤلفون مجتمعاً جامعا للصفات المنصوص عليها في الآية.

---

١ – الغيبة، النعماني / ٣٣٠.

*البحث الثالث: صفات رواد الظهور على ضوء القرآن

■ **الصفة الأولى: يحبهم الله ويحبونه**

ثمة نحوان من الحب ينتسبان لله تعالى:

الأول: الحب التكويني.

الثاني: الحب التشريعي.

والأول ليس مقصودا بالآية، فحبه التكويني شامل لكل الموجودات، ولا دخل للإيمان والفسق فيه، لأنه معلول لكون الشيء أثراً لذاته المقدسة، ولأنه تعالى محب لذاته ومبتهج بها فهو محب لآثار ذاته تبعا.

فيكون الحب المشار إليه في الآية هو الحب التشريعي، والذي يتوقف على القيام بالوظائف والمقررات الدينية.

فكلما كانت إرادة العبد تابعة لإرادة الرب التشريعية، كان الحب التشريعي أأكد وأكبر.

وحبه تعالى تشريعا يبدأ من حب العبد له قلبا وحقيقة، وترجمته ما في قلبه باتباع منهاج رسوله صلى الله عليه وآله.

والحب والبغض التشريعيان يدوران - وجوداً وعدما - على وجود الصفات الحسنة ووجود الصفات والقبيحة.

فالحب التشريعي لا يترتب على مجرد أقوال لا تصدقها الأفعال، فحين يكون حبك صادقاً لله تعالى فلابد أن تشفعه بالموقف والعمل.

ومن جانب آخر فكل عبد لا يحب الله ولا يمتثل مقررات دينه فهو مبغوض له تشريعا.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[٣].

وفي القرآن آيات كثيرة في بغضه التشريعي تبعا للصفات غير المحمودة، ونفي الحب فيها مترتب على وجود صفة ذميمة، وليس مترتباً على ذات الموجود.

وللبغض التشريعي موجبات متفاوتة:

١ - متاركة الإسلام شريعة وثقافة وشعائرا.

فالمقلد للغرب الكافر ثقافيا أو عمليا خلو من حقيقة الإسلام ومثله لا يكون محبوبا بالحب التشريعي.

٢ - انكار الولايات الطولية المنشعبة من ولاية الله، أي ولاية النبي ﷺ وولاية المعصوم عليه السلام وولاية الفقهاء.

فإنكار ذلك يوقع في البغض التشريعي، لأنه جحود لمن نصبهم الله روادا للأمة.

● **ولاية النفس أم ولاية الله**

وفي هذا السياق ننبه على أن تصدي بعض طلائع الشباب للاجتهادي الشخصي في الدين وانكار وصاية الفقيه في رسم خريطة الثقافة والأحكام الدينية محل مبغوضية إلهية، لأنه يرجع طولا لمنازعة الله في ولايته.

١- آل عمران/ ٥٧ .
٢- الانعام/ ١٤١.
٣- النحل/ ٢٣ .

ولنعلم أن دعاة التجديد لم يأتوا بجديد، وإنما رددوا شعارات الغرب الحائر التائه، الذي يقصد إشاعة الحرية حتى في الجانب الديني والعقيدي، لتنفلت البشرية من ولاية المعصومين عليهم السلام وتركن لولاية الجائرين العابثين.

ومن أهم أهداف المنفعلين بالغرب العمل على رفع أول وأقدس صفة من صفات مجتمع الحجة عليه السلام، وهي ولاية الله وكل الولايات الطولية، كولاية المعصومين والفقهاء، واستبدال ذلك بالاجتهاد الشخصي، بأن ينصب كل شخصٍ نفسه إماما لنفسه ووليا عليها، ويكون المحصل من ذلك الركون للنفس والهوى والشيطان.

قال السيد الطباطبائي:

(ونهى القرآن عن الحكم بغير ما أنزل الله، ونهى عن إلقاء الاختلاف بين الطبقات، ونهى عن الطغيان واتباع الهوى إلى غير ذلك، وشدد فيها ثم وقع ما وقع.

والأمر في النهى عن ولاية الكفار وأهل الكتاب نظير غيره من النواهي المؤكدة الواردة في القرآن الكريم، بل ليس من البعيد أن يدعى أن التشديد الواقع في النهى عن ولاية الكفار وأهل الكتاب لا يعدله أي تشديد واقع في سائر النواهي الفرعية.

فقد بلغ الأمر فيه إلى أن عد الله سبحانه الموالين لأهل الكتاب والكفار منهم: فقال» ومن يتولهم منكم فإنه منهم»، ونفاهم من نفسه إذ قال: «ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء». وحذرهم منتهى التحذير فقال مرة بعد أخرى: «ويحذركم الله نفسه») [1].

١- الميزان، السيد الطباطبائي٥/ ٣٩٢.

ولا شيء أخطر من الوقوع في شباك ثقافة الغرب والإعجاب بها، فإن المسمى الأولي المعلن ثقافي، لكنه ينتهي بشطب ولاية الله تعالى والمعصومين عليهم السلام والفقهاء واستبدالها بولاية النفس والكافر.

■ **الصفة الثانية والثالثة: أذلة وأعزة**

وهما صفتان لرواد التغيير في آخر الزمان من الناحية العملية والروحية.

فبعد بيان صفتهم في الاعتقاد والولاية تجنح الآية إلى بيان جانب خلقي ملازم لهم، مبني على قاعدة (الحب في الله والبغض في الله).

ولأنها قاعدة ثابتة فالمعطيات المترتبة عليها ثابتة غير متحولة، ولا تتصرف فيها تقلبات المزاج.

بينما الذي يسنه الغرب منطلق من أصول خاطئة متغيرة، يتبعها أخلاقيات وسلوكيات متغيرة متلونة.

وقوله تعالى: ﴿**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ [1].

هو كذلك سلوك ثابت ما دامت الصفات والهويات، فلا مرونة عملية مع صفات الكفر، بل بمقدار عدائها للدين تقابل بالشدة عملا.

إن القرآن لا يربي المؤمنين على نحو ثابت من الانفعال، بل يسوقهم إلى توظيف مشاعرهم دينيا، ولأن الناس يختلفون في تقبلهم للدين، فلابد أن تختلف الانفعالات تجاههم تبعاً لموقفهم من الدين.

ومجتمع الرواد في آخر الزمان هو المجتمع الذي توظف فيه المشاعر والعواطف والانفعالات في مسار الولاية.

١- الفتح/ ٢٩.

■ **الصفة الرابعة: الجهاد في سبيل الله**

وهي من الصفات العظيمة، وحري بنا أن نقتدي بهم فيها.

والجهاد المطلوب هو الجهاد الواقعي، أي الذي ترسمه حاجة المجتمع وينبع من أزمة ومشكلة قائمة فيه.

فليس كل نحو من الجهاد نافعا في كل زمان، فقد يجاهد شخص ما بقلمه في الوقت الذي تحتاجه جبهات المرابطة وسوح القتل والقتال، فهذا جهاد لا يتصف بالواقعية.

وقد يكون المطلوب في زمن آخر تحريك الجهاد الثقافي بأن يدافع المؤمنون عن المفاهيم والمعارف أمام هجمة الاستشراق والاستكبار بجهاد التبيين ونشر الحقائق، فيوظف البعض وجوده في جهاد العبادات، فيخرج كذلك عن الواقعية.

والآن تحتاج الأمة إلى مجاهدين ومرابطين في كل الاتجاهات، ومن أهمها جهاد المفاهيم المغلوطة والذي يسمي اليوم – مغالطة – إرهاباً فكريا.

والذل هو النتيجة الحتمية لأي مجتمع يهجر صنوف الجهاد، لذا كثر في النصوص الشريفة التأكيد على تلازم العزة والجهاد، وترتب المذلة على متاركته وهجرانه.

وإذا أردنا أن نقتفي أثر رواد مجتمع الظهور فلا محيص عن الجهاد في كل المواقع وبنحو واسع.

فالإسلام يواجه من القوى المختلفة على كل الاتجاهات، وتحاك عليه المؤامرات من مختلف القوى، فلا بد أن نكون مرابطين في كل تلك المواقع.

وإذا ظهر الموعود عليه السلام جاهد كذلك على مستوى كل المواقع، ففي الوقت الذي سيصد فيه هجمة الكفر على الإسلام، سينشر من خزائن الدين ومعارفه ما ينير الطريق ويفتح العقول ويزكي النفوس.

والاقتداء به يكون بالسير حذوه في أداء كل أدواره الجهادية بالقدر الممكن وبما في وسع طاقاتنا.

■ **الصفة الخامسة: لا تأخذهم لومة لائم**

وهذه صفة عظيمة أخرى من صفات رواد عصر الظهور، وواقعنا خلو منها.

فقد يصل كثير منا إلى الحقيقة العلمية أو العملية بالدليل والبرهان، وتحصل لديهم قناعة بوقوع المجتمع في الخطأ فكر وسلوكا، لكنهم يجبنون عن محاولات التغيير ولا تتوافر لديهم إرادة الإنكار خوفا من التصادم مع الأعراف السائدة والقوى القائمة، وحرصا منهم على عدم دفع الاثمان الباهظة التي تتطلبها عملية الإصلاح والتغيير.

هذه هي النماذج التي تأخذهم لومة اللائم فلا يؤدون وظائفهم اتجاه دينهم ومجتمعهم.

إن مجتمع الرواد في آخر الزمان هو بيئة الحق والحقيقة، ومجتمع العقول التي لا تجبن ولا تتخاذل باللوم وأمثاله، ولدا أصحابها سواعد لا يفت في عزمها الخوف أو التهويل.

ومن هنا أشار بعض المحققين إلى أن أعداء رواد آخر الزمان على قسمين:

١ - قوى الانحراف الفكري والعلمي.

٢ - جماعات التقليد الأعمى، المسكونون بهيبة العقل الجمعي.

قال السيد الطباطبائي: (ولو تدبرت في السيرة الاسلامية العامة التي ينظمها الكتاب والسنة ويقررانها بين المسلمين، ثم في هذه السيرة الفاسدة التي حملت اليوم على المسلمين، ثم تدبرت في ما يشير إليه بقوله: «فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله لا يخافون لومة لائم» وجدت أن جميع الرذائل التي تحيط بمجتمعنا معاشر المسلمين وتحكم فينا اليوم - مما اقتبسناها من الكفار ثم نمت ونسلت فينا - إنما هي أضداد ما ذكره الله في وصف من وعد بالإتيان به في الآية.

أعني أن جميع رذائلنا الفعلية تتلخص في أن المجتمع اليوم لا يحبون الله ولا يحبهم الله، أذلة على الكافرين، أعزة على المؤمنين، لا يجاهدون في سبيل الله، يخافون كل لومة.

وهذا هو الذي تفرسه القرآن في وجه القوم، وإن شئت فقل: هو النبأ الغيبي الذي نبأ به العليم الخبير أن المجتمع الاسلامي سيرتد عن دينه، وليست ردة مصطلحة، وإنما هي ردة تنزيلية يبينها قوله تعالى: «ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين)[1].

١ - الميزان٥، السيد الطباطبائي/ ٣٩٣.

المبحث السابع

عصر عولمة العدالة

عصر عولمة العدالة

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[1].

***تمهيد**

تعتقد سائر مذاهب المسلمين باليوم الموعود في آخر الزمان، وليس الإيمان به من متفردات مذهب الشيعة.

ومن تدبر في كلمات علماء الفرق الإسلامية وجدها تطفح بالإيمان والاعتقاد بالدولة المهدوية.

قال الفخر الرازي في تفسيره تحت قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[2].

(قال بعض الشيعة: المراد بالغيب المهدي المنتظر الذي وعد الله تعالى به في القرآن والخبر، أما القرآن فقوله: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم).

١- النـور/ ٥٥.

٢- البقرة/ ٣.

وأما الخبر فقوله صلى الله عليه وآله: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي وكنيته كنيتي، يملأ الأرض عدلا وقسطا، كما ملئت جورا وظلما).

واعلم أن تخصيص المطلق من غير دليل باطل)[1].

قال الشيخ الوحيد الخراساني:

(ومن الواضح أن الرازي يسلم بدلالة القرآن على المهدي عليه السلام، وأن الإيمان بالغيب يشمل الإيمان به، ولكنه تصور أن الشيعة يجعلون الإيمان بالغيب مختصا به، فأشكل عليهم بما ذكر! وغفل عن أن الإيمان بالإمام المهدي عليه السلام عندهم من مصاديق الإيمان بالغيب، وليس الغيب محصورا به!)[2]

ويذهب المحققون من علماء التفسير الشيعة إلى أن آية البحث تفيد أن الله وعد الصالحين - وهم النبي وأهل بيته عليهم السلام - أن يستخلفهم في الأرض بظهور المهدي الموعود عليه السلام، والذي تواترت الأخبار بظهوره في آخر الزمان.

* سؤال مهم حول المهدي عليه السلام في القرآن

لو قيل: إن خطاب الآية قاض بإنجاز وعد الله تعالى لطائفة المؤمنين في عصر النبي صلى الله عليه وآله وهو خطاب لهم، ولم يكن المهدي الموعود عليه السلام بينهم حال الخطاب، فكيف تكون الآية نازلة فيه وفي عصر ظهوره؟

١- التفسير الكبير٢ ، الفخر الرازي/ ٢٧ .

٢- منهاج الصالحين، الشيخ وحيد الخراساني١/ ٤٧٤ و ٤٧٥.

■ **أقسام الخطاب في القرآن**

إن الخطابات القرآنية على قسمين:

١ – خطابات فردية: وهي التي تشير إلى أشخاص محددين بأعيانهم.

٢ – خطابات عامة: وهي الموجهة إلى أشخاص بما هم متحدين في الصفات، أو مؤمنين برسالة واحدة. [١]

والوعد الإلهي المخبر عنه في الآية من قبيل الخطابات الاجتماعية العامة، والمهدي هو أحد المخاطبين بالآية بملاحظة الاتحاد في الصفات والرسالة.

وبإسقاط مفردات الآية على عصر الظهور يمكننا نعته وعنونته بعدة عناوين:

١ – عصر تحقق الوعد الإلهي.

٢ – عصر الاستخلاف للمؤمنين على ربوع الأرض.

٣ – عصر التمكين.

٤ – عصر الأمن المعيشي والتأمين الروحي.

وقد قسم الآلوسي في تفسيره: الخلافة إلى ظاهرة وباطنة تبعا لأساتذته الصوفية، وصرح (بأنهما ستجتمعان في المهدي أيام ظهوره)[٢].

وهو التمكين الذي لا تمكين بعده، والظهور الذي لا ظهور مثله.

وغير خفي على من له أدنى بصيرة أن ذلك العصر بعناوينه ونعوته السالفة الذكر لم يتحقق نظير له ولا شبيه به في ما مضى من العصور.

١- راجع الميزان، السيد الطباطبائي١٥/ ١٥٦ .

٢- روح المعاني، الآلوسي ٣/ ٣٥٢.

وادعاء انطباق الآية على عصور الفتوحات الإسلامية مبالغة مفضوحة ومسامحة مستهجنة، لأننا لو أغضضنا النظر عن المخازي التي اقترنت بالفتوح، فإن الذي انتشر على إثرها هو ظاهرة الانتماء الشكلي للإسلام فحسب.

*سؤال البحث

ما هي الظاهرة الاستثنائية التي ستبرز في المجتمع البشري بعد استتباب حكم الدولة الموعودة؟

*ظاهرة شيوع العدالة

تواترت أخبار المعصومين عليهم السلام بانتشار العدالة الكبرى في عصر الظهور.

وعدَّ بعض أهل التحقيق ما يقرب من مئة واثنين وثلاثين رواية واردة في هذه الظاهرة، ولا شك أنه عدد ضخم للغاية يحصل به التواتر بل ما هو فوق التواتر، وينبأ عن خطورة ظاهرة العدالة التي ستتحقق في آخر الزمان.

والتواتر فيها لفظي فضلا عن التواتر المعنوي، وإليك بعض تلك الروايات:

١ – روى الكليني عن أبي حمزة قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فقلت له: أنت صاحب هذا الامر؟

فقال: لا، فقلت: فولدك؟ فقال: لا، فقلت: فولد ولدك هو؟ قال: لا، فقلت: فولد ولد ولدك؟ فقال: لا، قلت: من هو؟

قال: الذي يملأها عدلا كما ملئت ظلما وجورا، على فترة من الأئمة، كما أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث على فترة من الرسل) [1].

١- الكافي، الكليني ١/ ٢٨٠.

٢ – وروى الصدوق عن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن خلفائي وأوصيائي، وحجج الله على الخلق بعدي اثنا عشر: أولهم أخي وآخرهم ولدي، قيل: يا رسول الله ومن أخوك؟ قال: علي بن أبي طالب. قيل: فمن ولدك؟

قال: المهدي الذي يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، والذي بعثني بالحق نبيا لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه ولدي المهدي فينزل روح الله عيسى بن مريم فيصلي خلفه وتشرق الأرض بنوره ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب) [1].

قال الصدوق في الاعتقادات:

(ونعتقد أن الأرض لا تخلو من حجة لله على خلقه، إما ظاهر مشهور أو خائف مغمور.

ونعتقد أن حجة الله في أرضه، وخليفته على عباده في زماننا هذا، هو القائم المنتظر محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وأنه هو الذي أخبر به النبي ﷺ عن الله عز وجل باسمه ونسبه.

وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت جورا وظلما.

وأنه هو الذي يظهر الله به دينه، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وأنه هو الذي يفتح الله على يديه مشارق الأرض ومغاربها، حتى لا يبقى في الأرض مكان إلا نودي فيه بالأذان، ويكون الدين كله لله تعالى.

١- كمال الدين وتمام النعمة، الصدوق/ ٣٣٨.

وأنه هو المهدي الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وآله أنه إذا خرج نزل عيسى بن مريم- عليه السلام - فصلى خلفه، ويكون المصلي إذا صلى خلفه كمن كان مصليا خلف رسول الله، لأنه خليفته.

ونعتقد أنه لا يجوز أن يكون القائم غيره، بقي في غيبته ما بقي، ولو بقي في غيبته عمر الدنيا لم يكن القائم غيره، لأن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام دلوا عليه باسمه ونسبه، وبه نصوا، وبه بشروا صلوات الله عليهم) [1].

ونستنبط من الروايات خصوصيتين مهمتين في العدالة التي ستظلل أركان وأرجاء الدولة الموعودة.

■ **الخصوصية الأولى: عولمة العدالة**

إن العولمة مصطلح سائد في هذه الأعصار.

وعرفت العولمة: أنها اتفاق وتوحد الأمم في الأمن والقانون والسياسة والنظم والثقافة والتجارة والسلوك وغيرها.

ويشير بعض أهل التحقيق أن نماذج عديدة من العولمة طبقت في عصور سالفة كعصر ذي القرنين، وعصر سليمان عليه السلام الذي أوتي ملكا عريضا.

وأكثر الأمور جدلية وإثارة في مسألة العولمة بالمنظور المعاصر هو آثارها السلبية على الشعوب الضعيفة، فقد أشير في دراسات مختلفة إلى الكثير من أشكال الظلم والجور التي ستقع على الشعوب الضعيفة جراء تطبيق العولمة.

١ - منها الظلم الاقتصادي، حيث يتضخم العائد الاقتصادي في جيوب ثلة رأسمالية قليلة، بينما يزداد الفقر والجوع لدى الشعوب الضعيفة.

١- الاعتقادات، الصدوق/ ٩٥.

٢ – ومنها الجور الثقافي المسمى بالغزو الثقافي.

ولذا صدر اعتراض على قيام العولمة حتى من قبل بعض الدول الأوربية خشية غزو الطرف الأقوى في العالم وهو أمريكا لثقافتهم، لأن العولمة بتطبيقاتها الجديدة لا تساوي بين الأطراف.

٣. ومنها الجور الأخلاقي بعولمة فنون الجنس بشتى صوره.

ومن يتابع الدراسات المختلفة حول آثار وأخطار العولمة يعرف أنها بتطبيقاتها في النظام الدولي الجديد تفشي الظلم وتنشر الجور في الشعوب الضعيفة المقهورة.

٤. إن العولمة لا تقوم على اتفاق البشرية على نظم معينة، وإنما على تصدير ثقافة ونظم وسلوك الطرف الأقوى إلى الطرف الضعيف.

وبعدما اعتمد هذا المفهوم وأرسيت تطبيقاته المختلفة، فالمتوقع منه أن يملأ الأرض ظلما وجورا وفسادا.

وشيوع الظلم هو أحد مضامين الرواية المتواترة.

ومفادها الآخر قيام الموعود عليه السلام بعولمة العدل والعدالة، أي استبدال العولمة الجائرة التي ملئت ربوع الأرض جورا بعولمة للعدل والخير لا تفرق بن الشعوب، فلا تحتكر ثروة في فئة، ولا تعمم ثقافة منحرفة قهرا، ولا تنهض بالفئة المتسلطة على حساب الفئات الأخرى، لأنها وليدة عولمة العقيدة الحقة والثقافة الأصيلة.

■ **الخصوصية الثانية: تحقيق العدالة المطلقة**

إن العدالة الموعودة - بحسب الروايات المتواترة - ليست عدالة شكلية أو جزئية، وإنما هي عدالة مطلقة تتغلغل في كافة المستويات، بدءا من العدالة النفسية بين قوى النفس، ومرورا بالعدالة الأسرية والعدالة الاجتماعية العامة، وانتهاء بالعدالة العقدية.

ناهيك عن العدل على كافة الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

كما وتشير الروايات إلى استتباب القسط والعدل في دولة الظهور، وليس العدل وحده، وقد مر بنا في بحث سابق عرض قول المازندراني بالترادف بينهما.

■ **الفرق بين القسط والعدل**

ولمؤلف كتاب التحقيق إضافة أخرى، قال: (والفرق بين العدل والقسط: أنّ القسط هو العدل البيّن الظاهر ومنه سمّى المكيال قسطا والميزان قسطا، لأنّه يصوّر لك العدل في الوزن حتّى تراه ظاهرا، وقد يكون من العدل ما يخفى، ولهذا قلنا انّ القسط هو النصيب الّذى بيّنت وجوهه..

ثمّ إنّ العدالة في الرأي إمّا والأفكار: إذا كان مصونا عن الانحراف والضعف والحدّة، ويطابق الحقّ والصواب، كما في: ﴿**وَإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾- ٤- ٥٨.

يراد إظهار الحقّ في الحكم من دون أن يكون في بيانه نقصان أو زيادة.

وإمّا في الصفات النفسانيّة: بأن تكون الأخلاق الباطنيّة معتدلة ليس فيها إفراط و لا تفريط، كالشجاعة إذا لم يكن فيها تهوّر ولا جبن، وكذلك الصفات

القلبيّة الاخرى، فالعدل هو الميزان في كون الأخلاق محمودة مطلوبة، وطرفاه رذيلتان مذمومتان:

﴿إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾-٥- ١٠٦.

وإمّا في الأعمال: وهو في الأقوال، و في الوظائف الانفراديّة، وفي الأعمال الاجتماعيّة، وذلك بأن تكون على حقّ و صدق بحت ليس فيها زيادة ولا نقيصة، ولا إفراط ولا تفريط:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلًا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾- ٦- ١١٥.، **﴿وَإِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبى﴾** ٦- ١٥٢.) [1].

■ **الحجة عليه السلام والمجتمع المعصوم**

ومن البداهة بمكان أن هذا المستوى من العدالة لم تشهد البشرية له نظيرا أو شبيها، فحتى في عصر دولة الخاتم عليه السلام وعصر الحكومة العلوية لم ترس العدالة بالمستوى الذي تحكي عنه روايات الظهور.

لذا يعتقد بعض أهل التحقيق أن دولة الظهور استثنائية بامتياز في إنجازاتها، وأنها ستضم مجتمعاً معصوما مترشحا عن قيادة الموعود المؤيد بالمدد الغيبي.

قال السيد الطباطبائي:

(والمتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعا صالحا خالصا من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامة ولا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج، أحرارا من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكم المتحكمين.

١- التحقيق في كلمات القرآن، المصطفوي ٨/ ٥٥و٥٦ .

وهذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بعث النبي صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام، لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده)[1].

ولم يقل أحد من المؤرخين - حتى المفتخرين بعصر الفتوحات باعتبارها عصرا ذهبيا للمسلمين - أن حقبة من الزمن أولدت مجتمعا مقدسا معصوما.

*مميزات دولة العدالة المهدوية

يترتب على ولادة الدولة العادلة - الحاضنة للمجتمع المعصوم - مجموعة مميزات لم تتوافر في أنماط الدول التي قامت عبر التاريخ ، وهي كالتالي :

■ الميزة الأولى: الدوام والبقاء

تختلف الدول اختلافا شاسعا في الأعمار ومدد البقاء، فبين عروش تقوضت في مهدها، وأخرى عمرت ضاربة جذورها في التاريخ، وأخرى طواها النسيان بعدة مدة.

وقد بنى المؤرخون - كابن خلدون في مقدمته - على أن للدول أعمارا طبيعية كما للأشخاص.

ولا شك أن ثمة أسبابا وعوامل وراء اختلاف أعمار الدول، وقد أشار ابن خلدون إلى واحد من أسباب قصر عمر الدول، فقال: (سل سيف الظلم والقهر والعقوبات من الملك على الرعية مضر للملك، ومفسد له في الأكثر).[2]

١- الميزان١٥ ، العلامة الطباطبائي / ١٥٥ و١٥٦.

٢- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون ١/ ١٨٨.

وقال: (الظلم مؤذن بخراب العمران، ويؤول ذلك إلى تلاشي الدولة).[١]

وما قرره من علاقة الظلم والعدل بأعمار الدول هو ما أثبتته روايات المعصومين عليهم السلام بكثرة واستفاضة.

١ – فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (العدل جنة واقية، وجنة باقية)[٢].

٢ – وعن علي عليه السلام: (العدل أقوى أساس)[٣].

٣ – وعنه عليه السلام: (العدل جنة الدول)[٤].

٤ – وعنه عليه السلام:(من عدل تمكن)[٥].

٥ – وعنه عليه السلام: (اعدل تملك)[٦].

٦ – وعنه عليه السلام: (ما عمرت البلدان بمثل العدل)[٧].

٧ – وعنه عليه السلام: (ثبات الدول بالعدل)[٨].

٨ – وعنه عليه السلام: (بالعدل تصلح الرعية)[٩].

٩ – وعنه عليه السلام: (بالعدل تتضاعف البركات)[١٠].

١- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون / ٢٨٦ – ٢٩٠ .
٢- غوالي اللآلي١/ ٢٩٣.
٣- غرر الحكم/ ٤٩.
٤- نفس المصدر/ ١٠٢.
٥- نفس المصدر/ ٨٢١.
٦- نفس المصدر/ ١٣١.
٧- نفس المصدر/ ٦٨٨.
٨- نفس المصدر/ ٣٣٥.
٩- نفس المصدر/ ٢٩٨.
١٠- نفس المصدر/ ٢٩٧.

وقد شاهدت حوارا على شاشة إحدى القنوات العربية، وكان المذيع يسأل الحاضرين: كان مجلس النواب (البرلمان) حلم الناس وقد حصلوا عليه، فلم الاستمرار في الاحتقان والغضب، ولم تتواصل الاحتجاجات ضد الحكومات؟

وجوابه تتكفل به الروايات السابقة، إذ تدل على توقف صلاح الرعية على العدل الحقيقي والإنصاف الواقعي، لا على مسميات فارغة من المضمون.

وبوضوح هذا الأساس في استمرار الدول أو عدمه نجزم بترتب ميزة أخرى للدولة المهدوية وهي طول العمر، إذ أن مستوى العدالة الذي سيسود فيها لا نظير له، وبه ترتفع كل انحاء الظلم والحيف صغيره وكبيره، فتتمتع دولته العادلة بأقوى عناصر البقاء والاستمرار.

ومضافا للتحليل السابق فقد أشير في الروايات إلى طول عمر الدولة المهدوية.

ولا محيص من القول أن الروايات متضاربة في بيان مدة بقاء المهدي عليه السلام في الحكم والملك، سواء في مصادر العامة أو مصادر الخاصة.

والفائدة المتعلقة ببحثنا تترتب على التفريق بين سؤالين:

السؤال الأول: كم هي مدة بقاء المهدي عليه السلام في الحكم، من ظهوره إلى زمان وفاته؟

السؤال الثاني: ما هي مدة بقاء دولته ونظامه الذي سيشيد بعد ظهوره؟

فهل تطول دولته العادلة إلى آخر عمر البشرية؟

أو تعود الجولة لتحكم دول الظلم بعد زوال حكم دولة العدل؟

وبالتفريق بين السؤالين ينحل استهجان البعض لقصر عمر الإمام عليه السلام بعد صبره الطويل - بحسب بعض الروايات - بقوله: هل صبر الإمام عليه السلام هذا العمر المديد ليحكم بضع سنين!

ببيان: إن ظهور الدولة العادلة وقيام مشروع التكامل البشري على يد الإمام عليه السلام هو الأساس واللب في خروجه وظهوره، وليس الأساس هو مدة الملك الشخصي له عليه السلام، فليس ثمة غرابة أن يرتحل الحجة عليه السلام بعد مدة قصيرة من حكمه مع فرض بقاء النظام العادل في البشرية.

فالمهدي عليه السلام سيفتح الأرض أكثر مما فتحها ذو القرنين وسليمان، وسينشر نظامه العادل على ربوعها، وبقاء نظامه العادل لا يتوقف ولا ينحصر بمدة حياته، بل سيضرب بجذوره وأبعاده إلى نهاية عمر البشرية.

وهو ما ورد في مرويات أهل البيت عليهم السلام، فقد أخرج الشيخ في الغيبة بسنده عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: (دولتنا آخر الدول)[1].

وقد سمعت من بعض الفقهاء المعاصرين أن من أقطاب دولة الحسين عليه السلام في آخر الزمان كبار أنصاره في ثورة كربلاء، مثل الأكبر والعباس ومسلم وزينب عليهم السلام.

ويدل عليه كذلك الآيات التي تشير إلى الوعد بالمن على المستضعفين، وتمكين دينهم، ووراثتهم للأرض.

إذ العنوان العام ينطبق على كل المستضعفين، وأقطاب كربلاء في مقدمتهم.

ولو سأل سائل: كيف يتأتى للنظام العادل الذي سيشيده الإمام الموعود عليه السلام أن يبقى بعد زوال ملكه الشخصي؟

لقد عالجنا هذا السؤال معالجة كاملة في بحث: (من طور الظهور إلى ملك ما بعد الظهور) فراجع.

١- الغيبة، الشيخ الطوسي/ ٤٧٢.

■ **الميزة الثانية: فناء الأحزاب**

للأحزاب أسباب ودواعي تولدها:

١ - قد يكون الداعي لها اختلاف الملل والمعتقدات، أو وجهات النظر المختلفة (تحزب طائفي).

٢ - وقد يكون الداعي لها النظم الظالمة في توزيع الثروات (تحزب سياسي).

والسؤال: هل سيكون للأحزاب والتحزبات عين أو أثر في دولة القائم الموعود عليه السلام؟

يمكننا الجزم بزوال وتلاشي سائر أنماط التحزبات في دولة الظهور لزوال مناشئها ودواعيها، فأما المنشأ السياسي فيزول قطعا، لأن قيام النظام العادل وشيوعه يرفع أحد المناشئ الأساسية للتحزبات وهو الحيف والجور والطبقية.

وأما المنشأ الديني والطائفي فكذلك، لأن العدالة القائمة في عصر الظهور ليست من قبيل العدالة السياسية أو المساواة الوضعية، وإنما عدالة اعتقادية متولدة من وضوح حقائق الدين ببركات علوم الموعود عليه السلام وآيات براهينه، مما ينتفي به كل أشكال التحزب الملي والطائفي.

وأما قيام أحزاب أخرى على أساس المكابرة وجحود الحقائق التي سينشرها الإمام عليه السلام فلا محل له، لأنها أحزاب محظورة في الدولة الموعودة لانحرافها.

وخاتمة كل أهل الزيغ في عصر الظهور إلى القتل والتصفية والإبادة.

ومن شواهد زوال الأحزاب والملل خروج عيسى عليه السلام واقتدائه بالقائم الموعود عليه السلام، إذ إن أحد أسرار ائتمام المسيح بالحجة عليه السلام إرجاع المسيحية للإسلام بلحوق نبي المسيحية بإمام الإسلام.

وقد ورد في الكثير من الروايات تأكيد على ما قررناه:

١ - في سنن أبي داوود، عن أبي هريرة، أن النبيَّ ﷺ قال: (ليس بيني وبينه نبيٌّ -يعني عيسى ابن مريم- وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرِفوه، رجل مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياضِ، بين مُمصَّرتين، كأن رأسَه يقطُرُ وإن لم يُصِبه بلَلٌ، فيُقاتِلُ الناسَ على الإسلامِ، فيدُقُّ الصَّليبَ، ويقتُلُ الخِنزيرَ، ويضَعُ الجزيةَ، ويُهلِكُ اللهُ في زمانه المِلل كلَّها إلا الإسلامَ، ويُهلِكُ المسيحَ الدَّجَّالَ، فيمكثُ في الأرضِ أربعينَ سنةَ، ثم يُتوفَّى فيُصلي عليه المُسلمون)[١].

قال الألباني: قلت: وهذا إسناد صحيح كما قال الحافظ في الفتح ٦/ ٣٨٤، وهو على شرط مسلم) [٢]..

٢ - وفي كمال الدين عن محمد بن مسلم الثقفي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (القائم منا منصور بالرعب، مؤيد بالنصر تطوي له الأرض وتظهر له الكنوز، يبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه على الدين كله ولو كره المشركون، فلا يبقى في الأرض خراب إلا قد عمر، و ينزل روح الله عيسى بن مريم عليه السلام فيصلي خلفه)[٣].

٣ - وفي غيبة النعماني ما يدل على احتجاج الإمام الموعود عليه السلام على أهل الملل والنحل عند الظهور، فعن مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: (يَكُونُ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ غَيْبَةٌ فِي بَعْضِ هَذِهِ الشِّعَابِ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةِ ذِي طُوًى حَتَّى إِذَا كَانَ قَبْلَ خُرُوجِهِ أَتَى الْمَوْلَى الَّذِي كَانَ مَعَهُ حَتَّى يَلْقَى بَعْضَ أَصْحَابِهِ فَيَقُولُ كَمْ أَنْتُمْ هَاهُنَا فَيَقُولُونَ نَحْوٌ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا، فَيَقُولُ كَيْفَ أَنْتُمْ لَوْ

١- سنن أبي داود ٢ / ٣١٩.

٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني٢/ ٢١٤.

٣- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق / ٣٣٠ و ٣٣١.

رَأَيْتُمْ صَاحِبَكُمْ فَيَقُولُونَ وَاللهِ لَوْ نَاوَى بِنَا الْجِبَالُ لَنَاوَيْنَاهَا مَعَهُ ثُمَّ يَأْتِيهِمْ مِنَ الْقَابِلَةِ وَ يَقُولُ أَشِيرُوا إِلَيَّ رُؤَسَائِكُمْ أَوْ خِيَارِكُمْ عَشَرَةً فَيُشِيرُونَ لَهُ إِلَيْهِمْ فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ حَتَّى يَلْقَوْا صَاحِبَهُمْ وَيَعِدُهُمُ اللَّيْلَةَ الَّتِي تَلِيهَا.

ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام وَاللهِ لَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَقَدْ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى الْحَجَرِ فَيَنْشُدُ اللهَ حَقَّهُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي اللهِ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِاللهِ، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي آدَمَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِآدَمَ، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي نُوحٍ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِنُوحٍ، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي إِبْرَاهِيمَ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي مُوسَى فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِمُوسَى، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي عِيسَى فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي مُحَمَّدٍ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله، أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ يُحَاجُّنِي فِي كِتَابِ اللهِ فَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِكِتَابِ اللهِ.

ثُمَّ يَنْتَهِي إِلَى الْمَقَامِ فَيُصَلِّي عِنْدَهُ رَكْعَتَيْنِ وَ يَنْشُدُ اللهَ حَقَّهُ، ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام:

وَهُوَ وَاللهِ الْمُضْطَرُّ الَّذِي يَقُولُ اللهُ فِيهِ ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ وَ يَجْعَلُكُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ**﴾ فِيهِ نَزَلَتْ وَ لَهُ)[1].

وبما قدمناه يتقرر زوال المجتمعات المدنية، واضمحلال مفاهيم التعددية الدينية – بالمعاني الرائجة في الفكر المعاصر – في دولة الموعود عليه السلام، وذلك لسيادة المجتمع الديني الواقعي آنذاك، وسعي سائر أفراده لاكتساب الحقائق اليقينية الثابتة، وسيرهم لإنجاز هدف إلهي واحد.

١- كتاب الغيبة، النعماني/ ١٨١و١٨٢.

المبحث الثامن

الشيعة وترقب العوالم الآتية

الشيعة وترقب العوالم الآتية

جاء في الزيارة الجامعة الواردة عن الإمام الهادي عليه السلام: (مؤمن بإيابكم مصدق برجعتكم منتظر لأمركم مرتقب لدولتكم)[1].

***المقدمة**

يشتمل النص الشريف على قضايا أربع بينها جهة اشتراك وتشير إلى مضمون واحد، وهو الإيمان بالدولة الموعودة لأهل البيت عليهم السلام.

ومع جهة الاشتراك في هذه المقاطع إلا أن كل مقطع يضيف إضافة زائدة.

فالأول: يشير إلى إيمان الشيعي بالإياب، بمعنى ظهور الأمر على يد صاحب الأمر والزمان عليه السلام، وظهور الدولة على أيدي الأئمة عليهم السلام جميعاً.

والثاني: يفيد تميز ذلك الإيمان بالبرهانية، وأنه لم يؤخذ تقليدا ووراثة عمياوية.

والثالث: يصف ثبات المنتظر بعد تصديقه، وأن انتظاره مستمر بحماس دون أن يتخلله فتور أو برود.

والرابع: يفيد توقع أمرهم ودولتهم من قريب، وكأنهما حقيقة ستقع في أي لحظة، فإن للأئمة عليهم السلام ظهورا ولهم دولة عالمية خاتمة، والظهور مقدمة للدولة، وليسا شيئاً واحداً كما سوف يتبين.

١- المزار، المشهدي/ ٥٣٠.

وعلى ضوء هذه المقدمة، نتناول مجموعة من الأفكار بالبحث، ليتبلور التصور الكلي وتتبين العقيدة المتكاملة التي يدعونا الأئمة الأطهار عليهم السلام إليها فيما يخص الظهور والرجعة.

*الفكرة الأولى: اعتقادات ثلاثة بهوية واحد

عندما نتتبع روايات أهل البيت عليهم السلام الواردة في ظهور الحجة عليه السلام، نجدها تقرن الظهور بعقيدتين عظيمتين، فالاعتقادات المترابطة بحسب الروايات ثلاثة:

١ - عصر الظهور.

٢ - عالم الرجعة.

٣ - عالم القيامة الكبرى.

فلو بحثنا في تفسير قوله تعالى ﴿**هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ [١] وكثيراً من الآيات الأخرى في هذا المجال، نجد أن الوارد في ذيلها من تفاسير الأئمة عليهم السلام متعدد، فتارة يفسر موقع قضاء الأمر الإلهي بالقيامة الكبرى، وأخرى بالرجعة، وثالثة بالظهور. [٢]

وهذا يعني وجود وحدة وسنخية بين تلك الموضوعات الثلاثة، بل تفيد تلك الروايات:

١ - إن المضمون والنكتة واحدة في تلك الاعتقادات، فلا ينبغي أن يفهم أحدها مستقلاً عن فهم الآخر، فإن الأول وهو الظهور قيامة صغرى

١- البقرة/ ٢١٠.

٢- البرهان، البحراني١/ ٤٤٧.

وحكومة لمظهر الله تعالى وهو الحجة عليه السلام، والثاني: وهو الرجعة قيامة وسطى وحكومة لمظاهر الله تعالى وهم الأئمة عليهم السلام، والثالث: وهو القيامة الكبرى حكومة إلهية مطلقة.

فمفهوم القيامة المتمثل في الحساب وظهور الأمر والولاية الإلهية أمر مشترك في تلك الاعتقادات الثلاثة، بمعنى أنها ذات أثر واحد وإن اختلف شدةً وضعفاً.

ويعبر القرآن الكريم عن ذلك الأثر والمضمون الواحد بقوله تعالى: ﴿**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾[1].

وقد يبين العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان هذه الحقيقة قائلا:

(ولنرجع إلى بدء الكلام الذي كنا فيه وهو ورود تفسير آية واحدة بيوم القيامة تارة ، وبالرجعة أو الظهور تارة أخرى ، فنقول : الذي يتحصل من كلامه تعالى فيما ذكره تعالى من أوصاف يوم القيامة ونعوته أنه يوم لا يحجب فيه سبب من الأسباب ولا شاغل من الشواغل عنه سبحانه فيفنى فيه جميع الأوهام ويظهر فيه آياته كمال الظهور وهذا يوم لا يبطل وجوده وتحققه تحقق هذا النشأة الجسمانية ووجودها فلا شيء يدل على ذلك من كتاب وسنة بل الامر على خلاف ذلك غير أن الظاهر من الكتاب والسنة أن البشر أعني هذا النسل الذي أنهاه الله سبحانه إلى آدم وزوجته سينقرض عن الدنيا قبل طلوع هذا اليوم لهم .

ولا مزاحمة بين النشأتين أعني نشأة الدنيا ونشأة البعث، حتى يدفع بعضها بعضا كما أن النشأة البرزخية وهي ثابتة الآن للأموات منا لا تدفع الدنيا، ولا

١- البقرة/ ٢١٠.

الدنيا تدفعها، قال تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

فهذه حقيقة يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء، ولذلك ربما سمي يوم الموت بالقيامة لارتفاع حجب الأسباب عن توهم الميت، فعن علي عليه السلام (من مات قامت قيامته)..

والروايات المثبتة للرجعة وإن كانت مختلفة الآحاد إلا أنها على كثرتها متحدة في معنى واحد وهو أن سير النظام الدنيوي متوجه إلى يوم تظهر فيه آيات الله كل الظهور، فلا يعصي فيه سبحانه وتعالى بل يعبد عباده خالصة، لا يشوبها هوى نفس، ولا يعتريه إغواء الشيطان، ويعود فيه بعض الأموات من أولياء الله تعالى وأعدائه إلى الدنيا، ويفصل الحق من الباطل.

وهذا يفيد: أن يوم الرجعة من مراتب يوم القيامة، وإن كان دونه في الظهور لإمكان الشر والفساد فيه في الجملة دون يوم القيامة.

ولذلك ربما ألحق به يوم ظهور المهدي عليه السلام أيضا تمام لظهور الحق فيه أيضا تمام الظهور، وإن كان هو أيضا دون الرجعة.

وقد ورد عن الصادق عليه السلام: (أنّ أيّام الله ثلاثة: يوم القائم ويوم الكرّة ويوم القيامة)[2].

وفي بعضها: (أيام الله ثلاثة يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة)[3].

١- النحل / ٦٣.

٢- المحتضر، الحلي١٧٦.

٣- تفسير القمي، القمي١/ ٣٦٧.

وهذا المعنى أعني الاتحاد بحسب الحقيقة، والاختلاف بحسب المراتب هو الموجب لما ورد من تفسيرهم عليهم السلام بعض الآيات بالقيامة تارة وبالرجعة أخرى وبالظهور ثالثة..) [١].

وببيان آخر: ورد في الدعاء: (اللهم إني أسألك بالتجلي الأعظم)[٢].

وتلك الظروف الثلاثة تجليات لله تعالى، ولكنها تختلف في الكلية والجزئية، وفي الشدة والضعف.

٢ - إن الإيمان المتكامل في مكوناته لا يفكك فيه بين تلك الاعتقادات الثلاثة، والتفكيك بينها دليل عدم الفهم لروح تلك الموضوعات، وانحياز عن التصور الحق الذي يوجهنا له أهل البيت عليهم السلام.

فعن الصادق عليه السلام: (ليس منا من لم يؤمن برجعتنا)[٣].

ومن لم يفهم القيامة على حقيقتها، ولم يمعن النظر ويدقق البحث في مسألة الظهور، أنكر الرجعة وطرح المئات من الروايات، مع أن جميع الإشكالات التي ترد على الرجعة ترد على القيامة والمعاد بنفس البيان.

ومع وحدة روح تلك الموضوعات نجد بعض المذاهب الإسلامية وبعض الشيعة الذين لا باع له في علم أهل البيت عليهم السلام يؤمنون بموضوعين ويجحدون الثالث (وهو الرجعة).

بينما أستهدف الأئمة عليهم السلام بتفسيرهم حقيقة واحدة بعدة عوالم الإرشاد إلى ضرورة فهمها كمنظومة اعتقادية واحدة، لا يفهم طرف منها إلا بربطه بالطرف الآخر.

١- الميزان، السيد الطباطبائي٢/ ١٠٩.

٢- البلد الامين والدرع الحصين، الكفعمي/ ١٨٣.

٣- المحتضر، حسن بن سليمان الحلي ٣٣.

*الفكرة الثانية: المهدوية في المذهبين الإسلاميين

■ أولا: المشتركات

١ - إن المهدوية عقيدة متيقنة عند الفريقين، وحقيقة ثابتة غير مشكوك فيها. وقد ألف الكثير من أعلام السنة في الدليل على تلك الحقيقة، ولم يرد التضعيف لها إلا في مقدمة ابن خلدون.

وقد فنّد كلامه كبار كتاب السنة معتبرين مقالة ابن خلدون وهماً لا يستحق الرد، وعاتبين عليه حشر نفسه في غير تخصصه.

٢ - إن غايات قيام المهدي عليه السلام وعالم الظهور مقررة عند الفريقين، فهو صانع العدالة للبشرية، ورافع دولة الظلم والاستبداد والجور.

٣ - إن نسبه الشريف يرجع إلى أهل البيت عليهم السلام، وينتمي للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أشد الانتماء، وعلى ذلك روايات متواترة وكثيرة.

٤ - إن ثورته المباركة ليست من قبيل الحركات الرسالية الثورية في التاريخ والتي قام بها بعض الأشخاص المتدينين، وإنما هي رسالة إلهية على حد رسالات الأنبياء والمرسلين، فهي مسددة من الغيب، ومخطط لها من حيث المبدأ والمنتهى بتخطيط إلهي وتقدير رباني.

■ ثانياً: الاختلافات

ثمة نقطة افتراق أساسية بين المذهبين في العقيدة المهدوية، ولها لوازم وآثار، تتلخص في اعتقاد السنة بمهدي سيولد، واعتقاد الشيعة بمهدي سيظهر.

ومنه ترتبت اختلافات ناشئة من هذا الفرق:

١ - إن عقيدة الأئمة الاثني عشر ساقطة عند أهل السنة والجماعة، لا من حيث عدم الدليل على إمامتهم عندهم فحسب، وإنما من حيث عدم الإيمان بوجود الإمام الثاني عشر أصلاً لعدم ولادته.

ومناقشة بعض المحدثين لولادة الإمام الحجة عليه السلام تستهدف التصويب على عقيدة الاثني عشر لإسقاطها.

٢ - إن المهدي وإن كان من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، إلا أنه لا يرجع إلى الحسن العسكري مباشرة بحسب العامة، وإنما يرجع إلى رجلٍ آخر، ويروون أن الرسول صلى الله عليه وآله قال: (اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي)، فالمهدي عندهم هو محمد بن عبدالله.

غير أنه عند الشيعة هو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام.

٣ - تنتفي عند السنة كل مفاهيم وأطروحات عصر الغيبة، فلا سؤال لديهم عن ما هو الواجب في زمان الغيبة، ولا كيف نمهد للظهور، ولا سؤال عن أسرار الغيبة!!

وهكذا تختفي عندهم كثير من البحوث والمسائل التي يطيل الشيعة فيها بحوثهم وكتبهم.

وبناءا على هذه الاختلافات رتب غير واحد من علماء العامة نتيجة ظالمة، اعتبر فيها عقيدة الشيعة في المهدي عليه السلام خرافة وأسطورة، لأنه لا وجود له فعلاً.

وهذه النتيجة خاطئة وغير دقيقة، إذ من متطلبات الحكم العادل والمنصف على الأفكار النظر إلى نقاط الالتقاء ونقاط الافتراق.

وبملاحظة تلك الموازنة نجزم أن قضية المهدي عليه السلام روحاً ووظيفة واحدة عند الفريقين، وإن كان هناك اختلاف في تعيين المصداق والشخص.

■ **نتائج أفرزتها الاختلافات في المهدوية**

يمكن الوقوف على ثلاث نتائج مختلفة بين المذهبين في المهدوية، وهي:

الأولى: للعقيدة الشيعية أثر فاعل وحي، لأنها عقيدة مشتملة على عوامل التحريك والبعث، وتستتبع لوازم وواجبات من التمهيد والاعداد، وذلك لإيمانها بوجود الإمام عليه السلام حيا يرقب المسيرة، ويعلم ما يدور بكل دقائقه وتفاصيله.

فلذا بعد رحيل الإمام الحسن العسكري عليه السلام صار كل شيعي مسؤولا عن الإيمان بالحجة عليه السلام على اختلاف الأجيال، لأنه إمام كل الأزمنة وعلى الجميع أن يبايعوه ويمهدوا لظهوره ويرتبوا برنامجهم وفق رضاه.

وبهذا يغدو البحث في المهدوية – حسب التصور الشيعي – بحثا عن عقيدة مملؤة بالحياة والشعور، وإيمانا بنهضة تضج بالفاعلية والمسؤولية، وإحساسا برعاية مولوية قائمة.

بينما تخلو العقيدة المهدوية عند العامة عن الحماسة والحياة، ومع مرور الوقت يصيبها الجمود والضمور، فلا مسؤوليات ولا واجبات، لأن المهدي سيولد في زمان ما، والايمان به وأداء المسؤولية اتجاهه في عنق أهل زمان ولادته!

الثانية: بناءاً على عقيدة أهل السنة، تغدو الحاجة إلى الإمام تعليمية واجتماعية بحتة وتخص زمانا ما، وأما بناءا على اعتقادات الشيعة فترتقي الحاجة له إلى مستوى الحاجات الوجودية.

لذا يكون التساؤل – بحسب الشيعة – عن الإمام الغائب عليه السلام بالقول: ما هي فائدته!! جهل بأدوار الإمامة، إذ الحاجة إليها وقبل أن تكون تعليمية هي حاجة وجودية نافذة في استقامة الوجود وبقاء الحياة.

وقد كان الأئمة عليهم السلام يوجهون أصحابهم إلى ذلك الدور التكويني الذي يفوق الدور التعليمي والاجتماعي خطورة وأهمية، وكأن اهتمامهم بذلك رداً لإشكال مقدر في أذهان البعض يدور حول الفائدة من وجوده مع غيبته!!

فقد روى الكليني في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال: (لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة)[1].

ومن الواضح أن الرجل الواحد لا تتشكل به الهيئة الاجتماعية والجماعية، فلم يحتاج الفرد غير الاجتماعي إلى إمام وحجة؟

والجواب واضح بعد فهم أبعاد أدوار الإمامة، وأن الحاجة للإمام لا تنحصر في التعليم الاجتماعي وإنما تتخطاها إلى تعليمه المنظومة الوجودية وحفظ الوجود والحياة.

الثالثة: وهذه نتيجة خطيرة، وهي أن أهل السنة يعزلون ظهور الحجة الموعود عليه السلام عن دولة الرجعة، ويعتبرون الظهور نهاية المطاف.

وأما في العقيدة الشيعية المتكاملة فيعتبر الظهور نتيجة أولى لغاية الإصلاح وليس نهاية وخاتمة، وهو بالنسبة للرجعة مقدمة وإعداد.

١- الكافي، الكليني١/ ١٧٩. ومثله في/ ١٨٠.

أما السؤال العريض الذي نطرحه على بساط البحث فهو يتعلق بالحاجة للظهور وللرجعة؟

فهل يرتبطان بمسألة الظلم والجور وإزالة الفاسدين فحسب؟ أم لهما ربط بالعدالة والمؤمنين أيضاً؟

هذا يتوقف على فهم قاعدة مهمة مفادها: إن الموجود بقسميه – الشقي والسعيد – لابد له أن يصل إلى الكمال اللائق به بالمعنى الفلسفي، وهذا لا يكون إلا بظهور الحجة ورجعة الأئمة عليهم السلام.

*الفكرة الثالثة: فوائد الظهور والرجعة

من القصور أن يفهم الظهور والرجعة في الاتجاه الجزائي العقابي فحسب، بل لهما فائدتان:

الأولى: عقاب ومجازاة بالانتقام، وتطهير الأرض بإزالة الريب والشك العلمي، ورفع الانحراف العملي بزوال الأشخاص والأفكار.

الثانية: مجازاة بالتكميل، عبر بيعة المؤمنين للمعصومين عليهم السلام، ليصل المؤمنون إلى أقصى درجات اليقين وأسمى مراتب المعرفة.

وقد نوهت روايات الفريقين على هاتين الفائدتين إجمالا، فعبرت عن الأولى بلسان تطهير الأرض من الظلم والجور، وعن الثانية بلسان ملأ الأرض بالقسط والعدل، وأحدهما غير الأخرى.

ولإيصال الفكرة بدقة نثير أمورا متسلسلة:

الأمر الأول: من الأصول الفطرية ارتباط الكمال الواقعي بالدين – اعتقاداً وعملا – والميل للتدين نابع من ذات فطرة الإنسان.

الأمر الثاني: إن الدين الكامل والإسلام التام يقتضيان وصول الإنسان بنفسه إلى مقام الولاية، بمعني أن يكون ولياً من أولياء الله.

ولتمكن الولاية من وجود الإنسان لا بد من قطع خطوات متراتبة، فتبدأ أولا بخطوة التعلق، وتتخطاه – في مرحلة أخرى – إلى مرتبة الاعتقاد، وببلوغ مرحلة التخلق يتكامل بمحامد الدين، وتستقر في الذات بالشهود والتحقق.

أي أن صاحب الولاية ناظر للحقيقة حضوريا ومتحقق فيها شهوديا، وهي المسماة عند أهل المعرفة بمرتبة حق اليقين، وهي الولاية المطلقة.

الأمر الثالث: لم يصل عموم أهل الإيمان إلى النتيجة الأخيرة، ولا يصل في الغالب إلا من عصمه الله تعالى.

ومن رحمة الله تعالى على العاجزين عن الوصول أنه لم يتركهم سدى، بل فتح لهم باب الوصول إلى أقرب نقطة ممكنة بتشريع العلاقة بينهم وبين من وصل واتصل، وإيجاب المعية بمن شاهد وعاين وتحقق.

فإذا بايعوه وتعلقوا بحبله وتحققوا فيه بغية أن يوصلهم إلى الله تعالى، صاروا أقرب إلى الشعور والمعاينة.

وليس الواصلون إلا الحجج من آل محمد ﷺ، فقد ورد فيهم كما في الزيارات الشريفة: (والأدلاء على سنتك والباب الذي منه يؤتى) [1].

وبيعتهم استمساك بالدليل على الله ودخول من أبوابه تعالى.

١- مزار المشهدي/ ٦٣٥.

الأمر الرابع: إن بيعتهم هي السبيل الوحيد للتكامل في الدين، لأنها تشخص الاعتقاد والمعتقد به وتعينه وتميزه عن غيره.

غير أن البيعة على قسمين، قسم يصل بالإنسان إلى الاعتقاد الغيبي المشوب بالغموض شيئاً ما، وقسم يصل بالإنسان إلى الاعتقاد المتشخص المشهود الواضح.

*أنواع البيعة وأنحائها

■ البيعة العنوانية (من وراء حجاب)

وهي البيعة الحاصلة منا الآن وفعلا اتجاه أهل البيت عليهم السلام، لأننا لم نرهم ولم نقترب من وجودهم.

فليس لنا منهم إلا العناوين دون المعنونات، فنصور لهم عنواناً ومفهوما ثم نعقد البيعة عليه قلبا وروحا.

فتكون البيعة للعنوان المتصور، ومن المنطقي تخلل الغيب والحجاب بيننا وبين عين الحقيقة.

■ البيعة الشخصية (الحضورية)

وهي مبايعة للشاخص بالمعاينة، وعقد القلب على ولايته بوضع اليد في يده حضوريا.

وقد أتيحت فرصة هذه البيعة لمن شاهدوا النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام فبايعوهم بالبيعة الشخصية.

وأما من لم يكونوا في عصور المعصومين عليهم السلام فلم يعاينوا حتى يكون لهم شرف البيعة الشخصية.

فإذا أُريد للمعدومين في حياة المعصومين عليهم السلام الحظوة بذلك الكمال، وأُذن لإيمانهم وتدينهم أن يخرج من حالة الغيبية إلى حالة التشخص عبر البيعة الشخصية والتحققية، فلا بد من ظهور المعصومين عليهم ظهورا عيانيا تنتفي معه العنوا نية والغيبية.

وحاصل الأمر: إن المبايعة والموافقة على قسمين، ونفس الكلام يصدق على الجحود والانكار.

فالشقاء على نحوين:

١ - شقاء مترتب على رفض البيعة العنوانية.

٢ - ويصل شقاؤهم في الظهور والرجعة إلى منحنى أسفل سافلين عند رفض البيعة الشخصية.

أو قل: إن الإعراض إعراضان: إعراض عن العناوين، وإعراض عن الأشخاص والذوات المقدسة.

ويحصل الاعراض الثاني بعد تبدد سحب الغيبة، وبعد رجوع الصالحين في عالم الرجعة المقررة بالبرهان.

والبيعة الشخصية فلسفة من فلسفات رؤية أمير المؤمنين عليه السلام حال الاحتضار والموت، حيث يقترب الإيمان بولايته أو الكفر بها عند رؤيته البرزخية إلى حالة التشخص والتكامل بالمعنى الفلسفي.

ولذلك قرر في النصوص أن الرجعة لا تختص بكرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وإنما تعم الأمة كذلك، لاستعداد فئات للكمال الأعلى من مستوى الكمال الذي حصل بالمبايعة العنوانية، ولتأهل فئات أخرى للتسافل بنحو أدنى مما حصل بالإنكار العنواني.

ولأن الموت حال دون ذلك، فلابد من تكميل منسوب الإيمان، وتتميم منحنى الكفر بالبيعة أو الجحود في عالم الرجعة.

فبالرجعة تتهيأ فرصة ذلك، ولا طريق آخر غيرها.

روى علي بن ابراهيم القمي في تفسيره: (أن رسول الله صلى الله عليه وآله إذا رجع آمن به الناس كلهم) [1].

والمعني بها هم من كانوا على الشرائع السابقة ولديهم استعداد الإيمان بالخاتم، وكذا أهل الاستعداد من المسلمين.

*تكامل الأنبياء عليهم السلام بالبيعة الشخصية

لما كانت حقيقة الولاية المطلقة مخصوصة بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام والزهراء فاطمة عليها السلام كان كمال التحقق بها يقتضي بيعتهم، فلذا بايعهم حتى الأنبياء والأولياء السابقين.

١ -ففي تفسير القمي: (فان الله أخذ ميثاق نبيه أي محمد صلى الله عليه وآله على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه ويخبروا أممهم بخبره)[2].

ويتكرر الإيمان والنصرة بصورة أجلى في الرجعة والظهور، حيث تتفعل البيعة من قبل السابقين من الأنبياء والمرسلين لأهل البيت عليهم السلام، لأنهم يرجعون حتى يكملوا مبايعتهم العنوانية بالبيعة الشخصية.

١- تفسير القمي١/ ١٥٨.

٢- تفسير القمي١/ ١٠٦ .

٢ -وروى القمي عن ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام قال:

(ما بعث الله نبيا من لدن آدم فهلم جرا إلا ويرجع إلى الدنيا وينصر أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله «لتؤمنن به» يعني رسول الله صلى الله عليه وآله ،» ولتنصرنه» يعني أمير المؤمنين عليه السلام) [1].

ولذا فلعيسى عليه السلام نزول ليبايع شخصيا، وللأنبياء عليهم السلام رجوع ليتكاملوا بالبيعة التحققية.

٣ -ولا يصب ما ورد من صلاة عيسى عليه السلام خلف الحجة عليه السلام في باب التواضع والتعارف والاعتبار، وإنما هو من باب البيعة والتبعية لصاحب الولاية المطلقة.

٤ -وينقل العارف الكبير الشاه أبادي (ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أنه بعد رسالته جاء إلى قبر أبيه عبدالله عليه السلام وأرجعه إلى الدنيا، فقال: أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.

وسأله عن وصيه، فقال: هو علي بن أبي طالب. فقال: وأشهد أن علياً ولي الله) ... فقال صلى الله عليه وآله لأبيه عبدالله أرجع إلى جنتك).

وهذا أيضا من باب البيعة الشخصية بعد البيعة العنوانية.

٥ - وأخرج الصدوق في كمال الدين عن أبان بن عثمان عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبدالله عليه السلام:

١- نفس المصدر .

(أول من يبايع القائم عليه السلام جبرئيل ينزل في صورة طير أبيض فيبايعه، ثم يضع رجلا على بيت الله الحرام ورجلا على بيت المقدس ثم ينادي بصوت طلق تسمعه الخلائق» أتى أمر الله فلا تستعجلوه»)[١]

قال السيد محمد الصدر: (يعتبر ذلك كمالاً له وفائدة تعود عليه)[٢].

بمعنى أن كل موجود مفتقر لمبايعتهم عليهم السلام لأنها الطريق الوحيد لمراتب القرب الإلهي.

١- كمال الدين، الشيخ الصدوق/ ٦٧١.

٢- تاريخ ما بعد الظهور، السيد محمد الصدر٣/ ٢٥٠.

المبحث التاسع

المهدوية والوراثة في الرجعة

المهدوية والوراثة في الرجعة

قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

* تجليات المنة الإلهية

المنة هي النعمة الثقيلة.

فمن النعم نعم عامة يتمتع بها كل أحد، ومنها نعم ثقيلة خاصة لا تعطى إلا الخواص من أهل الطاعة.

وقالوا: المنة هي النعمة والعطية التي لا يأتي عليها الأفول والزوال.

إذ إن النعم الإلهية تتنزل بشكل مطرد ومتتابع، إلا أن الكثير من النعم والعطايا تزول وتضمحل يوما ما، أما المنة الالهية فهي عطية لا يتطرق إليها الزوال ولا ينتابها الأفول.

وقد جاء هذا المصطلح في آيات وأشير فيها لهذه الخصوصية، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[2].

١- القصص/ ٥.

٢- آل عمران/ ١٦٤.

وهذه المنة لازالت قائمة، ورسالته لازالت ثابتة، والشهادة له بالنبوة راسخة لا تزول مع تقلب الليل والنهار.

وعلى هذا الأساس قالت العقيلة زينب عليها السلام ليزيد: (فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا)[1].

ومحتوى خطابها مشتمل على حقيقة يقينية مبرهنة وليس خطابا إنشائيا، لاستناد ما فيه إلى ما ورد في القرآن الكريم.

ومن هنا لا بد أن يلتفت كل مفسر لآيات المنة إلى خصوصيات المنة الإلهية وفوارقها عن النعمة الإلهية، لتوقف فهم الآيات في معناها الأدق على ذلك.

وذكرت آية البحث تجليات ثلاث للمنة الإلهية، أولها: الامامة، وثانيها: الوراثة، وثالثها: التمكين وزوال الأعداء والمناوئين.

لذا يرى المفسرون أن (الواو) في قوله تعالى: ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً**﴾ عطف تفسيري على قوله تعالى: ﴿**نَّمُنَّ**﴾.

أي أن الجمل المتتابعة المصدرة (بالواو) تفسير لجهات وجوانب المنة الإلهية الخاصة.

والسؤال: في أي زمان ستتحقق فعليات تلك المنة الإلهية؟

١- مثير الأحزان، ابن نما الحلي/ ٨١.

*أنظار تفسيرية ثلاثة

■ النظر الأول: حادثة تأريخية معروفة الشخوص

وقع الاختلاف في تاريخ فرقة الحشوية، والأهم أنها منهج ومسار في قراءة النصوص كان قديما ولا زال قائما.

وكبار علماء التفسير من السنة مثال حي لسالكي المنهج الحشوي.

فحتى من أسهب في شرح معاني القرآن أخذ بالمنهج الحشوي في فهم تطبيقات الآيات، وعدم الانتقال من تطبيقاتها التاريخية إلى تطبيقاتها المعاصرة والمستقبلية.

والمنهج المستمر لديهم هو القراءة الحرفية للآيات، وحصر ما فيها من قواعد وسنن إلهية في المقطع الزماني الذي تشير إليه ظاهرا.

وتجلى اتباعهم المنهج الحشوي بوضح في الآيات التي نزلت في القصص القرآنية، ووفق ذلك المنهج اعتبروا أهم الآيات ذات المغزى العام والمفهوم الكلي آيات تاريخية، لوقوعها في سياق حادثة تاريخية.

ومنها آية البحث، فذهبوا إلى أن الوعد الإلهي بإمامة ووراثة وتمكين المستضعفين خاص بموسى عليه السلام وأصحابه في أرض مصر في قبال فرعون وهامان وجنودهما.

وساعد على استماتتهم في المنهج الحشوي القشري وقوع الآية - بحسب ترتيب المصحف الشريف - بين آيات تتحدث عن صراع موسى عليه السلام وفرعون، وذكر فرعون وهامان بما لهما من أسماء تاريخية.

ومن هنا قال القرطبي في الجامع تحت قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ**﴾ (أي نتفضل عليهم وننعم وهذه حكاية مضت)[١].

بل وحتى من حاول أن يطبق الآية على العصور اللاحقة، وقال إن الآية فيها عبر للمسلمين، وأنها نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، وأنها ليست حكاية غبرت في التاريخ – وهو سيد قطب في ظلال القرآن – لم يبرح هو الآخر السطحية والقشرية.

إذ الأهم في المقام – بعد البناء على أن الآية ذات عبرة عامة، وأنها قاعدة كلية تفيد بيان مصير مقارعة قيم الحق وزيف الباطل – أن نسأل:

هل للآية تجليات أعظم وقعا مما جرى في زمان موسى عليه السلام وفرعون، وهل تأويلها الأعظم تحقق أو بعد لم يتحقق؟!

وفي رواياتنا إشارات ملهمة تفيد أن الشخصيات التاريخية المذكور أسماؤها مقصودة كغاية أولى ومراد أولي للآية، وأما المراد الجدي والنهائي فبعد لم يتحقق.

ففي تفسير القمي قال: (... ولو كانت هذه الآية نزلت في موسى وفرعون لقال: ونري فرعون وهامان وجنودهما منه ما كانوا يحذرون، اي من موسى، ولم يقل منهم) [٢].

وسيأتي مزيد ايضاح في الآراء اللاحقة، ليتضح أن الوعد الالهي بمعناه الحقيقي بعد لم يتحقق.

١- تفسير القرطبي، القرطبي ١٣ / ٢٤٩.

٢- تفسير القمي، علي بن إبراهيم القمي ٢ / ١٣٣.

ولو قال قائل:

إن قوله (منهم) راجع للمستضعفين وليس لموسى عليه السلام، والمستضعفون هم بنو إسرائيل، وبذلك تكون الآية نازلة في الحدث التاريخي المعروف؟

لقلنا: إنه لو أُرجع الضمير للمستضعفين لوجب أن يرجع ضمير (يجعلهم أئمة) أيضا لهم.

وهل يعقل أن الله تعالى وعد أن يجعل كل من استضعف من بني اسرائيل إماما؟!

■ **النظر الثاني: عالم الظهور**

يرى البعض أن أتم ظهور للآية سيكون في عصر ظهور المهدي عليه السلام.

ويذهب هؤلاء إلى أن الآية جُعلت في هذا الموقع القرآني المتعلق بصراع موسى وفرعون للتشابه بين القائم عليه السلام وموسى الكليم عليه السلام في الولادة السرية والحفظ والقيام بعد ذلك، وأن موسى عليه السلام من ولادته إلى انتصاره جُعل مثالا مقربا لما سيجري على القائم الموعود عليه السلام.

وذهب السيد حيدر الآملي لما هو أبعد من ذلك فقال:

(قوله تعالى: ﴿**وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ دال على إمامة وخلافة وحتمية المهدي المنتظر، لأن الألف واللام متى دخلا على الخبر أفادا انحصاره في المبتدأ، فاذا قلت زيد هو العالم دل على أن غيره ليس بعالم، فكل إمام غير المهدي عليه السلام من الأئمة عليهم السلام هو موروث ووارث الا المهدي عليه السلام فهو وارث للإمامة ولا يورث غيره الإمامة)[1].

١- جامع الاسرار، السيد حيدر الآملي/ ٤٣٧.

واعتبر العلامة الجوادي هذه الآية تبيانا لخصوصية في إمام العصر عليه السلام على غيره، وهي خاصية وراثة الإمامة دون توريثها لمن بعده، فليس ثمة وراث لميراثه.

وأضاف: لا محذور في ورود لفظ الوارثين بصيغة الجمع مع دلالة انحصارها في مصداق واحد، لأنه من قبيل لفظ (الذين آمنوا) في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1].

والشيخ الجوادي وإن قال في آخر كتابه – الامام المهدي الموجود الموعود – بارتباط القيامة باستشهاد إمام العصر... (فإذا التحق بربه فلن يبقى للإسلام أثر، ما يعني نهاية العالم وطلوع شمس صبح القيامة)[2].

لكنه أفاض في اثباتات عالم الرجعة في كتابه (أدب فناء المقربين شرح الزيارة الجامعة الكبيرة)، فراجع الجزء المخصص لذلك.

ويلاحظ على التفسير الثاني عدة ملاحظات:

١ – إن الإشكال الروائي الذي أثرناه على الرأي الأول يأتي هنا، فإنه تعالى قال: (منهم) ولم يقل: (منه) حتى يرجع للغائب الموعود عليه السلام.

٢ – الاقتصار على هذا المقدار من التفسير مخالف لما ورد كثيرا من كون الآية نازلة في أئمة أهل البيت بما فيهم النبي صلى الله عليه وآله.

٣ – تفسير (وارثين) بأنه يرث الإمامة ولا يورثها غيره، فيه عطف الوراثة على جعلهم أئمة، بمعنى كون الوراثة ليست مغايرة لمنة الامامة، وهو

١– سورة المائدة / ٥٥.

٢– الامام المهدي الموجود الموعود، الجوادي الاملي ٢٩٠، ٢٩١.

خلاف ظاهر الآية من كون المنة الالهية ذات جهات عديدة، منها الامامة والوراثة والتمكين.

٤ – القول بارتباط القيامة باستشهاد صاحب العصر عليه السلام يعني اثبات ثلاثة عوالم فحسب، عالم الدنيا وعالم الظهور وعالم القيامة، وهو مخالف لما ورد متواترا من وجود عالم وسط بين الظهور والقيامة، وهو ما نشير إليه في التفسير الثالث.

■ **النظر الثالث: عالم الرجعة**

نبدأ أولا بالروايات، ونقتصر على الروايات الواردة تحت ذيل الآية موضع البحث، وإلا فروايات الرجعة لا تحصى كثرة.

١ – معتبرة أبي الصباح الكناني قال: نظر أبو جعفر عليه السلام إلى أبي عبدالله عليه السلام يمشي فقال: ترى هذا؟ هذا من الذين قال الله عز وجل: «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين»)[١].

٢ – وفي البحار عن سلمان عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (... ونحن تأويل هذه الآية: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾ ...)[٢].

٣ – وفي معاني الأخبار بالإسناد عن المفضل بن عمر، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: (إن رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال: أنتم المستضعفون بعدي.

---

١ – الكافي، الشيخ الكليني ١ / ٣٠٦.

٢ – بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٢٥ / ٧، ٨.

قال المفضل: فقلت له: ما معنى ذلك يا ابن رسول الله؟ قال: معناه أنكم الأئمة بعدي، إن الله عز وجل يقول: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾، فهذه الآية جارية فينا إلى يوم القيامة)[1].

قال العلامة الطباطبائي: (والروايات من طرق الشيعة في كون الآية في أئمة أهل البيت كثيرة) [2]..

وفي روايات الرجعة تصريح بأن القائم عليه السلام لن يكون آخر حجة لله تعالى في الأرض، كما في روايات رجعة الحسين عليه السلام.

ومن هنا استفاد بعض المحققين من آية: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[3]، على ضوء الروايات عدة فوائد منها:

■ **الفائدة الأولى: للدنيا مرحلتان**

إن الحياة الدنيا تنقسم إلى أولى وأخرى، وفي الأولى تحكم دولة الفاسقين، وفي آخرة الدنيا تستتب عدالة دولة المستضعفين.

ويلزم التنبيه إلى أن عمر الدينا ليس منقسما بالتساوي بين دولة الفاسقين ودولة المستضعفين، وذلك لتصريح بعض الروايات بطول عمر دولة المستضعفين.

ففي البحار: ومن كتاب البشارة للسيد رضي الدين علي بن طاووس: وجدت في كتاب تأليف جعفر بن محمد بن مالك الكوفي بإسناده إلى حمران قال: (عمر

١- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق/ ٧٩.
٢- الميزان، السيد الطبطبائي١٦/ ١٥.
٣- سورة القصص/ ٥.

الدنيا مائة ألف سنة لسائر الناس عشرون ألف سنة وثمانون ألف سنة لآل محمد عليه وعليهم السلام)[١].

وعلق الشيخ آصف محسني بملاحظتين على هذه الرواية:

الملاحظة الأولى: الرواية ضعيفة ومقطوعة.

الملاحظة الثانية: (إن أريد من الدينا ما سوى الله أو الكرة الارضية وحدها فالمتن مردود بالعلوم الحديثة، وإن أريد منها الحياة الدنيا فهي مختصة بغير حياة آل محمد الطيبة، وإن اريد منها حياة الانسان بقرينة ذيلها فحياة الانسان عند علماء طبقات الأرض أكثر من المقدار المذكور بكثير. فقائل هذه الرواية كان جاهلًا.

وعلى كل هذا الانتظار الكثير الطويل الذي ربما يمتد إلى آلاف السنين لهذه المدة القليلة بعيدة إلّا ان يكون له نواب بعد وفاته كما يظهر من بعض الروايات)[٢].

وأجاب بعض المحققين على ما أفاده الشيخ محسني، فقال:

إن المشكل على الرواية لا يعي الفرز بين الفروض، فمورد الرواية هو الدورة الآدمية التي نحن فيها وهي آخر الدورات السابقة علينا، وبهذا الحساب يتطابق أو يتقارب البحث العلمي مع مفاد الرواية، ولا تناقض كما توهمه.

فالمشكلة حصلت من تسرعه في التدبر الدلالي.

١- بحار الأنوار، العلامة المجلسي ٥٣ / ١١٦.

٢- مشرعة بحار الأنوار، الشيخ آصف محسني٢/ ٢٣١.

■ **الفائدة الثانية: عموم الآية**

إن العموم في الآية استغراقي لكل الأئمة والأنبياء عليهم السلام وغير مختص بدولة الظهور.

ففي الروايات الواردة تحت قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾.

عن الصادق عليه السلام أنه قال: (ما بعث الله نبيا من لدن آدم عليه السلام إلا ويرجع إلى الدنيا فينصر أمير المؤمنين عليه السلام وهو قوله ﴿**لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ**﴾ يعني برسول الله صلى الله عليه وآله، ﴿**وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾ يعني أمير المؤمنين)[1].

■ **الفائدة الثالثة: منتان إلاهيتان**

تشير الآية لمنتين إلهيتين وعد الله تعالى بهما المستضعفين:

الأولى: منة تقدمت في الأولى من الدنيا، وهي الإمامة.

الثانية: منة إلهية لاحقة، وهي جعلهم ورثة الأرض، وهو ما سوف يتحقق في آخرة الدنيا.

ويرى بعض المحققين أن الوراثة تعني جعلهم ملوكا يملكون مقدرات الأرض وسلطنة إدارتها، وهو مقام وعنوان المهدوية.

وبهذا تتطابق الآية في جعلها عنواني الإمامة والوراثة على نفس الأشخاص مع الرواية التي نوهت برجوع مهديين اثني عشر بعد الأئمة الاثني عشر.

وقد توهم البعض أن الحجج أربعة وعشرين، تقدم منهم اثنا عشر إماما والآن بدأت مرحلة الاثني عشر مهديا!!

١- مختصر البصائر، الحسن بن سليمان الحلي ١٦٦، ١٦٧.

وهذا خطأ محض، فإن الروايات التي ذكرت الأئمة الاثني عشر بعنوان أئمة، ذكرتهم أنفسهم بعنوان المهديين.

كما أنه بالجمع بين الروايات التي نوهت بالأئمة الاثني عشر والروايات التي أثبتت رجعة نفس الأئمة عليهم السلام بعد القتل، نستدل على أن نفس الأئمة هم المهديون، والذين عبر عنهم القرآن بالأئمة والوارثين.

ولو قيل: هل بدأ عصر المهديين والوارثين؟

لقلنا: لا زلنا في الأولى من الحياة الدنيا، ونعت الإمامة لازال هو وصف الإمام الثاني عشر عليه السلام، وقد بدأ معه فعلا من بعد رحلة أبيه عليه السلام وسيستمر معه إلى حين ظهوره.

فإذا ظهر وشرع في إقامة الدولة والتمكين في الأرض يكون له بالفعل وصف المهدي والوارث.

ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وآله بعد بيان عدة الأئمة: (فذلك اثنا عشر إماما ثم يكون من بعده اثنى عشر مهديا)[1].

فبعد امتداد إمامة الثاني عشر في الغيبة وتحقق الظهور يبدأ مرحلة المهدوية واقامة دولة آل محمد.

والاختلاف بين الحجة المنتظر عليه السلام وغيره من الأئمة عليهم السلام هو اتصال مرحلة إمامته بمرحلة وراثته ومهدويته، بخلاف باقي الأئمة عليهم السلام فقد مضت إمامتهم وتخلل الموت بين إمامتهم ورجعتهم لإقامة المهدوية والوراثة.

ومن هنا يتبين: أن بعض ظهورات الآية وتجلياتها وإن تحقق في نبوة الكليم موسى عليه السلام إلا أنه تجل باهت للآية بالنسبة لما سوف يتحقق في رجعة أهل البيت عليهم السلام.

١- مختصر بصائر الدرجات، الحسن بن سليمان الحلي ٤٠.

وبملاحظة ما سيكون من الوراثة والتمكين لهم في دولة آخر الدنيا يظهر أنه لا يقاس به شيء، فتكون دولتهم هي الملحوظ جدا وحقيقة في الآية الكريمة.

فإذا أراد المعتقد بهم أن تكتمل عقيدته وتنسجم منظومة ولائه بهم فلا بد أن يعتقد بما مضى منهم وما هو آت.

* كثرة اللهج بالرجعة يكامل المنظومة

ورغم أن عقيدة الرجعة من العقائد التي نتربى عليها في كثير من طقوسنا العبادية وفي زياراتنا الولائية لأهل البيت عليهم السلام، لكنها إلى الآن لم تبلور كعقيدة واضحة نشهد بها كلنا في منظومة العقائد.

فما هو عذرنا أمام كثرة النصوص الواردة في الرجعة؟

فها نحن نذكر الرجعة ثلاث مرات في دعاء ليلة ولادة الحسين عليه السلام إلى جنب الاعتقاد بإمامته في أول الدنيا.

ففي أول الدعاء: (قتيل العبرة وسيد الأسرة الممدود بالنصرة يوم الكرة).

ثم يقول الزائر: (المعوض من قتله أن الأئمة من نسله والشفاء في تربته والفوز معه في أوبته).

وفي آخر الدعاء: (فنحن عائذون بقبره من بعده نشهد تربته وننتظر أوبته آمين رب العالمين) [1].

وليس هناك من هدف معقول لذكر الرجعة الحسينية ثلاث مرات في دعاء ليلة الميلاد على قصره إلا التأكيد على أنها من صميم العقيدة وتمام كمال منظومتها.

١- مصباح المتهجد، الشيخ الطوسي ٨٢٦، ٨٢٧.

المبحث العاشر

عالم انتصار المشروع الحسيني

عالم انتصار المشروع الحسيني

ورد في زيارة عاشوراء: (فَأَسْأَلُ اللهَ الَّذِي أَكْرَمَ مَقَامَكَ وَأَكْرَمَنِي، أَنْ يَرْزُقَنِي طَلَبَ ثأرك مَعَ إِمَامٍ مَنْصُورٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ)[1].

*** سر دوام الارتباط بالحسين عليه السلام**

١ - ما الغاية من إحياء ذكرى الحسين عليه السلام؟

٢ - ولِمَ الارتباط الوثيق بالقضية الحسينية واللهج بمجرياتها في كل موسم بل في كل آن؟

٣ - وما هو سر ما أظهره أهل البيت عليهم السلام من عناية فائقة بإحياء الثورة المباركة؟

وقد أجاب الكثير من العلماء والكتاب والمحققين على هذا السؤال بطرح تصورات متنوعة.

منها: استحصال محض الثواب الجزيل المترتب على الإحياء.

فقد ورد الوعد الصادق من النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام بالثواب الجزيل لكل من يحيي تفاصيل عاشوراء في الوجدان والواقع.

ومنها: إن الاهتمام بشهادة الحسين عليه السلام كثائر لأجل إماتة الباطل وإحياء الحق يدل على الاهتمام بالإسلام وعلى احترام مبادئ الدين.

١- مصباح المتهجد، الطوسي/ ٧٧٤.

ومنها: إن إحياء الإسلام الاجتماعي في حياة الأمة ودوائرها العامة مرهون بالتأكيد على الشهادة الحسينية، فثمة ارتباط وثيق بين الشهادة وحياة الإسلام في الإطار الاجتماعي.

ولا شك أن كل ما ذكر من الغايات والتبريرات صحيح، إلا أنها لا تعدو أن تكون مبررات تقليدية.

فهل هناك ما هو أكبر وأعمق مما ذكر من الغايات؟

*المشروع الراهن والمستقبلي

نضيف في هذا المجال غاية عظمى وكبرى لإحياء عاشوراء غير ملتفت إليها من قِبل كثيرين رغم تكاثر الأدلة والشواهد عليها قرآنًا ورواية.

وبيانها بأن يقال: إن للحسين عليه السلام مشروعًا إلهيًّا متكامل الأبعاد، والذي جرى في كربلاء هو النسخة الأولى من مشروعه في إطار ذلك الزمان، وجاءت صورة تلك النسخة متمثلة في الشهادة الساخنة والتضحية والفداء من الحسين عليه السلام ومعسكره.

وللمشروع الحسيني نسخ وصور أخرى في الأزمنة اللاحقة، فلا بد أن تستحضر في عصور ما بعد الشهادة مقررات المشروع الحسيني، فتعمم بذلك نسخ من مبادئ وقيم الحسين عليه السلام.

ولن يتوقف مشروعه عند النسخة الماضية والنسخة الراهنة، بل له نسخ مستقبلية متحركة.

والارتباط بالإحياء في الراهن باستعادة تفاصيل الماضي ومجريات الواقعة وتحويلها إلى قيم ودروس وعبر في الحياة، إنما هو لأجل إعداد النفس وتجهيزها

للمشروع الحسيني المستقبلي، ولن تكون النسخة الحسينية في المستقبل عبارة عن مأساة أو قيم ومبادئ مظلومة ومضطهدة، بل هيمنة وسلطنة وريادة.

*الانتصار الشخصي

إن النسخة المستقبلية من المشروع الحسيني ستكون مشروع نصر وانتصار للقضية والثورة.

وقد شُدِّد وأُكِّد في الأدلة على انقلاب مشروع الظلامة إلى مشروع نصر وانتصار كحلقة خاتمة للمسير الحسيني.

ونذكر هنا شاهدًا من الآيات وآخر من الروايات:

١ - فأما من الآيات فقوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾[1].

ولو خُلِّينا نحن والآية لفهمنا لأول وهلة أن عنوان (والذين آمنوا) ينطبق على الحسين عليه السلام كمصداق أبرز، وقد وُعِد الرسل والمؤمنون بالنصر في مرحلتين بحسب منطوق الآية، مرحلة الدنيا ومرحلة الآخرة.

ولم يتحقق إلى الآن انتصار المشروع الحسيني في مرحلة الدنيا، ولا يمكن أن لا يكون للوعد القرآني تحقق والعياذ بالله، فلا بد إذن أن يأتي يوم يتجلى فيه النصر والانتصار الحسيني.

ولو قال قائل: إن المراد بالآية نصر القضية والمبدأ وليس نصر الأشخاص والمسميات؟

١- غافر/ ٥١.

لقلنا: إن ثمة فرقا بين وعدين إلهيين في صنفين من الآيات.

الأول: وعد بظفر المبادئ وهيمنة الدين بغض النظر عن الأشخاص والرموز، وتتكفل بهذا الوعد طائفة من الآيات، كقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ**﴾[1].

فأقرب معاني الآية هو الوعد بإظهار دين الحق ودستور السماء على كافة الأديان والمذاهب والنِّحل.

الثاني: وعد بظفر الاشخاص والرموز، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾[2].

فنُسب الوعد بالنصر للأشخاص من الأنبياء والمؤمنين وليس لأديانهم ومبادئهم، وإن كان نصر الأشخاص يستتبع نصر المبادئ قهرا.

والحسين عليه السلام على رأس القائمة بكل تأكيد، فمتى ستتحقق الحلقة الأخيرة من المشروع الحسيني وهي حلقة الانتصار؟

٢ - وأما الشاهد الروائي على النسخة الأخيرة من المشروع الحسيني، فما ورد في الزيارة: (أَشْهَدُ أَنَّ لَكَ مِنَ الله ما وَعَدَكَ مِنَ النَّصْرِ وَالفَتْحِ، وَأَنَّ لَكَ مِنَ الله الوَعْدَ الصّادِقَ في هَلاكِ أَعْدائِكَ، وَتَمامَ مَوْعِدِ الله إيّاكَ)[3].

فمنطوق الزيارة وعد بنصر خاص وإهلاك عدو مخصوص.

فأين ومتى وفي أي عالم سيتحقق النصر الموعود والانتصار المكتوب؟

١- التوبة/ ٣٣.

٢- غافر/ ٥١.

٣- كامل الزيارات، ابن قولويه/ ٢١٥.

قال المرتضى في رسائله لما سُئل عن حقيقة الرجعة:

(أما من تأول الرجعة من أصحابنا على أن معناها رجوع الدولة والأمر والنهي، من دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات، فإن قوما من الشيعة لما عجزوا عن نصرة الرجعة وبيان جوازها وأنها تنافي التكليف، عولوا على هذا التأويل للأخبار الواردة بالرجعة.

وهذا منهم غير صحيح، لأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة، فيطرق التأويلات عليها، فكيف يثبت ما هو مقطوع على صحته بأخبار الآحاد التي لا توجب العلم؟

وانما المعول في إثبات الرجعة على إجماع الإمامية على معناها، بأن اللهّٰ تعالى يحيي أمواتا عند قيام القائم عليه السلام من أوليائه وأعدائه على ما بيناه، فكيف يطرق التأويل على ما هو معلوم، فالمعنى غير محتمل)[1].

*مشروع الإمام المنصور

تكرر طلب الثأر من الزائر في موضعين من زيارة عاشوراء:

الأول: في قوله: (مع إمام منصور).

الثاني: في قوله: (وأنَّ يرزقني طلب ثأركم مع إمام مهدي هدىً ظاهر ناطق بالحق منكم).

فلِم تكرر هذا المعنى في مقطعين؟ وهل المعنى متكرر أم لكل مقطع مضمونه الخاص؟

١- رسائل الشريف المرتضى، السيد المرتضى ١ / ١٢٥، ١٢٦.

لأهل العلم في ذلك قولان:

■ **القول المشهور: نصر عالم الظهور**

وخلاصته الاتحاد في المضمون بين الإمام المنصور والإمام المهدي، فكلا المقطعين ينبهان على مشروع واحد.

وممن صرح بذلك آية الله الشيخ مسلم الداوري، قال: (طلب الزائر مرتين الانتصار وأخذ الثأر في كنف الإمام الحجة عليه السلام عند ظهوره)[١]

ولعلّ المركوز في الأذهان التطابق بين المقطعين مع اختلاف الوصف، فقد وُصف المنجي الموعود عليه السلام في المقطع الأول بالمنصور وفي المقطع الثاني بالمهدي.

ويؤيَّد التطابق أيضًا بنصوص من القرآن والروايات:

١ – فمن القرآن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**﴾[٢].

٢ – ومن الروايات ما جاء في دعاء الندبة: (أَيْنَ الطَّالِبُ بِدَمِ الْمَقْتُولِ بِكَرْبَلاَء، أَيْنَ الْمَنْصُوْرُ عَلَى مَنِ اعْتَدَى عَلَيْهِ وَ افْتَرَى)[٣].

■ **القول الثاني: نصر عالم الرجعة الحسينية**

ينحو بعض المحققين المعاصرين منحى التدقيق في أوصاف الأئمة عليهم السلام والعناوين المنسوبة لهم في الروايات، فيذهب إلى الفرق بين التعبير عنهم بالأئمة والتعبير عنهم بالمهديين، والتعبير عن أحدهم بالمهدي وعن الآخر بالمنصور.

١- زيارة عاشوراء تحفة من السلام، الشيخ مسلم الداوري/ ١٠٠.

٢- الاسراء/ ٣٣.

٣- المزار، المشهدي٥٧٩.

فإذا قيل أئمة، فالمراد مالهم من دور في دار الدنيا قبل موتهم، وإذا عُبّر عنهم بالمهديين، فالمراد به دورهم في عالم الرجعة.

كما أن المقصود من عبارة (مع إمام مهدي) طلب الكون في حزب وجند القائم عليه السلام في دولة الظهور، وأما المراد من عبارة (مع إمام منصور) فهو الدعاء بالتوفيق للتجنيد في دولة الحسين عليه السلام وحزبه في عالم الرجعة، لأن لقب ومقام (المنصور) أولًا وبالذات يُطلق على سيد الشهداء عليه السلام.

فلو قلت: ماذا نفعل في الآية والرواية التي أطلقت عنوان المنصور على الحجة عجل الله فرجه؟

لقد وجهت هذا السؤال لأحد المحققين الأعلام فقال: لا يبعد أن عنوان المنصور في الصاحب عليه السلام كالوصف بينما في الحسين عليه السلام كالاسم واللقب.

ويمكن أن يؤيَّد كون عنوان (المنصور) خاص كاسم للحسين عليه السلام ما ورد في مصادر الشيعة والسنة.

منه ما ورد في الغيبة عن جابر الجعفي قال:

سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (والله ليملكن منا أهل البيت رجل بعد موته ثلاثمائة سنة يزداد تسعا. قلت: متى يكون ذلك؟

قال: بعد القائم عليه السلام قلت: وكم يقوم القائم في عالمه؟

قال: تسع عشرة سنة، ثم يخرج المنتصر فيطلب بدم الحسين عليه السلام ودماء أصحابه، فيقتل ويسبي حتى يخرج السفاح)[1].

١- الغيبة، الطوسي/ ٤٧٩.

قال في البحار: (الظاهر أن المراد بالمنتصر الحسين وبالسفاح أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله)[١].

وبين من الرواية اختلاف عنوان المنتصر عن عنوان القائم، ولا يُتوهم أن المنتصر لكونه يطلب بدم الحسين عليه السلام فهو غيره، بل هو الحسين عليه السلام نفسه.

لما ورد في الروايات كما في الاختصاص للمفيد عن جابر: (وهل تدري من المنتصر ومن السفاح يا جابر؟ المنتصر الحسين بن علي، والسفاح علي بن أبي طالب عليهما السلام).

وفي إرشاد المفيد عن عبدالله بن العبّاس قال: لنا أهل البيت سبعُ خِصالٍ، ما منهنّ خصْلةٌ في الناس: منّا النبي، ومنّا الوصيّ خيرُ الأمّة بعده عليّ بن أبي طالب، ومنّا حمزةُ أسد اللهّ وأسدُ رسوله وسيّد الشهداء، ومنّا جعفرُ بن أبي طالب المُزَيّن بالجَناحين يَطير بهما في الجنّة حيث يشاء، ومنّا سِبْطا هذه الأمّة وسَيّدا شَباب أهل الجنة الحسن والحسين، ومنّا قائمُ آل محمّد الذي أكرم اللهّ به نبيّه، ومنّا المنصور)[٢].

وليس معنى السفاح من يكثر سفك الدماء، بل هنا بمعنى من يكثر ربيع الوادي.

وقال المحققون: إن أسماء وألقاب حكام بني العباس أخذوها من الروايات وتقمصوها، كعنوان المنصور والمهدي والسفاح، لأجل أن يصوروا للأمة أنهم المعنيون بالمقامات.

١- بحار الأنوار، المجلسي٥٣/ ١٠٠.
٢- الارشاد، المفيد١/ ٣٧.

قال صاحب البحار: (لعل المراد بالمنصور أيضا القائم بقرينة أن بالقائم يتم السبع، ويحتمل أن يكون المراد به الحسين فإنه منصور في الرجعة)[١].

وبناءً على كون المنصور هو الحسين عليه السلام يكون معنى المقطع الشريف طلب الزائر التوفيق لأن يكون عضوًا وجنديًا في معسكر الحسين عليه السلام في الرجعة.

والتوفيق لذلك متوقف على استعداد خاص وأتعاب عقائدية وأخلاقية مضنية، فإن مثل هذه الأماني لا تتأتى بصرف الدعاء والمسألة.

وكما أطلقت الروايات عنوان المنصور على الحسين عليه السلام أطلقت عنوان المنصورة على الزهراء عليها السلام، ومعناهما حظوة الحسين والزهراء عليهما السلام بقدرات غيبية إلهية وتمكين إعجازي في العالم المستقبلي لإنجاز النصر والانتصار.

* بين المشروع الحسيني ومشروع المنجي

بما مرّ من المطالب العالية يتصحح لدينا عدة معارف:

■ **أولًا: لكل إمام شرائط رجعة**

على ضوء ما ما يتبناه البعض من أن آخر مشروع إلهي هو ظهور الحجة الموعود عليه السلام يُعمم بين المؤمنين فكرة أن الواجب هو الاستعداد والتهيئة ليوم الظهور، وليس وراء الظهور دولة أو مشروع آخر.

بينما بناءً على الرجعة ومشروع دولة المنصور، فالواجب التهيئة والتحضير لمشاريع ودول وليس لمشروع واحد.

١- بحار الأنوار، المجلسي ٣٧/ ٤٨.

لذا أشار بعض المحققين أن لكل إمام من الأئمة عليهم السلام شرائط رجعة وعودة وليس فقط للحجة عليه السلام شرائط ظهور.

والحجة عليه السلام إذا ما ظهر فهو يحقق شرائط رجوع سيد الشهداء عليه السلام، وكلما كان المشروع أكبر كانت الشرائط المطلوبة لتحققه أكبر وأعظم.

أي علينا أن نتهيأ على مستوى الاعتقادات، وعلى مستوى تجنيد النفوس، وعلى مستوى الدعاء والمسألة، لكل الدول القادمة والمشاريع المستقبلية.

ودعاء (اللهم كن لوليك الحجة بن الحسن عليه السلام في هذه الساعة وفي كل ساعة وليا وحافظا وناصرا ودليلا وقاعدا وعونا وعينا حتى تسكنه أرضك طوعا وتمتعه فيها طويلا)[1]، لا ضير أن يقال في الحسين عليه السلام، فندعو: (اللهم كن لوليك الحسين عليه السلام الخ ...

ولأن المشاريع المستقبلية متصاعدة وبعضها يكبر بعضًا، لذا كان مشروع الظهور معدا لمشروع الانتصار الحسيني، ومشروع دولة المنصور معدا لمشروع دولة السفاح والمهدي الأكبر، لذا فدولهم عليهم السلام متراتبة في التحقق والتفعّل.

ومن هنا كان الارتباط بالشعائر والزيارات الحسينية في كل الأوقات من شرائط التحضير لرجعة الحسين عليه السلام.

■ ثانيًا: الرجعة غاية الظهور

أشار بعض المحققين إلى أن الإيمان بالرجعة برسوخ يساهم بشكل كبير في الاستعداد لدولة الظهور، لأن دولة الرجعة بمثابة الغاية لدولة الظهور، ومعرفة الغاية معرفة للشيء بكنهه، فإذا جُهلت الغاية كانت المعرفة بالشيء سطحية.

١- الكافي، الكليني ٤ / ١٦٢.

إن المشروع الحسيني هو الأساس للمشروع المهدوي، وهو يهيمن ويحيط به، فلا ينطلق مشروع الظهور إلا من شعارات مشروع الحسين عليه السلام، ولا ينتهي مشروع الظهور إلى غايته إلا بابتداء مشروع الرجعة الحسينية.

وإن الحسين عليه السلام في الرجعة أكبر في السلطان والنفوذ من الحسين عليه السلام في عصر كربلاء.

■ **ثالثًا: المآتم إعداد للمشروع المستقبلي**

ردد بعض الحمقى السطحيين مجموعة من الإشكالات في الآونة الأخيرة، منها:

١ – قولهم إن إحياء الشعائر الحسينية انحباس في الماضي وجمود على ما سبق!!

٢ – واحتجوا على كثرة النعي وتعدد المآتم، معتبرين ذلك هدرا للأوقات وانفاقا للجهود بلا طائل!!

ولم يفقهوا أن الإحياء المتنوع إعداد للنفس لتكون مجندة في المشروع المستقبلي، فقولنا (معكم معكم) ليس معناه نتمنى لو أننا نكون معكم في الماضي وحسب، بل الآن معكم، ومعكم في مستقبل دولتكم.

وليعلم كل من يستسهل عقيدة الرجعة ويستعصي على الإيمان بها أنه يقضي على فرص إعداد نفسه للمشروع المستقبلي والثورة العظمى، ويكون كل همه الكون مع الحسين عليه السلام في الماضي ويتأبّى أن يكون معه في المستقبل.

إن من مميزات الاعتقاد بالرجعة الحسينية هي إعداد موالين ذوي طموح مستقبلي وذوي أفق عريض، بينما الناكرون للرجعة والواصفون لها بالخرافة هم من ينحبسون في الماضي ولا يوصلون الماضي بالراهن والمستقبل.

فليكن المعنى الجديد الذي وعيناه من هذه البحوث هو أن المجالس الحسينية والمآتم العزائية وكل الشعائر المعمول بها اعداد لأمنيات قادمة، كما أنها انطلاقة لحضارة واعدة، فندخل المآتم لنتحضر للمستقبل لا لكي نرجع للماضي.

وأختم هذا البحث الشيق برواية عظيمة مغفول عنها، وردت في كتاب فضل زيارة الحسين عليه السلام للشجري المتوفي في القرن الخامس.

فعن أبي جعفر عليه السلام أنه تلا هذه الآية: ﴿**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾.

الحسين بن علي عليه السلام منهم.

ووالله إن بكاكم عليه، وحديثكم بما جرى عليه، وزيارتكم قبره نصرة لكم في الدنيا، فابشروا فإنكم معه في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله)[1]..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والصلاة والسلام على محمد وآله الميامين.

انتهيت من تصحيح الكتاب أواخر رجب الأصب سنة ١٤٤٤هـ.

١- فضل زيارة الحسين عليه السلام، الشجري/ ٤٨.

المحتويات

الفصل الأول: مباحث تمهيدية

تمهيد (١) سنة الاستبدال في المواقع المعنوية ١٣

* مقدمة ١٥
* الكلمة الأولى ١٦
* الكلمة الثانية ١٧
* الكلمة الثالثة ١٧
* نتائج مهمة ١٨
* أثر الأفكار الخاطئة في الاستبدال ٢٠
* إطلالة على مصطلحي الأبدال والاستبدال ٢٠
* التدليس في تصوير اعتراض إبليس ٢٣
* بلعم بن باعورا مثالا ٢٤
* تصنيف القرآن للبشر ٢٦
* سنة الاستبدال في أدعية المعصومين عليهم السلام ٢٧

تمهيد (٢) الأمن العقائدي في عصر الغيبة ٣١

* تمهيد ٣٣
* ترسيخ الإمامة الغائبة ٣٧

* الأول: الإمامة موقع سيادي ٣٧
  - المثال الأول: أقسام الوزارات ٣٨
  - المثال الثاني: التخصصات ٣٩
* الثاني: المهدوية والأمن العقائدي ٤١
* أسباب انهيار بعض المؤمنين ٤٤
* التشرفات والأمن العقائدي ٤٥
* ختاما ٤٩

تمهيد (٣) القيام الفعلي للحجة عليه السلام ٥١
* السؤال الأول: فعلية الدولة المحمدية في كل زمان ٥٤
  - الجواب في أمور: ٥٤
* السؤال الثاني: معاني تسميته بالقائم؟ ٥٩

تمهيد (٤) تساؤلات حول الموعود عجل الله فرجه الشريف ٦٣
* مقدمات ٦٥
  - الإمامة بحث مستقبلي ٦٥
  - الإمامة قلب نابض ٦٧
* المصلحة في الإمامة الغائبة ٦٨
  - النقطة الأولى: التناسب بين المصالح والأحوال ٦٩
  - النقطة الثانية: اقتضاء نوع الرسالة ٧٠
  - النقطة الثالثة: الغايات الأعظم أهم ٧١
* المهدوية والوقف ٧٢
  - النقطة الأولى: الوقف الممقوت ٧٢
  - النقطة الثانية: مآرب الواقفية ٧٣
* المذهب المنصور في يوم الظهور ٧٤

الفصل الثاني: التأصيل القرآني والروائي والتحليلي للغيبة

المبحث الأول : الاستضعاف ومسير الاستخلاف الحتمي ٧٩

* المقدمة ٨١
* عينات من بحوث الآية ٨٢
  - الموضوع الأول: علامات الحق ٨٢
  - الموضوع الثاني: أسباب النصر روحية أولا ٨٥
  - الموضوع الثالث: شروط انتصار المستضعفين ٨٥
* فلسفة الاستضعاف ٨٧
* إشكالية مهمة ٩٠

المبحث الثاني: الوعد الالهي بالمشروع الحضاري ٩٥

* دعوى عدم دلالة الآيات على المهدوية ٩٧
* ملاحظات على المسار المزعوم ٩٨
  - الملاحظة الأولى ٩٨
  - الملاحظة الثانية ٩٨
  - الملاحظة الثالثة ٩٩
* إيضاح مجموعة إشكاليات ١٠٣
  - الإشكالية الأولى ١٠٣
    - الأمر الأول: هوية المنجي عليه السلام ١٠٤
    - الأمر الثاني: التفسير الحقيقي للانتقام ١٠٦
  - الإشكالية الثانية ١٠٧

المبحث الثالث: مشروع المنجي قرآني حضاري ١١١
* المهدوية في القرآن..... ١١٤
  - الطريقة الأولى..... ١١٤
  - الطريقة الثانية ١١٥
* الشبه بين المنجي التاريخي والمنجي المستقبلي..... ١١٦
  - الشبه الأول: المنجي بالتجلي..... ١١٧
    - تنبيه ١١٩
  - الشبه الثاني: قيام المؤمنين بالمسؤولية في كل زمان ١٢٠
* التمهيد بالتقية أم بالحماسة؟ ١٢١
* انتظار الفرج الإلهي بلغة عصرية..... ١٢٤

المبحث الرابع: خطوات تمهيدية لظاهرة الغيبة..... ١٢٧
* تمهيد ١٢٩
* الصورة البدنية التي يظهر عليها الحجة عليه السلام..... ١٣١
* الغيبة ظاهرة استثنائية..... ١٣٩
* مراحل التمهيد ١٤٠
* الأولى: مرحلة ما قبل ولادة الحجة عليه السلام ١٤٠
  - الخطوة الأولى: تواتر الروايات في وقوع الغيبة..... ١٤٠
  - الخطوة الثانية: بيان المفهوم الصحيح للغيبة ١٤٥
  - الخطوة الثالثة: تكرر غيبات الأئمة عليهم السلام في مراحل مختلفة ١٤٧
* الثانية: مرحلة ما بعد ولادة الحجة عليه السلام وإمامته الفعلية..... ١٤٨
  - الخطوة الأولى: الغيبة الصغرى ١٤٩
  - الخطوة الثانية: ولاية الفقه والفقيه ١٥١

المبحث الخامس: تفسير مسألة الغيبة ١٥٣
* تمهيد ١٥٥
* السؤال الأول: إشكالية الفترة ١٥٦
  ■ الفترة رابطة خفية بالسماء ١٥٧
* السؤال الثاني: إشكالية الغيبة ١٥٩
  ■ تفطن بعض المستشرقين لمعنى الغيبة ١٦١
* المعنى الدقيق للغيبة ١٦٢

المبحث السادس: مبررات الدولة المهدوية ١٦٧
* المقدمة ١٦٩
* المبرر الأول: تحقيق الخلافة الإلهية الكاملة في الأرض ١٧٠
  ■ عقيدة المفسر الآلوسي في المهدي عليه السلام ١٧٠
* المبرر الثاني: الانفجار المعلوماتي ١٧٢
* المبرر الثالث: إخراج ما بالقوة إلى ما بالفعل ١٧٤
* سؤال حول مدة ملكه ١٧٥
  ■ الوجه الأول ١٧٥
  ■ الوجه الثاني ١٧٦
  ■ الوجه الثالث ١٧٦
  ■ الوجه الرابع ١٧٧

المبحث السابع: سنة وسيرة الغيبة ١٧٩
* المقدمة ١٨١
* سؤال حول اللطف ١٨٢

* نظريات المعترضين..... ١٨٢
■ المستوى الأول:..... ١٨٢
■ المستوى الثاني:..... ١٨٣
■ المستوى الثالث: ١٨٣
* ما هي الإمامة؟ ١٨٤
* الدور الوجودي في روايات العامة..... ١٨٦
* نظر الشيخ آصف محسني..... ١٨٨

المبحث الثامن: شبهات حول الغيبة ١٩١
* توطئة ١٩٣
* الفرار الفكري..... ١٩٤
* شبهتان..... ١٩٦
■ الشبهة الأولى: جدلية اللطف والغيبة ١٩٧
● النقطة الأولى: مراتب اللطف في الإمامة ١٩٧
● النقطة الثانية: مناهج الأئمة ١٩٩
● النقطة الثالثة: اللطف لا ينتفي بالتقية ٢٠١
■ الشبهة الثانية: اختلاف المسلمين في العقيدة المهدوية..... ٢٠٢
● المستوى الأول: لا يتساوى الوجود والعدم ٢٠٣
● المستوى الثاني: المغالطة في المثال ٢٠٣
● المستوى الثالث: أثر وجود الحاكم الغائب ٢٠٤
● المستوى الرابع: أثر الإمامة في الهداية الخفية ٢٠٤
* بشارة نبوية ٢٠٥

المبحث التاسع: حتمية الإمامة والغيبة ٢٠٧
* تمهيد ٢٠٩
* أدلة حتمية الإمامة ولو في صورة الغيبة ٢١٠
  - الدليل القرآني ٢١٠
  - الدليل الروائي ٢١١
  - الدليل العقلي ٢١٣
    - الاحتمال الأول ٢١٤
    - الاحتمال الثاني ٢١٤
    - الاحتمال الثالث ٢١٤
    - الاحتمال الرابع ٢١٤
  - الدليل العرفاني ٢١٥
* تنوع أسلوب الإمامة ٢١٧
* الجواب في نقاط: ٢١٨
  - النقطة الأولى: الأئمة عليهم السلام تعدد ذوات لمسيرة واحدة ٢١٨
  - النقطة الثانية: الإمامة العلنية ووحي الدستور ٢١٩
  - النقطة الثالثة: الإمامة الظاهرة تبرر الانتقال للإمامة الغائبة ٢٢٠
* تساؤلات حول حكمة الغيبة ٢٢١
  - السؤال الأول: الظهور مع الحفظ الإعجازي ٢٢١
    - الجواب ٢٢٢
  - السؤال الثاني: الظهور مع التقية ٢٢٢
    - وجوابه من وجوه ٢٢٣
  - السؤال الثالث: الظهور لخصوص الشيعة ٢٢٤
    - الجواب في مستويات ٢٢٤

- المستوى الأول..... ٢٢٤
- المستوى الثاني ٢٢٤
- المستوى الثالث..... ٢٢٥
- المستوى الرابع..... ٢٢٥
- المستوى الخامس..... ٢٢٥

■ السؤال الرابع: سبب انقطاع الغيبة الصغرى ٢٢٦
● الجواب في أمور ٢٢٦
■ السؤال الخامس: الفقهاء وإشكالية طاعة غير المعصوم ٢٢٧
● الجواب من وجوه..... ٢٢٨

الفصل الثالث: المنجي في عصر الغيبة

المبحث الأول: إشكالية تعمير المنجي عليه السلام ٢٣٣
❋ تقديم وتمهيد ٢٣٥
❋ أولا: تدارس المعارف ودوام برهانية العقل ٢٣٦
❋ ثانيًا: المعارف على طبقات ٢٣٧
❋ ثالثًا: القرب من العناوين والبعد عن المعنونات ٢٣٧
❋ إيجابيات الفتنة العقائدية ٢٣٨
❋ سؤال البحث..... ٢٤٣
❋ كيف نثبت إمكانية طول عمر القائم عليه السلام؟..... ٢٤٣
■ النقطة الأولى: المشابهة بين الحجة عليه السلام والأنبياء عليهم السلام ٢٤٤
❋ استدلال أعلام الطائفة..... ٢٤٦
■ النقطة الثانية: كفاءة الأجساد ضد الموت طبيا ٢٥٠
■ النقطة الثالثة: كفاءة جسد المعصوم عليه السلام ٢٥١

المبحث الثاني: الإمامة الغائبة وإشكالية المشاهدة ٢٥٥
* إشكالية متكررة ٢٥٧
* الغيبة وضع اضطراري ٢٥٨
* جواب بعض الأسئلة ٢٦٠
■ السؤال الأول: الغيبة والتكليف ٢٦٠
● النحو الأول: التواصل بالواسطة ٢٦٠
● النحو الثاني: التواصل المباشر ٢٦١
* الأقوال في هذه المسألة ٢٦١
■ القول الأول: إنكار إمكانية المشاهدات ٢٦١
■ القول الثاني: إمكان بل وقوع التشرفات ٢٦٢
■ القول الثالث: الغيبة خفاء عنواني ٢٦٤
* أهداف المشاهدات والتشرفات ٢٦٥
■ القسم الأول: هدف عام ٢٦٥
■ القسم الثاني: هدف خاص ٢٦٦
* السؤال الثاني: أثره عليه السلام في الغيبة والتقية ٢٦٨
■ الجواب: تعدد سنخ الدور ٢٦٨

المبحث الثالث: حكم وأسرار الغيبة ٢٦٩
* توطئة ٢٧١
* السؤال الأول: علل الغيبة ٢٧٢
■ السبب الأول: أمني واقعي ٢٧٣
■ السبب الثاني: منع كل أشكال البيعة ٢٧٤
■ السبب الثالث: التمحيص والتمييز ٢٧٦
■ السبب الرابع: سبب إلهي غيبي ٢٧٧

* السؤال الثاني: حول إشكالية سلبيات الغيبة ٢٧٨
■ الجواب: خصائص المؤمنين في عصر الغيبة ٢٧٨

المبحث الرابع: جدليات في العقيدة المهدوية (١) ٢٨١
* تمهيد ٢٨٣
* البعد الأول: سعة متطلبات جهاد التبيين ٢٨٤
* البعد الثاني: النصرة العملية ٢٨٥
* البعد الثالث: تحصيل تمام اعتقاداتهم ٢٨٦
* البعد الرابع: مقامات ما بعد الظهور ٢٨٧
* الذود عن العقيدة المهدوية ٢٨٨
* إشكالية الشرور والمهدوية ٢٨٩
■ الجواب ٢٩٠
● الأولى: الشيعة أهل سلم ٢٩٠
● الثانية: التفسير العقائدي المنكوس ٢٩١
● الثالثة: عقيدة الانتظار مشعة للبركات ٢٩٢

المبحث الخامس: جدليات في العقيدة المهدوية (٢) ٢٩٣
* تمهيد ٢٩٥
* دعاء الندبة والقرآن ٢٩٧
* تساؤل مهم ٢٩٩
■ دعاء الندبة وحرارة الوعي ٣٠٠
* المعنى الصحيح للترقب والانتظار ٣٠١
* حل الجدلية ٣٠١

■ النقطة الأولى: التقية حكم ثانوي ٣٠٢
■ النقطة الثانية: التقية برنامج أمني ٣٠٢
■ الثالثة: وجوب رفع موضوع الأحكام الثانوية ٣٠٢
* ابن قبة وتقية القلوب ٣٠٤
* درس كربلائي للمنتظرين ٣٠٥
■ الأمر الأول: القيام بالواجب ولو منفردا ٣٠٦
■ الأمر الثاني: ذروة النشاط في أداء المسؤولية ٣٠٦
* ثواب النصرة الآن أعظم ٣٠٨

المبحث السادس: الغيبة سياسة تدبير الإصلاح ٣١١
* رؤيا الصدوق رحمه الله ٣١٣
* استدلال أبدعه الإمام الصادق عليه السلام ٣١٤
* غيبة المعصومين عليهم السلام لا تمانع تأثيرهم ٣١٦
* الفرق بين الغيبة والهجرة ٣١٨
* موجبات العطاء الخفي ٣١٩
■ الأول: الفيض الدفعي ٣٢٠
■ الثاني: الفيض التدريجي لقصور في الجهتين ٣٢٠
■ الثالث: التلقي التدريجي لقصور المستفيض ٣٢١
* استعصاء فئات من الأمة على الإصلاح المستقبلي ٣٢١

المبحث السابع: نشاطات الإمام الغائب عليه السلام ٣٢٥
* السؤال الأول: الإمامة الصامتة ٣٢٧
■ مراتب الفساد ٣٢٨

* تأثير الحجج عليهم السلام في الغيبة ٣٣٠
■ أداور العبد الصالح عليه السلام ٣٣١
● الدور الأول: دفع الظلم المعيشي ٣٣٢
● الدور الثاني: حفظ عقائد الأجيال ٣٣٢
● الدور الثالث: تأمين الطبقات المحرومة ٣٣٣
* المنكر للحجة عليه السلام جاهل بحقائق القرآن ٣٣٤
■ حكمة طول عمر الخضر عليه السلام ٣٣٦
■ يوم الظهور فتنة عظيمة ٣٣٧
* السؤال الثاني: الاعتقاد بدوره عليه السلام وادعاء البابية ٣٣٨
■ التوازن هو الجادة الوسطى ٣٣٩
* سؤال حول عدم حجية نقولات المتشرف ٣٤٠
■ الجواب ٣٤١

المبحث الثامن: الإمامة إدارة كفؤة للمشروع المستقبلي ٣٤٣
* إشكالية ٣٤٥
■ تصور الماديين ٣٤٦
■ تصور الإلهيين ٣٤٧
● المستوى الأول ٣٤٧
● المستوى الثاني ٣٤٩
* مميزات الإمامة بالمعنى الشيعي ٣٥٠
■ الميزة الأولى: الإمامة تفعيل عادل للطاقات ٣٥٠
● مستويات العدالة في عصر الظهور ٣٥٢
■ الميزة الثانية: سعة إحاطة الإمام بالعلم ٣٥٤

- مثال (١) ٣٥٥
- أوصاف وخصائص الموعود عليه السلام ٣٥٦
- مثال (٢) ٣٥٨

الفصل الرابع: الانتظار منظومة مسؤليات

المبحث الأول: لمحات تعريفية بعصر الغيبة ٣٦٣

* مقدمة ٣٦٦
* امتحان العقل أعظم الامتحانات ٣٦٧
* امتحان العقل في الأمم السابقة أصعب وأطول ٣٦٩
* لايعذر المسلمون في إنكار الإمام الغائب عليه السلام ٣٧١
* فوائد مهدوية من كلام الألباني ٣٧٢
* خيرية عصر الغيبة ٣٧٦
* معنى امتلاء الأرض بالجور أو بالعدل ٣٧٧
  - مساهمة المؤمنين والظالمين في استمرار الغيبة ٣٧٩
* توصيات معرفية لعصر الغيبة ٣٨٠
  - التوصية الأولى: تعهد المعارف ٣٨٠
  - التوصية الثانية: مراقبات بركات الإمام عليه السلام ٣٨٢

المبحث الثاني: الدفاع عن عقيدة المهدي عجل الله فرجه الشريف ٣٨٥

* المقدمة ٣٨٧
* أساليب الدفاع عن المهدوية ٣٩٠
  - النحو الثقافي ٣٩١

■ النحو العملي..... ٣٩٢
■ النحو الروحي..... ٣٩٣
■ وجوه اضطرار الحجة عليه السلام..... ٣٩٤
* أسرار دعائه عليه السلام لنفسه ٣٩٦
* الإمام وجه الله ٣٩٩

المبحث الثالث: مناشئ الانتظار السلبي ٤٠١
* تمهيد ٤٠٣
* المفاهيم السلبية للانتظار ٤٠٤
* مناشئ الانتظار السلبي ٤٠٥
■ الأول: منشأ نفسي ٤٠٦
■ الثاني: منشأ فكري مادي ٤٠٨
■ الثالث: منشأ تفسيري قاصر..... ٤١٠
● الدليل الأول: صريح فرائض القرآن ٤١٠
● الدليل الثاني: رايات الضلال في الروايات..... ٤١١
● الدليل الثالث: قرائن الروايات ٤١٢
■ الرابع: منشأ عقائدي فاسد..... ٤١٣
● وجوه خطأ المنشأ الاعتقادي..... ٤١٣

المبحث الرابع: آفاق انتظار الفرج ٤١٥
* الأول: التعمق في المعرفة ٤١٧
* الثاني: الانتظار اقتداء بأهل البيت عليهم السلام..... ٤٢٠
* الثالث: الانتظار جهاد أكبر ٤٢٢

* أعظم أنماط انتظار الفرج ٤٢٣
■ الشهيد الصدر واستنزال الفعليات إلى محسوسات ٤٢٤
* الانتظار إصلاح وإعداد ٤٢٧
* الإمام عليه السلام هو المنتظِر ٤٢٩
■ عصر الغيبة وصناعة الصالحين ٤٣١
■ الفطرة والعقل اللا واعي ٤٣٢
■ الفطرة داعية دينية ٤٣٣

المبحث الخامس: الانتظار الواعي وتكاليف الغيبة ٤٣٥
* المهدوية والقرآن ٤٣٧
* الاجتهاد وفق الضوابط ٤٣٨
* انتظار الفرج في القرآن ٤٤٠
■ الأولى: الغيبة امتحان ٤٤١
■ ثانيا: الغيبة رافد تكامل للولي ٤٤٢
■ ثالثا: التفسير السلبي لغيبات الأنبياء عليهم السلام ٤٤٣
● تفسير الطوسي للانتظار الإيجابي ٤٤٤
* شروط نجاح الانتظار ٤٤٥
■ الأول: شرط نفسي روحي ٤٤٥
■ الثاني: شرط معرفي ٤٤٥
* الانتظار فضيلة كبرى ٤٤٦
* توصيات أهل المعرفة في عصر الانتظار ٤٤٧
* تكاليف عصر الغيبة ٤٤٨
■ التكليف الأول ٤٤٨

■ التكليف الثاني ٤٥٠
■ التكليف الثالث..... ٤٥١
■ التكليف الرابع ٤٥١
■ التكليف الخامس ٤٥٢
■ التكليف السادس..... ٤٥٢
■ التكليف السابع..... ٤٥٢
■ التكليف الثامن ٤٥٢

الفصل الخامس: هوية عصر الظهور

المبحث الأول: الإسلام محمدي الوجود مهدوي الظهور ٤٥٧
* المسألة الأولى: شهادة القرآن بتحريف كتب الأنبياء عليهم السلام ٤٥٩
* المسألة الثانية: الظهور الكامل التام بظهور الموعود عليه السلام ٤٦٢
* مذاهب تفسيرية ومناقشتها..... ٤٦٣
■ مذهب الشافعي ٤٦٣
■ مذهب المفسر الشعراوي..... ٤٦٤
* مذهب الشيعة وبعض العامة..... ٤٦٦
* ظهور الدين بظهور خزائن القرآن..... ٤٧٠

المبحث الثاني: هيمنة الموعود على عالم الوجود ٤٧٣
* توطئة ٤٧٥
* ظواهر الظهور تنشدها البشرية جمعاء..... ٤٧٧
* وسائل التغيير في الدولة الموعودة ٤٧٨

- التصور الأول: فساد التقنيات الحديثة ٤٧٩
- التصور الثاني: لسنا مكلفين بالجواب ٤٧٩
- التصور الثالث: هيمنة القائم عليه السلام على عالم التكوين ٤٨٠

* اثباتات الهيمنة الوجودية ٤٨١
* المدد الغيبي للحجة عليه السلام ٤٨٣

المبحث الثالث: من طور الظهور إلى ملك ما بعد الظهور ٤٨٥

* تمهيد ٤٨٧
* إشكالية قصر حكمه ومتطلبات العدالة ٤٨٩
  - الإشكال بصياغة أخرى..... ٤٩٠
* ملك الشخص أم ملك الدولة ٤٩١
  - التصور الأول: توقف السيد الحائري ٤٩١
  - التصور الثاني: للشيخ الجوادي حفظه الله ٤٩٢
    - الوجه الأول ٤٩٣
    - الوجه الثاني..... ٤٩٤
    - الوجه الثالث ٤٩٤
    - الوجه الرابع ٤٩٥
  - التصور الثالث: للشهيد محمد صادق الصدر ٤٩٥
    - أولا: إشكالية القيادة المتنازلة ٤٩٦
    - ثانيا: تعاظم الاختلافات ٤٩٦
    - ثالثا: عدم دلالة الروايات ٤٩٧
  - التصور الرابع: رجعة الائمة عليهم السلام ٤٩٩

المبحث الرابع: المنجي عليه السلام ومشروع التجديد ٥٠٣
* تمهيد ٥٠٥
* بيان اشكالية: العلاقة بين سيرتي النبي صلى الله عليه وآله والقائم عليه السلام ٥٠٧
■ معالجة الاشكالية ٥٠٨
* تجديد الدين أم استحداث دين جديد ٥١٠
■ المستوى الأول: رفع التحريفات والتفسيرات الباطلة ٥١٢
■ المستوى الثاني: إظهار بطون القرآن ٥١٤
■ المستوى الثالث: تفعيل الأحكام الواقعية ٥١٥
■ المستوى الرابع: حل الأزمات المستجدات ٥١٦
■ المستوى الخامس: العلاج الأولي ٥١٧
■ المستوى السادس: خطاب عام لكل البشر ٥١٨

المبحث الخامس: ظواهر عصر الظهور ٥٢١
* تمهيد ٥٢٣
* الظهور حضارة أم بداوة ٥٢٤
■ الظهور وقيام المدينة الفاضلة ٥٢٥
* ظواهر الدولة الموعودة ٥٢٦
■ الظاهرة الأولى: ظاهرة شيوع العلوم ٥٢٦
● علم المهدي عليه السلام ٥٢٧
● مقدار ما يبثه الموعود عليه السلام من العلوم ٥٢٧
● علم الناس في زمانه ٥٢٧
■ الظاهرة الثانية: نماء الحالة الاقتصادية ٥٢٩
● جُود الأرض والسماء ٥٣٠

- تفشي الغنى بين الناس ٥٣١
- الظاهرة الثالثة: شيوع الأمن والأمان ٥٣٢
- الظاهرة الرابعة: ذهاب الأسقام والعلل ٥٣٢
- الظاهرة الخامسة: القوة البدنية والنفسية ٥٣٣
- الظاهرة السادسة: التكامل الروحي ٥٣٣
* وسائل التكامل في عصر الظهور ٥٣٤
- الطريق الأول: الجذبة المعنوية ٥٣٤
- الطريق الثاني: الاستكمال ٥٣٦
* عوالم تجليات القيامة ٥٣٨
- قتل إبليس مثالا ٥٣٨

المبحث السادس: رواد التغيير في آخر الزمان ٥٤١
* المقدمة ٥٤٣
* البحث الأول: البحث التفسيري ٥٤٥
- مناقشة الفخر الرازي ٥٤٨
* نقد الأنظار التفسيرية ٥٤٩
- النقطة الأولى: الردة اصطلاحية وتنزيلية ٥٤٩
  - أولاً: معنى الردة ٥٥٠
  - ثانياً: الرِدة على قسمين ٥٥٠
  - ثالثاً: الردة التنزيلية ٥٥٠
- النقطة الثانية: الردة بعد عصر النبي ﷺ ٥٥٢
- النقطة الثالثة: نظر السيد الطباطبائي ٥٥٣
* لامسامحات في ألفاظ القرآن ٥٥٤

* البحث الثاني: مناقشة التطبيقات على ضوء ما تقدم ٥٥٥
* البحث الثالث: صفات رواد الظهور على ضوء القرآن ٥٥٨
  - الصفة الأولى: يحبهم الله ويحبونه ٥٥٨
    - ولاية النفس أم ولاية الله ٥٥٩
  - الصفة الثانية والثالثة: أذلة وأعزة ٥٦١
  - الصفة الرابعة: الجهاد في سبيل الله ٥٦٢
  - الصفة الخامسة: لا تأخذهم لومة لائم ٥٦٣

المبحث السابع: عصر عولمة العدالة ٥٦٥
* تمهيد ٥٦٧
* سؤال مهم حول المهدي عليه السلام في القرآن ٥٦٨
  - أقسام الخطاب في القرآن ٥٦٩
* سؤال البحث ٥٧٠
* ظاهرة شيوع العدالة ٥٧٠
  - الخصوصية الأولى: عولمة العدالة ٥٧٢
  - الخصوصية الثانية: تحقيق العدالة المطلقة ٥٧٤
  - الفرق بين القسط والعدل ٥٧٤
  - الحجة عليه السلام والمجتمع المعصوم ٥٧٥
* مميزات دولة العدالة المهدوية ٥٧٦
  - الميزة الأولى: الدوام والبقاء ٥٧٦
  - الميزة الثانية: فناء الأحزاب ٥٨٠

المبحث الثامن: الشيعة وترقب العوالم الآتية ٥٨٣
* المقدمة ٥٨٥
* الفكرة الأولى: اعتقادات ثلاثة بهوية واحد ٥٨٦
* الفكرة الثانية: المهدوية في المذهبين الإسلاميين ٥٩٠
  - أولا: المشتركات ٥٩٠
  - ثانياً: الاختلافات ٥٩٠
  - نتائج أفرزتها الاختلافات في المهدوية ٥٩٢
* الفكرة الثالثة: فوائد الظهور والرجعة ٥٩٤
* أنواع البيعة وأنحائها ٥٩٦
  - البيعة العنوانية (من وراء حجاب)..... ٥٩٦
  - البيعة الشخصية (الحضورية)..... ٥٩٦
* تكامل الأنبياء عليهم السلام بالبيعة الشخصية ٥٩٨

المبحث التاسع: المهدوية والوراثة في الرجعة..... ٦٠١
* تجليات المنة الإلهية ٦٠٣
* أنظار تفسيرية ثلاثة ٦٠٥
  - النظر الأول: حادثة تأريخية معروفة الشخوص..... ٦٠٥
  - النظر الثاني: عالم الظهور ٦٠٧
  - النظر الثالث: عالم الرجعة ٦٠٩
  - الفائدة الأولى: للدنيا مرحلتان..... ٦١٠
  - الفائدة الثانية: عموم الآية ٦١٢
  - الفائدة الثالثة: منتان إلاهيتان..... ٦١٢
* كثرة اللهج بالرجعة يكامل المنظومة ٦١٤

المبحث العاشر: عالم انتصار المشروع الحسيني ٦١٥
* سر دوام الارتباط بالحسين عليه السلام ٦١٧
* المشروع الراهن والمستقبلي..... ٦١٨
* الانتصار الشخصي..... ٦١٩
* مشروع الإمام المنصور ٦٢١
  - القول المشهور: نصر عالم الظهور ٦٢٢
  - القول الثاني: نصر عالم الرجعة الحسينية ٦٢٢
* بين المشروع الحسيني ومشروع المنجي ٦٢٥
  - أولًا: لكل إمام شرائط رجعة..... ٦٢٥
  - ثانيًا: الرجعة غاية الظهور ٦٢٦
  - ثالثًا: المآتم إعداد للمشروع المستقبلي..... ٦٢٧

يضم هذا الكتاب مجموعة من المباحث الكلامية المهمة في مسائل الإمامة والغيبة، محاولةً منّا توضيح جهات معرفية وحلحلة شبهات عصرية تتعلق بدولة الموعود عليه السلام من زمن الغيبة وإلى أوان الظهور وما بعد الظهور.

ومن طبيعة هذه البحوث، أنه كلما تخيل الباحث إحاطته بمسائلها واستيعابه لفروعها استبان واستيقن أنه لا يزال على شواطئ بحور البحث وفي أول خطواته.

مؤسسة بحر العلوم للنشر والتوزيع
+973 33 63 63 01 bahrainghadeeralmaarif@gmail.com
مملكة البحرين - مدينة سلماباد +973 33 63 63 01

مخطوطة وتصميم الغلاف:
@bayan_almarhon